سورة الفرقان

سبع وسبعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ ﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة، ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدمًا على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان: أحدهما: تزايد خيره وتكاثر، وهو المراد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] والثاني: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات. وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريًا أو كسبيًا أو تصورًا أو تصديقًا وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال. وأما في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله. وقال آخرون: أصل الكلمة تدل على البقاء، وهو مأخوذ من بروك البعير، ومن بروك الطير على الماء، وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى باقٍ في ذاته أزلاً وأبدًا ممتنع التغير وباق في صفاته ممتنع التبدل، ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: كلمة (الَّذِي) موضوعة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو

الذي نزَّل الفرقان فكيف حسن هاهنا لفظ (الَّذِي)؟ وجوابه: أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزًا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم.

المسألة الثالثة: لا نزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرَّق به بين الحق والباطل في نبوة محمد ﷺ وبين الحلال والحرام، أو لأنه فرق في النزول كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وهذا التأويل أقرب؛ لأنه قال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولفظة (نزل) تدل على التفريق، وأما لفظة (أنزل) فتدل على الجمع، ولذلك قال في سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ . . . ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال أولاً: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرة الخير والبركة، ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات، لكن القرآن ليس إلا منبعًا للعلوم والمعارف والحكم، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيرًا وبركة.

المسألة الرابعة: لا نزاع أن المراد من العبد هاهنا محمد ﷺ، وعن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله، وأمته كما قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فالمراد ليكون هذا العبد نذيرًا للعالمين، وقول من قال: إنه راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ [الإسراء: ٩] فبعيد وذلك لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف، وإذا وصف به القرآن فهو مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب، ثم قالوا: هذه الآية تدل على أحكام: الأول: أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعًا، ويبطل بهذا قول من قال: إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض. الثاني: أن لفظ ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل. الثالث: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه سبحانه أراد الإيمان وفعل الطاعات من الكل؛ لأنه إنما بعثه إلى الكل ليكون نذيرًا للكل، وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية. الرابع: لقائل أن يقول: إن قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ كما دل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببًا لكثرة الخير والمنافع، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع؟ جوابه: أن هذا الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر، لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرًا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة،

وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين، ولم يذكر ألبتة شيئًا من منافع الدنيا.

ثم إنه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء أولها: قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه؛ لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب. وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء. وثانيها: قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فبيَّن سبحانه أنه هو المعبود أبدًا، ولا يصح أن يكون غيره معبودًا ووارثًا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ولقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كالرد على النصارى. وثالثها: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه. وفيه الرد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم، والقائلين بعبادة الأوثان. ورابعها: قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ **وفيه سؤالات:**

الأول: هل في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد؟ والجواب: نعم، من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد. والثاني: وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلاً قال: هاهنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد، ومع ذلك يقولون: إنهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم. قال القاضي: الآية لا تدل عليه لوجوه: أحدها: أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقًا في قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وثانيها: أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد. وثالثها: أنه سبحانه تمدح بأنه قدَّره تقديرًا ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره، فثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه، فكيف ولا دلالة فيها ألبتة؛ لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا ما يظهر فيه التقدير، وذلك إنما يظهر في الأجسام لا في الأعراض والجواب:

أما قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهما معارضان بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وبقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وأما قوله: لا يجوز التمدح بخلق الفساد، قلنا: لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظرًا إلى تقادير القدرة وإلى أن صفة الإيجاد من العدم والإعدام من الوجود ليست إلا له؟ وأما قوله: الخلق لا يتناول إلا الأجسام، فنقول: لو كان كذلك لكان قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح في العقل إضافته إليها.

السؤال الثاني: في الخلق معنى التقدير (فَقَوْلُهُ): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (مَعْنَاهُ) وقدر كل شيء فقدره تقديرًا؟ والجواب: المعنى (أنه) أحدث كل شيء إحداثًا يراعي فيه التقدير والتسوية، فقدره تقديرًا وهيأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر (الْمُسْتَوِي) الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة (بِهِ فِي بَابِ) الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ومصلحة ما، مطابقًا لما قدر (له) غير (مُتَخَلِّفٍ) عنه.

السؤال الثالث: هل في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ دلالة على مذهبكم؟ الجواب: نعم، وذلك من وجوه: أحدها: أن التقدير في حقنا يرجع إلى الظن والحسبان، أما في حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والإخبار عنه، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة، فلما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذبًا، وذلك محال والمفضي إلى المحال محال فإذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به، فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه. وثانيها: أنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى، وحينئذ يبطل قول المعتزلة، وإن لم يجب فإن استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح، فالكلام يعود في ذلك المرجح، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود. وثالثها: أن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده، لكن الإنسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك، فإن قيل: إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل، قلنا: إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول، ووقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق، بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب، وذلك محال؛ لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراده، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ، وهو المراد من قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبيَّن نقصانها من وجوه: أحدها: أنها ليست خالقة للأشياء، والإله يجب أن يكون قادرًا على الخلق والإيجاد. وثانيها: أنها مخلوقة والمخلوق محتاج، والإله يجب أن

يكون غنيًا. وثالثها: أنها لا تملك لأنفسها ضرًا ولا نفعًا، ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضًا نفعًا، ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته. ورابعها: أنها لا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، أي لا تقدر على الإحياء والإماتة في زمان التكليف وثانيًا في زمان المجازاة، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهًا؟ وكيف يحسن عبادته مع أن حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة، وهاهنا سؤالات:

الأول: قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ هل يختص بعبدة الأوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة؟ والجواب: قال القاضي: بعيد أن يدخل فيه النصارى؛ لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع، فالأقرب أن المراد به عباد الأصنام، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لمعبودهم كثرة، ولقائل أن يقول: قوله ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ صيغة جمع وقوله ﴿ءَالِهَةً﴾ جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد، فلم يكن كون معبود النصارى واحدًا مانعًا من دخوله تحت هذا اللفظ.

السؤال الثاني: احتج بعض أصحابنا بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال: إن الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئًا، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد، فلو كان العبد خالقًا لكان معبودًا إلهًا، أجاب الكعبي عنه: بأنا لا نطلق اسم الخالق إلا على الله تعالى. وقال بعض أصحابنا في الخلق: إنه الإحداث لا بعلاج وفكر وتعب، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى، ثم قال: وقد قال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] في وصف الأصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد؟ فإذا قالوا: لا، قيل: فكذلك ما ذكرتم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] هذا كله كلام الكعبي. والجواب: قوله: لا يطلق اسم الخالق على العبد، قلنا: بل يجب ذلك؛ لأن الخلق في اللغة هو التقدير، والتقدير يرجع إلى الظن والحسبان، فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازًا في الله تعالى، فكيف يمكنكم منع إطلاق لفظ الخالق على العبد؟ أما قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] فالعيب إنما وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته. وأما قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقد تقدم الكلام عليه.

واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العيب لا يحصل إلا بمجموع أمرين: أحدهما: أنهم ليسوا بخالقين، والثاني: أنهم مخلوقون، والعبد وإن كان خالقًا إلا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون إلهًا معبودًا.

السؤال الثالث: هل تدل هذه الآية على البعث؟ الجواب: نعم، لأنه تعالى ذكر النشور ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للإلهية.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ ﴾

اعلم أنه سبحانه تكلم أولاً في التوحيد، وثانيًا في الرد على عبدة الأوثان، وثالثًا في هذه الآية تكلم في مسألة النبوة، وحكى سبحانه شبههم في إنكار نبوة محمد ﷺ. الشبهة الأولى: قولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] واعلم أنه يحتمل أن يريدوا به أنه كذب في نفسه، ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب في إضافته إلى الله تعالى. **ثم هاهنا بحثان:**

الأول: قال أبو مسلم: الافتراء افتعال من فريت، وقد يقال في تقدير الأديم: فريت الأديم، فإذا أريد قطع الإفساد قيل: أفريت وافتريت وخلقت واختلقت، ويقال فيمن شتم امرءًا بما ليس فيه: افترى عليه.

البحث الثاني: قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث فهو الذي قال هذا القول ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعني عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار (غُلَامُ عَامِرٍ) بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرأون التوراة ويحدِّثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال.

واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ **وفيه أبحاث:**

الأول: أن هذا القدر إنما يكفي جوابًا عن الشبهة المذكورة؛ لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية في الفصاحة، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كل غاية، حتى أخرجهم ذلك إلى ما وصفوه به في هذه الآيات، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا، ولكان ذلك أقرب إلى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها، ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا بغيرهم؛ لأن محمدًا ﷺ كأولئك المنكرين في معرفة اللغة وفي المكنة من الاستعانة، فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز، ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات في القرآن

وظهر بسببها سقوط هذا السؤال، ظهر أن إعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الأدلة الواضحة لا يكون إلا للتمادي في الجهل والعناد، فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

البحث الثاني: قال الكسائي: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: أتوا ظلمًا وكذبًا وهو كقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩] فانتصب بوقوع المجيء عليه، وقال الزجاج: انتصب بنزع الخافض، أي: جاءوا بالظلم والزور.

البحث الثالث: أن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه، وقال أبو مسلم: الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه، والزور كذبهم عليهم.

الشبهة الثانية لهم: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: الأساطير: ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار، جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها محمد من أهل الكتاب يعني عامرًا، ويسارًا، وجبرًا، ومعنى اكتتب هاهنا أمر أن يكتب له كما يقال: احتجم وافتصد إذا أمر بذلك ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أميٌّ فهي تلقى عليه من كِتَابه ليحفظها؛ لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب.

أما قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قال الضحاك: ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة.

البحث الثاني: قال الحسن: قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ كلام الله ذكره جوابًا عن قولهم كأنه تعالى قال: إن هذه الآيات تملى عليه بالوحي حالاً بعد حال، فكيف ينسب إلى أنه أساطير الأولين، وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه: أحدها: شدة تعلق هذا الكلام بما قبله، فكأنهم قالوا: اكتتب أساطير الأولين فهي تملى عليه. وثانيها: أن هذا هو المراد بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وثالثها: أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ قال صاحب (الكشاف) وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: في بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابًا عن تلك الشبهة؟ وتقريره ما قدمنا أنه

عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضًا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بد وأن يكون عالمًا بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه: أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات. وثانيها: أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات. وثالثها: أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى إلا من العالم على ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ورابعها: اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات. وخامسها: اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات، فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام بكل المعلومات لا جرم اكتفى في جواب شبههم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بالسر، فمنهم من قال: المعنى أن العالم بكل سر في السموات والأرض هو الذي يمكنه إنزال مثل هذا الكتاب، وقال أبو مسلم: المعنى أنه أنزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وقال آخرون: المعنى أنه يعلم كل سر خفي في السموات والأرض، ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ وبراءته مما تتهمونه به، وهو سبحانه مجازيكم ومجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

البحث الثالث: إنما ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع لوجهين: الأول: قال أبو مسلم المعنى أنه إنما أنزله لأجل الإنذار فوجب أن يكون غفورًا رحيمًا غير مستعجل في العقوبة. الثاني: أنه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًّا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورًا رحيمًا يمهل ولا يعجّل.

الشبهة الثالثة: وهي في نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة إحداها: قولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ وثانيتها: قولهم: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يعني أنه لما كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الأمور. وثالثتها: قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه. ورابعتها: قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى التردد لطلب المعاش. وخامستها: قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي (نأكل منها) بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى إن لم يكن لك كنز فلا أقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه. وسادستها: قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وقد تقدمت هذه القصة في آخر سورة بني إسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه: أحدها: قوله: ﴿ٱنظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وفيه أبحاث:

الأول: أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابًا عن تلك الشبهة؟ وبيانه أن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الأشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة فلا يكون شيء منها قادحًا في النبوة، فكأنه تعالى قال: انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلاً ألبتة، إذ الطعن عليه إنما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول. وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق، وهذا إنما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مستوي الداعي إلى الحق والباطل، وإما أن يكون داعيته إلى أحدهما أرجح من داعيته إلى الثاني، فإن كان الأول فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل وإن كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعًا، فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه استحال منه قبول الحق، وما كان محالاً لم يكن عليه قدرة، فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة فقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الله ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطي الرسول كل ما ذكروه، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب الصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم، ويسد عليه أبواب الدنيا، وفي حق الآخر بالعكس وما ذاك إلا أنه فعال لما يريد، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة؛ لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة، وقال في رواية عكرمة: (خيرا من ذلك) أي: من المشي في الأسواق وابتغاء المعاش.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِن شَاءَ﴾ معناه: أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك؛ لأن الشك لا يجوز على الله تعالى، وقال قوم: ﴿إِن﴾ هاهنا بمعنى إذا، أي قد جعلنا لك في الآخرة

جنات وبنينا لك قصورًا وإنما أدخل إن تنبيهًا للعباد على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته، وأنه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لأحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة.

المسألة الثالثة: القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنًا ومتنزهًا، ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة. وقال مجاهد: إن شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصورًا في الدنيا.

المسألة الرابعة: اختلف القراء في قوله (وَيَجْعَلْ) فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون، فمن جزم فلأن المعنى: إن شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورًا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى: سيجعل لك قصورًا، هذا قول الزجاج: قال الواحدي: وبين القراءتين فرق في المعنى، فمن جزم فالمعنى إن شاء يجعل لك قصورًا في الدنيا ولا يحسن الوقوف على الأنهار، ومن رفع حسن له الوقوف على الأنهار، واستأنف أي ويجعل لك قصورًا في الآخرة. وفي مصحف أبيّ وابن مسعود: (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ يَجْعَلُ).

المسألة الخامسة: عن طاوس عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام: هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم على رسول الله ﷺ وقال: «**إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ يُعْطِيَكَ مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُعْطِهَا أَحَدًا قَبْلَكَ وَلاَ يُعْطِيهِ أَحَدًا بَعْدَكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَكَ مِمَّا ادَّخَرَ لَكَ شَيْئًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَلْ يَجْمَعُهَا جَمِيعًا لِي فِي الآخِرَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ الآيَةَ**»[1]، وعن ابن عباس قال عليه السلام: «**عَرَضَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ: بَلْ شَبْعَةٌ وَثَلاَثُ جَوْعَاتٍ وَذَلِكَ أَكْثَرُ لِذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي لِرَبِّي**»[2] وفي رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام: «**أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ ثَلاَثًا، فَأَحْمَدُكَ إِذَا شَبِعْتُ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جُعْتُ**»[3] وعن الضحاك: لَمَّا عَيَّرَ المشركون رسول اللَّه ﷺ بالفاقة حزن رسول الله ﷺ لذلك فنزلَ جبريلُ عليهِ السلام معزيا له، وقال: إن اللّه يقرؤك السَّلاَمَ وَيقولُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠] الآية، قال: فبينما جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذَلِكَ، ثم قال: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ، هَذَا رِضْوَانُ خَازِنُ

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٥)، حديث رقم (٢٣٤٧)، وقال: قال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن فضالة بن عبيد القاسم هذا هو ابن عبد الرحمن ويكنى أبا عبد الرحمن ويقال أيضًا: يكنى أبا عبد الملك وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن معاوية وهو شامي وعلي بن يزيد ضعيف الحديث ويكنى أبا عبد الملك، قال الشيخ الألباني: ضعيف، أحمد في (مسنده) (٥/ ٢٥٤)، حديث رقم (٢٢٢٤٤)، والطبراني في (الكبير) (٨/ ٢٠٧)، حديث رقم (٧٨٣٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٦٧)، وأبو الشيخ في (أخلاق النبي ﷺ) (٢/ ٤٠١)، حديث رقم (٧٨٩)، جميعًا من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة... به.

(٣) انظر سابقه.

الْجَنَّةِ قَدْ أَتَاكَ بِالرِّضَا مِنْ رَبِّكَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا وَمَعَهُ سَفَطٌ مِنْ نُورٍ يَتَلأْلأُ ثم قال: هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا فَاقْبِضْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَكَ اللَّهُ مِمَّا أَعَدَّ لَكَ فِي الآخِرَةِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعْ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، «بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا» قال: فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا[(١)].

أما قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال: ليس ما تعلقوا به شبهة عليك في نفس المسألة، بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالاً للاستعداد لها، ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر، فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل، ثم قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو مسلم: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: جعلناها عتيدًا ومعدة لهم، والسعير: النار الشديدة الاستعار، وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وعلى أن النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن فعل وقع في الماضي، فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائي: يحتمل وأعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: سنعدها لهم كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٦/ ٢١١)، حديث رقم (٦٢١٤)، قال: حدثنا محمد بن علي الصائغ. قال: أخبرنا سعيد بن منصور... به، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٢٧٠/ ٢٧١)، حديث رقم (٦٨٩)، قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم... به، والمصنف في (شعب الإيمان) (١/ ١٧٥)، حديث رقم (١٥٥) من طريق محمد بن علي بن زيد الصائغ... به، وأبو الشيخ في (العظمة) (٢/ ٧١٤)، حديث رقم (٤١) من طريق مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور عن الحارث بن عبيد... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (٢/ ٨٦٩)، حديث رقم (٨٨٣) من طريق عبد الصمد قال: حدثنا الحارث بن عبيد الأيادي... به، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/ ٣١٦) من طريق سعيد بن منصور... به، وذكره ابن أبي حاتم في (العلل) (٢/ ٤٠٢)، حديث رقم (٢٧١٣)، فقال: سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه الحارث بن عبيد أبو قدامة عن أبي عمران الجوني عن أنس قال: بينما النبي ﷺ جالس مع أصحابه إذ جاء جبريل فنكت في ظهره ثم ذهب إلى شجرة فيها مثل وكري الطير... ثم ذكرت لهما الحديث بطوله فقالا: هذا خطأ إنما هو كما رواه حماد بن سلمة عن أبي عمران عن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب الداري قال: بينما النبي ﷺ... مرسل وذكر الحديث فقال: هذا الحديث هو الصحيح.

وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٧٥)، وقال: رواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله رجال الصحيح، وضعفه الألباني في (السلسلة الضعيفة) (٥٤٤٤)، وقال الذهبي في الكشاف: ليس بالقوي وضعفه ابن معين وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ.

﴿الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] واعلم أن هذا السؤال في نهاية السقوط؛ لأن المراد من السعير، إما نار الدنيا وإما نار الآخرة، فإن كان الأول فإما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا، والأول باطل؛ لأنه تعالى ما عذبهم بالنار في الدنيا، والتالي أيضًا باطل؛ لأنه لم يقل أحد من الأمة أنه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا، فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة، وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل، وعلى أن الحسن قال: السعير اسم من أسماء جهنم فقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ صريح في أنه تعالى أعد جهنم.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن السعيد من سعد في بطن أمه فقالوا: إن الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به أن صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبًا وانقلب بذلك علمه جهلاً، وهذا الانقلاب محال والمؤدي إلى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيًا، والشقي لا ينقلب سعيدًا، ثم إنه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات إحداها قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السعير مذكر ولكن جاء هاهنا مؤنثًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿رَأَتْهُم﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ وإنما جاء مؤنثًا على معنى النار.

المسألة الثانية: مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطًا في الحياة، فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها، وعند المعتزلة ذلك غير جائز، وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة إلا استقراء العادات، ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل، فهؤلاء قولهم متناقض، بل إنكار العادات لا يليق إلا بأصول الفلاسفة، فعلى هذا قال أصحابنا: قول الله تعالى في صفة النار: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ يجب إجراؤه على الظاهر؛ لأنه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار، أما المعتزلة فقد احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قالوا: معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم: دورهم تتراءى وتتناظر، وقال عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لاَ تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا»[1] أي: لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك، ويقال: دور فلان متناظرة، أي: متقابلة. وثانيها: أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم. وثالثها: قال الجبائي: إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار؛ لأن الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أراد أهلها.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (النهي عن قتل من اعتصم بالسجود) (٣/ ١١٤٤)، حديث رقم (٢٦٤٥)، والترمذي في كتاب (السير)، باب: (كراهية المقام في أظهر المشركين) (٤/ ١٣٢)، حديث رقم (١٦٠٤)، والبيهقي في (السنن) (٩/ ١٤٢)، جميعًا من طريق أبي معاوية... به.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعًا، فكيف قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؟ والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن التغيظ وإن لم يسمع فإنه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله: رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى ما يدل عليه، وكذلك يقال في المحبة فكذا هاهنا، والمعنى سمعوا لها صوتًا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج. وثانيها: المعنى: علموا لها تغيظًا وسمعوا لها زفيرًا وهذا قول قطرب، وهو كقول الشاعر: متقلدًا سيفًا ورمحًا. وثالثها: المراد تغيظ الخزنة.

المسألة الرابعة: قال عبيد بن عمير: (إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ وَتُرْعَدُ فَرَائِصُهُ حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي)(١).

الصفة الثانية للسعير: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حينما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عندما يلقون فيها، نعوذ بالله منه بما لا شيء أبلغ منه وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿ضَيِّقًا﴾ قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير.

المسألة الثانية: نقل في تفسير الضيق أمور، قال قتادة: ذكر لنا عبد الله بن عمر قال: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَضِيقُ عَلَى الْكَافِرِ كَضِيقِ الزُّجِّ عَلَى الرُّمْحِ»(٢) وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ»(٣) قال الكلبي: الأسفلون يرفعهم اللهيب، والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة، قال صاحب (الكشاف): الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث «إِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْقُصُورِ وَالْجِنَانِ كَذَا وَكَذَا» ولقد جمع الله على أهل النار أنواع (البلاء حيث ضم إلى العذاب الشديدِ الضيقَ.

المسألة الثالثة: قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨] إن أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد، يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد، ثم إنه سبحانه حكى عن أهل النار أنهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورًا، والثبور الهلاك، ودعاؤهم أن يقولوا: واثبوراه، أي: يقولوا: يا ثبور، هذا حينك وزمانك، وروى أنس

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ١٨٧) من طريق المنصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير... به، ابن أبي عاصم في (الزهد) (١/ ٣٦٨) من طريق الوليد بن شجاع بن قيس أخبرني شعيب بن الليث بن سعد وغيره عن الليث بن سعد عن عبيد الله بن أبي جعفر... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٠/ ٢٦١)، حديث رقم (١٥٨٠١)، وابن أبي الدنيا في (صفة النار) (١/ ٢١٥)، حديث رقم (٢٠٥)، كلاهما من طريق ابن المبارك أنبأنا محمد بن يسار عن قتادة قال: ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو... فذكره. وفي إسناده انقطاع بين قتادة وعبد الله بن عمر.

(٣) انظر سابقه.

مرفوعًا: (أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ فَيَضَعُهَا عَلَى جَانِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ ذُرِّيَّتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا ثُبُورَاهْ، وَيُنَادُوْنَ يَا ثُبُورَهُمْ حَتَّى يَرِدُوا النَّارَ)(١).

اما قوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ أي: يقال لهم ذلك، وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن ثَمَّ قول، ومعنى ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدًا، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعًا من الخفة، فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعًا من الخفة فيزجرون عن ذلك، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه، قال الكلبي نزل هذا كله في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة، فقال لرسوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ أن يلتمسوها بالتصديق والطاعة، فإن قيل: كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد، وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التفريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربًا وجيعًا، ويقول على سبيل التوبيخ: هذا أطيب أم ذاك؟

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ على أن الثواب غير واجب على الله تعالى؛ لأن من قال السلطان وعد فلانًا أن يعطيه كذا، فإنه يحمل ذلك على التفضيل، فأما لو كان ذلك الإعطاء واجبًا لا يقال: إنه وعده به، أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضًا على مذهبهم قالوا: لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللاً بصفة التقوى، والتفضيل غير

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ١٥٢)، حديث رقم (١٢٥٥٨)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٢٦٢)، حديث رقم (٣٥٩٠٧)، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٣٦٨)، حديث رقم (١٢٢٥)، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٠/ ٢٦٢)، حديث رقم (١٥٨٠٦)، جميعًا من طريق حماد قال: حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك... به، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبًا.

المسألة الثالثة: قال أبو مسلم: جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء، كالشكر والشكور قال الله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فإن قيل: الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ قلنا: الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال، كما يقال: الله الخالق البارىء، وما هنا من هذا الباب.

أما قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين: الأول: أن اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق، فأما الوعد بمحض التفضيل فإنه لا يسمى جزاء. والثاني: لو كان المراد من الجزاء الأمر الذي يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله: ﴿جَزَآءً﴾ وبين قوله: ﴿وَمَصِيرًا﴾ تفاوت فيصير ذلك تكرارًا من غير فائدة. قال أصحابنا رحمهم الله: لا نزاع في كونه (جزاء)، إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق، وليس في الآية ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين: الأول: أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقًا للثواب؛ لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر، والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع، والجمع بينهما محال، وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه، فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول: لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة، وذلك باطل بالإجماع؛ لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة، إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وإما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لأن الجنة حق المتقين لقوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبيَّن أنها إنما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقًا لهم، وإعطاء حق الإنسان لغيره لا يجوز، ولما بطلت الأقسام ثبت أن العفو غير جائز. أجاب أصحابنا: لم لا يجوز أن يقال: المتقون يرضون بإدخال الله أهل العفو في الجنة؟ فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها. الوجه الثاني: قالوا: المتقي في عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر، وإن اختلفنا في أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنًا أم لا، لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيًا، ثم قال في وصف الجنة: إنها كانت لهم جزاءً ومصيرًا وهذا للحصر، والمعنى أنها مصير للمتقين لا لغيرهم، وإذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة، قلنا: أقصى ما في الباب أن هذا العموم صريح في الوعيد فتخصه بآيات الوعد.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: إن الجنة ستصير للمتقين جزاءً ومصيرًا، لكنها بعد ما صارت

كذلك، فلم قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؟ جوابه من وجهين: الأول: أن ما وعد الله فهو في تحققه كأنه قد كان. والثاني: أنه كان مكتوبًا في اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ فهو نظير قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: أهل الدرجات النازلة إذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها، فإذا سألوها ربهم، فإن أعطاهم إياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة، وإن لم يعطها قدح ذلك في قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ وأيضًا فالأب إذا كان ولده في درجات النيران وأشد العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه، فإن فعل الله تعالى ذلك قدح في أن عذاب الكافر مخلد، وإن لم يفعل قدح ذلك في قوله: (وَلَكُمْ فِيها مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ) وفي قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ وجوابه: أن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلاً عن الالتفات إلى حال غيره.

المسألة الثانية: شرط نعيم الجنة أن يكون دائمًا، إذ لو انقطع لكان مشوبًا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبي:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انتِقَالاَ [(١)]

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون إلا في الجنة فأما في غيرها فلا يحصل ذلك، بل لا بد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات، ولذلك قال عليه السلام: «**مَنْ طَلَبَ مَا لَمْ يُخْلَقْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُرْزَقْ، فَقِيلَ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: سُرُورُ يَوْمٍ**».

أما قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: كلمة (عَلَى) للوجوب قال عليه السلام: «**مَنْ نَذَرَ وَسَمَّى فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِمَا سَمَّى**» [(٢)] فقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى، والواجب هو الذي لو لم

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الوافر للشاعر المتنبي وقد تقدمت ترجمته.

(٢) ذكره الزيلعي في (نصب الراية) (٣/ ٣٠٠)، وقال: قلت: غريب، وفي وجوب الوفاء بالنذر أحاديث: منها ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أختي نذرت أن تحج وأنها ماتت قبل أن تحج، فقال عليه السلام: (لو كان عليها دينٌ أكنت قاضيه؟ قال: نعم، قال: فاقض الله، فهو أحق بالقضاء)، انتهى. وفي رواية له: إن أمي.

حديث آخر: أخرجه البخاري عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، انتهى. وترجم عليه (باب النذر في الطاعة). =

يفعل لاستحقّ تاركه بفعله الذم، أو أنه الذي يكون عدمه ممتنعًا، فإن كان الوجوب على التفسير الأول كان تركه محالاً. لأن تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال، ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالاً والمحال غير مقدور، فلم يكن الله تعالى قادرًا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل، وإن كان الوجوب على التفسير الثاني وهو أن يقال: الواجب ما يكون عدمه ممتنعًا يكون القول بالإلجاء لازمًا، فلم يكن الله قادرًا، فإن قيل: إنه ثبت بحكم الوعد، فنقول: لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبًا وعلمه جهلاً وذلك محال، والمؤدي إلى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل والملجأ إلى الفعل لا يكون قادرًا، ولا يكون مستحقًا للثناء والمدح، تمام السؤال. وجوابه: أن فعل الشيء متقدم على الإخبار عن فعله وعن العلم بفعله، فيكون ذلك الفعل فعلاً لا على سبيل الإلجاء، فكان قادرًا ومستحقًا للثناء والمدح.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَعۡدٗا﴾ يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَّسۡـُٔولٗا﴾ ذكروا فيه وجوهًا أحدها: أن المكلفين سألوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وثانيها: أن المكلفين سألوه بلسان الحال؛ لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائمًا مقام السؤال، قال المتنبي:

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي كَلَامٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ (١)

وثالثها: الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ [غافر: ٨] ورابعها: ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ أي: واجبًا، يقال: لأعطينك ألفًا وعدًا مسؤولاً أي واجبًا وإن لم تسأل، قال الفراء: وسائر الوجوه أقرب من هذا؛ لأن سائر الوجوه أقرب إلى الحقيقة، وما قاله الفراء مجاز وخامسها: مسؤولاً أي من حقه أن يكون مسؤولاً لأنه حق واجب، إما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة، أو بحكم الوعد على قول أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا

=واقد، قال أبو حاتم: ضعيف، وقال العقيلي: كان مرجئًا، ولكن قد رواه غيره، كما رواه ابن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن حسين بن واقد به، وزاد: فضربت، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عمر، وهي تضرب، فألقت الدف، وجلست عليه، فقال عليه السلام: «إني لأحسب الشيطان يفرق منك يا عمر»، قال: وهذا حديث صحيح، انتهى كلامه. أ. هـ ثم ذكر عدة أحاديث اكتفينا بما ذكرناه.

(١) تقدمت ترجمة المتنبي.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٣] ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ فنقول: كلاهما بالنون والياء وقرئ (نحشِرهم) بكسر الشين.

المسألة الثانية: ظاهر قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ أنها الأصنام، وظاهر قوله: ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ أنه من عبد من الأحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما؛ لأن الإضلال وخلافه منهم يصح فلأجل هذا اختلفوا، فمن الناس من حمله على الأوثان، فإن قيل لهم: الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى، وكيف قدر على الجواب؟ فعند ذلك ذكروا وجهين: أحدهما: أن الله تعالى يخلق فيهم الحياة، فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب. وثانيهما: أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الأيدي والأرجل، وكما قيل: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك؟ فإن لم تجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا! وأما الأكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام، قالوا: ويتأكد هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وإذا قيل لهم: لفظة (مَا) لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين: الأول: لا نسلم أن كلمة (مَا) لما لا يعقل بدليل أنهم قالوا: (مَنْ) لما لا يعقل. والثاني: أريد به الوصف كأنه قيل: (وَمَعْبُودَهُمْ)، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] لا يستقيم إلا على أحد هذين الوجهين، وكيف كان فالسؤال ساقط.

المسألة الثالثة: حاصل الكلام أن الله تعالى يحشر المعبودين، ثم يقول لهم: أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ قالت المعتزلة: وفيه كسر بيِّن لقول من يقول: إن الله يضل عباده في الحقيقة؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا: إلهنا هاهنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو أنك أنت أضللتهم، فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا إضلالهم إلى أنفسهم، علمنا أن الله تعالى لا يضل أحدًا من عباده. فإن قيل: لا نسلم أن المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه، فإنهم قالوا: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ وهذا تصريح بأن ضلالهم إنما حصل لأجل ما فعل الله بهم وهو أنه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا. قلنا: لو كان الأمر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوبًا في يد أولئك المعبودين، ومعلوم أنه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجًا مفحمًا

ملزمًا هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية، أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال إن لم تصلح للاهتداء فالإضلال من الله تعالى، وإن صلحت له لم تترجح مصدريتها للإضلال على مصدريتها للاهتداء إلا لمرجح من الله تعالى، وعند ذلك يعود السؤال، وأما ظاهر هذه الآية فهو وإن كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وإن احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى. بقي على الآية سؤالات.

السؤال الأول: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل: أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل؟ الجواب: ليس السؤال عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسئول عنه.

السؤال الثاني: أنه سبحانه كان عالمًا في الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب: هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولأن أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم، وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم.

السؤال الثالث: قال تعالى: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ والقياس أن يقال: ضل عن السبيل. الجواب: الأصل ذلك، إلا أن الإنسان إذا كان متناهيًا في التفريط وقلة الاحتياط، يقال: ضل السبيل.

أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم، وفي قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وجوه: أحدها: أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه. وثانيها: أنهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون (الْمُقَدِّسُونَ الْمُؤْمِنُونَ) بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده. وثالثها: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، سواء كان وثنًا أو نبيًا أو ملكًا. ورابعها: قصدوا تنزيهه أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو إيذاء من كان بريئًا عن الجرم، بل إنه إنما سألهم تقريعًا للكفار وتوبيخًا لهم.

أما قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: القراءة المعروفة (أن نَتخِذ) بفتح النون وكسر الخاء وعن أبي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله، قال الزجاج: أخطأ من قرأ (أَنْ نُتَّخَذَ) بضم النون؛ لأن (مِنْ) إنما تدخل في هذا الباب في الأسماء إذا كان مفعولاً أولاً ولا تدخل على مفعول الحال تقول: ما اتخذت من أحد وليًا، ولا يجوز ما اتخذت أحدًا من ولي، قال صاحب (الكشاف): اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ وليًا، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانًا وليًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] والقراءة الأولى من المتعدي

إلى واحد وهو (من أولياء)، والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدي إلى مفعولين، فالأول ما بني له الفعل، والثاني (مِنْ أَوْلِيَاءَ) من للتبعيض، أي: لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهًا: أولها: وهو الأصح الأقوى، أن المعنى إذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك. وثانيها: ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما يوليهم الكفار، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ [النساء: ٧٦] يريد الكفرة، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عن أبي مسلم. وثالثها: ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء، أي لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه، والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ورابعها: قالت: الملائكة إنهم عبيدك، فلا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دون إذنك وليًّا ولا حبيبًا، فضلاً عن أن يتخذ عبد عبدًا آخر إلهًا لنفسه. وخامسها: أن على قراءة أبي جعفر الإشكال زائل، فإن قيل: هذه القراءة غير جائزة؛ لأنه لا مدخل لهم في أن يتخذهم غيرهم أولياء؛ قلنا: المراد إنا لا نصلح لذلك، فكيف ندعوهم إلى عبادتنا. وسادسها: أن هذا قول الأصنام، وأنها قالت: لا يصح منا أن نكون من العابدين، فكيف يمكننا ادعاؤنا أنَّا من المعبودين.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله، فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الآية أنك يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهي توجب الشكر والإيمان لا الإعراض والكفران، والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا بإضلالنا، فإنه لولا عنادهم الظاهر، وإلا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الإعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون: إن هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وذلك لأن المجيب قال: إلهي أنت الذي أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق في بحر الشهوات، واستغراقه فيها صار صادًا له عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك، فإن هي إلا فتنتك.

المسألة الثانية: الذكر ذكر الله والإيمان به (و) القرآن والشرائع، أو ما فيه حسن ذكرهم في الدنيا والآخرة.

المسألة الثالثة: قال أبو عبيدة: يقال: رجل بور، ورجلان بور، ورجال بور، وكذلك الأنثى، ومعناه هالك، وقد يقال رجل: بائر وقوم بور، وهو مثل هائر وهور، والبوار الهلاك، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر، ولا شك أن المراد منه: وكانوا من الذين حكم عليهم في الآخرة بالعذاب والهلاك، فالذي حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك

وأثبته في اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه، لو صار مؤمنًا لصار الخبر الصدق كذبًا، ولصار العلم جهلاً ولصارت الكتابة المثبتة في اللوح المحفوظ باطلة، ولصار اعتقاد الملائكة جهلاً وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال، فصدور الإيمان منه محال، فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيًا، والشقي لا يمكنه أن ينقلب سعيدًا، ومن وجه آخر هو أنهم ذكروا أن الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو إعطاء المرادات في الدنيا واستغراق النفس فيها، ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغًا يوجب البوار، فإن ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار إنما حصل لأجل ذلك السبب، فرجع حاصل الكلام إلى أنه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر، وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيًا، وأن الشقي لا ينقلب سعيدًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ فاعلم أنه قرىء (يقولون) بالياء والتاء، فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم: إنهم آلهة، أي كذبوكم في قولكم: إنهم آلهة، ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت، فالمعنى أنهم كذبوكم بقولكم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ومثاله قولك: كتبت بالقلم.

أما قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فاعلم أنه قرىء (يستطيعون) بالياء والتاء أيضًا، يعني فما تستطيعون أنتم يأيها الكفار صرف العذاب عنكم، وقيل: الصرف التوبة، وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف، أي يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب (و) أن يحتالوا لكم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرىء (يذقه) بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير (الظُّلْم).

المسألة الثانية: أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في القطع بوعيد أهل الكبائر، فقالوا ثبت أن (من) للعموم في معرض الشرط، وثبت أن الكافر ظالم لقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والفاسق ظالم لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه، بل يعذب لا محالة. والجواب: أنا لا نسلم أن كلمة (من) في معرض الشرط للعموم، والكلام فيه مذكور في أصول الفقه، سلمنا أنه للعموم ولكن قطعًا أم ظاهرًا؟ ودعوى القطع ممنوعة، فإنا نرى في العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم، مع أن المراد هو الأكثر، أو لأن المراد أقوام معينون، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ثم إن كثيرًا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له إلا أن يقال قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإن كان يفيد العموم، لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون، وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم في الأغلب عرف ظاهر، وإذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة، وذلك لا ينفي تجويز العفو. سلمنا دلالته قطعًا، ولكنا أجمعنا على أن قوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ مشروط بأن لا يوجد ما يزيله، وعند هذا نقول: هذا مسلم، لكن لم قلت: بأن لم يوجد ما يزيله؟ فإن العفو

عندنا أحد الأمور التي تزيله، وذلك هو أحد الثلاثة. أول المسألة سلمنا دلالته على ما قال، ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] فإن قيل: آيات الوعيد أولى؛ لأن السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقًا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل، فإذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال. قلنا: لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل، ألا ترى أنه لو تاب فإنه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة، نزلنا عن هذه المقامات، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ إنه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب أنه لا يعفو عنهم فلم قلت إنه لا يعفو عن غيرهم؟!

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذا جواب عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بيَّن الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن.

المسألة الثانية: حق الكلام أن يقال: (إلا أنهم) بفتح الألف لأنه متوسط والمكسورة لا تليق إلا بالابتداء، فلأجل هذا ذكروا وجوهًا: أحدها: قال الزجاج: الجملة بعد (إلاَّ) صفة لموصوف محذوف، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين وماشين، وإنما حذف؛ لأن في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دليلاً عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] على معنى وما منا أحد. وثانيها: قال الفراء: إنه صلة لاسم متروك اكتفى بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عنه، والمعنى: إلا من أنهم كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي من له مقام معلوم، وكذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: إلا من يردها، فعلى قول الزجاج: الموصوف محذوف، وعلى قول الفراء: الموصول هو المحذوف، ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين. وثالثها: قال ابن الأنباري: تكسر إن بعد الاستثناء بإضمار واو وعلى تقدير إلا وإنهم. ورابعها: قال بعضهم المعنى: إلا قيل إنهم.

المسألة الثالثة: قرئ (يُمَشَّوْنَ) على البناء للمفعول أي تمشيهم حوائجهم أو الناس، ولو قرئ (يمشون) لكان أوجه لولا الرواية.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: فيه أقوال: أحدها: أن هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فإذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله؛ أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه، ودليله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج. وثانيها: أن هذا عام في جميع الناس، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ، وَوَيْلٌ لِلسُّلْطَانِ مِنَ الرَّعِيَّةِ، وَوَيْلٌ لِلرَّعِيَّةِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَوَيْلٌ لِلْمَالِكِ مِنَ

الْمَمْلُوكِ، وَوَيْلٌ لِلشَّدِيدِ مِنَ الضَّعِيفِ، وَلِلضَّعِيفِ مِنَ الشَّدِيدِ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةٌ»[1] وقرأ هذه الآية. وثالثها: أن هذا في أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لِمَ لَمْ أجعل مثله في الخَلْق والخُلُق وفي العقل وفي العلم وفي الرزق وفي الأجل؟ وهذا قول ابن عباس والحسن. ورابعها: هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية وصفاتها، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ما قال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] والمرسل إليهم يتأذون أيضًا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفًا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيسًا مخدومًا، والأَوْلى حمل الآية على الكل؛ لأن بين الجميع قدرًا مشتركًا.

المسألة الثانية: قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال الجبائي: هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق: إن فلانًا لص جعله لصًا، وهذا التأويل ضعيف لأنه تعالى أضاف الجعل إلى وصف كونه فتنة لا إلى الحكم بكونه كذلك، بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك؛ لأن فاعل السبب فاعل للمسبب، فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الإدراك الذي يطلعه على الشيء المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لا محالة، وكذا القول في الحسد وسائر الأخلاق والأفعال، وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذي جعل البعض فتنة للبعض. سلمنا أن المراد ما قاله الجبائي أن المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول إن انقلب لزم انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق إلى الكذب وذلك محال، فانقلاب ذلك الجعل محال، فانقلاب المجعول أيضًا محال، وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر.

المسألة الثالثة: الوجه في تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طعنوا في الرسول ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات، فإنه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشيء من هذه الأشياء أثر في القدح فيها، فكان النبي ﷺ يتأذى منهم من حيث إنهم كانوا يشتمونه، ومن حيث إنهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد، فلا جرم صبَّره الله تعالى على كل تلك الأذية، وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض.

أما قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لو كان المراد من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه الثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٦٩) من طريق أبي عبد الله محمد بن جمعان قال: حدثنا محمد بن موسى قال: حدثنا القاسم بن يحيى عن الحسن بن دينار عن الحسن عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ... فذكره.

وضعفه الألباني في (الضعيفة) (١٠/ ٢٥٨)، حديث رقم (٤٧٥٦)، وقال: ضعيف. وفي إسناده الحسن بن دينار تركه يحيى وابن مهدي ووكيع وابن المبارك، كذا قاله البخاري في (التاريخ الكبير) (٢/ ٢٩٢).

الخبر لما ذكر عقيبه ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ لأن أمر العاجز غير جائز.

المسألة الثانية: المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلًّا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ هو الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد ﷺ وحاصلها: لِمَ لَمْ ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدًا محق في دعواه ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا؟ وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شيء، وكان له إلى تحصيله طريقان: أحدهما يفضي إليه قطعًا، والآخر قد يفضي وقد لا يفضي، فالحكيم يجب عليه في حكمته أن يختار في تحصيل ذلك المقصود الطريق الأقوى والأحسن، ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد ﷺ أكثر إفضاء إلى المقصود، فلو أراد الله تعالى تصديق محمد ﷺ لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة.

ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ معناه: لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية، إذا كان معه جحد، ومثله قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون له عظمة، وقال القاضي: لا وجه لذلك؛ لأن الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز، ومعلوم أن من حال عبّاد الأصنام أنهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد، فكذلك لا يرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب، ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضًا، فالخوف تابع لهذا الرجاء.

المسألة الثانية: المجسمة تمسكوا بقوله تعالى: ﴿لِقَآءَنَا﴾ أنه جسم وقالوا: اللقاء هو الوصول يقال: هذا الجسم لقي ذلك أي وصل إليه واتصل به، وقال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] فدلت الآية على أنه سبحانه جسم والجواب على طريقين: الأول: طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء: هو الرؤية، وذلك لأن الرائي يصل برؤيته إلى حقيقة المرئي

فسمى اللقاء أحد أنواع الرؤية، والنوع الآخر الاتصال والمماسة، فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية. الطريق الثاني: وهو كلام المعتزلة، قال القاضي: تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة، فيقال في الدعاء: لقاك الله الخير وقد يقول القائل: لم ألق الأمير وإن رآه من بعد أو حجب عنه، ويقال في الضرير: لقي الأمير إذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء، ولا يراه بل المراد من اللقاء هاهنا هو المصير إلى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا لا أن رؤية البصر، واعلم أن هذا الكلام ضعيف؛ لأنا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر، وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول إلى الشيء، وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته إلى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة، ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله: لقاك الخير، ويصح قول الأعمى: لقيت الأمير، ويصح قول البصير: لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت إليه، وإذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ مذكور في معرض الذم لهم، فوجب أن يكون رجاء اللقاء حاصلاً، ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني، وبين الوصول بالرؤية، وقد تعذر الأول فتعين الثاني، وقوله: المراد من اللقاء الوصول إلى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل، فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها، بل على أن إنكارها ليس إلا من دين الكفار.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ معناه هلا أنزل، قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية في أبي جهل، والوليد، وأصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث.

أما قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تقرير كونه جوابًا، وذلك من وجوه: أحدها: أن القرآن لما ظهر كونه معجزًا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد ﷺ، فبعد ذلك يكون اقتراح أمثال هذه الآيات لا يكون إلا محض الاستكبار والتعنت. وثانيها: أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضًا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك، بل لعموم كونه معجزًا، فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحًا لأحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح، وهو محض الاستكبار والتعنت. وثالثها: أنهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد ﷺ وهو سبحانه يقول: نعم، هو رسولي، فذلك لا يزيد في التصديق على إظهار المعجز على يد محمد ﷺ؛ لأنا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول إذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول: اللهم إن كنت صادقًا فأحيى هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له: صدقت، وإذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز تعيين في كونه تصديقًا للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت. ورابعها: وهو أنا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى

يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة، أو نقول: إن الله تعالى يفعل بحسب المشيئة عى ما يقوله أصحابنا، فإن كان الأول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز إذ ربما كان إظهار ذلك المعجز مشتملاً على مفسدة لا يعرفها إلا الله تعالى، وكان التعيين استكبارًا وعتوًّا من حيث إنه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة، فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه أنه عالم بكل المعلومات، وذلك استكبار عظيم، وإن كان الثاني وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فإنه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارًا وعتوًّا وخروجًا عن حد العبودية إلى مقام المنازعة والمعارضة. وخامسها: وهو أن المقصود من بعثة الأنبياء الإحسان إلى الخلق فالملك الكبير إذا أحسن إلى بعض الضعفاء رحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف إلى اللجاج والنزاع، ويقول: لا أريد هذا بل أريد ذاك، حسن أن يقال: إن هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتوًّا شديدًا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا هاهنا وسادسها: يمكن أن يكون المراد أن الله تعالى قال: لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لأجل الاستكبار والعتو الشديد لأعطيتهم مقترحهم، ولكني علمت أنهم ذكروا هذا الاقتراح لأجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك، وهذا التأويل يعرف من اللفظ. وسابعها: لعلهم سمعوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا، وأنه تعالى لا ينزّل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق، ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لأن رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوًا واستكبارًا، قالوا وقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ليس إلا لأجل سؤال الرؤية حتى لو أنهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك، والدليل عليه أن الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] وذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ وهل نرى الملائكة فثبت بهذا أن الاستكبار والعتو في هذه الآية إنما حصل لأجل سؤال الرؤية.

واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة، والذي نريده ههنا أنا بينا أن قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يدل على الرؤية، وأما الاستكبار والعتو، فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لأن من طلب شيئًا محالاً، لا يقال إنه عتا واستكبر، ألا ترى أنهم لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوًا واستكبارًا، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لائقًا به، ولكنه يطلبه على سبيل التعنت. وبالجملة فقد ذكرنا وجوهًا كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة، ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو؛ لأنه عليه السلام طلب الرؤية

شوقًا، وهؤلاء طلبوها امتحانًا وتعنتًا، لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنهم أضمروا الاستكبار (عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ) في قلوبهم واعتقدوه كما قال: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال: عتا (عَتًا) فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه، يعني أنهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو.

أما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فهو جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فبيَّن تعالى أن الذي سألوه سيوجد، ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ وجهين: الأول: أن العامل ما دل عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يوم يرون الملائكة (يَبْغُونَ الْبُشْرَى) و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتكرير. الثاني: أن التقدير اذكر يوم يرون الملائكة.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك اليوم، فقال ابن عباس: يريد عند الموت، وقال الباقون: يريد يوم القيامة.

المسألة الثالثة: إنما يقال للكافر: لا بشرى؛ لأن الكافر وإن كان ضالاً مضلاً إلا أنه يعتقد في نفسه أنه كان هاديًا مهتديًا، فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم، ولأنهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم، ولكنه أبطلها بكفره فبيَّن سبحانه أنهم في أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة، وذلك هو النهاية في الإيلام وهو المراد من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

المسألة الرابعة: حق الكلام أن يقال: يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم، لكنه قال: لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان: أحدهما: أنه ظاهر في موضع ضمير. والثاني: أنه عام فقد تناولهم بعمومه، قالت المعتزلة: تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو؛ لأن قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الأوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال: بل له بشرى في الوقت الفلاني، فلما كان ثبوت البشرى في وقت من الأوقات يذكر لتكذيب هذه القضية، علمنا أن قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ يقتضي نفي جميع أنواع البشرى في كل الأوقات، ثم إنه سبحانه أكد هذا النفي بقوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ والعفو من الله من أعظم البشرى، والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى، وشفاعة الرسول ﷺ من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين، والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة، قال المفسرون: المراد بالمجرمين هاهنا الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

المسألة الخامسة: في تفسير قوله: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ ذكر سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله وقعدك (الله) وعمرك (الله)، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو (مَوْتُورٍ) أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة، قال سيبويه: يقول الرجل للرجل: (يَفْعَلُ) كذا وكذا فيقول: حجرًا، وهي من حجره إذا منعه؛ لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعًا ويحجره حجرًا ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد، فإن قيل: لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورًا؟ قلنا: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: (ذَيْلٌ ذَايِلٌ فَالذَّيْلُ) الهوان وموت مائت وحرام محرم.

المسألة السادسة: اختلفوا في أن الذين يقولون: حجرًا محجورًا من هم؟ على ثلاثة أقوال: القول الأول: أنهم هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، (ثُمَّ) إذا رأوهم عند الموت (و) يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم؛ لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون، فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو (الْمَوْتُورِ) ونزول الشدة. القول الثاني: أن القائلين هم الملائكة ومعناه حرامًا محرمًا عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي جعل الله ذلك حرامًا عليكم، ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم: إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم، قالت الحفظة لهم: حجرًا محجورًا، وقال الكلبي: الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين: حجرًا محجورًا، وقال عطية: إذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم: بشرونا فيقولون: حجرًا محجورًا، القول الثالث: وهو قول القفال، والواحدي، وروي عن الحسن أن الكفار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون: حجرًا محجورًا، فتقول الملائكة: لا يعاذ من شر هذا اليوم.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ فقد استدلت المجسمة بقوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ لأن القدوم لا يصح إلا على الأجسام، وجوابه أنه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه؛ لأن القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث، ولذلك استدل الخليل عليها السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثًا، فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه: أحدها: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ أي وقصدنا إلى أعمالهم، فإن القادم إلى الشيء قاصد له، فالقصد هو المؤثر في المقدوم إليه وأطلق المسبب على السبب مجازًا. وثانيها: المراد قدوم الملائكة إلى موضع الحساب في الآخرة، ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ على سبيل التوسع ونظيره قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وثالثها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]فلما أباد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التي يقدمها الملك فلا جرم قال: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾.

أما قوله: ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ يعني الأعمال التي اعتقدوها برًّا وظنوا أنها تقربهم إلى الله

تعالى، والمعنى إلى ما عملوا من أي عمل كان.

أما قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ٥] قال أبو عبيدة والزجاج: الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس. وقال مقاتل: إنه الغبار الذي يستطير من حوافر الدواب.

أما قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بيَّن حال الكفار في الخسار الكلي والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهًا على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله تعالى، **وهاهنا سؤالات:**

الأول: كيف يكون أصحاب الجنة خيرًا مستقرًا من أهل النار، ولا خير في النار، ولا يقال في العسل: هو أحلى من الخل؟ والجواب من وجوه: الأول: ما تقدم في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥]. **والثاني:** يجوز أن يريد أنهم في غاية الخير؛ لأن مستقر خير من النار، كقول الشاعر:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ(١)

الثالث: التفاضل الذي ذكر بين المنزلتين إنما يرجع إلى الموضع، والموضع من حيث إنه موضع لا شر فيه. **الرابع:** هذا التفاضل واقع على هذا التقدير، أي لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرًا منه.

السؤال الثاني: الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك؟ والجواب من وجوه: الأول: أن المستقر مكان الاستقرار، والمقيل زمان القيلولة، فهذا إشارة إلى أنهم من المكان في أحسن مكان، ومن الزمان في أطيب زمان. الثاني: أن مستقر أهل الجنة غير مقيلهم، فإنهم يقيلون في الفردوس، ثم يعودون إلى مستقرهم. الثالث: أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب إلى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة، قال ابن مسعود: «**لاَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ**»(٢) وقرأ ابن مسعود: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ). وقال سعيد بن جبير: إن الله تعالى إذا أخذ في فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقال مقاتل: يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا، ثم يقيلون من يومهم ذلك في الجنة.

---

(١) البيت للفرزدق وتقدمت ترجمته.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الثوري في (تفسيره) (١/ ٢٢٦) من طريق ميسرة بن حبيب النهدي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود... به. وفي إسناده انقطاع فأبي عبيدة لم يسمع من أبيه، والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٥٦) من طريق أسباط عن السدى... به وهذا مرسل.

السؤال الثالث: كيف يصح القيلولة في الجنة والنار، وعندكم أن أهل الجنة في الآخرة لا ينامون، وأهل النار أبدًا في عذاب يعرفونه، وأهل الجنة في نعيم يعرفونه؟ والجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وليس في الجنة بكرة وعشي، لقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] ولأنه إذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة، بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها، كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

اعلم أن هذا الكلام مبني على ما استدعوه من إنزال الملائكة فبيَّن سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له صفات:

الصفة الأولى: أن في ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] يدل على التشقق وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] يدل على الغمام فقوله: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] وقوله: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

المسألة الثانية: قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هاهنا وفي سورة ق، والباقون بالتشديد، قال أبو عبيدة: الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق.

المسألة الثالثة: قال الفراء: المراد من قوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي عن الغمام؛ لأن السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام، وقال القاضي: لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

المسألة الرابعة: لا بد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة، فقيل: الملائكة في أيام الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها، ثم في ذلك اليوم تتشقق السماء فإذا انشقت خرج من أن يكون حائلاً بين الملائكة وبين الأرض فنزلت الملائكة إلى الأرض.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ صيغة عموم فيتناول الكل، ولأن السماء مقر الملائكة فإذا تشقق وجب أن ينزلوا إلى الأرض، ثم قال مقاتل: تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها

وهم أكثر من سكان الدنيا، كذلك تتشقق سماء سماء، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش، ثم ينزل الرب تعالى. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم، واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعًا؛ لأن النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والإله لا يكون محدثًا. وأما نزول الملائكة إلى الأرض فعليه سؤال، وذلك لأنه ثبت أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة، فكيف بالقياس إلى الكرسي والعرش فملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الأرض جميعًا؟ فلعل الله تعالى يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغًا يتسع لكل هؤلاء، ومن المفسرين من قال: الملائكة يكونون في الغمام منه، والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة. قال الحسن: والغمام سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بني آدم والمحاسبة تكون في الأرض.

المسألة السادسة: أما نزول الملائكة فظاهر، ومعنى ﴿تَنزِيلًا﴾ توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه.

المسألة السابعة: الألف واللام في الغمام ليس للعموم فهو للمعهود، والمراد ما ذكروه في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

المسألة الثامنة: قرىء: (وَنُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ)، (وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ)، (وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ)، (وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ) (وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ) على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة.

الصفة الثانية لذلك اليوم: قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قال الزجاج: الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن، ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعني ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقًا أنه لا يزول ولا يتغير، فإن قيل: مثل هذا الملك لم يكن قط إلا للرحمن فما الفائدة في قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؟ قلنا: لأن في ذلك اليوم لا مالك سواه لا في الصورة ولا في المعنى، فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الأيام، واعلم أن هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة: في أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لأنه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفًا من أن لا يفعل فلم يكن ملكًا مطلقًا وأيضًا فقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد أنه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة؛ لأن كل من استحق عليه شيئًا فإنه يكون مالكًا له، ولا يكون هو سبحانه مالكًا لذلك المستحق؛ لأنه سبحانه إذا استحق على أحد شيئًا أمكنه أن يعفو عنه، أما غيره إذا استحق عليه شيئًا فإنه لا يصح إبراؤه عنه، فكانت العبودية هاهنا أتم، ولأن من كفر بالله إلى آخر عمره ثم في آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب وأراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيهًا، وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله أن يقال له: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وأيضًا فكل من فعل فعلًا لو لم يفعله لكان مستوجبًا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبًا

للكمال وبتركه مكتسبًا للنقصان فلم يكن ملكًا بل فقيرًا مستحقًّا، فثبت أن قوله سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ غير لائق بأصول المعتزلة.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ فالمعنى ظاهر لأنه تعالى عالم بالأحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فالكل في ربقة العجز ولجام القهر، فكان في نهاية العسر على الكافر.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الألف واللام في الظالم فيه قولان: أحدهما: أنه للعموم، والثاني: أنه للمعهود، والقائلون بالمعهود على قولين: الأول: قال ابن عباس المراد عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من مقر إلا صنع طعامًا يدعو إليه جيرته من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعامًا ودعا الرسول فقال ﷺ: ما آكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله ﷺ من طعامه فبلغ أمية بن خلف فقال: صبوت يا عقبة، وكان خليله، فقال: إنما ذكرت ذلك ليأكل من طعامي فقال: لا أرضى أبدًا حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه ففعل، فقال عليه السلام: لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فنزل ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندامة يعني عقبة يقول: يا ليتني لم أتخذ أمية خليلاً لقد أضلني عن الذكر. أي صرفني عن الذكر وهو القرآن والإيمان بعد إذ جاءني مع محمد ﷺ فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرًا ولم يقتل يومئذ من الأسارى غيره وغير النضر بن الحارث[1].

الثاني: قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه وإن المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانًا بدلاً من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، واعلم أن إجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ؛ لأنَّا بينا في أصول الفقه أن الألف واللام إذا دخل على الاسم المفرد لا يفيد العموم بل إنما يفيده للقرينة من حيث إن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف، فدل ذلك على أن المؤثر في العض على اليدين كونه ظالمًا وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة؛ لأن هذا الذي ذكرناه يقتضي العموم، ونزوله في واقعة أخرى خاصة لا ينافي أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لا يحصل إلا بالعموم، وأما قول الرافضة فذلك لا يتم إلا بالطعن في القرآن وإثبات أنه غيَّر وبدَّل ولا نزاع في أنه كفر.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قالوا: الظالم يتناول الكافر والفاسق، فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال الضحاك: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت

(١) رواه أحمد في (العلل ومعرفة الرجال) (١/ ١٣٠/ ٤) من طريق هشيم قال: أخبرنا مجالد عن الشعبي... فذكره، وهذا إسناد ضعيف فيه مجالد وهو ضعيف مع إرسال الشعبي.

فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت، وقال أهل التحقيق: هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم، يقال عض أنامله وعض على يديه.

المسألة الرابعة: كما بينا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله: فلانًا ليس شخصًا واحدًا بل كل من أطيع في معصية الله، واستشهد القفال بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] يعني به: جماعة الكفار.

المسألة الخامسة: قرئ (يَا وَيْلَتِي) بالياء وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها: تعالى فهذا أوانك، وإنما قلبت الياء ألفًا كما في صحارى و(عَذَارَى).

المسألة السادسة: قوله: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق (وَغَيْرَتَهُ) على الإسلام والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة، أو أراد إبليس فإنه هو الذي حمله على أن صار خليلاً لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس، ويحتمل أن يكون ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾

اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله تعالى وقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أكثر المفسرين أنه قول واقع من الرسول ﷺ وقال أبو مسلم: بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] والأول أولى؛ لأنه موافق للفظ، ولأن ما ذكره الله تعالى من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] تسلية للرسول ﷺ ولا يليق إلا إذا كان وقع ذلك القول منه.

المسألة الثانية: ذكروا في المهجور قولين: الأول: أنه من الهجران أي: تركوا الإيمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه. الثاني: أنه من أهجر أي: مهجورًا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] ثم هجرهم فيه أنهم كانوا يقولون: إنه سحر، وشعر، وكذب، وهجر أي هذيان، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا لَمْ يتعهده ولم ينظر فِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ يَا رَبِّ

الْعَالَمِينَ عَبْدُكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ»[١] ثم إنه تعالى قال مسليًا لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيًا له: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وبيَّن بذلك أن له أسوة بسائر الرسل، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر؛ لأن قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي: المراد من الجعل التبيين، فإنه تعالى لما بيَّن أنهم أعداؤه، جاز أن يقول: جعلناهم أعداءه، كما إذا بيَّن الرجل أن فلانًا لص يقال: جعله لصًا كما يقال في الحاكم: عدل فلانًا وفسق فلانًا وجرحه، قال الكعبي: إنه تعالى لما أمر الأنبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم، فلهذا جاز أن يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ لأنه سبحانه هو الذي حمله ودعاه إلى ما استعقب تلك العداوة، وقال أبو مسلم: يحتمل في العدو أنه البعيد لا القريب إذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب والمظاهرة، وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين. والجواب عن الأول: أن التبيين لا يسمونه ألبتة جعلاً؛ لأن من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال: إنه جعل الصانع وجعل قدمه. والجواب عن الثاني: أن الذي أمره الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير؟ فإن كان الأول فقد تم الكلام؛ لأن عداوتهم للرسول ﷺ كفر فإذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمره بما له أثر في وقوع الكفر وإن لم يكن فيه تأثير ألبتة كان منقطعًا عنه بالكلية فيمتنع إسناده إليه، وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إن قول محمد عليه السلام: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ في المعنى كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦] وكما أن المقصود من هذا إنزال العذاب فكذا هاهنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟ جوابه: أن نوحًا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق.

المسألة الثالثة: قوله ﴿جَعَلْنَا﴾ صيغة العظماء والتعظيم إذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطي فلا بد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾

---

(١) موضوع: أخرجه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٧٥) من طريق الحسن بن علي بن محمد بن عقبة الشيباني قال: حدثنا أبو القاسم الخضر بن أبان القرشي قال: حدثنا أبو هدبة إبراهيم بن هدبة قال: حدثنا أنس بن مالك... به، وفي إسناده أبي هدبة إبراهيم بن هدبة. ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٢/ ١٤٣)، وقال: سألت أبي عن أبي هدبة فقال: كذاب وتلميذه الخضر بن أبان ضعفه الحاكم وغيره كذا قاله الذهبي في (ميزان الاعتدال) (٢/ ٤٤٣).

[الحجر: ٨٧] وقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فكيف يليق بهذه الصيغة أن تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا؟ وجوابه: أن خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب، والله أعلم.

المسألة الرابعة: يجوز أن يكون العدو واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] وجاء في التفسير أن عدو الرسول ﷺ أبو جهل. أما قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ فقال الزجاج: الباء زائدة يعني كفى ربك هاديًا ونصيرًا منصوبان على الحال هاديًا إلى مصالح الدين والدنيا، ونصيرًا على الأعداء، ونظيره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد ﷺ، وأن أهل مكة قالوا: تزعم أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود؟ وعن ابن جريج بين أوله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ وبيان هذا الجواب من وجوه: أحدها: أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو، وإنما نزلت التوراة جملة؛ لأنها مكتوبة يقرؤها موسى. وثانيها: أن من كان الكتاب عنده، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل. وثالثها: أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، أما لما نزل مفرقًا منجمًا لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل. ورابعها: أنه إذا شاهد جبريل حالاً بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل، وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد. وخامسها: أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجمًا ثبت كونه معجزًا، فإنه لو كان ذلك في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجمًا مفرقًا. وسادسها: كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة؛ لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب. وسابعها: أن القرآن لما نزل منجمًا مفرقًا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الأمر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم

عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة.

وثامنها: أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال: إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد ﷺ دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقًا منجمًا بقي ذلك المنصب العالي عليه فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقًا منجمًا.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه من تمام كلام المشركين أي جملة واحدة كذلك أي كالتوراة والإنجيل، وعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار في الآية وهو أن يقول: أنزلناه مفرقًا لنثبت به فؤادك.

الثاني: أنه كلام الله تعالى ذكره جوابًا لهم أي: كذلك أنزلناه مفرقًا، فإن قيل: ذلك في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم فهو إنزاله جملة (وَاحِدَةً) فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقًا؟ قلنا: لأن قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ معناه: لِمَ نزل مفرقًا؟ فذلك إشارة إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ فمعنى الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها يقال: ثغر رتل وهو ضد المتراص، ثم إنه سبحانه وتعالى لما بيَّن فساد قولهم بالجواب الواضح قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات إلا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨] وبيَّن أن الذي يأتي به أحسن تفسيرًا لأجل ما فيه من المزية في البيان والظهور، ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، صِنْفٍ عَلَى الدَّوَابِّ، وَصِنْفٍ عَلَى الأَقْدَامِ، وَصِنْفٍ عَلَى الْوُجُوهِ**» وعنه عليه السلام: «**إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»(١).

المسألة الثانية: الأقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الأسئلة على سبيل التعنت، وإن كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم.

المسألة الثالثة: حمله بعضهم على أنهم يمشون في الآخرة مقلوبين، وجوههم إلى القرار وأرجلهم إلى فوق، روي ذلك عن الرسول ﷺ وقال آخرون: المراد أنهم يحشرون ويسحبون

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٠٥)، حديث رقم (٣١٤٢)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٤)، حديث رقم (٨٦٣٢)، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٣٣٤)، حديث رقم (٢٥٦٦)، جميعًا من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة... به، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

على وجوههم، وهذا أيضًا مروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أَوْلَى، وقال الصوفية: الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فإذا ماتوا بقي ذلك التعلق فعبَّر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم إلى جهنم، ثم بيَّن تعالى أنهم شر مكانًا من أهل الجنة وأضل سبيلاً وطريقًا، والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقد تقدم الجواب عنه.

واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد ونفي الأنداد وإثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفي أحوال القيامة شرع في ذكر القصص على السنة المعلومة.

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ۝٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ۝٣٦﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ [الفرقان: ٣١] أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء وعرَّفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ والمعنى: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فَرُدَّ، فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هارون ومع ذلك فقد رد.

وفيه مسائل

المسألة الأولى: كونه وزيرًا لا يمنع من كونه شريكًا له في النبوة، فلا وجه لقول من قال في قوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ﴾: إنه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجري مجرى قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] فإن قيل: إن كونه وزيرًا كالمنافي لكونه شريكًا بل يجب أن يقال: إنه لما صار شريكًا خرج عن كونه وزيرًا، قلنا: لا منافاة بين الصفتين؛ لأنه لا يمتنع أن يشركه في النبوة ويكون وزيرًا وظهيرًا ومعينًا له.

المسألة الثانية: قال الزجاج: الوزير في اللغة: الذي يرجع إليه ويتحصن برأيه، والوزر: ما يعتصم به ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] أي: لا منجى ولا ملجأ، قال القاضي: ولذلك لا يوصف تعالى بأن له وزيرًا ولا يقال فيه أيضًا؛ بأنه وزير؛ لأن الالتجاء إليه في المشاورة والرأي على هذا الحد لا يصح.

المسألة الثالثة: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ أهلكناهم إهلاكًا فإن قيل: الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهارون إليهم بل بعد مدة مديدة، قلنا: التعقيب محمول هاهنا على الحكم لا على الوقوع، وقيل: إنه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إن حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الإلهية فلا إشكال، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ، وإن كان للماضي إلا أن المراد هو المستقبل.

القصة الثانية قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى إنما قال: ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ إما لأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لأنه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبًا للجميع؛ لأن تكذيب الواحد منهم لا يمكن إلا بالقدح في المعجز، وذلك يقتضي تكذيب الكل، أو لأن المراد بالرسل وإن كان نوحًا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال: فلان يركب الأفراس.

أما قوله: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ فقال الكلبي: أمطر الله عليهم السماء أربعين يومًا وأخرج ماء الأرض أيضًا في تلك الأربعين فصارت الأرض بحرًا واحدًا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: وجعلنا إغراقهم أو قصتهم آية، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لكل من سلك سبيلهم في تكذيب الرسل عذابًا أليمًا، ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح.

القصة الثالثة قصة عاد وثمود وأصحاب الرس

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الأولى: عطف ﴿وَعَادًا﴾ على (هم) في ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أو على (الظَّالِمِينَ)؛ لأن المعنى ووعدنا الظالمين.

المسألة الثانية: قرئ (وثَمُودَ) على تأويل القبيلة، وأما على المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم للأب الأكبر.

المسألة الثالثة: قال أبو عبيدة: الرس هو البئر غير المطوية، قال أبو مسلم: في البلاد موضع يقال له: الرس فجائز أن يكون ذلك الوادي سكنًا لهم، والرس عند العرب: الدفن، ويسمى به الحفر يقال: رس الميت إذا دفن وغيب في الحفرة، وفي التفسير أنه البئر، وأي شيء كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى.

المسألة الرابعة: ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوهًا: أحدها: كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم. وثانيها: الرس:

قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وثالثها: أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء، وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تَنْقَضُّ على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا. ورابعها: هم أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود. وخامسها: الرس أنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار، وقيل: (كذبوه) ورسوه في بئر أي دسوه فيها. وسادسها: عن علي عليه السلام أنهم كانوا قومًا يعبدون شجرة الصنوبر وإنما سموا بأصحاب الرس؛ لأنهم رسوا نبيهم في الأرض. وسابعها: أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطىء نهر يقال له: الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبيًّا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنًا فشكى إلى الله تعالى منهم فحفروا بئرًا ورسوه فيها وقالوا: نرجو أن يرضى عنا إلهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول: إلهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجِّل قبض روحي حتى مات، فأرسل الله تعالى ريحًا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص. وثامنها: روى ابن جرير عن الرسول ﷺ «أَنَّ اللَّه بَعَثَ نَبِيًا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِهَا أَحَدٌ إِلاَّ عَبْدٌ أَسْوَدُ ثُمَّ عَدَوْا عَلَى الرَّسُولِ فَحَفَرُوا لَهُ بِئْرًا فَأَلْقَوْهُ فِيهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ حَجَرًا ضَخْمًا، وَكَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ يَحْتَطِبُ فَيَشْتَرِي لَهُ طَعَامًا وَشَرَابًا وَيَرْفَعُ الصَّخْرَةَ وَيُدْلِيهِ إِلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّه فَاحْتَطَبَ يَوْمًا فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَجَدَ نَوْمًا فَاضْطَجَعَ فَضَرَبَ اللَّه عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نَائِمًا، ثُمَّ انْتَبَهَ وَتَمَطَّى وَتَحَوَّلَ لِشِقِّهِ الأُخَرِ فَنَامَ سَبْعَ سِنِينَ أُخرَى، ثُمَّ هَبَّ فَحَمَلَ حُزْمَتَهُ فَظَنَّ أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَجَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَبَاعَ حُزْمَتَهُ وَاشْتَرَى طَعَامًا وَشَرَابًا وَذَهَبَ إِلَى الْحُفْرَةِ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا، وَكَانَ قَوْمُهُ قَدِ اسْتَخْرَجُوهُ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَكَانَ ذَلِكَ النَّبِيُّ يَسْأَلُهُمْ عَنِ الأَسْوَدِ، فَيَقُولُونَ: لاَ نَدْرِي حَالَهُ حَتَّى قَبَضَ اللَّه النَّبِيَّ وَقَبَضَ ذَلِكَ الأَسْوَدَ» فقال عليه السلام: «إِنَّ ذَلِكَ الأَسْوَدَ لأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»(١) واعلم أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئًا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن، ولا بخبر قوي الإسناد، ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم.

المسألة الخامسة: قال النخعي: القرن أربعون سنة، وقال علي عليه السلام: بل سبعون سنة، وقيل: مائة وعشرون.

المسألة السادسة: قوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور، وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى: فذلك المحسوب أو المعدود.

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٩/ ٢٧٠) من طريق سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي... به، وفي إسناده محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

أما قوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ فالمراد بيَّنَّا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرًا ويحتمل ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بأن أجبناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد، فلما لم ينجع فيه تبرناهم تتبيرًا، فحذر تعالى بذلك قوم محمد ﷺ في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلاً وآجلاً.

المسألة السابعة: ﴿وَكُلًّا﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وهو أنذرنا أو حذرنا، والثاني بتبرنا؛ لأنه فارغ له.

المسألة الثامنة: التتبير: التفتيت والتكسير، ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج.

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعًا بأهلها وبقيت واحدة، و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ الحجارة يعني أن قريشًا مروا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟﴾ في (مرار) مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله تعالى ونكاله ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾ قومًا كفرة ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ وذكروا في تفسير ﴿يَرْجُونَ﴾ وجوهًا: أحدها: وهو الذي قاله القاضي وهو الأقوى: أنه محمول على حقيقة الرجاء؛ لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال إلا لرجاء ثواب الآخرة فإذا لم يؤمِّن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب. وثانيها: معناه لا يتوقعون نشورًا، فوضع الرجاء موضع التوقع؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن. وثالثها: معناه لا يخافون على اللغة التهامية، وهو ضعيف والأول هو الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن مبالغة المشركين في إنكار نبوته وفي إيراد الشبهات في ذلك، بيَّن بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزوًا فلم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار، ويقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): (إنْ) الأولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينهما.

المسألة الثانية: جواب (إذَا) هو ما أضمر من القول يعني وإذا رأوك مستهزئين قالوا: أبعث الله هذا رسولاً، وقوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ جملة اعترضت بين (إذَا) وجوابها.

المسألة الثالثة: اتخذوه هزوًا في معنى استهزؤا به والأصل اتخذوه موضع هزء أو مهزوءًا به.

المسألة الرابعة: اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين أنهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الأفعال: أحدهما أنهم يستهزئون به، وفسر ذلك الاستهزاء بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وذلك جهل عظيم؛ لأن الاستهزاء إما أن يقع بصورته أو بصفته. أما الأول فباطل؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخِلقة، وبتقدير أنه لم يكن كذلك، لكنه عليه السلام ما كان يدعي التميز عنهم بالصورة بل بالحجة. وأما الثاني فباطل؛ لأنه عليه السلام ادَّعى التميز عنهم في ظهور المعجز عليه دونهم، وأنهم ما قدروا على القدح في حجته ودلالته، ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام، وذلك يدل على أنه ليس للمبطل في كل الأوقات إلا السفاهة والوقاحة. وثانيهما أنهم كانوا يقولون فيه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وذلك يدل على أمور:

الأول: أنهم سموا ذلك إضلالاً، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين في تعظيم آلهتهم وفي استعظام صنيعه ﷺ في صرفهم عنه، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف في أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه، ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يدل أيضًا على ذلك.

الثاني: يدل هذا القول منهم على جَدِّ الرسول عليه السلام واجتهاده في صرفهم عن عبادة الأوثان، ولولا ذلك لما قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهكذا كان عليه السلام فإنه في أول الأمر بالغ في إيراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الأدب.

الثالث: أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا ألبتة على دلائل الرسول ﷺ وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد؛ لأن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارة إلى الجحود والتقليد، ولو ذكروا اعتراضًا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والإصرار الذي هو دأب الجهال، وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام، وأنه ما كان في أيديهم إلا مجرد الوقاحة.

الرابع: الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين؛ لأنهم

استهزؤا به أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل، والكلام الأول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق إلا بالجاهل العاجز، فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على أنهم كانوا كالمتحيرين في أمره، فتارة بالوقاحة يستهزئون منه، وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل، ثم إنه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم في ذلك من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأنهم لما وصفوه بالإضلال في قولهم: ﴿إِن كَادَ﴾ بيَّن تعالى أنه سيظهر لهم مَنْ المضل ومَنْ الضال عند مشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامي والإعراض عن الاستدلال والنظر.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أنه سبحانه بيَّن أن بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم وأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة، فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع، ثم هاهنا أبحاث:

الأول: قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ كلمة تصلح للإعلام والسؤال، وهاهنا هي تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته.

الثاني: قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ معناه اتخذ إلهه ما يهواه أو إلهًا يهواه، وقيل: هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه إلهه وهذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يفيد الحصر، أي لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه، وهذا المعنى لا يحصل عند القلب. قال ابن عباس: الهوى إله يعبد، وقال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده.

الثالث: قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك.

الرابع: نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قال الكلبي: نسختها آية القتال. وثالثها: قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم هاهنا منقطعة، معناه بل تحسب، وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع ألبتة، فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ فحكم بذلك على الأكثر دون

الكل؟والجواب: لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق، إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل.

السؤال الثاني: لِمَ جعلوا أضل من الأنعام؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم الذين هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار. وثانيها: أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم فهي خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم. وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فإنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، بل هم مصرون على أنهم يعلمون. وثالثها: أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم؛ لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجًا. ورابعها: أن الأنعام لا تعرف شيئًا ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره. وخامسها: أن البهائم لا تستحق عقابًا على عدم العلم، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب. وسادسها: أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الأسراء: ٤٤] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحج: ١٨] إلى قوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وإذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام.

السؤال الثالث: أنه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل، فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث الرسول إليهم فإن من شرط التكليف العقل؟ الجواب: ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم: إنما أنت أعمى وأصم.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم في ذلك ذكر بعده أنواعًا من الدلائل الدالة على وجود الصانع.

النوع الأول: الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من رؤية العين. والثاني: أنه من رؤية القلب يعني العلم، فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج، فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق، ولكنه معلوم من حيث إن كل متغير جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه.

المسألة الثانية: المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى؛ لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع.

المسألة الثالثة: الناس أكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وإذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه بيَّن أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة، ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئًا سوى الجسم وسوى اللون، ونقول: الظل ليس أمرًا ثالثًا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودًا وماهية؛ لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة لما عرف النور، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل، فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: خلقنا الظل أولاً بما فيه من المنافع واللذات ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة، ثم قبضناه أي أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرًا يسيرًا فإن كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، ولما كان الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة بل يسيرًا يسيرًا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح، ولكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد معه أنواع مصالح العالم، والمراد بالقبض الإزالة والإعدام هذا أحد التأويلين.

التأويل الثاني: وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلاً عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه، فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء فلهذا جعل الشمس دليلاً عليها.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فأما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرًا يسيرًا إلى غاية نقصاناتها، فسمى إزالة الأظلال قبضًا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرًا قبضها عند قيام الساعة، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله: ﴿يَسِيرًا﴾ هو كقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] فهذا هو التأويل الملخص.

المسألة الرابعة: وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء، وأما حصول الضوء الخالص، أو الظلمة الخالصة، فهو ليس من باب المنافع، فحصول ذلك الظل، إما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه؛ لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات، فلا بد له في وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى. فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء، فكيف استدل بالأمر العدمي على ذاته، وكيف عده من النعم؟ قلنا: الظل ليس عدمًا محضًا، بل هو أضواء مخلوطة بظلم، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي، وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية.

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ اعلم أنه تعالى شبه الليل من حيث إنه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن، ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتًا؛ لأنه سبب للراحة قال أبو مسلم: السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة: مسبوت، وقال صاحب (الكشاف): السبات الموت والمسبوت الميت؛ لأنه مقطوع الحياة قال: وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وإنما قلنا: إن تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة؛ لأن النشور في مقابلته يأباه، قال أبو مسلم: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الإنسان وفاة، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] كذلك وفّق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمه على خلقه؛ لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة

شبههما بالموت والحياة، وعن لقمان أنه قال لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

النوع الثالث: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (الرِّيحَ) و(الرِّيَاحَ)، قال الزجاج: وفي (نَشْرًا) خمسة أوجه بفتح النون، وبضمها، وبضم النون والشين، وبالباء الموحدة مع ألف، والمؤنث وبشرًا بالتنوين، قال أبو مسلم من قرأ (بُشْرًا) أراد جمع بشير مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وأما بالنون فهو في معنى قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات: ٣] وهي الرياح، والرحمة: الغيث والماء والمطر.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ نص في أنه تعالى ينزل الماء من السماء، لا من السحاب. وقول من يقول: السحاب سماء ضعيف؛ لأن ذاك بحسب الاشتقاق، وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن الطهور ما هو؟ قال كثير من العلماء: الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به، والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضًا عن ثعلب، وأنكر صاحب (الكشاف) ذلك، وقال: ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية: صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر، والاسم قولك: طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار. حجة القول الأول قوله عليه السلام: «**التُّرَابُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ**»(١) ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام، وكذا قوله عليه السلام: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعًا**»(٢) ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر إناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام، ولأنه تعالى قال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] فبيَّن أن المقصود من الماء إنما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورًا أنه هو المطهر به؛ لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام، فوجب حمله على الوصف الأكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الجنب يتيمم) (١/ ٩٠)، حديث رقم (٣٣٢) مطولًا من طريق خالد الحذاء... به، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء) (١/ ٢١١)، حديث رقم (١٢٤)، قال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (الصلوات بتيمم واحد) (١/ ٢٦٩)، حديث رقم (٣٢١) من طريق مخلد عن سفيان عن أيوب عن أبي قلابة... به، كلاهما (أيوب، وخالد الحذاء) عن أبي قلابة... به.

(٢) حسن: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (حكم ولوغ الكلب) (١/ ٢٣٤/ ٩١)، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بسؤر الكلب) (١/ ٤١/ ٤٢)، حديث رقم (٧١)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦٥/ ٤٢٧/ ٤٨٩/ ٥٠٨)، والحميدي في (مسنده) (٩٦٨)، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٥٠)، حديث رقم (٩٥) من طريق هشام... به.

المسألة الرابعة: اعلم أن الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين: أحدهما: ما يتعلق بالنبات والثاني: ما يتعلق بالحيوان، أما أمر النبات فقوله: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قال: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً﴾ ميتًا ولم يقل ميتة؟ الجواب: لأن البلدة في معنى البلد في قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩].

السؤال الثاني: ما المراد من حياة البلد وموتها؟ الجواب: الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الأرض مواتًا، وسقيها المقتضي لعمارتها إحياء لها.

السؤال الثالث: أن جماعة الطبائعيين (١) وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا: إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فإن الباء في (به) تقتضي أن للماء تأثيرًا في ذلك. الجواب: الظاهر وإن دلَّ عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: لِمَ خص الإنسان والأنعام هاهنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء؟ الجواب: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام؛ لأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم.

السؤال الثاني: ما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفهما بالكثرة؟ الجواب: معناه أن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار (وَمَنَافِع) المياه فهم في غنية (فِي شُرْبِ الْمِيَاهِ عَنِ الْمَطَرِ)، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر وذلك قوله: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في (كَثِيرٍ) أن يرجع إلى قوله: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ لأن الحي يحتاج إلى الماء حالاً بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين، حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان إلى الضرر أقرب، والحيوان يحتاج إليه حالاً بعد حال ما دام حيًّا.

السؤال الثالث: لم قدَّم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ الجواب: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم؛ لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضًا بسقياهم وأيضًا فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٠] يعني صرف المطر كل سنة إلى جانب آخر، وإذا كان كذلك فلا

---

(١) هكذا في الأصل وهو مخالف للقياس فإن النسبة لا تكون إلا للمفرد فالأولى أن يقول: (جماعة الطبيعيين) نسبة للطبيعة، وقد خطَّأ العلماء ذلك أيضًا فقالوا: الصواب النسبة للطبع والطبيعة وحينئذ يكون الصواب أن يقال: (جماعة الطبيعيين) وقد سبق المصنف إلى هذا أبو عثمان بن جنى إمام أهل العربية فسمي كتابه بالتصريف الملوكي خروجًا على القياس المقتضي كون التسمية التصريف الملكي فلعله من خطأ النساخ.

يسقي الكل منه بل يسقي كل سنة أناسي كثيرًا منه.

السؤال الرابع: ما الأناسي؟ الجواب: قال الفراء والزجاج: الإنسي والأناسي كالكرسي والكراسي، ولم يقل كثيرين؛ لأنه قد جاء فعيل مفردًا ويراد به الكثرة كقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. واعلم أن الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ونحن نشير إلى معاقد تلك المسائل فنقول هاهنا نظران: أحدهما: أن الماء مطهر. والثاني: أن غير الماء هل هو مطهر أم لا؟ النظر الأول: أن نقول الماء إما أن لا يتغير أو يتغير القسم الأول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره، إلا الماء المستعمل فإنه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر، وقال مالك والثوري: يجوز الوضوء به، وقال أبو حنيفة في رواية أبي يوسف إنه نجس فهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في بيان أنه ليس بمطهر، ودليلنا قوله عليه السلام: «لاَ يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ»(١) ولو بقي الماء كما كان طاهرًا مطهرًا لما كان للمنع منه معنى، ومن وجه القياس أن الصحابة كانوا يتوضؤون في الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء، ولو كان ذلك الماء مطهرًا لحملوه ليوم الحاجة، واحتج مالك بالآية والخبر والقياس. أما الآية فمن وجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١] فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء، والأصل في الثابت بقاؤه، فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملاً، وأيضًا قوله: ﴿طَهُورًا﴾ يقتضي جواز التطهر به مرة بعد أخرى. والثاني: أنه أمر بالغسل مطلقًا في قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] واستعمال كل المائعات غسل؛ لأنه لا معنى للغسل إلا إمرار الماء على العضو، قال الشاعر:

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا(٢)

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن الاغتسال في الماء الراكد) (١/ ٩٧/ ٢٣٦) من طريق هارون بن سعيد... به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن اغتسال الجنب في الماء الدائم) (١/ ٢١١)، حديث رقم (٢٢٠) من طريق سليمان بن داود والحارث بن مسكين... به، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الجنب يتغمس في الماء الدائم يجزئه) (١/ ١٩٨)، حديث رقم (٦٠٥) من طريق أحمد بن عيسى... به. كلاهما (هارون بن سعيد، أحمد بن عيسى) عن ابن وهب... به،

(٢) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة لجميل بُثينة والبيت هكذا

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمعُ كُحلَهَا وَإِذ هِيَ تُذري الدَّمعَ مِنها الأنامِلُ

جَميل بُثَينَة هو: جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو. ؟- ٨٢هـ/ ؟- ٧٠١م. شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. كانت منازل بني عذرة في وادي القرى من أعمال المدينة ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية. فقصد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل، فوجب أن يكون مجزئًا له؛ لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة وأما السنة فما روي أنه عليه السلام «تَوَضَّأَ فَمَسَحَ رَأْسَهُ بِفَضْلِ مَا فِي يَدِهِ»(١) وعنه عليه السلام: «أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَأَخَذَ مِنْ بَلَلِ لِحْيَتِهِ فَمَسَحَ بِهِ رَأْسَهُ»(٢) وعن ابن عباس أنه عليه السلام: «اغْتَسَلَ فَرَأَى لُمْعَةً فِي جَسَدِهِ لَمْ يُصِبْهَا الْمَاءُ، فَأَخَذَ شَعْرَةً عَلَيْهَا بَلَلٌ فَأَمَرَّهَا عَلَى تِلْكَ اللُّمْعَةِ»(٣) وأما القياس فإنه ماء طاهر لقي جسدًا طاهرًا فأشبه ما إذا لقي حجارة أو حديدًا، وكذا الماء المستعمل في الكرة الرابعة والمستعمل في التبرد والتنظيف، ولأنه لا خلاف أنه إذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع، ثم نزل ذلك الماء بعينه إلى بقية الوجه فإنه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملاً في أعلى الوجه.

المسألة الثانية: الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ومن السنة أنه عليه السلام: أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه، وقال: «خُلِقَ الْمَاءُ طَهُورًا لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ رِيحَهُ أَوْ لَوْنَهُ»(٤) وقال الشافعي: إنه عليه السلام توضأ ولا شك أنه أصابه ما تساقط منه، ولم ينقل أنه غير ثوبه ولا أنه غسله، ولا أحد من المسلمين فعل ذلك، فثبت أنهم أجمعوا على أنه ليس بنجس، ولأنه ماء طاهر لقي جسمًا طاهرًا فأشبه ما إذا لاقى حجارة.

المسألة الثالثة: الماء المستعمل إما أن يكون مستعملاً في أعضاء الوضوء أو في غسل الثياب، أما المستعمل في أعضاء الوضوء فإما أن يكون مستعملاً فيما كان فرضًا وعبادة، أو فيما كان فرضًا ولا يكون عبادة، أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضًا، أو فيما لا يكون فرضًا ولا عبادة.

أما القسم الأول: وهو المستعمل فيما كان فرضًا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعي.

وأما القسم الثاني: فهو كالماء الذي استعملته الذمية التي تحت الزوج المسلم، أي في غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها.

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (صفة وضوء النبي ﷺ) (١/ ٦٤)، حديث رقم (١٣٠) من طريق عبد الله بن داود عن سفيان بن سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٣٠) من طريق سفيان بن سعيد... به، وتقدم من طرق عن الحديث رقم (١٢٦)..

(٢) انظر سابقه.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (من اغتسل من الجنابة...) (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٦٦٣)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي رشيد وإسحاق بن منصور... فذكره، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٦٩٩)، حديث رقم (٥٧٠)، قال: أخبرنا يزيد بن هارون... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٤٣)، حديث رقم (٢١٨٠) من طريق أبي علي الرحبي... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٤٢)، حديث رقم (٤٥٩)، جميعًا من طريق عن أبي علي الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ... فذكره.

والحديث مداره على الحسين بن قيس الرحبي أبو علي الواسطي قال الحافظ: متروك.

(٤) انظر تقدم قريبًا.

وأما القسم الثالث: فهو كالماء المستعمل في الكرة الثانية والثالثة، والماء المستعمل في تجديد الوضوء، والماء المستعمل في الأغسال المسنونة، فلأصحاب الشافعي في هذين القسمين وجهان.

وأما القسم الرابع: فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة، وفي التبرد والتنظف، فذاك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل، وهو طاهر مطهر، أما الماء المستعمل في غسل الثياب، فإذا غسل ثوبًا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة، يستحب أن يغسله ثلاثًا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الأصح. القسم الثاني: الماء الذي يتغير فنقول: الماء إذا تغيَّر، فإما أن يتغير بنفسه أو بغيره، أما الأول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به؛ لأنه عليه السلام كان يتوضأ من بئر (قُضَاعَةَ)، وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء[1]، وأما المتغير بسبب غيره فذلك الغير إما أن لا يكون متصلاً به أو يكون متصلاً به. أما الذي لا يكون متصلاً به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنًا بسببها فهو أيضًا مطهر، وأما إذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل إما أن يكون طاهرًا أو نجسًا القسم الأول: إذا كان طاهرًا فهو إما أن لا يخالطه أو يخالطه، فإن لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضًا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة، ولأن الطهورية ثبتت بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ والأصل في الثابت بقاؤه، وأما المتغير بسبب شيء يخالطه، فذلك المخالط إما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن، أما الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والأوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه، وهذا أيضًا مطهر؛ لأن الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير، فيكون مرفوعًا لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها، أما إذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عن جنسه نظر إن كان التغير قليلاً، بحيث لا يضاف الماء إليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلاً، أو دقيق فابيض قليلاً، جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب؛ لأنه لم يسلبه إطلاق اسم الماء، وأما إن كان التغير كثيرًا فإن استحدث اسمًا جديدًا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق، وإن لم يستحدث اسمًا جديدًا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به، وعند أبي حنيفة يجوز.

حجة الشافعي من وجوه: أحدها: أنه عليه السلام توضأ ثم قال: «**هَذَا وُضوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللَّه الصَّلاَةَ إِلاَّ بِهِ**»[2] فذلك الوضوء إن كان واقعًا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز إلا به، وبالاتفاق ليس الأمر كذلك، فثبت أنه كان بماء غير متغير وهو المطلوب. وثانيها: أنه إذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الإنسان به، فيحتمل أن بعض الأعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء، وإذا كان

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (المياه) باب: (ذكر بئر بضاعة) (١/ ٢٧٣)، حديث رقم (٣٢٦)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٥)، كلاهما من طريق عبد العزيز بن مسلم... به.

(٢) تقدم.

كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائمًا، والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث، بخلاف ما إذا كان قليلاً لا يظهر أثره فإنه صار كالمعدوم، أما إذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه. وثالثها: أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه، فإنه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوؤه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوؤه. وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس.

حجة أبي حنيفة وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ دلت الآية على كون الماء مطهرًا والأصل في الثابت بقاؤه، فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة. وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم. وثالثها: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء: ٤٣] علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء؛ لأن الماء المتغير ماء مع صفة التغير، والموصوف موجود حال وجود الصفة، فوجب أن لا يجوز له التيمم. ورابعها: قوله عليه السلام في البحر: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ»[1] ظاهره يقتضي جواز الطهارة به وإن خالطه غيره؛ لأن النبي ﷺ أطلق ذلك. وخامسها: أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وإن خالطه شيء من لعابهما[2]. وسادسها: لا خلاف في الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في الصحارى من الحشيش والنبات، ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرًا إلى السواد وأخرى إلى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلاً في جميع ما خالط الماء إذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء القسم الثاني: إذا كان المخالط للماء شيئًا نجسًا

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الماء لا ينجس) (١/ ١٨)، حديث رقم (٦٨)، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرخصة في ذلك) (١/ ٩٤)، حديث رقم (٦٥) من طريق أبي الحوص... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٣٧)، حديث رقم (٣١٢٠) من طريق شريك... به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بفضل وضوء المرأة) (١/ ١٨٣/ ١٨٤)، حديث رقم (٧٣٤) من طريق يزيد بن عطاء عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٤٨)، حديث رقم (٩١) من طريق شعبة... به، جميعًا عن سماك بن حرب... به، وأخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (سؤر الهرة) (١/ ٢٠)، حديث رقم (٧٥) من طريق عبيد الله بن مسلمة القعنبي... به، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في سؤر الهرة) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٩٢) من طريق معين... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بسؤر الهرة) (١/ ١٣١)، حديث رقم (٣٦٧) من طريق زيد بن الحباب... به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (سؤر الهرة) (١/ ٥٨)، حديث رقم (٦٨) من طريق قتيبة بن سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٥٠٩) من طريق حماد بن خالد... به، والدارمي في كتاب (الطهارة) باب: (الهرة إذا ولغت في الإناء) (١/ ١٨٤)، حديث رقم (٧٣٦) من طريق مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة... به، ومالك في (الموطأ)، كتاب (الطهارة)، باب: (الطهور للوضوء) (١/ ٢٢/ ٢٣)، حديث رقم (١٣)، وابن خزيمة في (صحيحه)، حديث رقم (١٠٤) من طريق ابن وهب... به، جميعًا عن مالك بن أنس... به.

فمن الناس من زعم أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلاً أو كثيرًا وهو قول الحسن البصري والنخعي ومالك وداود، وإليه مال الشيخ الغزالي في كتاب (الإحياء)، وقال أبو بكر الرازي: مذهب أصحابنا أن كل ما تيقنا فيه جزأ من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري؛ لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري، وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي إذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر، فإنما هو كلام في جهة تغليب الظن في بلوغ النجاسة الواقعة في أحد طرفيه إلى الطرف الآخر، وليس هو كلامنا في أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعمالها، وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبي بكر وأقول: من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر: «**إِذَا كَانَ الْمَاءُ أَرْبَعِينَ قُلَّةً لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ**»(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**الْحَوْضُ لاَ يَغْتَسِلُ فِيهِ جُنُبٌ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَرْبَعُونَ غَرْبًا**»(٢) وهو قول محمد بن كعب القرظي، وقال مسروق وابن سيرين: إذا كان الماء كثيرًا لا ينجسه شيء، وقال سعيد بن جبير: الماء الراكد لا ينجسه شيء إذا كان قدر ثلاث قلال وقال الشافعي: إذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه، وإن كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه.

واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ ترك العمل به في الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الأصل. وثانيها: قوله عليه السلام: «**خَلَقَ اللَّهُ الْمَاءَ طَهُورًا لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ**» وهو نص في الباب. وثالثها: قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] المتوضىء بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتيًا بما أمر به فيخرج عن العهدة. ورابعها: أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبًا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء، وكون أحدهما غالبًا على الآخر إنما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح، فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكًا فيها، فلا جرم يغلب حكم النجاسة فإذا لم يظهر شيء من ذلك كان الغالب هو الماء

---

(١) صحيح موقوف: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ٢٦٢) من طريق الثوري ومعمر عن محمد بن المنكدر... به، والدارقطني في (سننه) (١/ ٢٧)، حديث رقم (٣٥) من طريق روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر... به، وأيضًا في نفس المصدر من طريق معمر وسفيان عن محمد بن المنكدر... به، والعقيلي في (الضعفاء) (٣/ ٤٧٣) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر... به.

(قلت): وهذا الحديث إسناده صحيح إلى عبد الله بن عمرو ولكن الصواب كلام النبي ﷺ وهو أولى بالاتباع إذا ثبت صحة الحديث والثابت صحته أن القلتين هي الصحيح كما جاء في الحديث المرفوع أيضًا والله أعلم.

(٢) ذكره أهل التفسير موقوفًا على ابن عباس بدون إسناد.

وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة. وخامسها: ما روي عن عمر (أَنَّهُ) توضأ من جرة نصرانية، مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم، وذلك يدل على أن عمر لم يعول إلا على عدم التغير. وسادسها: أن تقدير الماء بمقدار معلوم ولو كان معتبرًا كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة؛ لأنه لا تكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول ﷺ إلى آخر عصر الصحابة لم ينقل أنهم خاضوا في تقدير المياه بالمقادير المعينة، ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات. وسابعها: إصغاء رسول الله ﷺ الإناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل إلى الآبار. وثامنها: أن الشافعي نص على أن غسالة النجاسات طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إذا تغيرت، وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه؟ وأي معنى لقول القائل: إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة. وتاسعها: أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة، ولا خلاف أن مذهب الشافعي إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وإن كان قليلاً، وأي فرق بين الجاري والراكد؟ وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان؟ وعاشرها: إذا وقع بول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو ظاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل، فأي فرق بينه إذا وقع ذلك القليل في ذلك القدر من الماء ابتداء، وبينه إذا وصل إليه عند اتصال غيره به؟ وحادي عشرها: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدي والأواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الأيدي الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرًا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك إلى حد التواتر؛ لأن الأمر الذي تشتد حاجة الجمهور إليه يجب بلوغ نقله إلى حد التواتر لما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر. وثاني عشرها: أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء إن كان في غاية الكثرة مثل ماء الأودية العظيمة والغدران الكبار، فإن ذلك بالإجماع باطل، فلا بد من التقدير بمقدار معين، وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط، أما تقدير أبي حنيفة بعشر في عشر فمعلوم أنه مجرد تحكم، وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» فضعيف أيضًا؛ لأن الشافعي لما روى هذا الخبر، قال أخبرني: رجل فيكون الراوي مجهولاً، ويكون الحديث مرسلاً وهو عنده ليس بحجة، وأيضًا زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه، سلمنا صحة الرواية لكنه إحالة مجهول على مجهول؛ لأن القلة غير معلومة فإنها تصلح للكوز والجرة ولكل

ما نقل باليد، وهو أيضًا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل، سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر اضطراب فإنه روي «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ»، وروي «إِذَا بَلَغَ قُلَّةً»، وروي «أَرْبَعِينَ قُلَّةً»، وروي «إِذَا بَلَغَ قُلَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»، وروي «إِذَا بَلَغَ كُوزَيْنِ» سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر؛ لأن قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» لا يمكن إجراؤه على ظاهره، فإن الخبث إذا ورد عليه فقد حمله، سلمنا إمكان إجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي، والاسم إذا دار بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي، كان حمله على المسمى اللغوي أولى؛ لأن الاسم حقيقة في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي، دفعًا للاشتراك والنقل، وإذا كان كذلك وجب حمله عليه، والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام: «مَا اسْتَخْبَثَتْهُ الْعَرَبُ فَهُوَ حَرَامٌ»[1] إذا ثبت هذا فنقول: معنى قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» أي لا يصير مستقذرًا طبعًا، ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت: إنه لا ينجس شرعًا، سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به، فيكون هذا دليلاً على صيرورته نجسًا لا على بقائه طاهرًا. لا يقال: الجواب عن هذه الأسئلة أن يقال: إن الشافعي وإن لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلاً، ولأن سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي. قوله: إنه موقوف على ابن عمر، قلنا: لا نسلم فإن يحيى بن معين قال: إنه جيد الإسناد فقيل له: إن ابن علية وقفه على ابن عمر، فقال: إن كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله: القلة مجهولة قلنا: لا نسلم؛ لأن ابن جريج قال في روايته: «بِقِلَالِ هَجَرٍ». ثم قال: وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئًا. قوله: في متنه اضطراب قلنا: لا نسلم لأنا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبرًا. قوله: إنه متروك الظاهر قلنا: إذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع ذلك، وذلك أولى لأن حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلي، لا سيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل، قوله: المراد أنه يضعف عن حمله قلنا: صح في بعض الروايات أنه قال: «إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَنْجُسْ»، ولأنه عليه السلام جعل القلتين شرطًا لهذا الحكم، والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة؛ لأنا نقول: لا شك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وعموم قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ

(١) لا أصل له: وهذا الحديث منكر ولذلك قال الألوسي في (روح المعاني)، معدان ذكر الحديث (٦/ ٥٦).

قال: وقد علم أن الذي تستخبثه غير مضبوط فسيد العرب بل سيد العالمين عليه الصلاة والسلام لما رآهم يأكلون الضب قال: (يعافه طبعي) ولم يكن ذلك سببًا لتحريمه. وأما سائر العرب ففيهم من لا يستقذر شيئًا وقد يختلفون في بعض الأشياء فيستقذرها قوم ويستطيبها آخرون فعلم أن أمر الاستقذار غير مضبوط بل هو مختلف باختلاف الأشخاص والأحوال فكيف يجوز نسخ هذا النص القاطع بذلك الأمر الذي ليس له ضابط معين ولا قانون معلوم» انتهى.

(قلت): بل هو في الصحيحين من رواية خالد بن الوليد بلفظ (لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه . . . الحديث).

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وعموم قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وعموم قوله ﷺ: «خُلِقَ الْمَاءُ طَهُورًا لا ينجسه شيء»[١] وهذا المتخصص لا بد وأن يكون بعيدًا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئًا ليس بحجة؛ لأن القلة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فإنها قد تكون كبيرة، وقد تكون صغيرة، ولأن الروايات أيضًا مختلفة فتارة قال: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ»، وتارة «أَرْبَعِينَ قلة»، وتارة كرين فإذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر. هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك، واحتج من حكم بنجاسة الماء الذي تقع النجاسة فيه بوجوه: أولها: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والنجاسات من الخبائث، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ [النحل: ١١٥]، وقال في الخمر: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] ومر عليه السلام بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ إِنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ لاَ يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ وَالآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[٢] فحرم الله هذه الأشياء تحريمًا مطلقًا، ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء، فوجب تحريم استعمال كل ما يبقى فيه جزء من النجاسة أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرًا تقتضي جواز الطهارة به، ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التي ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر إذا اجتمعا فالغلبة للحاظر، ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لأحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد، أن جهة الحظر فيها أولى من جهة الإباحة، وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا هاهنا. وثانيها: قوله عليه السلام: «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنَ الْجَنَابَةِ»[٣] ذكره على الإطلاق من غير فرق بين القليل والكثير. وثالثها: قوله عليه السلام: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنَ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الماء لا يجنب) (١/ ١٩)، حديث رقم (٦٨)، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرخصة في ذلك) (١/ ٩٤)، حديث رقم (٦٥)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (المياه) (١/ ٢٧١/ ٢٧٢)، حديث رقم (٣٢٤)، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الرخصة بفضل وضوء المرأة) (١/ ١٣٢)، حديث رقم (٣٧)، جميعًا من طريق الأحوص... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٣٥/ ٣٠٨)، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بفضل وضوء المرأة)، (١/ ٢٠٣)، حديث رقم (٧٣٥) من طريق سفيان... به، وكذلك أحمد في (مسنده) (١/ ٣٣٧) من طريق شريك... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٤٨)، حديث رقم (٩١) من طريق شعبة... به، أربعتهم (أبو الأحوص، سفيان، شريك، شعبة) عن سماك بن حرب... به، جميعًا من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس... فذكره، وليس فيه (خلق).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الوضوء) (١/ ٣٨٥)، حديث رقم (٢١٨) من طريق محمد بن حزم... به، ومسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه) (١/ ١١١/ ٢٤٠/ ٢٤١) من طريق وكيع... به، جميعًا عن الأعمش... به.

(٣) حسن صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (البول في الماء الراكد) (١/ ٤١)، حديث رقم (٧٠)، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن البول في الماء الراكد) (١/ ١٢٤)، حديث رقم (٣٤٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٣٣).

مَنَامِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا الْإِنَاءَ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»[١] فأمر بغسل اليد احتياطًا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء، ومعلوم أن مثلها إذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده ما كان للأمر بالاحتياط منها معنى. ورابعها: قوله عليه السلام: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا»[٢] يدل بمفهومه على أنه إذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث. أجاب مالك عن الوجه الأول فقال: لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة إذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته، فلم قلتم إن تلك النجاسة بقيت، ولم لا يجوز أن يقال إنها انقلبت عن صفتها؟ وتقريره ما قدمناه. وأما قوله عليه السلام: «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ»[٣] فلم قلتم إن هذا النهي ليس إلا لما ذكرتموه، بل لعل النهي إنما كان لأنه ربما شربه إنسان وذلك مما ينفر طبعه عنه، وليس الكلام في نفرة الطبع، وأما قوله: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ ثَلَاثًا»[٤] فقد أجمعنا على أن هذا الأمر استحباب، فالمرتب عليه كيف يكون أمر إيجاب ثم بتقدير أن يكون أمر إيجاب، فلم قلتم: إنه لم يوجه ذلك الإيجاب إلا لما ذكرتموه؟ وأما قوله عليه السلام: «إذا بلغ الماء قلتين» فقد سبق الكلام عليه، ثم بعد النزول عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التي ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم، والله أعلم.

النظر الثاني: في أن غير الماء هل هو طهور أم لا؟ فقال الأصم والأوزاعي: يجوز الوضوء بجميع المائعات، وقال أبو حنيفة: يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر، وقال أيضًا: تجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات التي تزيل أعيان النجاسات، وقال الشافعي رضي الله عنه: الطهورية مختصة بالماء على الإطلاق ودليله في صورة الحدث قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] أوجب التيمم عند عدم الماء، ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء، وأما في صورة الخبث، فلأن الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورًا؛ لأنه لا معنى للطهور إلا المطهر ولو كان طهورًا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة) (٣/ ١٨١) نووي، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرجل يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها) (١/ ٥٤)، حديث رقم (١٠٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٥٣/ ٤٧١) من طريق الأعمش عن أبي رزين وأبي صالح . . . به.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (ما ينجس الماء) (١/ ١٧)، حديث رقم (٦٣) من طريق محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة والحسن بن علي وغيرهم . . . به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (التوقيت في الماء) (١/ ٤٩)، حديث رقم (٥٢) من طريق هناد بن السرى والحسين بن حريث . . . به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (قدر الماء الذي لا ينجس) (١/ ١٨٣)، حديث رقم (٧٣٢)، جميعًا عن أبي أسامة . . . به.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

«لاَ يَقْبَلُ اللَّه صَلاَةَ أَحَدِكُمْ حَتَّى يَضَعَ الطَّهُورَ مَوَاضِعَهُ»(١) وكلمة (حَتَّى) لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول، فلو كان الخل طهورًا لحصل باستعماله قبول الصلاة، وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية في الخبث أيضًا مختصة بالماء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

المسألة الأولى: اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ إلى أي شيء يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه: أحدها: وهو الذي عليه الجمهور أنه يرجع إلى المطر، ثم من هؤلاء من قال معنى (صَرَّفْنَاهُ): أنا أجريناه في الأنهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به، وقال آخرون معناه: أنه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام، ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الأول، قال ابن عباس: ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض، ثم قرأ هذه الآية، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللَّه ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَإِذَا عَصَوْا جَمِيعًا صَرَفَ اللَّه ذَلِكَ إِلَى الْفَيَافِي»(٢) وثانيها: وهو قول أبي مسلم: أن قوله: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ راجع إلى المطر والرياح والسحاب والأظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الأدلة. وثالثها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على رسل وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع، والوجه الأول أقرب؛ لأنه أقرب المذكورات إلى الضمير.

المسألة الثانية: قال الجبائي: قوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك، وذلك يبطل قول من قال: إن الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر، قال: ودل قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ على قدرتهم على فعل هذا التذكر إذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال: أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزَّمن أبى أن يسعى، وقال الكعبي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ حجة على من زعم أن

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود) (١/ ٣٨٠)، حديث رقم (٨٥٧)، وأحمد في (مسنده (٤/ ٣٤٠) من طريق علي بن يحيى بن خلاد وإسناده صحيح.

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ٢٠٨) من طريق عباد بن الوليد حدثنا علي بن حميد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ... فذكره، وابن حبان في (الثقات) (٨/ ٤٦٢)، حديث رقم (١٤٤٤٠)، تحت ترجمة علي بن حميد السلولي... فذكره، وقال عن علي بن حميد: يغرب، وكذلك ذكره الذهبي في (الميزان) (٥/ ١٥٤)، تحت ترجمة علي بن حميد وقال: غريب جدًا.

القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا؛ لأن قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ عام في الكل، وقوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يقتضي أن يكون هذا الأكثر داخلاً في ذلك العام؛ لأنه لا يجوز أن يقال: أنزلناه على قريش ليؤمنوا، فأبى أكثر بني تميم إلا كفورًا. واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه، وقيل: المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر إنما حصل؛ لأنهم يقولون: مطرنا بنوء كذا؛ لأن من جحد كون النعم صادرة من المنعم، وأضاف شيئًا من هذه النعمة إلى الأفلاك والكواكب فقد كفر، واعلم أن التحقيق أن من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلا شك في كفره، وأما من قال: الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث، فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر.

المسألة الرابعة: قالوا: الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له؛ لأن كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث في كل قرية نذيرًا، ثم إنه تعالى أخبر عن كونه قادرًا على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ فالأقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبي ﷺ وذلك لوجوه: **أحدها:** كأنه تعالى بيّن له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير في كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا توافقهم. **وثانيها:** المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة إلى كل العالمين ولبعثنا في كل قرية نذيرًا ولكنا قصرنا الأمر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل هذا الإجلال بالتشدد في الدين. **وثالثها:** أن الآية تقتضي مزج اللطف بالعنف؛ لأنها تدل على القدرة على أن يبعث في كل قرية نذيرًا مثل محمد، وأنه لا حاجة بالحضرة الإلهية إلى محمد ألبتة، وقوله: ﴿وَلَوْ﴾ يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك، فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب، وبالنظر إلى الثاني يحصل الإعزاز.

أما قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فالمراد نهيه عن طاعتهم، ودلت هذه الآية على أن النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي عنه مشتغلاً به.

وأما قوله: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فقال بعضهم: المراد بذل الجهد في الأداء، والدعاء وقال بعضهم: المراد القتال، وقال آخرون: كلاهما، والأقرب الأول؛ لأن السورة مكية، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وإنما قال: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وَجَاهِدْهُم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلاهما وأرسلهما يقال: مرجت الدابة إذا خليتها ترعى، وأصل المرج الإرسال والخلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق: ٥] سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين. قال ابن عباس: مرج البحرين، أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان، وقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى (يَصِيرَ) إلى الحلاوة. والأجاج نقيضه، وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج، وجعل من عظيم اقتداره برزخًا حائلاً من قدرته.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما معنى قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؟ الجواب: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرًا محجورًا، كما قال: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ٢٠] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي (ثمة) كالتعوذ، وهاهنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه، فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات.

السؤال الثاني: لا وجود للبحر العذب، فكيف ذكره الله تعالى هاهنا؟ لا يقال: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون. الثاني: لعله جعل في البحار موضعًا يكون أحد جانبيه عذبًا والآخر ملحًا؛ لأنا نقول: أما الأول فضعيف؛ لأن هذه الأودية ليس فيها ملح، والبحار ليس فيها ماء عذب، فلم يحصل ألبتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف؛ لأن موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلومًا، فأما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال؛ لأنا نقول: المراد من البحر العذب هذه الأودية، ومن الأجاج البحار الكبار، وجعل بينهما برزخًا، أي حائلاً من الأرض، ووجه الاستدلال هاهنا بيِّن؛ لأن العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء، فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة معينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد.

وفيه بحثان:

الأول: ذكروا في هذا الماء قولين: أحدهما: أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان، وهو الذي عناه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[النور: ٤٥] والثاني: أن المراد النطفة لقوله: ﴿خُلِقَ مِن

مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

البحث الثاني: المعنى أنه تعالى قسَّمَ البشر قسمين ذوي نسب، أي ذكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر، أي إناثًا (يصاهرن) ونحوه، قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم في عبادة الأوثان.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قيل: المراد بالكافر أبو جهل؛ لأن الآية نزلت فيه، والأولى حمله على العموم؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، ولأنه أوفق بظاهر قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

المسألة الثانية: ذكروا في الظهير وجوهًا: أحدها: أن الظهير بمعنى المظاهر، كالعوين بمعنى المعاون، وفعيل بمعنى مفاعل غير (غريبٍ)، والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة. فإن قيل: كيف يصح في الكافر أن يكون معاونًا للشيطان على ربه بالعداوة؟ قلنا: إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وثانيها: يجوز أن يريد بالظهير الجماعة، كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] كما جاء الصديق والخليط، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور (دينِ) الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. وثالثها: قال أبو مسلم الأصفهاني: الظهير من قولهم: ظهر فلان بحاجتي إذا نبذها وراء ظهره، وهو من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] ويقال فيمن يستهين بالشيء: نبذه وراء ظهره، وقياس العربية أن يقال: مظهور، أي مستخف به متروك وراء الظهر، فقيل: فيه ظهير في معنى مظهور، ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فتعلق ذلك بما تقدم، هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله، والله تعالى بعث رسوله لنفعهم؛ لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة، وينذرهم على المعصية، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب، فلا جهل أعظم من جهل من

استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته دينًا ودنيا، ولا يسألهم على ذلك ألبتة أجرًا.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ فذكروا فيه وجوهًا متقاربة أحدها: لا يسألهم على الأداء والدعاء أجرًا إلا أن يشاءوا أن يتقربوا بالإنفاق في الجهاد وغيره، فيتخذوا به سبيلاً إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه. وثانيها: قال القاضي: معناه لا أسألكم عليه أجرًا لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم. وثالثها: قال صاحب (الكشاف): مثال قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابًا على ما سعيت، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابًا، فإني أطلب الثواب، والثانية إظهار الشفقة البالغة، وأن حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله إليَّ، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً، تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة، وقيل المراد: التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

أما قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فالمعنى أنه سبحانه لما بيَّن أن الكفار متظاهرون على إيذائه، فأمره بأن لا يطلب منهم أجرًا ألبتة، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار، وفي جلب جميع المنافع، وإنما قال: ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأن من توكل على الحي الذي يموت، فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعًا، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه ألبتة.

أما قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول، ومنهم من حمله على الصلاة، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً وهو بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد، كأنه قال: إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور: أولها: بأنه حي لا يموت وهو قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وثانيها: أنه عالم بجميع

المعلومات وهو قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ متصل بقوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام؟ الجواب: يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدمًا محضًا، بل لا بد وأن يكون موجودًا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان؛ لأنا نقول هذا معارض بنفس الزمان؛ لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول: لعل الله سبحانه خلق المدة أولاً ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام، ومن الناس من قال: في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد؛ لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

السؤال الثاني: لم قدَّر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة: بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين: أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبًا لذاته أو جائزًا فإن كان واجبًا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلاً في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببًا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزًا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل. والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورًا به كيف يقدح في حصول المصالح.

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة، فإنه بحر لا ساحل له. من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات السبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالإقرار بأن كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ

ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾[المدثر: ٣١] ثم قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾[المدثر: ٣١] وهذا هو الجواب أيضًا في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير أنه إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلقه الرفق والتثبت، قيل: تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدًا للمسلمين.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾؟ ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة؛ لأن الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول (ثُمَّ) فيه والجواب: الاستقرار غير جائز؛ لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث، ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾[محمد: ٣١] فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون، فإن قيل: فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٧] قلنا: كلمة (ثم) ما دخلت على خلق العرش، بل على رفعه على السموات.

السؤال الرابع: كيف إعراب قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؟ الجواب: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبره، أو هو صفة للحي، والرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ثم يبتدىء بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له، ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

السؤال الخامس: ما معنى قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؟ الجواب: ذكروا فيه وجوهًا أحدها: قال الكلبي: معناه فاسأل خبيرًا به وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى ما ذكرنا من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل؛ لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وإنما قدم لرءوس الآي وحسن النظم. وثانيها: قال الزجاج: قوله: ﴿بِهِۦ﴾ معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرًا، وهو قول الأخفش، ونظيره قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج: ١] وقال علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ(١)

وثالثها: قال ابن جرير الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ صلة والمعنى فسله خبيرًا، وخبيرًا نصب على الحال.

ورابعها: أن قوله ﴿بِهِۦ﴾ يجري مجرى القسم كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾[النساء: ١].

أما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر عَلْقَمَةِ الفَحل وهو: علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم؟- ٢٠ ق. هـ/ ؟- ٦٠٣م. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرئ القيس وله معه مساجلات. وأسر الحارث بن أبي شمر الغساني أخًا له اسمه شأس، فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات فأطلقه.

ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى، ويحتمل أنهم إن عرفوه لكنهم جحدوه، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الأخير قالوا: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة، والعرب ما عرفوه قال مقاتل: إن أبا جهل قال: إن الذي يقوله محمد شعر، فقال عليه السلام: الشعر غيرُ هذا إن هذا إلا كلام الرحمن فقال أبو جهل: بخ بخ لعمري والله إنه لكلام الرحمن الذي باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام: «الرَّحْمَنُ الَّذِي هُوَ إِلَهُ السَّمَاءِ وَمِنْ عِنْدِهِ يَأْتِينِي الْوَحْيُ»(١) فقال: يا آل غالب، من يعذرني من محمد يزعم أن الله واحد، وهو يقول الله يعلمني والرحمن، ألستم تعلمون أنهما إلهان ثم قال: ربكم الله الذي خلق هذه الأشياء، أما الرحمن فهو مسيلمة. قال القاضي: والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم؛ لأن هذه اللفظة عربية، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الإنعام، ثم إن قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ سؤال طالب عن الحقيقة، وهو يجري مجرى قول فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] وإن قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ سؤالاً عن الاسم.

أما قوله: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ فالمعنى للذي تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير، أو لأمرك لنا، وقرىء (يَأۡمُرُنَا) بالياء كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو، وزادهم أمره نفورًا، ومن حقه أن يكون باعثًا على الفعل والقبول. قال الضحاك: فسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين. فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾ أي: فزادهم سجودهم نفورًا.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ۝٦٢﴾

اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعباد للرحمن فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ أما تبارك فقد تقدم القول فيه، وأما البروج فهي منازل السيارات وهي مشهورة سميت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها، واشتقاق البروج من التبرج لظهوره، وفيه قول آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن البروج هي الكواكب العظام والأول أولى؛ لقوله

(١) لم أجده.

تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في البروج فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون قوله: ﴿فِيهَآ﴾ راجعًا إلى السماء دون البروج؟ قلنا: لأن البروج أقرب فعود الضمير إليها أولى. والسراج الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وقرىء (سُرُجًا) وهي الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والأعمش (وَقَمْراً مُنِيراً) وهي جمع ليلة قمراء كأنه قيل: وذا قمرًا منيرًا؛ لأن الليالي تكون قمراء بالقمر فأضافه إليها، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرَّشَد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب. وأما الخلفة ففيها قولان: الأول: أنها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه، يقال فلان خلفة واختلاف، إذا اختلف كثيرًا إلى متبرزه، والمعنى جعلهما ذوي خلفة أي ذوي عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرَّط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر، قال: أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل: «**يا ابْنَ الخَطَّابِ لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّه فِيكَ آيَةً وَتَلاَ**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ **مَا فَاتَكَ مِنَ النَّوَافِلِ بِاللَّيْلِ فَاقْضِهِ فِي نَهَارِكَ، وَمَا فَاتَكَ مِنَ النَّهَارِ فَاقْضِهِ فِي لَيْلِكَ**»[1] القول الثاني: وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي: يقال لكل شيئين اختلفا: هما خلفان فقوله: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير، والقول الأول أقرب.

أما قوله تعالى: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب (يتذكر)، والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال (وتغيرهما) من ناقل ومغير وقوله: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ راجع إلى كل ما تقدم من النعم، بيَّن تعالى أن الذين قالوا: وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته، ولشكر الشاكرين على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين، من فاته في أحدهما ورد من العبادة قام به في الآخر، والشكور مصدر شكر يشكر شكورًا.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ

---

(١) عبد الرزاق في (تفسيره) (٥/ ٦٣)، حديث رقم (٢٠٣٤) من طريق معمر عن الحسن... فذكره، وهذا موقوف على الحسن.

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾، واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات، وقرىء (وَعِبادُ الرَّحْمنِ) واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرىء ﴿يَمْشُونَ﴾ ﴿هَوْنًا﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشيًا هينًا، إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة، والهون الرفق واللين ومنه الحديث «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا» وقوله: «الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ» والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم (وَلاَ يَخْفِقُونَ بِنِعَالِهِمْ) أشرًا وبطرًا، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وعن زيد بن أسلم التمست تفسير ﴿هَوْنًا﴾ فلم أجد، فرأيت في النوم فقيل لي: هم الذين لا يريدون الفساد في الأرض، وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوًا في الأرض.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليمًا، فأقيم السلام مقام التسليم، ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت، ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا، ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة، ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل، قال الأصم: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي سلام توديع لا تحية، كقول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] ثم قال الكلبي وأبو العالية: نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: أحدهما: ترك الإيذاء، وهو المراد من قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ والآخر تحمل التأذي، وهو المراد من قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار، فبيّن في هذه الآيات سيرتهم في الليالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] ثم قال الزجاج: كل من أدركه الليل قيل، بات وإن لم ينم كما يقال: بات فلان قلقًا، ومعنى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ أن يكونوا في لياليهم مصلين، ثم اختلفوا فقال بعضهم: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاة وإن قل، فقد بات ساجدًا وقائمًا، وقيل: ركعتين بعد المغرب وأربعًا بعد العشاء الأخيرة، والأولى أنه وصف لهم

بإحياء الليل أو أكثره يقال: فلان يظل صائمًا ويبيت قائمًا، قال الحسن: يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجري دموعهم على خدودهم خوفًا من ربهم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول، وقال الحسن: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقًا من عذاب جهنم، وقوله: ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا ملحًا لازمًا، ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه، ويقال: فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعًا بهن، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال: هو الموجع، وعن محمد بن كعب في ﴿غَرَامًا﴾ أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار، واعلم أنه تعالى وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانًا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ فقوله: ﴿سَآءَتۡ﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره (مُسْتَقِرًّا)، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرًا ومقامًا هي (وَهَذَا الضَّمِيرُ هُوَ الَّذِي رَبَطَ الْجُمْلَةَ بِاسْمِ إِنَّ وَجَعَلَهَا خَبَرًا، لَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَاءَتْ بِمَعْنَى أَحْزَنَتْ، وَفِيهَا ضَمِيرُ اسْمِ إِنَّ) ومستقرًا حال أو تمييز، فإن قيل دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين: إحداهما أن عذابها كان غرامًا، وثانيهما: أنها ساءت مستقرًا ومقامًا، فما الفرق بين الوجهين؟ وأيضًا فما الفرق بين المستقر والمقام؟ قلنا: المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة، فقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع، وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إشارة إلى كونها دائمة، ولا شك في المغايرة، أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها، وأما الإقامة فللكفار، واعلم أن قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يمكن أن يكون من كلام الله تعالى ويمكن أن يكون حكاية لقولهم.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ قرىء (يَقْتُرُوا) بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضًا بضم الباء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات. والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة. وذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوهًا: أحدها: وهو الأقوى أنه تعالى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وعن وهيب بن الورد قال لعالم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر، فقال له: فما الطعام الذي لا سرف فيه؟ قال ما سد الجوعة، فقال له: في اللباس، قال:

ما ستر عورتك ووقاك من البرد، وروي أن رجلاً صنع طعامًا في إملاك فأرسل إلى الرسول عليه السلام فقال: «حَقٌّ فَأَجِيبُوا»[١] ثم صنع الثانية فأرسل إليه فقال: «حَقٌّ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُجِبْ وَإِلاَّ فَلْيَقْعُدْ» ثم صنع الثالثة فأرسل إليه فقال: «رِيَاءٌ وَلاَ خَيْرَ فِيهِ». وثانيها: وهو قول ابن عباس ومجاهد، وقتادة، والضحاك: أن الإسراف الإنفاق في معصية الله تعالى، والإقتار منع حق الله تعالى، قال مجاهد: لو أنفق رجل مثل أبي قبيس ذهبًا في طاعة الله تعالى لم يكن سرفًا ولو أنفق صاعًا في معصية الله تعالى كان سرفًا، وقال الحسن: لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي، وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله، وهو أقبح التقتير، وقد يكون عما لا يجب، ولكن يكون مندوبًا مثل الرجل الغني الكثير المال إذا منع الفقراء من أقاربه: وثالثها: المراد بالسرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال، فإن ذلك مكروه؛ لأنه يؤدي إلى الخيلاء، والإقتار هو التضييق فالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وإن أكل بقدر الحاجة فذاك إقتار، وهذه الصفة صفة أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوبًا للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد.

وهاهنا مسألتان:

المسألة الأولى: القوام، قال ثعلب: القوام بالفتح العدل والاستقامة، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر، قال صاحب (الكشاف): القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرىء (قَوامًا) بالكسر وهو ما يقام به الشيء، يقال: أنت قوامنا، يعني ما يقام به الحاجة لا يفضل عنه ولا ينقص.

المسألة الثانية: المنصوبان أعني ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ جائز أن يكونا خبرين معًا، وأن يجعل بين ذلك لغوًا وقوامًا مستقرًا، وأن يكون الظرف خبرًا وقوامًا حالاً مؤكدة، قال الفراء: وإن شئت جعلت ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ اسم كان، كما تقول: كان دون هذا كافيًا، تريد أقل من ذلك، فيكون معنى ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: كان الوسط من ذلك قوامًا، أي عدلاً، وهذا التأويل ضعيف؛ لأن القوام هو الوسط فيصير التأويل، وكان الوسط وسطًا وهذا لغو.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

(١) لم أجده.

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، ثم استثنى من جملتهم التائب.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفيفة، فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى؟ الجواب: أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكًا بالشرك تدينًا ومقدمًا على قتل الموءودة تدينًا وعلى الزنا تدينًا، فبيَّن تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانبًا لهذه الكبائر، وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال: المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار، كأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر وأنت تدعون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وأنتم تقتلون الموءودة، ﴿وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ وأنتم تزنون.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل في النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء؟ الجواب: المقتضى لحرمة القتل قائم أبدًا، وجواز القتل إنما ثبت بالمعارض فقوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى المقتضى وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى المعارض.

السؤال الثالث: بأي سبب يحل القتل؟ الجواب: بالردة وبالزنا بعد الإحصان، وبالقتل قودًا على ما في الحديث، وقيل وبالمحاربة وبالبينة، وإن لم يكن لما شهدت به حقيقة.

السؤال الرابع: منهم من فسر قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالردة فهل يصح ذلك؟ الجواب: لفظ القتل عام فيتناول الكل. وعن ابن مسعود «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»[1] فأنزل الله تصديقه.

السؤال الخامس: ما الأثام؟ الجواب: فيه وجوه: **أحدها:** أن الأثام جزاء الإثم، بوزن الوبال والنكال. **وثانيها:** وهو قول أبي مسلم: أن الأثام والإثم واحد، والمراد هاهنا جزاء الأثام فأطلق

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]) (٨/ ١٣)، حديث رقم (٤٤٧٧)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده) (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (في تعظيم الزنا) (٢/ ٩٩٧)، حديث رقم (٢٣١٠)، جميعًا من طريق منصور... به.

اسم الشيء على جزائه. **وثالثها:** قال الحسن: الأثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنم، (وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ (أَثاماً) أَيْ شَدِيدًا، يُقَالُ: يَوْمٌ ذُو أَثَامٍ لِلْيَوْمِ الْعَصِيبِ).

أما قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بدل من ﴿يَلۡقَ﴾ لأنهما في معنى واحد، وقرىء (يُضْعَفْ) و(نُضْعِفْ لَهُ الْعَذَابَ) بالنون ونصب العذاب، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحال، وكذلك (يَخْلُدْ) (وَقُرِئَ) (وَيُخْلَدْ) على البناء للمفعول مخففًا ومثقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرىء (وَتَخْلُدْ) بالتاء على الالتفات.

المسألة الثانية: سبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعًا، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع.

المسألة الثالثة: قال القاضي: بيَّن الله تعالى أن المضاعفة والزيادة يكون حالهما في الدوام كحال الأصل، فقوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ أي ويخلد في ذلك التضعيف، ثم إن ذلك التضعيف إنما حصل بسبب العقاب على المعاصي، فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصي في حق الكافر دائمًا، وإذا كان كذلك وجب أن يكون في حق المؤمن كذلك؛ لأن حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفردًا. والجواب: لم لا يجوز أن يكون للإتيان بالشيء مع غيره أثر في مزيد القبح، ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما في نفسه حسنًا وإن كان الجمع بينهما قبيحًا، وقد يكون كل واحد منهما قبيحًا، ويكون الجمع بينهما أقبح، فكذا هاهنا.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة، كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: دلت الآية على أن التوبة مقبولة، والاستثناء لا يدل على ذلك؛ لأنه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين، فيكفي لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين، وإنما الدال عليه قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾.

المسألة الثانية: نقل عن ابن عباس أنه قال: توبة القاتل غير مقبولة، وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] وقالوا: نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة، وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين، وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة النساء.

المسألة الثالثة: فإن قيل: العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان، فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوًا، قلنا: أفردهما بالذكر لعلو شأنهما، ولما كان لا بد معهما من سائر الأعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح.

المسألة الرابعة: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ على وجوه: أحدها: قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: إن التبديل إنما يكون في الدنيا، فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا، فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب. وثانيها: قال الزجاج: السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات. وثالثها: قال قوم: إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّه سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»(١) وعلى هذا التبديل في الآخرة. ورابعها: قال القفال والقاضي: أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة؛ لأن الإثابة لا تكون إلا من الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما فائدة هذا التكرير؟ الجواب: من وجهين: الأول: أن هذا ليس بتكرير؛ لأن الأول لما كان في تلك الخصال بيَّن تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها في صحة التوبة منها. الثاني: أن التوبة الأولى رجوع عن الشرك والمعاصي، والتوبة الثانية رجوع إلى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] أي مرجعي.

السؤال الثاني: هل تكون التوبة إلا إلى الله تعالى فما فائدة قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾؟ الجواب من وجوه: **الأول:** ما تقدم من أن التوبة الأولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع إلى حكم الله تعالى وثوابه. **الثاني:** معناه أن من تاب إلى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم. **الثالث:** قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ يرجع إلى الماضي فإنه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل، وهذا من أعظم البشارات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ٧٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الزور يحتمل إقامة الشهادة الباطلة، ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة

(١) حسن: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٢٨١)، حديث رقم (٧٩٤٣) من طريق الفضل بن موسى عن أبي العنبسي عن أبيه عن أبي هريرة... به، وقال: إسناده صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢١٧٧)، وقال: حسن، والثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٠٤) من طريق محمد بن عبد العزيز أبي رزقة قال: حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبسي عن ابنه عن أبي هريرة... به.

الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام: ٦٨] ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق؛ لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية؛ لأن الحضور والنظر دليل الرضا به، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه؛ لأن الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله، وقال محمد بن الحنفية: الزور الغناء، واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر.

المسألة الثانية: الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك، ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة، وهو ضعيف؛ لأن المباحات لا تعد لغوًا فقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي بأهل اللغو.

المسألة الثالثة: لا شبهة في أن قوله: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم لها لا يكون إلا بالإعراض وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة، ويدخل فيه الشرك واللغو في القرآن وشتم الرسول، والخوض فيما لا ينبغي وأصل الكلمة من قولهم: ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند الحلب تكرمًا، كأنها لا تبالي بما يحلب منها للغزارة، فاستعير ذلك للصفح عن الذنب، وقال الليث: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥] وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا، وقيل: إذا ذكر النكاح كنوا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال: لا يلقاني زيد مُسلمًا، هو نفي للسلام لا للقاء، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصًا على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا (يفهمونها ولا يبصرون) ما فيها كالمنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (ذُرِّيَّاتِنا) بألف الجمع

وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدًا وجمعًا.

المسألة الثانية: أنه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الأمور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهان: أحدهما: أنهم سألوا أزواجًا وذرية في الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله فيقوى طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع وفي الآخرة عند حصول الثواب. والثاني: أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم.

المسألة الثالثة: فإن قيل: (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ ما هي؟ قلنا: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ وهو من قولهم: رأيت منك أسدًا أي أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قيل: لم قال: ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ فنكر وقلل؟ قلنا: أما التنكير فلأجل تنكير القرة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال: هب لنا منهم سرورًا وفرحًا وإنما قال: (أَعْيُنٍ) دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

المسألة الرابعة: قال الزجاج: أقر الله عينك أي: صادف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل: في قرة العين ثلاثة أقوال: أحدها: يرد دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة. والثاني: نومها؛ لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع. والثالث: حضور الرضا.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الأقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدى بهم، قال بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

المسألة السادسة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا؛ لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله تعالى وخلقه، وقال القاضي: المراد من السؤال الألطاف التي إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء فيصيرون أئمة والجواب: أن تلك الألطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثًا.

المسألة السابعة: قال الفراء: قال: (إِمَامًا)، ولم يقل: أئمة كما قال للاثنين: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إمامًا كما قال: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧] وقال الأخفش: الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام. وقال القفال: وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل: اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة يقال: هؤلاء بينة فلان. واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بيَّن بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم وهي مجموعة في أمرين المنافع والتعظيم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ۝٧٧﴾

والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠] والغرفة في اللغة: العلية، وكل بناء عالٍ فهو غرفة، والمراد به الدرجات العالية. وقال المفسرون: الغرفة اسم الجنة، فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة، وقرأ بعضهم: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ فِي الْغُرْفَةِ) وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق فقال: الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك.

البحث الثاني: ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه، ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال في معرفة الله تعالى، وعلى مشاق الطاعات، وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول: المراد الصبر على الفقر خاصة؛ لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر.

وثانيهما التعظيم: وهو قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾: قرىء (يلقون) كقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] ويلقون كقوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، والتحية: الدعاء بالتعمير، والسلام: الدعاء بالسلامة، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقيًا غير منقطع، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصًا عن شوائب الضرر، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض. أما قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ فالمراد أنه سبحانه لما وعد بالمنافع أولاً وبالتعظيم ثانيًا، بيّن أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ومن صفتهما الخلوص أيضًا وهو المراد من قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا في مقابلة قوله: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أي: ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا.

أما قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ فاعلم أنه سبحانه لما شرح صفات المتقين، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ فدل بذلك على أنه تعالى غنيٌّ عن عبادتهم، وأنه تعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الخليل: ما أعبأ بفلان أي: ما أصنع به كأنه (يَسْتَقِلُّهُ) ويستحقره، وقال أبو عبيدة: ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء، وقال الزجاج: معناه أي لا وزن لكم عند ربكم، والعبء في اللغة الثقل، وقال أبو عمرو بن العلاء: ما يبالي بكم ربي.

المسألة الثانية: في ﴿مَا﴾ قولان: أحدهما: أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم. والثاني أن تكون ما نافية.

المسألة الثالثة: ذكروا في قوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ وجهين: أحدهما: لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف إلى المفعول. وثانيهما: أن الدعاء مضاف إلى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: لولا دعاؤكم لولا إيمانكم. وثانيها: لولا عبادتكم. وثالثها: لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ورابعها: دعاؤكم يعني لولا شكركم له على إحسانه لقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وخامسها: ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم.

أما قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ فالمعنى أني إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة، ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني، وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك. فإن قيل: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلنا: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم (مُؤْمِنُونَ) عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرىء (فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ) (فسوف) يكون العذاب لِزامًا، وقرئ (لَزامًا) بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت، والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف، ثم قيل: هذا العذاب في الآخرة، وقيل: كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله، والله أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكيَّةٌ كلها في قول الجمهور[1]. وقال ابنُ عباس وقتادة: إلا ثلاث آياتٍ منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2] [الآية: ٦٨-٧٠] وقال الضحَّاك: هي مدنيةٌ، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات[3].

ومقصودُ هذه السورة ذِكرُ موضع عِظم[4] القرآن، وذِكْرُ مطاعنِ الكفَّار في النبوَّة، والردُّ على مقالاتهم[5]، فمن جملتها قولُهم: إنَّ القرآن افتراه محمدٌ، وإنه ليس من عند اللهِ[6].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ «تَبَارَكَ» اختلف في معناه؛ فقال الفرَّاءُ: هو

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٠ ، وزاد المسير ٦/ ٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٤) في النسخ: عظيم . والمثبت من (م).

(٥) بعدها في (م) وجهالاتهم .

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

في العربية و«تقدَّس» واحدٌ، وهما للعظَمة. وقال الزجاج: «تَبَارَكَ»: تَفَاعَلَ من البركة. قال: ومعنى البَرَكَة: الكَثْرَةُ من كلِّ ذي خيرٍ. وقيل: «تَبَارَكَ»: تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي: زاد وكثُر. وقيل: المعنى دام وثبَت إنعامُه. قال النحاس[1]: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من بَرك الشيءُ: إذا ثبَت، ومنه: بَرك الجملُ والطيرُ على الماء، أي: دام وثبت. فأما القولُ الأوَّل فمخلَّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيءٍ. قال الثعلبيُّ: ويقال: تبارك اللهُ، ولا يقال له[2]: متبارَك ولا مبارَك؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورَد التوقيفُ. وقال الطِّرِمَّاح:

تباركتَ لا مُعطي لشيءٍ منعتَه ... وليس لِما أعطيتَ يا ربِّ مانعُ[3]

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ[4]

قلت: قد ذكر بعضُ العلماء في أسمائه الحسنى: «المبارك»، وذكرناه أيضاً في كتابنا[5]. فإن كان وقع اتفاقٌ على أنه لا يقال، فيسلَّم للإجماع، وإن كان وقع فيه اختلاف؛ فكثيرٌ من الأسماء اختُلف في عدِّه؛ كالدَّهر وغيرِه. وقد نبَّهنا على ذلك هنالك، والحمدُ للهِ.

و«الفرقان»: القرآن. وقيل: إنه اسمٌ لكلِّ مُنزَّل، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وفي تسميته فرقاناً وجهان:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥١، وما قبله منه، وينظر قول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٥٧.

(٢) لفظة: له من النسخ الخطية.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) عجز بيت لأبي صخر الهذلي، وصدره: ولا عائداً ذاك الزمان الذي مضى. وسلف ١٤/ ٢٧١.

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب الأسنى للمصنف، ومعلومٌ أن أسماءه سبحانه وصفاته توقيفية كما ذكر الثعلبي وغيره من العلماء.

أحدهما: لأنه فرَق بين الحقِّ والباطل، والمؤمنِ والكافر.

الثاني: لأن فيه بيانَ ما شرع من حلالٍ وحرام؛ حكاه النقاش[(١)]. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يريد محمَّداً ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ اسم «يَكُونَ» فيها مضمر يعود على «عَبْدِهِ» وهو أَوْلى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على «الفرقان».

وقرأ عبدُ الله بن الزبير: «عَلَى عِبَادِهِ»[(٢)]. ويقال: أنذر: إذا خوَّف؛ وقد تقدَّم في أول «البقرة»[(٣)]. والنذير: المحذِّر من الهلاك. الجوهريُّ[(٤)]: والنذير: المنذِرُ، والنذير: الإنذارُ.

والمراد بـ «العالَمِين» هنا الإنس والجِنُّ، لأن النبيَّ ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عامَّ الرسالة إلا نوحٌ؛ فإنه عمَّ برسالته جميعَ الإنس بعد الطوفان؛ لأنه بَدأ به الخَلقَ[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عظَّمَ تعالى نفسَه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ نزَّه سبحانه وتعالى نفسه عمَّا قاله المشركون من أن الملائكة أولادُ اللهِ؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى، وعما قالت اليهودُ: عُزَيرٌ ابن الله؛ جلَّ اللهُ تعالى، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله؛ تعالى اللهُ عن ذلك. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما قال عبدةُ الأوثان[(٦)]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيَّة[(٧)]: إن الشيطان أو الظُّلْمةَ يخلقُ بعضَ الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرةُ الإيجاد. فالآية ردٌّ على هؤلاء[(٨)]. ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: قدَّر كلَّ شيءٍ مما خلَق

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧.

(٣) ١/ ٢٨١.

(٤) في الصحاح (نذر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٦، والوسيط ٣/ ٣٣٢.

(٧) الثَّنَوية: فرقة زعمت أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام ... اهـ. الملل والنحل ١/ ٢٤٤.

(٨) ينظر تفسير الرازي ٤/ ٤٦، والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص٢٦١.

بحكمته على ما أراد، لا عن سَهوٍ[(١)] وغَفْلة، بل جَرَت المقاديرُ على ما خلق اللهُ إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدِّر؛ فإياه فاعبدوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ذكر ما صنَع المشركون على جهة التعجيبِ[(٢)] في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمَّا اعتقَد الكفار[(٣)] فيها أنها تضرُّ وتنفع، عبَّر عنها كما يعبِّر عما يَعقل. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا دفع ضرٍّ وجلب نفع، فحذف المضاف.

وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسَهم أو ينفعوها بشيءٍ، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يُميتون أحداً، ولا يُحيونه[(٤)]. والنُّشور: الإحياءُ بعد الموت؛ أنشَر اللهُ الموتى فنشروا. وقد تقدَّم[(٥)]. وقال الأعشى[(٦)]:

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا ... يا عجباً للميِّتِ النَّاشِرِ

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي قريش. وقال ابنُ عباس: القائل

---

(١) في (د) و(ف) شهوة، وفي (م) سهوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) في (د) و(ظ): التعجب، وفي (ز): النعت.

(٣) في (م): المشركون.

(٤) ينظر زاد المسير ٦/ ٧٢.

(٥) ٩/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) ديوانه ص١٩١.

منهم ذلك النضرُ بن الحارث ؛ وكذا كلُّ ما كان في القرآن فيه ذكر الأساطير(١) . قال محمد بن إسحاق: وكان مؤذياً للنبيِّ ﷺ(٢). ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني القرآن .﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذِبٌ اختَلَقه .﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد(٣). وقال ابن عباس: المراد بقوله: «قَوْمٌ آخَرُونَ»: أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي، وعدَّاس، وجبر ، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب(٤) . وقد مضى في «النحل» ذِكْرُهم(٥) ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ أي: بظلم. وقيل: المعنى: فقد أتوا ظلْماً ﴿وَزُورًا﴾ . ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج(٦): واحد الأساطير أُسطورة؛ مثل: أُحدوثة وأَحاديث.

وقال غيره: أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقاويل(٧). ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعني محمداً. ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقى عليه وتقرأ .﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تُحفظَ(٨). و«تملى» أصله: تُملَل، فأبدلت اللام الأخيرة ياء [هرباً] من التضعيف(٩): كقولهم: تقَضَّى البازي(١٠)؛ وشبهه.

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ مطولاً، وأخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ٣٩٩-٤٠٠ عن ابن عباس، من رواية ابن إسحاق.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٤٧ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٣٦٦٣ (١٤٩٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٢-٧٣ عن قتادة.

(٥) ١٢/ ٤٢٨ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٨ .

(٧) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٢ .

(٨) زاد المسير ٦/ ٧٣ .

(٩) ينظر سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٥٨ وما بين حاصرتين منه.

(١٠) قال الزبيدي في تاج العروس (قض): الأصل: تقضض، فلما اجتمعت ثلاث ضادات؛ قلبت إحداهنَّ ياءً، كما قالوا: تمطى، وأصله: تمطط، أي: تمدد، وكذلك: تظنى من الظن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد: أنزَل هذا القرآنَ الذي يعلم السرَّ، فهو عالِمُ الغيبِ، فلا يحتاج إلى مُعلِّم.

وذكر «السرَّ» دون الجهر؛ لأنه مَن علم السِّر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لَمَا زاد عليها، وقد جاء بِفُنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً: ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكَّن محمدٌ ﷺ؛ فهلَّا عارَضوه؟! فبطَل اعتراضُهم من كلِّ وجهٍ[١]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالُوا»؛ ذكَر شيئاً آخرَ من مطاعنهم. والضمير في «قَالُوا» لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدَّم في «سبحان»[٣]. ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره، مضمَّنه: أنَّ سادتهم عتبةَ بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمد، إن كنتَ تحبُّ الرياسةَ ولَّيناك علينا، وإن كنتَ تحب المالَ جمعنا لك من أموالنا. فلمَّا أَبَى رسولُ الله ﷺ عن ذلك رجَعوا في باب الاحتجاج معه، فقالوا: ما بالُك وأنت رسولُ الله تأكلُ الطعامَ، وتقِفُ بالأسواق[٤]!

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٥١.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٤.

(٣) ٢٣/ ١٧٢ وما بعدها.

(٤) في (ظ) في الأسواق، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠-٢٠١، وعنه نقل المصنف كلام ابن إسحاق، وهو بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤.

فعيَّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسولُ ملَكاً، وعيَّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرةَ والقياصرةَ والملوك الجبابرةَ يَترفَّعون عن الأسواق، وكان عليه الصلاة والسلام يخالطهم في أسواقهم، ويَأمرُهم ويَنْهاهم؛ فقالوا: هذا يَطلب أن يتملَّك علينا، فماله يخالف سيرةَ الملوك؟ فأجابهم اللهُ بقوله، وأنزل على نبيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فلا تَغْتَمَّ ولا تَحزن، فإنها شَكاة ظاهرٌ عنك عارُها[١].

الثانية: دخولُ الأسواق مباحٌ للتجارة وطلبِ المعاش. وكان عليه الصلاة والسلام يَدخلها لحاجته؛ ولتذكرة الخلق بأمر اللهِ ودعوته، ويَعرِض نفْسَه فيها على القبائل، لعلَّ اللهَ أن يرجع بهم إلى الحقِّ[٢]. وفي البخاري[٣] في صفته عليه الصلاة والسلام: «ليس بفظٍّ ولا غلِيظ ولا سخَّاب في الأسواق» وقد تقدَّم في «الأعراف»[٤].

وذِكر السوق مذكور في غير ما حديثٍ، ذكره أهلُ الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصةً المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإنَّ إخواننا من المهاجرين كان يَشغلُهم الصَّفْق بالأسواق؛ خرَّجه البخاري[٥]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله[٦].

---

(١) في قوله: «شكاة ظاهر عنك عارها» تضمين لبيت أبي ذؤيب الهُذلي

وعيَّرها الواشون أني أُحبُّها ... وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها

وسلف في تفسير الآية (٢٢) من سورة الكهف.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢، والكلام بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٣٠٩.

(٣) برقم (٢١٢٥) وهو من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) ٩/ ٣٥٤.

(٥) برقم (١١٨) وهو عند أحمد (٧٢٧٥)، ومسلم (٢٤٩٢).

وقوله: الصَّفْقُ: قال السندي: كناية عن البيع والشراء، أي: أنهم كانوا أصحاب تجارات، وكان الأنصار أصحابَ زرعات وبساتين.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلَّا. ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ جوابُ الاستفهام. ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أوْ هَلَّا يُلقى ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هلَّا ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[1] «يَأْكُلُ» بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصمٌ. وقرأ سائر الكوفيين بالنون[2]، والقراءتان حَسنتان تؤديان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدَّم ذِكْرُ النبيِّ ﷺ وحدَه، فأَنْ يعودَ الضميرُ عليه أبين؛ ذكره النحاس[3]. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ تقدَّم في «سبحان»[4] والقائلُ عبدُ الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماورديُّ[5].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: ضربوا لك هذه الأمثالَ ليتوصلوا إلى تكذيبك، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن سبيل الحقِّ وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ شرطٌ ومجازاة، ولم يُدغم «جَعَلَ لَكَ» لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين[6]. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في موضع جزْم عطفاً على موضع «جعل». ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأول. وكذلك قَرأ أهلُ الشام. ويروى عن عاصمٍ أيضاً: «وَيَجْعلُ لَكَ» بالرفع، أي: وسيَجعلُ لك في الآخرة قصوراً[7].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٢ .

(٢) قرأ حمزة والكسائي بالنون، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص٤٦٢ ، والتيسير ص١٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٢-١٥٣ .

(٤) ١٣/ ٩٧ .

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٣٤ .

(٦) وهو هنا من الإدغام الكبير لأبي عمرو من رواية السوسي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٣ ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية شعبة: ويجعلُ، =

قال مجاهد: كانت قريشٌ ترى البيتَ من حجارة يسمى[١] قصراً كائناً ما كان[٢].

والقصر في اللغة: الحبس، وسمي القصر قصراً لأن مَن فيه مقصورٌ عن أن يُوصَل إليه[٣].

وقيل: العرب تسمي بيوتَ الطين القَصْرَ، وما يُتخذ من الصوف والشَّعَر البيتَ[٤]؛ حكاه القُشَيريُّ.

وروى سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خَيْثَمة قال: قيل للنبيِّ ﷺ: إن شئتَ أن نُعطيَك خزائنَ الدنيا ومفاتيحها، ولم يُعْطَ ذلك مَن قبلك ولا يعطاه أحدٌ بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئتَ جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: «يجمع[٥] ذلك لي في الآخرة». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[٦].

ويروى أن هذه الآيةَ أنزلها رضوان خازنُ الجِنان إلى النبيِّ ﷺ، وفي الخبر: إن رضوان لمَّا نَزَل سلَّم على النبيِّ ﷺ، ثم قال: يا محمد! ربُّ العِزَّة يُقرِئك السلامَ، وهذا سَفَط[٧] ـ فإذا سَفَط[٨] مِن نور[٩] يتلألأ ـ يقول لك ربُّك: هذه مفاتيحُ خزائنِ الدنيا، مع أنه لا ينقص مالَك في الآخرة مثلَ جناح بعوضة؛ فنظر النبيُّ ﷺ إلى جبريلَ كالمستشير له، فضَرب جبريل بيده الأرضَ؛ يُشير[١٠] أن تَواضع، فقال: «يا

= بالرفع، والباقون بالجزم. السبعة ص٤٦٢ . والتيسير ص١٦٣ .

(١) لفظة يسمى من (ظ).

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٨ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٠٧ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٦ (١٤٩٩٦).

(٣) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/ ٣٥٩ .

(٤) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠١ .

(٥) في (ظ) تجمع.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٩ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٦ (١٤٩٩١)، وهو مرسل . وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٠٨ عن حبيب قال: قيل للنبي ﷺ..

(٧) في النسخ الخطية: سوط. والمثبت من (م)، والسَّفَط وعاء، كالقُفَّة. القاموس (سفط).

(٨) في (د) و(ز) سوط ، وفي (ظ) و(ف) بسوط، والمثبت من (م).

(٩) في (د) لؤلؤ.

(١٠) بعدها في (ظ): إلى .

رضوان، لا حاجة لي فيها، الفقرُ أحبُّ إليَّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً». فقال رضوان: أَصبتَ! أصاب[١] اللهُ لك. وذكر الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يريد جهنم تتلظَّى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة خمس مئة عام[٣]. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيُّظ عليهم. وقيل: المعنى: إذا رأتهم خزَّانُها سمعوا لهم[٤] تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم[٥]. والأول أصحُّ؛ لِما روي مرفوعاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن كذَب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ بَيْنَ عيني جهنمَ مقعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾»[٦]. يخرج عُنُقٌ من النار له عينان تبصران، ولسانٌ يَنْطق فيقول: وُكِّلت بكلِّ مَن جَعَلَ مع

---

(١) لفظة أصاب من (ز) وأسباب النزول. وجاءت العبارة في (ز): أصاب اللهُ بك.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٥-٣٤٦ عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٥٥.

(٤) في النسخ الخطية: لها، والمثبت من (م).

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٥٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٧ (١٤٩٩٩) عن خالد بن دريك، عن رجل من أصحاب محمد ﷺ... وخالد بن دُريك؛ قال الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقة يرسل. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٣١-١٣٢ (٧٥٩٩) من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٨: رواه الطبراني في الكبير وفيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان في رواية، ورواه عن الأحوص محمدُ بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف.

وقوله ﷺ: «مَنْ كذب عليَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعده من النار» صحيح متواتر، وسلف ١/ ٥٧.

اللهِ إلهاً آخرَ ، فلَهُو أبصرُ بهم من الطير بِحَبِّ السِّمْسِم فيلتقطه»[١].

وفي رواية: «فيَخرج عُنُقٌ من النار فيلتقطُ الكفارَ لَقْطَ الطائرِ حبَّ السِّمْسِم» ذكره رَزِين في كتابه، وصححَّه ابنُ العربي في قبسه[٢]، وقال: أي: يَفْصِلهم[٣] عن الخلق في المعرفة كما يَفصل الطائرُ حبَّ السِّمسِمِ من التربة.

وخرَّجه الترمذيُّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلت بثلاث: بكلِّ جَبَّار عنيد، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين».

وفي الباب عن أبي سعيدٍ. قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ غريب صحيحٌ[٤].

وقال الكلبيُّ: سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار[٥].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيُّظاً.

وقال قطرب: التغيظ لا يُسمع، ولكن يُرى، والمعنى: رأوا لها تغيظاً، وسمعوا لها زفيراً[٦]؛ كقول الشاعر:

ورأيتَ زوجَكِ في الوَغَى ... مُتقلِّدا سيفاً ورُمحا

أي: وحاملاً رمحاً[٧].

وقيل: «سَمِعُوا لَهَا» أي: فيها، أي: سمعوا فيها تغيُّظاً وزفيراً للمعذَّبين، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦] و«في» واللام يتقاربان؛ تقول: أفعل هذا في اللهِ وللهِ.

---

(١) أخرجه بنحوه الحارث بن أسامة (١١٢٢) (بغية الباحث) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً.

(٢) ١/١٠٩-١١٠.

(٣) في (ز) و(ف) و(م) تفصلهم. والمثبت من (ظ) والقبس.

(٤) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وحديثا أبي هريرة وأبي سعيد عند أحمد برقمي (٨٤٣٠) و(١١٣٥٤).
وقوله: «عنُق» أي: طائفة منها. النهاية (عنق).

(٥) هو في تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٥ دون نسبة، وجاءت العبارة في (ظ): تغيظاً وزفيراً كغيظ بني آدم...

(٦) ذكره عنه الرازيُّ - بنحوه - في تفسيره ٢٤/ ٥٦.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣ والبيت قائله عبد الله بن الزبعرى. ديوانه ص٣٢، وسلف ١/ ٢٩١.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن عبدَ اللهِ كان يقول: إن جهنَّمَ لتضيِّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح؛ ذكره ابن المبارك في رقائقه[١]. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقُشيريُّ عنه، وحكاه الماورديُّ عن عبد الله بن عمرو[٢]. ومعنى «مُقَرَّنِين»: مكتَّفِينَ؛ قاله أبو صالح. وقيل: مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قُرِنوا مع الشياطين، أي: قُرِن كلُّ واحدٍ منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام[٣]. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[٤] وقال عمرو بن كلثوم:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا وأُبْنَا بالملوكِ مُقَرَّنِينا

﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: هلاكاً؛ قاله الضحاك. ابن عباس: ويْلاً[٥].

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: أول مَن يقوله إبليس، وذلك أنه «أولُ مَن يُكْسَى حُلَّةً من النار، فتوضعُ على حَاجبيه، ويَسْحَبُها من خَلْفه، وذُرِّيَّته مِن خلْفه، وهو يقول: واثُبُوراه»[٦].

وانتصب على المصدر، أي: ثَبَرنا ثبوراً؛ قاله الزجاج[٧]. وقال غيره: هو

---

(١) في زوائد نعيم بن حماد ص٨٦ (٢٩٩)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨ (١٥٠٠٦) وقال: لم يروه عنه إلا ابن المبارك.
وقوله الزُّج: هو الحديدة في أسفل الرُّمح. القاموس (زجج).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، وفيه أيضاً قول أبي صالح الآتي. وأخرجه عنه ابنُ أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨ (١٥٠٠٧)، و ٢٦٦٩ (١٥٠٠٨).

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣.

(٤) ١٢/ ١٧٠-١٧١، وسلف ثمة بيت عمرو الآتي، وسلف البيت أيضاً ٢/ ١٥٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٧/ ٤١١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٩ (١٥٠١٣) عن ابن عباس و(١٥٠١٤) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٢٥٣٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب قوله: واثبوراه قال السندي كما في حاشية المسند: كأنه ينادي الهلاكَ، ويقول له: هذا أوانك فالحقني.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٥٩-٦٠، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٦.

مفعول به.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فإنَّ هلاككم أكثرُ من أن تدعوا مرَّةً واحدة. وقال: ثبوراً؛ لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، فلذلك لم يجمع، وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونَزلت الآياتُ في ابن خَطَل وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾.

إن قيل: كيف قال: «أَذَٰلِكَ خَيْرٌ» ولا خيرَ في النار؟ فالجواب: أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاءُ أحبُّ إليك أم السعادة؟ وقد علم أن السعادةَ أحبُّ إليه.

وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس[1]: وهذا قولٌ حسن؛ كما قال:

فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ[2]

قيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الجنةَ والنارَ قد دَخَلتا في باب المنازل[3]؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الآية.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما قبله منه.

(٢) عجز بيت لحسان بن ثابت ﷺ، وصدره: أتهجوه ولست له بكفءٍ. وهو في ديوانه ص٦٤، وسلف ١/ ٣٤٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٠.

﴿مِنْهَآ﴾ .وقيل: إنما قال ذلك على معنى: عِلمكم واعتقادُكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لمَّا كانوا يَعملون عملَ أهلِ النار صاروا كأنهم يقولون: إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: من النعيم. ﴿خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ قال الكلبيُّ: وَعَدَ اللهُ المؤمنين الجنةَ جزاءً على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعدَ فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. وهو معنى قولِ ابن عباس(١).

وقيل: إن الملائكةَ تسأل لهم الجنةَ؛ دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] الآية. وهذا قولُ محمد بن كعب القُرَظِيّ(٢).

وقيل: معنى «وَعْداً مَسْؤُولاً» أي: واجباً وإن لم يكن يُسْأَل كالدَّين؛ حكي عن العرب: لأُعطينَّك ألفاً. وقيل: «وَعْداً مَسْؤُولاً» يعني أنه واجبٌ لك فتسْأَلُه(٣). وقال زيد بن أسلم: سألوا اللهَ الجنةَ في الدنيا، ورغِبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سَألوا وأعطاهم ما طَلبوا(٤). وهذا يرْجع إلى القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ ابن مُحيصِن، وحميد، وابن كثير، وحفص،

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤١٤ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢١) عن ابن عباس بلفظ: فاسألوا الذي وعدكم وتنَجَّزوه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٥ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢٢).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٣ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٤١٤ ، وفيهما: «لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً، بمعنى أنه واجب لك فتسأله».

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٥ .

ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدُّوريِّ: «يَحشرهم» بالياء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، وفي آخره: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾. الباقون بالنون على التعظيم[١]. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجِن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جُريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام[٢]. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابنُ عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم[٣].

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: قال المعبُودون من دون اللهِ: سبحانَك، أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

فإن قيل: فإن كانت الأصنامُ التي تُعبد تُحشَرُ؛ فكيف تَنطق وهي جمادٌ؟ قيل له: يُنطقها اللهُ تعالى يومَ القيامة كما يُنطق الأيدي والأرجل[٤]. وقرَأ الحسنُ وأبو جعفر: «أَنْ نُتَّخَذَ» بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول[٥]. وقد تكلَّم في هذه القراءة النحْويون؛ فقال أبو عمرو بنُ العلاء وعيسى بنُ عمر: لا يجوز «نُتَّخَذ».

وقال أبو عمرو: لو كانت «نُتَّخذ» لحذفتَ «مِن» الثانية فقلتَ: «أن نُتَّخذ من دونك أولياءَ». كذلك[٦] قال أبو عبيدة: لا يجوز «نُتَّخذ» لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ «مِن»

---

(١) قراءة ابن كثير وحفص ـ بالياء ـ في السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٣، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو البصري هي بالنون.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٨٤، وأخرجه عنه الطبري مع قول ابن جريج في تفسيره ١٧/ ٤١٥، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٢ (١٥٠٢٧) عن مجاهد. دون قوله: والإنس والجن.

(٣) السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤.

(٥) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٣٣، وذكرها الزجاج في معانيه ٤/ ٦٠، والنحاس في إعرابه ٣/ ١٥٤، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٥، وابن عطية في المحرر ٤/ ٢٠٤، وقراءة الحسن في زاد المسير ٦/ ٧٨.

(٦) في (ظ) وكذا.

مرَّتين، ولو كان كما قرأ لقال: «أن نُتخذ من دونك أولياء».

وقيل: إن «مِن» الثانية صلة.

قال النحاس[١]: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحلِّه يُستَحْسَن [منه] ما قال؛ لأنه جاء ببينةٍ.

وشرحُ ما قال أنه يقال: ما اتخذتُ رَجلاً وليًا، فيجوز أن يقع هذا لواحد[٢] بعينه؛ ثم يقال: ما اتخذت من رَجُلٍ وليًا. فيكون نفياً عاماً، وقولك «وليًا» تابعٌ لما قبله، فلا يجوز أن يُدخل[٣] فيه «مِن» لأنه لا فائدةَ في ذلك.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالصحة والغنى وطولِ العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم. ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: تركوا ذكرك، فأشركوا بك بَطَراً وجهلاً، فعبدونا من غير أن نأمرهم[٤] بذلك.

وفي الذكر قولان:

أحدهما: القرآن المنزَّل على الرسل، تركوا العملَ به، قاله ابن زيد.

الثاني: الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم.

إنهم ﴿كانوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى؛ قاله ابن عباس. مأخوذٌ من البوار وهو الهلاك[٥]. وقال أبو الدرداء ﷺ وقد أَشرف على أهل حِمص: يا أهل حِمص! هلمَّ[٦] إلى أخٍ لكم ناصحٍ، فلمَّا اجتمعوا حوله قال: ما لَكم لا تَستحيون[٧]! تَبنون ما لا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤-١٥٥، وما قبله منه عدا كلام أبي عبيدة، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (م) للواحد، وفي (ظ) الواحد. والمثبت من (ز) وإعراب القرآن للنحاس.

(٣) في (م) تدخل.

(٤) في (م) و(د): أمرناهم.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣٦-١٣٧.

(٦) في (ز) هلموا.

(٧) في (م) تستحون.

تَسكنون، وتَجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تُدركون، إنَّ مَن كان قبلكم بَنَوْا شديداً[١]، وجمعوا عبيداً، وأمَّلوا بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وآمالهم[٢] غروراً، ومساكنُهم قبورا[٣]. فقوله: «بُورًا» أي: هلكى.

وفي خبرٍ آخر: فأصبحت منازلُهم بوراً، أي: خالية لا شيءَ فيها.

وقال الحسن: «بُورًا»: لا خيرَ فيهم. مأخوذٌ من بَوار الأرض، وهو تعطيلُها من الزرع، فلا يكون فيها خير.

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: البَوار: الفَسَاد والكساد؛ مأخوذٌ من قولهم: بارَت السلعة: إذا كسدت كسادَ الفاسد؛ ومنه الحديث: «نعوذ بالله من بَوَارِ الأَيِّم»[٤]. وهو اسم مصدر كالزُّور؛ يستوي فيه الواحدُ والاثنان والجمعُ والمذكر والمؤنث[٥]. قال ابن الزِّبَعْرى[٦]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُباري الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ ... ـيِّ ومَنْ مَالَ مَيلَه مَثْبُورُ

وقال بعضهم: الواحدُ: بائر، والجمع: بور[٧]. كما يقال: عائذ وعُوذ، وهائد

(١) في (م) مشيدا. والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وتاريخ مدينة دمشق.

(٢) في (ظ): ومالهم، وكذلك في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ١٣١، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ١٣٣، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٦٣٥ أنه قال على درج مسجد دمشق: يا أهل دمشق...

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٧، والحديث قطعة من حديثٍ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٢٣ (١١٨٨٢)، والخطيب البغدادي في تاريخه ١٢/ ٤٥٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٤٣ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير باختصار، وفيه عباد ابن زكريا الصريمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٤.

(٦) ديوانه ص٣٦.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٣٧.

وهُود[١]. وقيل: «بُورًا»: عُمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: يقول اللهُ تعالى عند تبرّي المعبودين: «فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ» أي: في قولكم إنهم آلهة[٢]. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرفَ العذابِ عنكم ولا نصرَكم. وقيل: فما يستطيعُ هؤلاء الكفارُ لمَّا كذَّبهم المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ من الله[٣]. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذَّبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفارُ بما جاء به محمدٌ؛ وعلى هذا فمعنى «بِمَا تَقُولُونَ»: بما تقولون من الحقِّ[٤]. وقال أبو عبيد: المعنى: فيما تقولون[٥]، فما يَستطيعون لكم صرفاً عن الحقِّ الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما يَنزل بهم من العذاب بتكذيبهم إيَّاكم.

وقراءةُ العامة: «بِمَا تَقُولُونَ» بالتاء على الخطاب. وقد بَيَّنَّا معناه.

وحكى الفراءُ أنه يقرأ: «فَقَدْ كَذَبُوكُمْ» مخفَّفاً، «بِمَا يَقولُونَ». وكذا قرأ مجاهد والبَزّيُّ بالياء[٦]، ويكون معنى «يَقُولُونَ»: بقولهم. وقرأ أبوحَيْوَة: «بِمَا يَقُولُونَ» بياء «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» بتاء على الخطاب لمتخِذي الشركاء[٧]. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قال ابن عباس: من يُشرك منكم ثم مات عليه[٨] ﴿نُذِقْهُ﴾

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤، والكشاف ٣/ ٨٦. وفي (ز) و(ظ) عائد وعود.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦١.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٣٧.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٠، وأخرجه أيضاً عن ابن زيد ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٣ (١٥٠٤٠).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٥.

(٦) ذكر كلام الفراء النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٥. وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٣٤: نص عليها ابن مجاهد عن البزي سماعاً من قنبل.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤ قراءة أبي حيوة. وقرأ حفص: تستطيعون، بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٨) أخرج نحوه عبد الرزاق ٢/ ٧٢، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٢-٤٢٣ عن الحسن.

أي: في الآخرة.﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] أي: شديداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيثُ قالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الْأَسْوَاقِ»[(١)]. وقال ابن عباس: لمَّا عيَّر المشركون رسولَ الله ﷺ بالفاقة وقالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ» الآية؛ حَزِن النبيُّ ﷺ لذلك، فنَزَلت تعزيةً له، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسولَ الله! الله ربُّك يقرئك السَّلامَ ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: يَبتغون المعاشَ[(٢)] في الدنيا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام؛ لم يكن في «إن» إلا الكسر، ولو لم تكن اللامُ ما جاز أيضاً إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قولُ جميع النحويين. قال النحاس[(٣)]: إلا أنَّ عليَّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في «إنَّ» هذه الفتحُ وإن كان بعدها اللام، وأَحسِبه وَهْماً منه. قال أبو إسحاق الزجاجُ[(٤)]: وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) في (ز) و(م) المعايش، والمثبت من (د) و(ظ) وأسباب النزول للواحدي ص٣٤٥ وقد أخرجه عنه مطولاً، وسلف بعضه ص٣٧٢-٣٧٣ من هذا الجزء.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٥-١٥٦، وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

ليأكلون الطعامَ، ثم حذف رسلاً؛ لأن في قوله: «مِنَ الْمُرْسَلِينَ» ما يدلُّ عليه. فالموصوف محذوفٌ عند الزجاج، ولا يجوز عنده حذفُ الموصول وتبقيةُ الصلة كما قال الفراء. قال الفراء[(١)]: والمحذوف «مَن»، والمعنى: إلا مَنْ إنهم لَيأكلون الطعامَ، وشبَّهه بقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: ما منكم إلا مَن هو وارِدُها. وهذا قول الكسائيِّ أيضاً. وتقول العرب: ما بعثتُ إليك مِن الناس إلا مَن إنه لَيطيعك[(٢)]. فقولك: إنه لَيطيعك صلةُ «مَن».

قال الزجاج[(٣)]: هذا خطأٌ، لأن مَن موصولةٌ، فلا يجوز حذفها.

وقال أهل المعاني: المعنى: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل: إنهم ليأكلون؛ دليله قولهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال ابن الأنباريِّ[(٤)]: كسرت «إنَّهم» بعد «إلا» للاستئناف بإضمار واو، أي: إلا وإنهم.

وذهبت فرقةٌ إلى أن قوله: «لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» كنايةٌ عن الحدث[(٥)].

قلت: وهذا بليغٌ في معناه، ومثله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قرأ الجمهورُ: «يَمْشُونَ» بفتح الياء وسكون الميم وتخفيفِ الشين. وقرأ عليٌّ وابنُ عوف وابنُ مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويُحملون عليه. وقرأ أبوعبد الرحمن السُّلَميُّ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥.

(٢) في (د) و(ظ) ليعطيك (في الموضعين).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦.

(٤) ذكره عن ابن الأنباري ابنُ الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٠، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥، وما قبله فيه بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى يَمْشُونَ؛ قال الشاعر:

أُمَشِّي بأعطان المِيَاه وأبتغي[1] قلائصَ منها صعبةٌ وركُوبُ[2]

وقال كعب بن زهير:

منه تظلُّ سِباعُ الجَوِّ ضامِزة ولا تُمَشِّي بوادِيهِ الأراجيلُ[3]

بمعنى تَمْشي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في تناول الأسباب وطلبِ المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضَى هذا المعنى في غير موضع، لكنَّا نذكُر هنا مِن ذلك ما يكفي، فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جَرَى: إن الأنبياء عليهم الصلاة السلام إنما بُعثوا ليَسُنوا الأسبابَ للضعفاء.

فقلت مجيباً له: هذا قولٌ لا يصدُر إلا من الجهال والأغبياء، والرَّعَاع السفهاء، أومن طاعنٍ في الكتاب والسنة العَلياء، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف، فقال وقولهُ الحقُّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتَّجِرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُعِل رزقي تحت ظل رُمْحي»[4].

---

(١) في (م) ومَشَّى بأعطان المباءة وابتغَى، ووقع في النسخ الخطية: وأتقي، بدل: وأبتغي، والمثبت من المصدرين الآتيين.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ ، ونسبه أبو علي القالي في الأمالي ١/ ٢٨ للعلاء بن حذيفة الغَنَوي. قوله: قلائص: هو جمع قَلُوص، وهي من الإبل: الشابّة، أو الباقية على السير، أو أول ما يُركب من إناثها إلى أن تُثني، ثم هي ناقة، أو الناقة الطويلة القوائم. القاموس (قلص).

(٣) ديوان كعب ص ٩٠ وروايته فيه: منه تظل حمير الوحش ضامزة، وهو في السيرة النبوية ٢/ ٥١٢ وفيه: نافرة، بدل: ضامزة.

والضامز في اللغة: الساكت لا يتكلم، والبعير إذا لم يجتر وأغلق فمه فقد ضمز. تهذيب اللغة ١١/ ٤٨٩ . وقوله الأراجيل: الجماعات من الرجال. الجو: موضع. الإملاء المختصر ٣/ ١٣٨ ، يصف كعبٌ أسداً بأن السباع والأسود والرِّجال تخافه من هيبته، ولا تمشي بالوادي الذي يوجد فيه.

(٤) سلف ١٠/ ١٦٠ .

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وكان الصحابةُ ﷺ يَتجرون ويحترفون، وفي أموالهم يَعملون، ومَن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أَتُراهم ضعفاءَ! بل هم كانوا واللهِ الأقوياءَ، وبهم الخَلَف الصالحُ اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء.

قال: إنما تناولوها لأنهم أئمةُ الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حقِّ الضعفاء، فأما في حقِّ أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيانُ؛ كما ثبت في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية. وهذا من البينات والهدى.

وأما أصحاب الصُّفَّة فإنهم كانوا ضيفَ الإسلامِ عند ضِيق الحال، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أَتَته صَدقةٌ خصَّهم بها، وإذا أتته هديةٌ أكلها معهم، وكانوا مع هذا يَحتطِبون ويَسُوقون الماءَ إلى أبيات رسولِ الله ﷺ. كذا وصفهم البخاريُّ[(١)] وغيرُه. ثم لمَّا افتتح اللهُ عليهم البلادَ ومهَّد لهم المهاد تأمَّروا، وبالأسباب أُمِروا.

ثم إن هذا القول يدلُّ على ضعفِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؛ لأنهم أُيِّدوا بالملائكة وثُبِّتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدُهم[(٢)] إذ ذلك سببٌ من أسباب النصر؛ نعوذُ بالله من قولٍ وإطلاقٍ يَؤول إلى هذا، بل القولُ بالأسباب والوسائط سنةُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ ﷺ، وهو الحقُّ المبين، والطريقُ المستقيم الذي انعقد عليه إجماعُ المسلمين؛ وإلا كان يكون قولُه الحق: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] الآية؛ مقصوراً على الضعفاء، وجميعُ الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكلِيمَ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] وقد كان قادراً على فَلْق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّىٓ

---

(١) في صحيحه برقم (٦٤٥٢)، وسلف ١٠/ ١٦٠.

(٢) في (د) و(ظ) و(ف): تثبيتهم.

﴿إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، وقد كان قادراً على سقوط الرُّطَب دون هَزٍّ ولا تعب؛ ومع هذا كلِّه فلا ننكر أن يكون رجل يُلطَفُ به ويُعان، أو تجاب دعوتُه، أو يُكرم بكرامةٍ في خاصة نفسِه أو لأجل غيرِه، ولا تهدُّ لذلك القواعدُ الكلية والأمورُ الجُملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فإنَّا نقول: صَدَق اللهُ العظيمُ، وصدَق رسولُه الكريم، وإن الرزقَ هنا المطرُ بإجماعِ أهل التأويل؛ بدليل؛ قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، ولم يشاهَد ينزِّل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جِفانَ اللحم، بل الأسبابُ أصلٌ في وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا الرزق في خبايا الأرض»[١]، أي: بالحرث والحفْرِ والغرس. وقد يسمى الشيء بما يَؤول إليه، فسمي[٢] المطرُ رزقاً؛ لأنه عنه يكون الرزقُ، وذلك مشهورٌ في كلام العرب. وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يَأخذَ أحدُكم حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ على ظهرِه؛ خيرٌ له من أن يسأل أحداً أعطاه أو مَنَعَه»[٣]، وهذا فيما خرَج بغير[٤] تعبٍ من الحشيش والحطب. ولو قُدِّر رَجُلٌ بالجبال منقطعاً عن الناس لَمَا كان[٥] له بُدٌّ من الخروج إلى ما تُخرجه الآكامُ وظهورُ الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يَعيش به، وهومعنى قولِه عليه الصلاة والسلام: «لو أنَّكُم كُنتم تَوكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّله، لَرزقتم كما تُرزق الطيرُ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[٦].

فغدوُّها ورَواحها سببٌ؛ فالعَجَبُ العجب ممن يدَّعي التجريدَ والتوكل على

(١) ضعيف، وسلف ٤/ ٣٢٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (م) وسمي.

(٣) سلف ١/ ٣٤٦ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في (د) و(م) من غير.

(٥) في النسخ الخطية: لكان والمثبت من (م).

(٦) سلف ٧/ ٢٩٧ و ١٠/ ١٥٨-١٥٩.

التحقيق، ويقعدُ على ثَنِيَّاتِ الطريق، ويَدَعُ الطريقَ المستقيم، والمنهجَ الواضحَ القويم.

ثبَت في البخاريِّ(١) عن ابن عباسٍ قال: كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا [مكة] سألوا الناسَ؛ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. ولم يُنقل عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه - رضوان الله عليهم - أنَّهم خرَجوا إلى أسفارهم بغير زَادٍ، وكانوا المتوكِّلين حَقًّا.

والتوكل: اعتمادُ القلب على الرَّبِّ في أن يَلمَّ شعَثَه ويَجمعَ عليه أرَبَه؛ ثم يتناول الأسبابَ بمجرد الأمر، وهذا هو الحقُّ.

سأل رجلٌ الإمام أحمدَ بن حنبل فقال: إني أريد الحجَّ على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدَك، فقال: لا، إلاَّ مع الناس. فقال له: أنت إذن متَّكلٌ على أجربتهم(٢). وقد أتينا على هذا في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردُّ ذلِّ السؤال(٣) بالكسب والصناعة»(٤).

الرابعة: خَرَّج مسلمٌ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أحبُّ البلادِ إلى اللهِ مساجدُها، وأبغضُ البلاد إلى اللهِ أسواقها»(٥).

وخرَّج البزَّار(٦) عن سلمان الفارسيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكوننَّ - إن استطعتَ - أولَ مَن يَدخل السُّوقَ، ولا آخِرَ من يَخرجُ منها، فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها

---

(١) في صحيحه (١٥٢٣) وما بين معقوفتين منه ، وسلف٣/ ٣٢٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٤١ و٢٧٤-٢٧٥ ، وسلف ٣/ ٣٢٩ . وقوله: أجربتهم - الجراب: المزود أو الوعاء، ويجمع أيضاً على جُرُب، القاموس «جرب» .

(٣) في (د) الناس .

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) بالكتب والشفاعة وفي (ز) بالكسب والشفاعة . وجاء في ذيل كشف الظنون ٢٤١/٤ بالكف والشفاعة ، وقال: إن القرطبي: رتبه على أربعين باباً في التفسير والحديث .

(٥) صحيح مسلم برقم (٦٧١) .

(٦) في مسنده (٢٥٤١) ، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٤٥١) .

يَنصبُ رايته». أخرجه أبوبكر البَرْقانيُّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ـ من رواية عاصم ـ عن أبي عثمان النهديِّ، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أولَ مَن يدخلَ السُّوقَ ولا آخرَ مَن يَخرج منها، فبها باضَ الشيطانُ وفرَّخ»(١).

ففي هذه الأحاديث ما يدلُّ على كراهة دخول الأسواق، ولا سيما في هذه الأزمان التي يُخالط فيها الرجال النسوان(٢). وهكذا قال علماؤنا لماَّ كثُرَ الباطلُ في الأسواق وظهَرت فيها المناكرُ: كُره دخولُها لأرباب الفضلِ والمقتدَى بهم في الدِّين؛ تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى اللهُ فيها(٣). فحقّ على من ابتلاه اللهُ بالسُّوق أن يخطر بباله أنه قد دخَل محلَّ الشيطان ومحلَّ جنودِه، وأنه إن أقام هناك هَلك، ومن كانَت هذه حالُه اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرَّز من سُوء عاقبته وبَليته(٤).

الخامسة: تشبيه النبيِّ ﷺ السوقَ بالمعركة تشبيهٌ حسن، وذلك أنَّ المعركةَ موضعُ القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومُصارعةِ بعضهم بعضاً. فشبَّه السوقَ وفعلَ الشيطانِ بها ونيلَه منهم ـ بما(٥) يَحملهم [عليه] من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة، والكذِب والأيمان الكاذبة، واختلاطِ الأصوات وغيرِ ذلك ـ بمعركة الحرب، ومن(٦) يصرع فيها.

السادسة: قال ابنُ العربيِّ(٧): أما أكلُ الطعام فضرورةُ الخلق، لا عارَ ولا دَرَكَ فيه(٨)، وأما الأسواقُ فسمعت مشيخةَ أهل العلم يقولون: لا يَدخل إلا سوقَ الكتب

(١) ١٣/ ٣٠١ .

(٢) جاءت العبارة في (ظ): .. تخالَط فيها الرجال والنسوان .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢ .

(٤) المفهم ٦/ ٣٥٩ .

(٥) في (م): مما والمثبت من (د) و(ظ) و(ف) والمفهم ٦/ ٣٥٨-٣٥٩ ، والكلام وما بين حاصرتين منه .

(٦) في (ظ): فيمن .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣ .

(٨) أي: لا تَبِعةَ فيه.

والسلاح. وعندي أنه يَدخل كلَّ سوقٍ للحاجة إليه ولا يَأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاطٌ للمروءة، وهدمٌ للحِشمة؛ ومِن الأحاديث الموضوعةِ: «الأكل في السوق دناءة»[(١)].

قلت: ما ذَكَرته مشيخةُ أهل العلم فنِعمَّا هو، فإنَّ ذلك خالٍ عن النظر إلى النّسوان ومخالطتهِنّ، إذ ليس ذلك[(٢)] من حاجتهنّ. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهنّ، وقلَّةُ الحياءِ قد غلبت عليهنّ، حتى ترى المرأةَ في القيساريات[(٣)] وغيرهن قاعدةً متبرجة بزينَتِها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا، نعوذُ بالله من سخطه.

السابعة: خرَّج أبو داود الطيالسيُّ في مسنده[(٤)]: حدَّثنا حماد بنُ زيد قال: حدَّثنا عمرو بن دينار ـ قهرمان[(٥)] آل الزبير ـ عن سالم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: «من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال: لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير، كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة، ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ، وبنى له قصراً في الجنة». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وزاد بعد «ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ»: «ورفع له ألفَ ألفِ درجة». في رواية[(٦)]: «وبنى له بيتاً في الجنة». وقال: هذا حديثٌ غريب[(٧)]. قال

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (١٤٤٤)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٥٠، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ١٦٣ و٧/ ٢٨٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٥ من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٩ (٧٩٧٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٧٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ١٩٢، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٦ من حديث أبي أمامة ﷺ.
قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وقال العقيلي: ولا يثبت في هذا الحديث شيء عن النبي ﷺ.

(٢) في (م) بذلك.

(٣) جمع قيسارية، وهي الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، وقد يشتمل على سوق مسقوفة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: ٣٥٧.

(٤) ص٤.

(٥) هو كالخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس. النهاية (قهرم).

(٦) عبارة: في رواية، من (د) و(ظ).

(٧) سنن الترمذي (٣٤٢٨) و(٣٤٢٩)، قال الترمذي: وعمرو بن دينار هذا هو شيخ بصري، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه.

ابن العربيّ[١]: وهذا إذا لم يَقصد في البقعة سواه[٢] ليعمرها بالطاعة إذ عُمرت بالمعصية وليحلِّيها بالذِّكر إذ عُطلت بالغفلة، وليعلِّم الجَهَلةَ ويذكِّرَ الناسين.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: إن الدنيا دارُ بلاء وامتحان، فأرَاد سبحانه أن يَجْعَل بعضَ العبيد فتنةً لبعضٍ على العموم في جميع الناس مؤمنٍ وكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنيِّ[٣]. ومعنى هذا أن كلَّ واحدٍ مختبَرٌ بصاحبه، فالغنيُّ ممتحَن بالفقير، عليهِ أن يواسِيَه ولا يسخرَ منه. والفقيرُ ممتحَن بالغنيِّ، عليه ألا يحسدَه ولا يأخذَ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبرَ كلُّ واحدٍ منهما على الحقِّ؛ كما قال الضحاك في معنى «أَتَصْبِرُونَ» أي: على الحق[٤].

وأصحابُ البلايا يقولون: لِمَ لم نُعافَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لمْ أُجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كلِّ آفةٍ[٥].

والرسولُ المخصوصُ بكرامة النبوَّة فتنةٌ لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكَّام العدل[٦]. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالفتنةُ أن يَحسُدَ المبتلَى المعافى، ويَحقِر المعافَى المبتلى. والصبرُ أن يَحبِس كلاهما نفسَه، هذا عن البَطَر، وذاك عن الضَّجَر.

«أَتَصْبِرُونَ» محذوف الجواب، يعني أم لا تَصبرون. فيقتضي جوابًا كما قاله

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣ .

(٢) أي سوى الله سبحانه وتعالى .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٦ .

(٥) أخرج نحواً من هذا الكلام الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٤ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٥ (١٥٠٤٧) ، والبيهقي في الشعب (١٠٠٧٢) عن الحسن .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ .

المزَنيُّ وقد أخرَجته الفاقةُ، فرأى خَصِيًّا في مراكب ومناكب، فَخَطَر بباله شيءٌ فسمِع مَن يقرأ الآية: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ فقال: بلى ربَّنا! نصبِرُ ونَحتَسِب[1].

وقد تلا ابنُ القاسم صاحبُ مالك هذه الآيةَ حين رأى أشهبَ بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سَنَصْبِر[2].

وعن أبي الدرداء أنه سمِع النبيَّ ﷺ يقول: «ويلٌ للعالم من الجاهل، وويلٌ للجاهل من العالم، وويلٌ للمالك من المملوك، وويلٌ للمملوك من المالك، وويلٌ للشديد من الضعيف، وويلٌ للضعيف من الشديد، وويلٌ للسلطان من الرَّعيَّة، وويلٌ للرَّعيَّة من السلطان، وبعضُهم لبعضٍ فتنةٌ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾» أسندَه الثعلبيُّ تغمَّده الله برحمته[3].

وقال مقاتل: نزَلت في أبي جهلِ بن هشام، والوليد بنِ المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي مُعَيط، وعُتْبة بن ربيعة، والنضرِ بن الحارثِ حين رَأَوا أبا ذرٍّ وعبدَ الله ابن مسعود، وعماراً وبلالاً وصُهَيباً وعامرَ بن فُهَيرة، وسالماً مولى أبي حُذَيفة ومِهْجَعاً مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحضْرَمي، وذويهم، فقالوا على سبيل الاستهزاء: أَنُسلمُ فنكونَ مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على ما تَرَون من هذه الحال الشديدةِ والفقر[4]، فالتوقيف بـ«أَتَصْبِرونَ» خاصٌ للمؤمنين المحقِّين من أمة محمدٍ ﷺ. كأنه جعل إمهالَ الكفار والتوسعةَ عليهم فتنةً للمؤمنين، أي: اختباراً لهم[5]. ولمَّا صبَر المسلمون أنزَل اللهُ فيهم: ﴿إِنِّي

---

(١) ذكر الخطَّابيُّ في كتاب العزلة ص١٠٥-١٠٦ نحو هذه القصة عن المزني، وفيها أن ابن عبد الحكم أقبل في موكبه، فبهره ما رأى .. فتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ ...

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ دون قوله: في مملكته عابراً عليه.

(٣) أخرجه البزار (٣٤٤٢كشف)، وأبو يعلى في مسنده (٤٠٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٥٥ من رواية الأعمش عن أنس ﷺ. والأعمش لم يرو عن الصحابة، ينظر جامع التحصيل ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥، وذكر سبب النزول أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٣٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ [المؤمنون: ١١١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ وبمن يَصبر أو يَجزع[١]، وبمن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدَّى ما عليه من الحقِّ ومن لا يُؤدِّي[٢].

وقيل: «أَتَصْبِرُونَ» أي: اصبروا[٣]. مثل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، فهو أمرٌ للنبيِّ ﷺ بالصبر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يريدُ: لا يَخافون البعثَ[٤] ولقاءَ الله، أي: لا يؤمنون بذلك.

قال:

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا وخالَفَها في بيت نُوبٍ عَوامِلِ[٥]

وقيل: «لَا يَرْجُونَ»: لا يُبالون. قال:

لَعمرُكَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرَعي[٦]

ابن شجرة: لا يأملون؛ قال:

أترجو أُمَّةٌ قتلتْ حُسَيناً شفاعةَ جدِّه يومَ الحسابِ[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٥) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وسلف ٣/ ٤٣٣.

(٦) قائله خبيب بن عدي ﷺ، وهو في السيرة النبوية ٣/ ١٧٦ وسلف بنحوه ١٣/ ٣٤٤.

(٧) البيت أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢٣ (٢٨٧٣)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق =

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ أي: هلَّا أُنزل. ﴿عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمداً صادقٌ. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عِياناً فيخبرنا برسالته[1]. نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حيثُ سَألوا اللهَ الشَّططَ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تُرى إلا عندَ الموت، أو عند نزولِ العذاب، واللهُ تعالى لا تُدركه الأبصارُ، وهو يدركُ الأبصارَ، فلا عينٌ تراه. وقال مقاتل: «عُتُوًّا» علوًّا في الأرض. والعتوُّ: أشدُّ الكفر وأفحش الظلم[2]. وإذا[3] لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن، فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولابدَّ لهم من معجزة يُقيمها من يَدَّعي أنه مَلَكٌ، وليس للقوم طلبُ معجزةٍ بعد أن شاهدوا معجزةً، وأن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحدٌ إلا عند الموت[4]: فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تَخرج أنفسهم. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يُريد تقول الملائكة: حراماً محرَّماً أن يدخل الجنة إلا من قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وأقام شرائعَها، عن ابن عباس وغيرِه[5].

وقيل: إن ذلك يوم القيامة، قاله مجاهد[6] وعطية العوفيُّ. قال عطية: إذا كان

= ١٤/ ٢٤٣، والمزي في تهذيب الكمال ٢/ ١٩٤-١٩٥، وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي قبيل وابن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه، وأبو قبيل صدوق يَهم. كما في تقريب التهذيب.

وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ٣/ ١١٨ قائلاً: وهذا البيت زعموا قديماً ولا يدرى قائله، وذكره برهان الدين الوطواط في غرر الخصائص ص٣٣٨، والهيثمي في المجمع ٩/ ١٩٩ وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.

والأبيات الثلاثة في النكت والعيون ٤/ ١٣٩.

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٣) في (ظ) و(ف) وإذ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٤٠.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٣٨، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٥.

(٦) تفسيره ٢/ ٤٤٩.

يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافرُ تمناه، فلم يره من الملائكة[١].

وانتصب «يَوْمَ يَرَوْنَ» بتقدير: لا بشرى للمجرمين يومَ يَرون الملائكة. «يومَئِذٍ» تأكيدٌ لـ «يَوْمَ يَرَوْنَ»[٢]. قال النحاس[٣]: لا يَجوز أن يكون «يَوْمَ يَرَوْنَ» منصوباً بـ «بُشْرَى» لأنَّ ما في خبر[٤] النفي لا يَعمل فيما قبله، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى: يُمنعون البشارة يومَ يرون الملائكة؛ ودلَّ على هذا الحذف ما بعده.

ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون «يومَ يرون الملائكة» و«يَوْمَئِذٍ» مؤكدٌ. ويجوز أن يكون المعنى: اذكر يومَ يرون الملائكة، ثم ابتدأ فقال: «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا» أي: وتقول الملائكة: حَراماً محرَّماً أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسماءُ حِجراً مُحَرَّماً ... وأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتها حَمَا

أراد: أَلَا أصبحت أسماءُ حراماً محرَّماً[٥].

وقال آخر:

حَنَّت إلى النَّخْلَةِ القُصْوى فقلتُ لها ... حِجْرٌ حرامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ[٦]

(١) النكت والعيون٤/ ١٤٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦ .

(٤) في(د) و(م) حيز ... والمثبت من(ز) و(ظ) و(ف) وإعراب القرآن .

(٥) الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٠٣-٨٠٤ ، وقائل البيت عبد الله بن عجلان كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٧١٦ ، وعيون الأخبار٤/ ١٣١ ، والأغاني للأصبهاني ٢٢/ ٢٤٢ بلفظ: ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً ...، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (حمو) دون نسبة .

(٦) البيت للمتلمس بن جرير ، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٧٣ ، والمبرد في الفاضل ص٧٨ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤١-١٤٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وابن الشجري في المختارات ١/ ٣٢ ، واللسان (دهرس)، ولفظه عند المبرد وابن الشجري: بسل .. بدل حجر، وقوله: الدهاريس، أي: الدواهي.

ورويَ عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حِجْراً» وقفٌ من قول المجرمين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: «مَحْجُورًا» عليهم أن يُعاذوا أو يُجاروا؛ فحجَر اللهُ ذلك عليهم يومَ القيامة. والأول قولُ ابن عباس. وبه قال الفرَّاء؛ قاله ابن الأنباريِّ(١).

وقرأ الحسن وأبورجاء: «حُجْرًا» بضم الحاء، والناسُ على كسرها(٢).

وقيل: إنَّ ذلك من قول الكفار؛ قالوه لأنفسهم؛ قاله قتادة فيما ذكر الماورديُّ(٣).

وقيل: هو من قول الكفار للملائكة(٤).

وهي كلمةُ استعاذة، وكانت معروفةً في الجاهلية؛ فكان إذا لقيَ الرجلُ مَن يَخافُه قال: حجراً محجوراً، أي: حراماً عليك التعرُّضُ لي(٥).

وانتصابه على معنى: حَجَرتُ عليك؛ أو حجَر اللهُ عليك؛ كما تقول: سُقْياً ورعياً(٦). أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكةَ يُلقونهم في النار قالوا: نَعُوذُ بالله منكم؛ ذكره القشيريُّ، وحكى معناه المهدويُّ عن مجاهد(٧).

وقيل: «حِجْرًا» من قول المجرمين. «مَحْجُورًا» من قول الملائكة، أي: قالوا للملائكة: نعوذُ باللهِ منكم أن تَتعرَّضوا لنا. فتقول الملائكة: «محجُورًا» أن تُعاذوا من شرِّ هذا اليوم؛ قاله الحسن(٨).

---

(١) في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٨٠٤ ، وبنحوه في المكتفى للداني ص٤١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٠٤عن الحسن والضحاك .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤١ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٩-٤٣٠ عن ابن جُريج .

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٦٧ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٤) عن الحسن وقتادة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٣٢٥ ، والكشاف ٣/ ٨٨ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٥ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٧١ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيهٌ على عِظم قَدرِ يوم القيامة، أي: قَصَدنا في ذلك إلى ما كان يَعمله المجرمون من عملِ بِرٍّ عند أنفسهم. يقال: قَدِم فلانٌ إلى أمر كذا، أي: قصده. وقال مجاهد: «قَدِمْنَا» أي: عَمدنا(١). وقال الراجز:

وقَــدِم الــخــوارجُ الــضُّــلَّالُ إلــى عِــبــاد ربِّــهــم فــقــالــوا
إن دمــاءكــم لــنــا حَــلالُ(٢)

وقيل: هو قُدوم الملائكة(٣)، أخبر به عن نفسه تعالى فاعلَه.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: لا يُنتَفَعُ به، أي: أبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءً» من ذوات الهمز وإنما هُمِزت لالتقاء الساكنين. والتصغير: هُبَيّ في موضع الرفع، ومن النحويين مَن يقول: هُبيّ في موضع الرفع؛ حكاه النحاسُ(٤). و واحده هباءة والجمع أهباء. قال الحارث بن حِلِّزة يصف [ناقةً]:

فَــتَــرى خــلْــفَــهــا مــن الــرَّجــع والــوَقْـ ـعِ مَــنِــيــنــاً كــأنــه أهــبــاءُ(٥)

وروى الحارث عن عليٍّ قال: الهباء المنثورُ: شعاعُ الشمس الذي يَدخل من الكُوَّة(٦).

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٩، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٥).

(٢) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٧٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣٠، والنكت والعيون ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦، ومجمع البيان للطبرسي ١٩/ ١٠٠ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧.

(٥) شرح المعلقات العشر للنحاس ص٥٧، وقال في شرحه: «الرَّجع»: رجع قوائمها. «الوقع»: وقع خفافها. «المنين»: الغبار الضعيف كأنه الذي ذهبت مُنَّتُه، أي: قوته.

(٦) ذكره عنه أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٣، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٩ (١٥٠٧١)

وقال الأزهري[(١)]: الهَباءُ: ما يَخرج من الكُوَّة في ضوء الشمس؛ شبيهٌ بالغبار. تأويله: إنَّ الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباءُ المنبثُّ فهوما تُثيره الخيلُ بسنابكها من الغبار. والمنبثّ: المتفرِّق. وقال ابن عرفة: الهبوَة والهبَاء: التراب الدقيق. الجوهريُّ[(٢)]: ويقال له إذا ارتفع هبَا يَهْبُو هُبُوّاً، وأهبيته أنا. والهَبْوة: الغَبَرة. قال رؤبة:

تَبْدُو لنا أعلامُه بعدَ الغَرَقْ ... في قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ[(٣)]

وموضعٌ هابي التراب، أي: كأن ترابه مثل الهباءِ في الرِّقَّة.

وقيل: إنه ما ذَرَته الرياحُ من يابس أوراقِ الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً: إنه الماء المُهراق. وقيل: إنه الرَّماد؛ قاله عبيدُ بن يعلى[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]. قال النحاس[(٥)]: والكوفيون يُجيزون: «العسل أحلى من الخل» وهذا قولٌ مردودٌ؛ لأن معنى «فلان خيرٌ من فلان» أنه أكثر خيراً منه، ولا حلاوةَ في الخَلّ. ولا يجوز أن يقول[(٦)]: النصرانيُّ خيرٌ من اليهودي؛ لأنه لا خيرَ فيهما فيكونَ أحدهما أزيدَ في الخير [من الآخر]. ولكن يقال: اليهوديُّ شرٌ من النصراني؛ فعلى هذا كلامُ العرب.

---

(١) في تهذيب اللغة ٦/ ٤٥٤-٤٥٥ بنحوه.

(٢) في الصحاح (هبو).

(٣) ديوان رؤبة ص١٠٤ والدُّقق: جمع دُقَّة، وهو التراب الليِّن الذي كَسَحَتْه الريح من الأرض. الصحاح (دقق).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٤١، وأخرج قول قتادة وابن عباس الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٣.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في (م) والنسخ عدا (د) يقال. والمثبت من(د) وإعراب القرآن.

و«مُسْتَقَرًّا» نصب على الظرف إذا قدِّر على غير باب «أفعل منك» والمعنى: لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب «أفعل منك» فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس[(١)] والمهدويُّ.

قال قتادة: «وَأَحْسَنُ مَقِيلاً»: منزلاً ومأوًى[(٢)].

وقيل: هو على ما تعرفه العربُ من مقيلِ نصفِ النهار[(٣)]. ومنه الحديثُ المرفوع: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم، فَيقِيلُ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار» ذكره المهدوِيُّ[(٤)].

وقال ابن مسعود: لا يَنتصف النهارُ يومَ القيامة من نهارِ الدنيا حتى يَقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ: «ثم إن مقِيلهم لإلى الجحيم» كذا هي في قراءة ابنِ مسعود[(٥)]. وقال ابن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا يَنتصف النهارُ من يوم القيامة حتى يَقيل أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار[(٦)].

ومنه ما روي: «قِيلوا فإنَّ الشياطين لا تَقِيل»[(٧)] وذكر قاسم بن أصبغ، من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة»

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧ .

(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨١ (١٥٠٨٤) .

(٣) زاد المسير ٦/ ٨٤ .

(٤) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣١٤)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٤ ، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٣٢ عن الأعمش ، عن إبراهيم النخعي قوله، ولفظه كانوا يرون أنه يُفرغ من حساب الناس. . .

(٥) أخرجه عنه في الزهد (١٣١٣)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٠ (١٥٠٧٩)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٢ .

(٦) ذكره أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٨ ، والواحدي في الوسيط٣/ ٣٣٨ ، وأخرجه عنه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥ .

(٧) أخرجه الأصبهاني في أخبار أصبهان١/ ٣٥٣ ، والطبراني في الأوسط (٢٨) من حديث أنس ﷺ وذكره ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٦٨ في ترجمة عباد بن منصور الناجي، والهيثمي في المجمع ٨/ ١١٢ ، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه كثير بن مروان وهو كذاب.

فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ عن المؤمن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يُصلِّيها في الدنيا»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: واذكر يومَ تشقَّق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «تَشَقَّقُ»[(٢)] بتخفيف الشين، وأصله تتشقَّق بتائين، فحذفوا الأولى تخفيفاً، واختاره أبوعبيد. الباقون: «تَشَّقَّقُ» بتشديد الشين على الإدغام، واختاره أبو حاتم. وكذلك في «ق»[(٣)].

«بِالْغَمَام» أي: عن الغمام. والباءُ و«عن» يتعاقبان، كما تقول: رميت بالقوس، وعن القوس[(٤)].

وروي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيقٍ مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيهِهم، فتنشق السماءُ عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[(٥)] [البقرة: ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن السماوات، ويأتي الربُّ جلَّ وعزَّ في الثمانية الذين يَحملون العرشَ لفصل القضاء، على ما يَجوز أن يُحملَ عليه إتيانُه؛ لا على ما تُحمل عليه صفاتُ المخلوقين من الحركة والانتقال[(٦)]. وقال ابن عباس: تتشقق سماء الدنيا، فيَنزل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٧١٧)، قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٣٧: رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨: وسنده حسن.

(٢) قراءة عاصم وحمزة والكسائي وأبي عمرو في السبعة ص٤٦٤، والتيسير ص١٦٣، وقراءة الأعمش، في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٧. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٧.

(٣) في قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ الآية ٤٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٦، وبنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٨٩، وأخرجه الطبري في تفسير ١٧/ ٤٣٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢ (١٥٠٨٨) عن مجاهد.

(٦) صفة الإتيان ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به، من غير تشبيه ولا تأويل ولا تحريف.

أهلُها وهم أكثرُ ممن في الأرض من الجنّ والإنس، ثم تنشق السماء الثانية، فيَنزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعةُ، ثم يَنزل الكَروبيُّون وحملةُ العرش[١]؛ وهو معنى قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: من السماء إلى الأرض لحسابِ الثَّقَلين.

وقيل: إن السماء تَنشقُّ بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماءُ[٢]؛ فإذا انشقت السماءُ انتَقَض تركيبُها وطُويت، ونزلت الملائكةُ إلى مكانٍ سواها.

وقرأ ابنُ كثير: «وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ» بالنصب من الإنزال. الباقون: «وَنُزِّلَ المَلَائِكَةُ» بالرفع[٣]. دليلهُ: «تَنْزِيلاً». ولو كان على الأول لقال: إنزالاً. وقد قيل: إن نَزَّل وأنزل بمعنى، فجاء «تَنْزيلًا» على «نَزَّل». وقد قرأ عبدُ الوهَّاب عن أبي عمرو: «وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا»[٤]. وقرأ ابنُ مسعود: «وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ». وأبيّ بن كعب: «وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ». وعنه: «وتَنَزَّلت الْمَلَائِكَةُ»[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ «الـمُلْكُ» مبتدأ، و«الْحَقُّ» صفة له و«لِلرَّحْمَنِ» الخبر[٦]؛ لأن الـمُلك الذي يَزول ويَنقطع ليس بمُلْكٍ، فبطَلت يومئذٍ أملاكُ المالكين وانقطَعت دعاويهم، وزال كلُّ مَلِك ومُلكه، وبقي المُلْكُ الحقُّ للهِ

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٠-٤٥١ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٣٦٨٢ (١٥٠٨٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٦٩ ، بنحوه. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: مداره على علي بن زيد بن جُدعان وفيه ضعف، وفي سياقه غالباً نكارة شديدة.

(٢) في (د) و(ف): فيتشقق الغمام بتشقق السماء .

(٣) السبعة ص٤٦٤ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٢١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٧ . قال ابن جني: هذا غير معروف؛ لأن «نَزَلَ» لا يتعدى إلى مفعول به. انتهى كلامه، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٠٤ .

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٤ .

وحدَه[١]. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالهم من الأهوال ويَلحقُهم من الخِزي[٢] والهوان، وهو على المؤمنين أخفُّ من صلاةٍ مكتوبة[٣]؛ على ما تقدَّم في الحديث. وهذه الآية دالَّةٌ عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً؛ فهو على المؤمنين يسيِّر. يقال: عَسِر يَعْسَر، وعَسُر يَعسُر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الماضي: عَضِضت. وحكى الكِسائيُّ: عَضَضت بفتح الضَّادِ الأولى.

وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابنُ عباس وسعيد بنُ المسيب أنَّ الظالم ها هنا يراد به عقبة بنُ أبي مُعَيط، وأنَّ خليلَه أمية بنُ خلف؛ فعقبةُ قتله عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٥]؛ وذلك أنه كان في الأُسارى يومَ بدر، فأمر النبيُّ ﷺ بقتله، فقال: أأُقتل دونَهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوِّك. فقال: مَن للصِّبْية؟ فقال: النار. فقام عليٌّ ﷺ فقتله[٦]. وأميةُ قتله النبيُّ ﷺ[٧]، فكان هذا من دلائل نبوَّةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا، فقُتلا على الكفر. ولم يسمَّيا في الآية؛ لأنه أبلغ في الفائدة، ليُعلَم أنَّ هذا

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٩.

(٢) في (د): الحزن.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨، وقد سلف الكلام على قتل عقبة ١٠/ ٢٣ و٧٦ و١١/ ٢٩٣.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٩٣٩٤) و(٩٧٢٨).

(٧) في مغازي الواقدي ١/ ١٥١ أن الذي قتل أميةَ خبيبُ بنُ يساف وبلالٌ، وبمعناه في سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٢. وفي السيرة أيضاً ٢/ ٨٤ أن النبي ﷺ قتل أُبيَّ بن خلف؛ طعنه في عنقه يوم أحد طعنةً، تدحرج منها عن فرسه، ومات منها بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة.

سبيلُ كلِّ ظالمٍ قَبِلَ[١] مِن غيره في معصية الله عزَّ وجلَّ.

قال ابن عباس وقتادةُ وغيرهما: وكان عقبة قد همَّ بالإسلام، فمنعه منه أُبيُّ بن خلف وكانا خِدْنَين، وأنَّ النبي ﷺ قتلهما جميعاً، قُتل عقبةُ يومَ بدرٍ صبراً، وأبيُّ بن خلف في المبارزة يومَ أُحد[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيّ، والأول ذكره النحَّاس.

وقال السُّهيلي[٣]: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ» هوعقبة بنُ أبي مُعَيط، وكان صديقاً لأمية بنِ خلفٍ الجُمَحيّ ـ ويروى لأُبي بن خلف أخي أمية ـ وكان قد صنع وليمةً، فدعا إليها قريشاً، ودعا رسولَ الله ﷺ، فأبى أنْ يأتيَه إلاَّ أنْ يُسلِم. وكَرِه عقبةُ أن يتأخَّرَ عن طعامه مِن أشراف قريشٍ أحدٌ، فأسلم ونطق بالشهادتين[٤]، فأتاه رسولُ الله ﷺ، وأكل من طعامه، فعاتبه خليلُه أمية بنُ خلف ـ أو أبيُّ بن خلف ـ وكان غائباً. فقال عقبة: رأيتُ عظيماً ألَّا يَحضُرَ طعامي رجلٌ من أشراف قريش. فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجعَ وتبصُقَ في وجهه وتطأَ عنقَه[٥] وتقول كيت وكيت. ففعل عدو الله ما أمره به خليلُه؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٦].

قال الضحَّاك[٧]: لمَّا بصق عقبةُ في وجه رسولِ الله ﷺ، رجع بصاقُه في وجهه وشوى وجهَه وشفتيه، حتى أثَّر في وجهه، وأحرق خدَّيه، فلم يزل أثرُ ذلك في وجهه

(١) في (د) و(ظ): قتل، وهي غير منقوطة في (ز)، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨ ، والكلام منه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١) عن مقسم مولى ابن عباس مطولاً، ومن طريقه أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٠ ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٧-٣٤٨ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٣ .

(٤) قوله: ونطق بالشهادتين، ليس في التعريف والإعلام.

(٥) قوله: وتطأ عنقه ، ليس في التعريف والإعلام.

(٦) كذا أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٤٠١) من طريق ابن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد ضعيف جداً، والصحيح ما أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١)، ومن طريقه الطبري ١٧/ ٤٤٠ - ٤٤١ أن الله لم يسلطه على ذلك.

(٧) ذكر قوله بنحوه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٧ .

حتى قُتل. وعضُّه يديه فِعلُ النادمِ الحزين لأجل طاعته خليلَه.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ في الدنيا، يعني طريقاً إلى الجنة. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾: دعاءٌ بالويل والثُّبور على محالفة[1] الكافرِ ومتابعته.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني أمية، وكنى عنه ولم يصرِّح باسمه، لئلَّا يكون هذا الوعدُ مخصوصاً به ولا مقصوراً، بل يتناول جميعَ من فعل مثلَ فعلِهما[2]. وقال مجاهدٌ وأبو رجاء: الظالم عامٌّ في كل ظالم، وفلان: الشَّيطان[3]. واحتُجَّ لصاحب هذا القول بأنَّ بعده: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

وقرأ الحسن: «يَا ويْلَتي»[4]. وقد مضى في «هود» بيانُه[5]. والخليل: الصاحبُ والصديق. وقد مضى في «النساء» بيانه[6].

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: يقول هذا النادم: لقد أضلَّني مَن اتخذتُه في الدنيا خليلاً عن القرآن والإيمانِ به. وقيل: «عَنِ الذِّكْرِ» أي: عن الرسول. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا من قول اللهِ لا من قول الظالم. وتمامُ الكلام على هذا عند قولهِ: «بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي». والخذل: الترك من الإعانة[7]، ومنه خِذْلانُ إبليسَ للمشركين لمَّا ظهر لهم في صورة سراقة بنِ مالك، فلمَّا رأى الملائكة تبرَّأ منهم[8]. وكلُّ مَن صدَّ عن سبيل الله وأُطيع في معصية اللهِ فهو شيطانٌ للإنسان، «خَذُولًا» عند

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): مخالَّة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦، وأخرج منه قوله: «فلان: الشيطان»؛ الطبري ١٧/ ٤٤٢ عن مجاهد، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٦ (١٥١٠٩) و(١٥١١٠) عن مجاهد وأبي رجاء.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٠٤.

(٥) ١١/ ١٦٨.

(٦) ٧/ ١٥٥-١٥٦.

(٧) في (د) و(ظ): الإغاثة.

(٨) سلف ١٠/ ٤٢.

نزول العذابِ والبلاء. ولقد أَحسنَ مَن قال:

تَجَنَّب قرينَ السُّوءِ واصرِمْ حبالَهُ ... فإنْ لم تجدْ عنه مَحِيصاً فدارِهِ
وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذر مِراءَهُ ... تَنَلْ منه صَفْوَ الوُدِّ ما لم تمارِهِ
وفي الشيب ما يَنهى الحليمَ عن الصِّبا ... إذا اشتعلتْ نيرانُه في عِذارِهِ[(١)]

آخر:

إِصحَبْ خيارَ الناس حيثُ لَقِيتهم ... خيرُ الصحابة مَن يكون عفِيفا
والناسُ مِثْلُ دراهمٍ ميَّزتَها ... فوجدتَ منها فِضَّةً وزُيوفا[(٢)]

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصالح والجليسِ السُّوء كحامل المِسْك ونافخِ الكِير. فحاملُ المسك إمَّا أنْ يُحذِيَك وإما أن تبتاعَ منه، وإما أنْ تجد ريحاً طيِّبة، ونافخ الكير إما أن يُحرِقَ ثيابَك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة» لفظُ مسلم[(٣)]. وأخرجه أبو داود من حديثِ أنس[(٤)].

وذكر أبو بكر البزَّارُ عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله؛ أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «مَن ذكَّركم بالله رؤيتُه، وزاد في علمكم مَنْطِقه، وذكَّركُم بالآخرة عملُه»[(٥)].

وقال مالك بنُ دِينار: إنك إن تنقل الأحجارَ مع الأبرار خيرٌ لك من أنْ تأكلَ الخبيصَ مع الفجَّار[(٦)]. وأنشد:

---

(١) البيت الأول في غرر الخصائص الواضحة ص٤٦٧ ، والبيتان الأولان في فيض القدير ٣/ ٤ دون نسبة .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص١٠٢ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٣٤) وصحيح مسلم (٢٦٢٨). وهو في مسند أحمد (١٩٦٢٤). وقوله: ونافخ الكير، الكير: مِنْفَخ الحداد من زِقٍّ أو جلد غليظ ذو حافات. الصحاح (كير). وقوله: يحذيك، أي: يعطيك. إكمال المعلم ٨/ ١٠٨ .

(٤) سنن أبي داود (٢٨٢٩).

(٥) لم نقف عليه عند البزار، وهو عند أبي يعلى (٢٤٣٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٢٤ ، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٦) و(٩٤٤٧). قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٢٦ : فيه مبارك بن حسان ، وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٦) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٠٠ .

وصاحبْ خيارَ الناس تَنْجُ مُسَلَّماً وصاحب شرارَ الناس يوماً فتندما

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى[(١)]. ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي: قالوا فيه غيرَ الحقِّ مِن أنه سحرٌ وشعر؛ عن مجاهدٍ والنَّخعيّ[(٢)]. وقيل: معنى «مَهْجُوراً» أي: متروكاً[(٣)]؛ فعزَّاه اللهُ تبارك وتعالى وسلَّاه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا لك يا محمد عدوًّا من مشركي قومِك ـ وهو أبو جهل في قول ابنِ عباس ـ فكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا من مشركي قومه[(٤)]، فاصبر لأمري كما صبروا، فإني هادِيك وناصرُك[(٥)] على كل من ناوأك.

وقد قيل: إنَّ قول الرسول: «يَا رَبِّ» إنما يقوله يومَ القيامة، أي: هجروا القرآنَ وهجروني وكذَّبوني[(٦)]. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «من تعلَّم القرآن[(٧)] وعلَّق مصحفاً[(٨)] لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به يقول: يا ربَّ العالمين! إنَّ عبدَك هذا اتَّخذني مهجوراً، فاقضِ بيني وبينه». ذكره الثعلبي[(٩)].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨، وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٤٤٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٤ عن ابن زيد.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩، وقول ابن عباس أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٧٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨.

(٦) ينظر زاد المسير ٦/ ٨٧.

(٧) في (د) و(ز) و(ظ) زيادة: وعلمه.

(٨) في (م): مصحفه.

(٩) أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب. الفتح السماوي ٢/ ٨٨١.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال، أو التمييز، أي: يهديك وينصرك، فلا تبالِ بمَن عاداك[١]. وقال ابن عباس: عدوُّ النبيِّ ﷺ أبو جهلٍ لعنه الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ اختُلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفّارُ قريش، قاله ابنُ عباس. والثاني: أنهمُ اليهودُ حين رأوا نزولَ القرآن مفرَّقاً قالوا: هلَّا أُنزل عليه جملةً واحدة، كما أنزلت التوراةُ على موسى[٢]، والإنجيلُ على عيسى، والزَّبور على داود. فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: فعلنا﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ نقوّي به قلبَك فتعيه وتحمله[٣]، لأن الكتب المتقدِّمةَ أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أُنزل على نبيٍّ أُمِّيّ؛ ولأنَّ مِن القرآن الناسخ والمنسوخ؛ ومنه ما هو جوابٌ لمن سأل عن أمور، ففرَّقناه ليكون أوعى للنبيِّ ﷺ، وأيسرَ على العامل به؛ فكان كلَّما نزل وحيٌ جديد زاده قوَّةَ قلب[٤].

قلت[٥]: فإن قيل: هلَّا أُنزل القرآنُ دُفعةً واحدة وحَفِظه إذا كان ذلك في قدرته؟

قيل: في قدرة الله أنْ يعلِّمَه الكتابةَ[٦] والقرآنَ في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل، ولا معترِضَ عليه في حكمه، وقد بيَّنَّا وجهَ الحِكمةِ في ذلك.

وقد قيل: إنَّ قوله: «كَذَٰلِكَ» مِن كلام المشركين، أي: لولا نُزِّل عليه القرآنُ

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٧ (على هامش مراح لبيد).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٤٣-١٤٤، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨.

(٣) في (د) و(ز): وتحتمله، وفي تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨ (والكلام منه): وتحفظه.

(٤) الوجيز ٢/ ٩٧ (على هامش مراح بن لبيد).

(٥) ليست في (د) و(ز) و(ظ).

(٦) في (د) و(م): الكتاب.

جملةً واحدة كذلك، أي: كالتوراة والإنجيل، فَيتِمُّ الوقف على «كَذَلِكَ»، ثم يبتدئ: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» على معنى: أنزلناه عليك متفرِّقاً لنثبِّت به فؤادك[١]. ويجوز أنْ يكونَ الوقفُ على قوله: «جُمْلَةً وَاحِدَةً»، ثم يبتدئ: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[٢] على معنى: أنزلناه عليك كذلك متفرِّقاً لنثبتَ به فؤادك.

قال ابنُ الأنباري: والوجهُ الأوَّل أجودُ وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير؛ حدَّثنا محمد بنُ عثمان الشيبي قال: حدَّثنا منجاب قال: حدَّثنا بِشْر بن عُمَارة، عن أبي رَوْق، عن الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] قال: أُنزل القرآنُ جملةً واحدة من عند اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكِرام الكاتبين في السماء، فنجَّمه السفرةُ الكِرام على جبريلَ عشرين ليلة، ونجَّمهُ جبريلُ عليه السلام على محمد ﷺ عشرين سنة. قال: فهو قولهُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني نجومَ القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]. قال: فلمَّا لم ينزل على النبيِّ ﷺ جملةً واحدة، قال الذين كفروا: لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة؛ فقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يا محمد[٣].

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» يقول: ورسَّلناه ترسيلاً؛ يقول: شيئاً بعد شيء[٤].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآنَ جملةً واحدة ثم سألوك، لم يكن عندك ما تُجيبُ به، ولكنْ نُمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

---

(١) قوله: على معنى، إلى هذا الموضع، ليس في (د) و(م).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٧٩ . وسيأتي القول فيه من كلام النحاس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٠ (١٥١٣٠) من هذا الطريق مختصراً جداً. وأخرجه مطولاً من طريق آخر بنحوه (١٥١٢٧).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال النحاس[(١)]: وكان ذلك من علامات النبوّة؛ لأنهم لا يَسألون عن شيء إلّا أُجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلّا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم، ويدلُّ على هذا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. ولو نَزَلَ جملةً بما فيه من الفرائض لَثَقُل عليهم، وعَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الصَّلاحَ في إنزاله متفرِّقاً، لأنهم يُنبَّهون به مرةً بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه. وفيهِ ناسخٌ ومنسوخ، فكانوا يُتعبَّدون بالشيء إلى وقتٍ بعينه قد علم اللهُ عزَّ وجلَّ فيه الصلاح، ثم ينزل النسخُ بعد ذلك؛ فمحالٌ أن ينزلَ جملة واحدة: اِفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا[(٢)]. قال النحاس: والأولى أن يكون التمامُ «جُمْلَةً وَاحِدَةً» لأنه إذا وُقف على «كَذَٰلِكَ» صار المعنى: كالتوراة والإنجيل والزبور؛ ولم يتقدّم لها ذِكْر.

قال الضحّاك: «وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» أي: تفصيلًا[(٣)]. والمعنى: أحسن مِن مَثَلهم تفصيلًا؛ فحذف لِعِلم السامع.

وقيل: كان المشركون يستمدُّون من أهل الكتاب، وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريفُ والتبديل، فكان ما يأتي به النبيُّ ﷺ أحسنَ تفسيراً ممَّا عندهم؛ لأنهم كانوا يَخلِطون الحقَّ بالباطل، والحقُّ المَحْض أحسن من حقٍّ مختلِطٍ بباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقيل: «لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ» كقولهم في صفة عيسى: إنه خُلقَ من غير أب «إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ» أي: بما فيه نقضُ حُجَّتِهم كآدم إذ خُلِق من غير أبٍ وأمّ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ تقدَّم في «سبحان»[(٤)].

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٩-١٦٠ .

(٢) قوله كذا من (ظ) .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٨ .

(٤) ١٣/ ١٧٨ - ١٧٩ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفَّار لأصحاب محمد ﷺ: هو شرُّ الخلق؛ فنزلت الآية.﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: دينًا وطريقًا[١]. ونظمُ الآية: ولا يأتونك بَمَثلٍ إلَّا جئناك بالحقّ، وأنت منصورٌ عليهم بالحُجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ تقدَّم في «طه»[٢]. ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ الخطابُ لهما. وقيل[٣]: إنما أُمر موسى ﷺ بالذَّهاب وحدَه في المعنى. وهذا بمنزلة قولِه: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما.

قال النحاس[٤]: وهذا مما لا ينبغي أن يُجترأ به على كتاب اللهِ تعالى، وقد قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٤-٤٧]. ونظيرُ هذا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٥] قال القشيريّ: وقولُه في موضع آخرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورَين، فكلُّ واحدٍ مأمور. ويجوز أن يقال: أُمر موسى أوَّلاً، ثم لمَّا قال: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، قال: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ»[٥].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٠.

(٢) ١٤/ ٥٣.

(٣) قائله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٠، وكلام الفراء منه.

(٥) سلف الكلام ١٤/ ٦٣.

﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يريد فرعونَ وهامانَ والقِبْط. ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ في الكلام إضمار، أي: فكذَّبوهما ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ في نصب «قوم» أربعةُ أقوال:

العطف على الهاء والميم في «دَمَّرْنَاهُمْ».

الثاني: بمعنى: اذكر.

الثالث: بإضمار فعلٍ يفسِّره ما بعدَه، والتقدير: وأغرقنا قومَ نوحٍ أغرقناهم.

الرابع: أنه منصوب بـ«أَغْرَقْنَاهُمْ» قاله الفرَّاء[2]. وردَّه النحاس[3]، قال: لأنَّ «أغرقنا» ليس مما يتعدَّى إلى مفعولين فيعملَ في المضمَر وفي «قَوْمَ نُوحٍ».

﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ذَكَر الجِنسَ والمرادُ نوحٌ وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقتِ رسولٌ إليهم إلَّا نوحٌ وحده، فنوحٌ إنما بُعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما يُنزل الله، فلمَّا كذَّبوه، كان في ذلك تكذيبٌ لكل من بُعث بعده بهذه الكلمة[4]. وقيل: إنَّ مَن كذَّب رسولاً فقد كذَّب جميعَ الرسل؛ لأنهم لا يفرِّق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبيٍّ إلاَّ يُصدِّق سائرَ أنبياء اللهِ تعالى، فَمن كذَّب منهم نبيًّا، فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه من النبيِّين.

﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي: بالطُّوفان، على ما تقدَّم في «هود»[5]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩.

(٢) في معانيه ٢/ ٢٦٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٧-٦٨.

(٥) ١١/ ١١٨ فما بعد.

﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتنا. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: للمشركين مِنْ قومِ نوحٍ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: في الآخرة. وقيل: أي: هذه سبيلي في كل ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ كلُّه معطوفٌ على «قَوْمَ نُوحٍ» إذا كان «قَوْمَ نُوحٍ» منصوباً على العطف، أو بمعنى: اذكر. ويجوز أن يكون كلُّه منصوباً على أنه معطوفٌ على المضمَر في «دَمَّرْنَاهُمْ»، أو على المضمر في «جَعَلْنَاهُمْ»، وهو اختيارُ النحَّاس[1]؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكونَ منصوباً بإضمار فعل، أي: اذكر عاداً الذين كذَّبوا هوداً؛ فأهلكهم الله بالريح العقيم، و ثَمودَ كذَّبوا صالحاً؛ فأُهلكوا بالرَّجفة.

﴿وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ والرَّسُّ في كلام العربِ: البئرُ التي تكون غيرَ مَطْويةٍ[2]، والجمعُ: رِسَاس. قال:

تَـنـابِـلَـةٌ يـحـفِـرون الـرِّسَـاسَـا[3]

يعني آبارَ المعادن[4].

قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرَّسّ، قال: صاحب «يس» الذي قال: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قتله قومُه ورَسُّوه في بئر لهم يقال لها: الرَّسّ، طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السُّدِّيّ: هم أصحاب قصةِ «يس» أهلُ أنطاكية، والرَّسُّ بئرٌ بأنطاكية؛ قتلوا فيها حبيباً النجَّار مؤمنَ آل «يس»، فنُسبوا إليها[5].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٢، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٨٢ عن أبي عبيدة. وفي أكثر كتب اللغة أن الرس: البئر المطوية. قال في الصحاح: هو من الأضداد. وسيأتي.

(٣) عجز بيت للنابغة الجعدي، و هو في ديوانه ص٨٢. وصدره: سبقتُ إلى فَرَطٍ ناهلٍ. والفرط: الماء المتقدم لغيره من الأمواه، وتنابلة: جمع تِنْبال وتِنْبالة، وهو القصير. القاموس (فرط) (نبل).

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٣١٣.

(٥) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٤٠، و ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠.

وقال عليٌّ ﷺ[١]: هم قومٌ كانوا يعبدون شجرة صَنَوبر، فدعا عليهم نبيُّهم؛ وكان مِن ولد يهوذا، فيبست الشجرة، فقتلوه ورَسُّوه في بئر، فأظلَّتهم سحابةٌ سوداء فأحرقتهم.

وقال ابن عباس: هم قومٌ بأذربيجان[٢]؛ قتلوا أنبياء[٣]، فجفَّت أشجارُهم وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً.

وقال وهب بنُ منبِّه: كانوا أهلَ بئرٍ يقعدون عليها وأصحابَ مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فكذَّبوه وآذَوه، وتمادَوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلهم، انهارت بهم وبديارهم؛ فخسف اللهُ بهم، فهلكوا جميعاً[٤].

وقال قتادة: أصحاب الرَّسِّ وأصحابُ الأيكة أُمَّتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذَّبوه، فعذَّبهما اللهُ بعذابين.قال قتادة: والرَّسُّ قريةٌ بفَلْج اليمامة[٥].

وقال عكرمة: هم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئر حيًّا[٦]. دليلُه ما روى محمد بن كعب القُرظيُّ عمَّن حدَّثه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوَّلُ الناس يدخل الجنةَ يوم القيامة عبدٌ أسود، وذلك أنَّ الله تعالى بعث نبيًّا إلى قومه، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود، فحفر أهل القرية بئراً وألقَوا فيها نبيَّهم حيًّا، وأطبقوا عليه حجراً ضخماً، وكان العبد الأسودُ يحتطب على ظهره ويبيعه، ويأتيه بطعامه وشرابه، فيعينه اللهُ على رفع تلك الصخرةِ حتى يُدْلِيَه إليه، فبينما هو يحتطب إذ نام، فضرب اللهُ على أُذنه سبع سنين

(١) ذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٩٠ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٥ (١٥١٧٣).

(٣) في (د) و (ز): نبياً. وينظر عرائس المجالس ص١٥٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٤١ ، وزاد المسير ٦/ ٩٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠ . وقول قتادة الثاني أخرجه الطبري١٧/ ٤٥٢ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ دون قوله: حياً .

نائماً، ثم هبَّ من نومه فتمطَّى واتَّكأ على شِقِّه الآخرَ، فضرب الله على أذنه سبع سنين، ثم هبَّ، فاحتمل حُزمةَ الحطب فباعها، وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر، فلم يجده، وكان قومُه قد أراهم اللهُ تعالى آيةً، فاستخرَجوه وآمَنوا به وصدَّقوه، ومات ذلك النبيّ». قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ ذلك العبدَ الأسود لأوَّلُ مَن يدخل الجنة»(١). ذكر هذا الخبَر المهدويُّ والثعلبيّ، واللفظُ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيِّهم فلا يجوز أن يكونوا أصحابَ الرَّسّ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرسِّ أنه دمرهم، إلَّا أنْ يدمَّروا بأحداثٍ أحدثوها بعد نبيِّهم.

وقال الكلبي: أصحاب الرَّسِّ قومٌ أرسل اللهُ إليهم نبيًّا فأكلوه. وهم أوَّلُ من عمل نساؤهم السَّحق(٢)؛ ذكره الماوردي.

وقيل: هم أصحابُ الأُخدود الذين حفروا الأخاديد وحرَّقوا فيها المؤمنين(٣)، وسيأتي(٤).

وقيل: هم بقايا من قومِ ثمود، وأنَّ الرَّسَّ البئرُ المذكورة في «الحج» في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾(٥) [الآية: ٤٥] على ما تقدَّم(٦).

وفي الصحاح: والرَّسُّ اسمُ بئرٍ كانت لبقيَّة من ثمود.

وقال جعفر بنُ محمد عن أبيه: أصحابُ الرَّسِّ قومٌ كانوا يستحسنون لنسائهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥ . وكلام الثعلبي الآتي فيه. قال ابن كثير في تفسيره ٦/ ١١٢: فيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم .

(٢) في (ز)، والنكت والعيون ٤/ ١٤٦ ، وزاد المسير ٦/ ٩٠ : السحر، والمثبت من (د) و(ظ) و(م)، وينظر عرائس المجالس ص١٥١ فما بعد، فقد ذكر قصة أصحاب الرس نقلاً عن الكلبي وغيره، ولم يعرّج على ذكر السحر. والله أعلم .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩ .

(٤) عند تفسير قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً .

(٦) ١٤/ ٤١٧ .

السَّحْق، وكان نساؤهم كلُّهم سحَّاقات[١]. وروي من حديث أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِن أشراط الساعةِ أنْ يكتفيَ الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساء، وَذلك السَّحْق»[٢].

وقيل: الرَّسُّ ماءٌ ونخل لبني أسد. وقيل: الثلجُ المتراكم في الجبال؛ ذكره القُشَيري. وما ذكرناه أوَّلاً هو المعروف، وهو[٣] كلُّ حفر احتُفِر، كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرَّسُّ كلُّ رَكيَّةٍ لم تُطْوَ؛ وجمعُها رِساس. قال الشاعر:

وهـم سـائـرون إلـى أرضـهـم ... فـيـا لـيـتـهـم يَـحـفِـرون الـرِّسـاسـا[٤]

والرَّسُّ اسمُ وادٍ في قول زهير:

بَـكَـرْنَ بُـكـوراً واسـتَـحَـرْن بـسُـحْـرةٍ ... فـهـنَّ لـوادي الـرَّسِّ كـالـيـد لـلـفـمِ[٥]

ورسستُ رسًّا: حفرتُ بئراً. ورُسَّ الميتُ، أي: قُبر. والرَّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً، وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد[٦].

وقد قيل في أصحاب الرَّسِّ غيرُ ما ذكرنا، ذكره الثعلبي وغيره.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: أُمماً لا يعلمهم إلَّا اللهُ بين قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسّ.

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٩/ ١٠٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (١٠٩٠) وأخرجه البيهقي في الشعب (٥٤٦٧) - (٥٤٦٩) وضعف إسناده ثم قال: غير أنه إذا ضم بعضه إلى بعض أخذ قوة، والله أعلم.

وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه الطبراني في الكبير(١٠٥٥٦) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع ٧/ ٣٢٣: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

(٣) في (ظ): وقيل هو..

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ديوان زهير ص١٠، وقوله: كاليد للفم، هو بمعنى المثل العربي: أقرب من يد إلى فم. ينظر المستقصى للزمخشري ١/ ٢٧٩.

(٦) الصحاح (رسس).

وعن الربيع بن خُثَيم اشتكى، فقيل له: ألَا تتداوى، فإنَّ رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك، ثم فكرتُ فيما بيني وبين نفسي، فإذا «عاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً» كانوا أكثرَ وأشدَّ حرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطِبَّاء، فلا الناعتُ منهم بقي ولا المنعوت. فأبى أن يتداوى[١]، فما مكث إلَّا خمسةَ أيام حتى مات، رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ قال الزجَّاج: أي: وأنذرنا كلًّا ضربنا له الأمثالَ[٢]، وبيَّنَّا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثالَ الباطلةَ كما يفعلُه هؤلاء الكَفَرة. وقيل: انتصب على تقدير: ذكَّرنا كلًّا، ونحوه؛ لأن ضربَ الأمثال تذكيرٌ ووعظ؛ ذكره المهدويّ. والمعنى واحد.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا بالعذاب. وتبَّرتُ الشيء كسرتُه[٣]. وقال المؤرِّج والأخفش: دمَّرناهم تدميراً. تُبدل التاءُ والباء من الدال والميم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني مشركي مكَّة. والقرية قريةُ قومِ لوط. و﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾: الحجارة التي أُمطروا بها. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: في أسفارهم ليعتبروا[٤]. قال ابن عباس: كانت قريشٌ في تجارتها إلى الشام تَمرُّ بمدائن قومِ لوط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات:١٣٧]، وقال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/١٠٦ بنحوه.

(٢) معاني القرآن ٤/٦٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكلام بنحوه في الوجيز ٢/٩٨ (على هامش مراح لبيد)، والوسيط للواحدي ٣/٣٤١.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:٧٩]. و قد تقدَّم(١).

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: لايصدِّقون بالبعث. ويجوز أنْ يكون معنى «يَرْجُونَ»: يخافون. ويجوز أن يكونَ على بابه، ويكون معناه: بل كانوا لايرجون ثوابَ الآخرة(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جواب «إِذَا» «إِنْ يَتَّخذُونَكَ»؛ لأن معناه: يتخذونك. وقيل: الجوابُ محذوف، وهو: قالوا، أو: يقولون: «أَهَذَا الَّذي»(٣)؛ وقولُه: «إِنْ يَتَّخذُونَكَ إِلَا هُزُواً» كلامٌ معترِض. ونزلت في أبي جهل؛كان يقول للنبي ﷺ مستهزِئاً: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا»(٤). والعائد محذوف، أي: بعثه الله(٥). «رَسُولًا» نصب على الحال، والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مُرسَلًا. «أَهَذَا» رفعٌ بالابتداء، و«الذي» خبرُه، «رَسُولًا» نصب على الحال، و«بَعَثَ» في صلة «الَّذي»، واسمُ الله عزَّ وجلَّ رفع بـ «بَعَثَ». ويجوز أن يكون مصدراً؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل،ويكون معنى «رَسُولًا» رسالةً على هذا(٦). والألف للاستفهام، على معنى التقريرِ والاحتقار.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قالوا: قد كاد أنْ يَصرِفنا .﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا

---

(١) ١٢/ ٢٣٧ .

(٢) وهذا الوجه هو الذي ارتضاه الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٦٩ ،وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠ .

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١١٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

عَلَيْهَاۚ﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يريد: مَن أضلُّ دِيناً؛ أهم أم محمد؟ وقد رأوه في يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عجَّب نبيَّه ﷺ من إضمارهم على الشِّرك وإصرارِهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقُهم ورازقهم، ثم يعمدُ إلى حجر يعبده من غير حجَّة. قال الكلبيُّ وغيره: كانت العرب إذا هَوِيَ الرجلُ منهم شيئاً؛ عبده مِن دون الله، فإذا رأى أحسنَ منه؛ ترك الأوَّلَ وعَبَد الأحسن[١]. فعلى هذا يعني: أرأيت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجارّ.

وقال ابن عباس: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله[٢]، ثم تلا هذه الآية.

قال الشاعر:

لَعَمرُ أبيها لو تبدَّت لناسكٍ قد اعتزلَ الدنيا بإحدى المناسكِ
لَصلَّى لها قبل الصلاة لربِّه ولَارْتَدَّ في الدنيا بأعمال فاتكِ[٣]

وقيل: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» أي: أطاع هواه. وعن الحسن: لا يَهوى شيئاً إلا اتَّبعه[٤]، والمعنى واحد.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً وكفيلًا حتى تردَّه إلى الإيمان وتُخْرجَه من هذا الفساد. أي: ليست الهدايةُ والضلالة موكولتَين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا ردٌّ على القَدَرية. ثم قيل: إنها منسوخةٌ بآية القتال[٥]. وقيل: لم تُنسخ[٦]؛ لأنَّ الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٩ (١٥١٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠٠) بنحوه.
(٣) لم نقف عليهما.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠١).
(٥) قاله الكلبي كما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤١.
(٦) المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٢.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل: أنهم؛ لأن منهم مَن قد عَلم أنه يؤمن. وذمَّهم جلَّ وعزَّ بهذا. «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ» سماعَ قَبول، أو يفكِّرون فيما تقول فيعقلونه، أي: هم بمنزلة مَن لا يَعْقِل ولا يسمع. وقيل: المعنى: أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون؛ فكأنهم لم يسمعوا[١]؛ والمراد أهلُ مكة[٢]. وقيل: «أَمْ» بمعنى بل في مثل هذا الموضع[٣].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في الأكل والشُّرب لا يفكِّرون في الآخرة[٤]. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ إذ لا حسابَ ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل[٥]: البهائم تَعرف ربَّها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها التي تَعقِلها[٦]، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صِحَّة التوحيد والنبوَّةِ، لم تعتقد بطلانَ ذلك أيضاً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الرؤيةُ من رؤية العين، ويجوز أن تكونَ من العلم[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٩٢ .

(٣) الكشاف٣/ ٩٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٦٢ .

(٥) ذكر قوله أبو الليث بنحوه .

(٦) في (ز) و (ظ): تعلفها .

(٧) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٨٧ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٠ .

قال الحسن وقتادة[١] وغيرهما: مدَّ الظلَّ من طلوع الفجرِ إلى طلوع الشمس. وقيل: هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها. والأوّلُ أصحّ؛ والدليلُ على ذلك أنه ليس مِن ساعةٍ أطيبَ من تلك الساعة، فإنَّ فيها يجد المريضُ راحةً، والمسافرُ وكلُّ ذي عِلَّة، وفيها تُردُّ نفوسُ الأمواتِ والأرواحُ منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوسُ الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودةٌ بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنةِ هكذا، وأشار إلى ساعة المصلِّين صلاةَ الفجر.

أبو عبيدة: الظلُّ بالغَداة والفيءُ بالعَشِيّ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سُمِّيَ فيئاً لأنه فاءَ من المشرق إلى جانب المغرب[٢]. قال الشاعر، وهو حميد بنُ ثور، يصف سَرْحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظِّلُّ مِن بَرْد الضُّحا تستطيعُه ... ولا الفيءُ من برد العشيِّ تذوقُ[٣]

وقال ابن السِّكِّيت: الظلُّ ما نسخته الشمس، والفيءُ ما نَسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كلُّ ما كانت عليه الشمسُ فزالت عنه، فهو فيءٌ وظِلّ، وما لم تكن عليه الشمسُ فهو ظِلّ[٤].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً مستقِرًّا لا تنسخُه الشمس[٥]. ابنُ عباس: يريد إلى يوم القيامة[٦]، وقيل: المعنى: لو شاء لَمنعَ الشمسَ الطُّلوعَ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الشمس بنسخها الظلَّ عند مجيئها دالَّةً على أنَّ الظل شيءٌ ومعنًى؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها؛ لولا الشمسُ ما عُرف

---

(١) أخرجه عنهما عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٠ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٠-٤٦١ عن ابن عباس وغيره.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠ .

(٣) الصحاح(فيأ)، والبيت في الديوان ص٤٠ ، والسرحة: شجرة عظيمة طويلة. الصحاح (سرح).

(٤) الصحاح (فيأ).

(٥) تفسير غريب القرآن ص٣١٣ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٢ بنحوه .

الظلّ، ولولا النورُ ما عُرفت الظُّلمة[١]. فالدليل: فعيلٌ بمعنى الفاعل، وقيل: بمعنى المفعول، كالقتيل والدَّهين والخَضيب. أي: دللنا الشمس على الظلِّ حتى ذهبت به، أي: أتبعناها إياه. فالشمس دليل، أي: حُجَّةٌ وبرهان، وهو الذي يَكشِفُ المشكلَ ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفةُ الشمس؛ لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمسُ برهان، والشمس حق.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ﴾ يريد ذلك الظلَّ الممدود[٢]. ﴿إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أي: يسيرًا[٣] قبضُه علينا. وكلُّ أمرِ ربِّنا عليه يسير. فالظلُّ مُكْثُه في هذا الجو بمقدار طلوعِ الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظلُّ مقبوضًا، وخَلَفَه في هذا الجوِّ شعاعُ الشمس، فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظلّ، إنما ذلك بقيةُ نورِ النهار. وقال قوم: قَبَضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تَغرُب؛ فالظلُّ فيه بقية، وإنما يَتِمُّ زوالُه بمجيء الليل ودخولِ الظُّلمةِ عليه. وقيل: إنَّ هذا القبضَ وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالكٍ وإبراهيم التيمي. وقيل: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ» أي: قبضنا ضياءَ الشمس بالفيء «قَبْضاً يَسِيرًا». وقيل: «يَسِيرًا» أي: سريعًا[٤]، قاله الضحَّاك. قتادةُ[٥]: خفيًّا؛ أي: إذا غابت الشمس قُبض الظلُّ قبضاً خفيًّا؛ كلما قُبض جُزءٌ منه جُعل مكانَه جزءٌ من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قولِ قتادة؛ وهو قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤٧ عن أبي مالك بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في (د): قال الضحاك وقتادة. والأثر أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٥ عن مجاهد وابن جريج.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مَقامَ اللِّباسِ في سَتر البدن. قال الطبري[١]: وصف الليلَ باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياءَ ويغشاها.

الثانية: قال ابن العربي: ظنَّ بعضُ الغَفَلَة أنَّ مَن صلى عُرياناً في الظلام أنه يُجزئه؛ لأنَّ الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلِّيَ في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابَه. والسَّترُ في الصلاة[٢] عبادةٌ تختصُّ بها، ليست لأجل نظرِ الناس. ولا حاجةَ إلى الإطناب في هذا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصلُ السُّبَات من التمدُّد[٣]. يقال: سبتت المرأةُ شعرها، أي: نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت، أي: ممدودُ الخِلْقة. وقيل للنوم: سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت: القطع[٤]؛ فالنوم انقطاعٌ عن الاشتغال، ومنه: سبتُ اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت: الإقامة في المكان؛ فكأن السُّباتَ سكونٌ مّا وثبوتٌ عليه[٥]؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكونٌ عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل[٦]: السُّبات نومٌ ثقيل، أي: جعلنا نومَكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ من الانتشار للمعاش، أي: النهار سبب الإحياءِ للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة[٧]. وكان عليه الصلاة

---

(١) في تفسيره ١٧/ ٤٦٥-٤٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢ .

(٢) في النسخ: الظلام، والمثبت من أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣ ، والكلام منه.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٣١٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧١ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢ .

(٦) في العين ٧/ ٢٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢ .

والسلام إذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفىً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

فيه خمسة عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ يُتطهَّر به؛ كما يقال: وَضوءٌ؛ للماء الذي يُتوضأ به. وكلُّ طَهورٍ طاهرٌ، و ليس كلُّ طاهر طَهورًا[(٣)]. فالطَّهور بفتح الطاء: الاسم، وكذلك الوَضوءُ والوَقود، وبالضم: المصدر، وهذا هو المعروفُ في اللغة؛ قاله ابنُ الأنباريّ، فبيَّن أن الماء المنزل من السماء طاهرٌ في نفسه مطهِّر لغيره، فإن الطَّهور بناءُ مبالغةٍ في طاهر، وهذه المبالغةُ اقتضت أن يكونَ طاهراً مُطَهِّراً. وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقيل: إنَّ «طَهُوراً» بمعنى طاهر، وهو قول أبي حنيفة، وتعلَّق بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] يعني طاهراً. ويقول[(٤)] الشاعر:

خليليَّ هل في[(٥)] نظرةٍ بعد توبة   أداوي بها قلبي عليَّ فُجُورُ

---

(١) روي عن حذيفة و أبي ذر والبراء ﷺ؛ فحديث حذيفة أخرجه أحمد (٢٣٣٩١)، والبخاري (٦٣١٢)، وحديث أبي ذر أخرجه أحمد (٢١٣٦٦)، والبخاري (٦٣٢٥)، وحديث البراء أخرجه أحمد (١٨٦٠٣)، ومسلم (٢٧١١).

(٢) ٩/ ٢٥٢.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٩.

(٤) في (د) و(ف) و(م): وبقول، وهي مهملة في (ز)، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٤ (والكلام منه): وقال. والمثبت من (ظ).

(٥) في (ظ): من.

إلى رُجُحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا[(١)] عِذابِ الثَّنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ[(٢)]

فَوَصَف الرِّيقَ بأنه طَهور، وليس بمطهِّر. وتقول العرب: رجلٌ نَؤوم، وليس ذلك بمعنى أنه مُنِيمٌ لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعلِ نفسِهِ.

ولقد أجاب علماؤنا عن هذا، فقالوا: وَصْف شراب الجنةِ بأنه طَهورٌ يفيد التطهيرَ عن أوضار الذنوبِ[(٣)] وعن خسائس الصفات، كالغِلِّ والحَسَد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهِّرهم اللهُ مِن رَحْض الذنوبِ وأوضارِ الاعتقاداتِ الذميمة، فجاؤوا اللهَ بقلب سليم، ودخلوا الجنةَ بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣]. ولما كانَ حكمه في الدنيا بزوال حكم الحَدَثِ بجريان الماءِ على الأعضاء، كانت تلك حكمتَه ورحمته[(٤)] في الآخرة. وأما قول الشاعر:

... رِيقُهُنَّ طَهُورُ

فإنه قصد بذلك المبالغةَ في وصف الرِّيقِ بالطُّهورية، لعذوبته وتعلُّقِه بالقلوب، وطِيبِهِ في النفوس، وسكونِ غليل المحبِّ برَشْفه حتى كأنه الماءُ الطَّهور. وبالجملة فإنَّ الأحكام الشرعيةَ لا تثبت بالمجازات الشِّعرية؛ فإنَّ الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدَّ الصِّدقِ إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يُخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربَّما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول

(١) في المصادر: هيفٍ خصورُها. وقوله: رُجُح، هو جمع: رَجَاح وراجح، وهي ثقيلة العجيزة من النسوة. والأكفال: جمع كَفَل، وهو العجز. والظبي الأغيد: الذي مالت عنقه ولانت أعطافه. اللسان (رجح) (كفل) (غيد).

(٢) ذكر أبو علي القالي في الأمالي ١/ ١٨٣: البيتين ضمن قصيدة، ونقل عن ابن الأنباري أنها لجميل بن معمر العُذري ثم قال أبو علي: وليست هذه الأبيات في شعر جميل. اهـ . والبيت الثاني في اللسان (رجح) دون نسبة.

(٣) أوضار، جمع وَضَر، وهو الوسخ من الدسم أو غيره.

(٤) قوله: ورحمته ، ليس في (م).

بعضِهم:

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رِجلَها ... لـمـا كـنـتُ أدري عـلَّـةً لـلـتـيـمُّـمِ

وهذا كفر صُراح، نعوذ بالله منه.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي(١): هذا منتهى لُبابِ كلامِ العلماء، وهو بالغٌ في فنِّه؛ إلا أنّي تأملتُ من طريق العربية، فوجدت فيه مَطلعاً مشرِّفاً(٢)، وهو أنَّ بناء فَعولٍ للمبالغة، إلَّا أنَّ المبالغةَ قد تكون في الفعل المتعدِّي كما قال الشاعر(٣):

ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمَانِها

وقد تكون في الفعل القاصر، كما قال الشاعر:

نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ(٤)

وإنما تؤخذ طهوريةُ الماء لغيره من الحسن نظافةً، ومن الشرع طهارةً؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقبل اللهُ صلاةً بغير طُهور»(٥). وأجمعت الأُمة لغةً وشريعةً على أنَّ وصف «طَهور» يختصُّ بالماء، ولا يتعدَّى إلى سائر المائعات، وهي طاهرة؛ فكان اقتصارُهم بذلك على الماء أدلَّ دليلٍ على أنَّ الطَّهورَ هو المطهِّر. وقد يأتي فَعولٌ لوجه آخرَ ليس من هذا كلِّه، وهو العبارةُ به عن الآلة للفعل، لا عن الفعل، كقولنا: وَقُود وسَحُور، بفتح الفاء(٦)، فإنها عبارةٌ عن الحطب والطعامِ(٧) المتسحَّر

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٤-١٤٠٦ ، وما قبله منه.

(٢) في (د) و (م): مشرقاً، وفي أحكام القرآن: شريفاً.

(٣) هو أبو طالب، وسلف البيت بتمامه ٥/ ١١٩ .

(٤) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٧ ، وجاء أيضاً في ديوان كُثير عزة، وسلف ص٣٦٢ من هذا الجزء.

(٥) سلف ٧/ ٣٦٦ .

(٦) يعني فاء «فَعول»، ووقع في (ظ): بفتح الواو والسين بدل قوله: بفتح الفاء.

(٧) في (د): المطعم، وفي (ظ) و (م): الطعم، وفي (ف): المطمع. والمثبت من (ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن، وما سيرد بين حاصرتين منه.

بهِ؛ فوَصفُ الماءِ بأنه طَهور ـ بفتح الطاء ـ أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يُتطهَّر بها. فإذا ضُمَّت الفاء في الوَقود والسَّحور والطَّهور؛ عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أنَّ اسم الفَعول ـ بفتح الفاء ـ يكون بناءً للمبالغة، ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفيَّة، ولكن قَصُرت أشداقُها عن لَوْكِه، وبعد هذا يقف البيانُ [به] عن المبالغة، وعن الآلة على الدليل، فقوله[1] تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[2] يحتمل المبالغةَ، ويحتمل العبارةَ به عن الآلة؛ فلا حُجَّةَ فيه لعلمائنا، لكن يبقى قولُه: «لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ» نصّاً في أنَّ فعله يتعدَّى إلى غيره.

الثانية: المياهُ المنزلة من السماء والمودعةُ في الأرض طاهرةٌ مطهِّرة، على اختلاف ألوانِها وطُعومها وأرياحها، حتى يخالطَها غيرُها. والمخالطُ للماء على ثلاثة أضرب:

ضرب يوافقه في صفتَيه جميعاً [وهي: الطهارةُ، والتطهير]، فإذا خالطه فغيَّره لم يسلبه وصفاً منهما، لموافقته لهما، وهو التراب.

والضربُ الثاني يوافقه في إحدى صفتيه، وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبَه ما خالفه فيه، وهو التطهير، كماء الوردِ وسائرِ الطاهرات.

والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبه الصفتين جميعاً؛ لمخالفته له[3] فيهما، وهو النَّجس.

الثالثة: ذهب المِصريُّون من أصحاب مالكٍ إلى أنَّ قليل الماء يفسده قليلُ النجاسة، وأنَّ الكثير لا يفسده إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه من المحرَّمات. ولم

---

(١) في (م): بقوله.

(٢) سلف ٢/ ٢٨٣ .

(٣) في النسخ الخطية: لهما، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

يَحدُّوا بين القليل والكثير حدّاً يوقفُ عنده، إلَّا أنَّ ابنَ القاسم روى عن مالك في الجُنُب يغتسل في حوض من الحياض التي تُسقى فيها الدوابّ، ولم يكن غَسَلَ ما به من الأذى، أنه قد أفسد الماء، وهو مذهب ابنِ القاسم وأشهبَ وابنِ عبد الحكم ومَن اتَّبعهم من المِصريين، إلا ابنَ وهب؛ فإنه يقول في الماء بقول المدنيِّين مِن أصحاب مالك. وقولُهم ما حكاه أبو مصعبٍ عنهم وعنه[(١)]: أنَّ الماء لا تُفسده النجاسةُ الحالَّة فيه قليلاً كان أو كثيراً، إلَّا أنْ تظهرَ فيه النجاسةُ[(٢)] وتغيِّرَ منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بنُ المعدَّل أنَّ هذا قولُ مالك بنِ أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل ابنُ إسحاق ومحمد بنُ بُكير وأبو الفَرَج والأبهريُّ[(٣)] وسائر المنتحلين لمذهب مالكٍ من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعيِّ والليث بنِ سعد والحسن بنِ صالح وداود بنِ عليّ. وهو مذهب أهلِ البصرة، وهو الصحيحُ في النظر وجيِّدِ الأثر.

وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسةٌ في الماء، أفسدته كثيراً كان أو قليلاً، إذا تحقَّقت عمومُ النجاسة فيه. ووجه تحقُّقِها عنده أن تقع مثلاً نقطةُ بولٍ في بِركة، فإن كانت البركةُ يتحرك طرفاها بتحرُّك أحدهما، فالكلُّ نجس، وإن كانت حركة أحدِ الطرفين لا تحرِّك الآخرَ لم ينجس. وفي «المجموعة» نحوُ مذهبِ أبي حنيفة.

وقال الشافعيُّ بحديث القُلَّتين، وهو حديثٌ مطعون فيه؛ اختُلف في إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذيُّ وخاصَّةً الدَّارَقُطْني، فإنه صدَّر به كتابَه وجمع طرقه[(٤)].

قال ابن العربي[(٥)]: وقد رام الدَّارَقُطْنيُّ على إمامته أنْ يصحِّحَ حديثَ القلَّتين فلم يقدر.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٢٧ (والكلام منه): وعن أهل المدينة.

(٢) في (م) زيادة: الحالة فيه.

(٣) في النسخ: أبو الفَرَج الأبهري، وهو خطأ.

(٤) سنن أبي داود (٦٣) و (٦٤) و (٦٥)، والترمذي (٦٧)، والدارقطني (١) ـ (٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند أحمد (٤٦٠٥)، والنسائي ١/ ٤٦، وابن ماجه (٥١٧).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨ ، وما قبله منه.

وقال أبو عمر بنُ عبد البر[١]: وأمَّا ما ذهب إليه الشافعيُّ من حديث القلتين، فمذهبٌ ضعيف من جهة النظر، غيرُ ثابتٍ في الأثر؛ لأنه قد تكلَّم فيه جماعةٌ من أهل العلم بالنقل، ولأنَّ القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغِهما في أثرٍ ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حدّاً لازماً. لوجب على العلماء البحثُ عنه؛ ليقفوا على حدِّ ما حدَّه النبيُّ ﷺ؛ لأنه من أصل دينِهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيَّعوه، فلقد بحثوا عما هو أدونُ من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر ابنُ المنذر[٢] في القلتين من الخلاف يدُلُّ على عدم التوقيفِ فيهما والتحديد.

وفي سنن الدَّارَقُطْنيِّ[٣]: عن حماد بن زيد، عن عاصم بن المنذر قال: القِلالُ: الخوابي العِظَام. وعاصمٌ هذا هو أَحدُ رواةِ حديثِ القلَّتين. ويظهر من قول الدَّارَقُطْنيِّ أنها مثلُ قِلال هَجَر؛ لسياقه حديثَ الإسراءِ عن أنس بنِ مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقُها مثلُ قِلال هَجَر، وورقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة»[٤] وذكر الحديث.

قال ابن العربي[٥]: وتعلَّق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدريِّ في بئر بُضاعة، رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ وأبو داود وغيرُهم[٦]. وهو أيضاً حديثٌ ضعيف لا قَدَمَ له في الصِّحَّة، فلا تعويلَ عليه.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٣٥ .

(٢) في الأوسط ١/ ٢٦١-٢٦٣ .

(٣) برقم (٣١).

(٤) سنن الدارقطني (٣٣). وهو عند أحمد (١٢٦٧٣). والنَّبِق بفتح النون وكسر الباء، وقد تسكن: ثمر السِّدْر. النهاية (نبق).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨ .

(٦) سنن النسائي ١/ ١٧٤ ، والترمذي (٦٦)، وأبي داود (٦٦) و (٦٧). وهو عند أحمد (١١١١٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن. وبُضاعة: هي بئر معروفة بالمدينة، والمحفوظ ضم الباء، وأجاز بعضهم كسرها. النهاية (بضع).

وقد فاوضت الطوسيَّ الأكبر[١] في هذه المسألةِ فقال: إنَّ أخلص المذاهبِ في هذه المسألةِ مذهبُ مالك؛ فإنَّ الماء طَهورٌ ما لم يتغيَّر أحدُ أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يُعوَّل عليه، وإنما المعوَّلُ على ظاهر القرآن، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وهو ماءٌ[٢] بصفاته، فإذا تغيَّر عن شيء منها؛ خرج عن الاسم؛ لخروجه عن الصفة، ولذلك لمَّا لم يجد البخاريُّ إمامُ الحديث والفقه في الباب خبراً يعوَّل عليه، قال: باب إذا تغيَّر وصفُ الماء، وأدخل الحديثَ الصحيح: «ما مِن أحدٍ يُكلَم في سبيلِ اللهِ ـ واللهُ أعلمُ بمن يُكلمَ في سبيلِهِ ـ إلَّا جاء يومَ القيامة وجرحُه يَثْعَب دماً، اللونُ لون الدم، والرِّيحُ ريح المِسك»[٣]. فأخبر ﷺ أنَّ الدمَ بحاله وعليه رائحةُ المسك، ولم تُخرجه الرائحةُ عن صفة الدَّمَويَّة. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغيَّر الماءُ بريح جيفةٍ على طرفه وساحله، لم يمنع ذلك الوضوءَ منه. ولو تغير بها وقد وُضعت[٤] فيه، لَكان ذلك تنجيساً له للمخالطة، والأول[٥] مجاوَرةٌ [لا تعويل عليها].

قلت: وقد استُدلَّ به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أنَّ تغير الرائحةِ يُخرجه عن أصله. ووجهُ هذا الاستدلالِ أنَّ الدمَ لمَّا استحالت رائحتُه إلى رائحة المسك، خرج عن كونه مستخبَثاً نجِساً، وأنه صار مِسْكاً، وإنَّ المسك بعضُ دمِ الغزال[٦]. فكذلك الماءُ إذا تغيَّرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهورُ في الماء. وإلى الأول ذهب عبدُ الملك.

---

(١) هو الإمام الغزالي، وينظر الإحياء ١/ ١٢٩ .

(٢) في (م): ما دام. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) صحيح البخاري (٢٣٧) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ (باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء). وليس فيه لفظ الباب الذي ذكره المصنف، ولعله في نسخ المغاربة. وأخرجه أحمد (٧٣٠٢)، ومسلم (١٨٧٦) : (١٠٥). وقوله: يثعب، أي: ينفجر. التمهيد ١٩/ ١٤ .

(٤) في أحكام القرآن: وقعت.

(٥) في أحكام القرآن: والأولى. وما بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر إكمال المعلم ٦/ ٢٩٤ . وقوله: وإن المسك بعض دم الغزال، هو تضمين لبيت المتنبي، وصدره: فإنْ تَفُق الأنامَ وأنت منهم، وهو في ديوانه ٣/ ١٥١ .

قال أبو عمر(١): جعلوا الحكمَ للرائحة دون اللون، فكان الحكمُ لها، فاستدلُّوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يُفهم منه معنىً تَسكُن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماءِ فيقاسَ عليه، ولا يَشتغل بمثل هذا الفقهاءُ، وليس من شأن أهلِ العلم اللَّغزُ(٢) به وإشكاله؛ وإنما شأنُهم إيضاحُه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاقَ عليهم ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، والماءُ لا يخلو تغيُّره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغيَّر، فقد أجمع العلماءُ على أنه غيرُ طاهرٍ ولا مطهِّر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغيَّر بغير نجاسة أنه طاهرٌ على أصله. وقال الجمهور: إنه غيرُ مطهِّر إلَّا أنْ يكونَ تغيُّره مِن تُربةٍ وحمأة. وما أجمعوا عليه فهو الحقُّ الذي لا إشكال فيه، ولا التباسَ معه.

الرابعة: الماء المتغيِّرُ بقُرارة(٣)، كزِرْنيخ أو جِيْرٍ يجري عليه، أو تغيَّرَ بطُحلُب أو ورقِ شجرٍ يَنْبت عليه لا يمكن الاحترازُ منه؛ فاتفق العلماءُ أنَّ ذلك لا يمنع الوضوء به؛ لعدم الاحترازِ منه والانفكاكِ عنه، وقد روى ابنُ وهبٍ عن مالك أنَّ غيرَه أولى منه(٤).

الخامسة: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: ويكره سؤرُ النصرانيِّ وسائرِ الكفار والمدمنِ خمراً، وما أكل الجِيَف؛ كالكلاب وغيرِها. ومن توضأ بسؤرهم(٥) فلا شيءَ عليه حتى يَستيقنَ النجاسة.

قال البخاريّ(٦): وتوضأ عمرُ ﷺ مِن بيتِ نصرانية.

ذكر سفيان ابنُ عيينة قال: حدَّثونا عن زيد بنِ أسلم، عن أبيه قال: لمَّا كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب بماء، فتوضأ منه فقال: مِن أين جئتَ بهذا الماء؟ ما رأيت ماءً

---

(١) في التمهيد ١٩/١٥-١٦.

(٢) في (ز) والتمهيد: اللغو.

(٣) القُرارة (بالضم) هي في الأصل: ما يلزقُ بأسفل القِدْر من شيء. ينظر القاموس (قرر).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٠٩.

(٥) في الكافي ١/١٥٧ (والكلام منه): بسؤرها.

(٦) في صحيحه قبل الحديث (١٩٣). وسلف الأثر ٧/٣١٩.

عذباً؛ ولا ماءَ سماءٍ أطيبَ منه. قال: قلت: جئتُ به من بيت هذه العجوزِ النصرانية؛ فلما توضَّأ أتاها فقال: أيتها العجوز! أَسلِمي تَسلَمي، بعث اللهُ محمداً ﷺ بالحقّ. قال: فكشفتْ عن رأسها؛ فإذا مِثْلُ الثَّغامة، فقالت: عجوزٌ كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر ﷺ: اللهم اشهَد. خرَّجه الدَّارَقُطْنيّ(١): حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدّثنا أحمد بنُ إبراهيم البُوشَنْجِيُّ قال: حدَّثنا سفيان، فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال: حدَّثنا خلاد بنُ أسلم، حدَّثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ عمر بنَ الخطاب ﷺ توضأ من بيتِ نصرانية أتاها، فقال: أيتها العجوزُ أسلمي . . وذكر الحديثَ(٢) بمثل ما تقدَّم.

السادسة: فأمَّا الكلبُ إذا ولغ في الماء، فقال مالك: يُغسل الإناءُ سبعاً ولا يتوضأ منه، وهو طاهر. وقال الثوريّ: يتوضأ بذلك الماءِ ويُتيمم معه. وهو قولُ عبدِ الملك بن عبد العزيز ومحمد بنِ مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلبُ نَجِس، ويغسل الإناءُ منه لأنه نجس. وبه قال الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاق(٣).

وقد كان مالكٌ يفرِّق بين ما يجوز اتِّخاذُه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذُهُ منها في غسل الإناءِ من وُلوغه. وتحصيلُ مذهبه أنه طاهرٌ عنده، لا ينجِّس ولوغُهُ شيئاً ولغ فيه، طعاماً ولا غيرَه، إلَّا أنه استحبَّ هِرَاقةَ ما ولغ فيه من الماء لِيَسارَة(٤) مؤنتِه. وكلبُ البادية والحاضرةِ سواء. ويُغسل الإناءُ منه على كل حالٍ سبعاً تعبُّداً. هذا ما استقرَّ عليه مذهبُه عند المناظرين مِن أصحابه(٥).

ذكر ابنُ وهب قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ زيد بنِ أسلم، عن أبيه، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: سئل رسولُ الله ﷺ عن الحِياض التي تكون فيما بين مكةَ

(١) في سننه (٦٣). والثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر، يشبه به الشيب. وقيل: هي شجرة تبيضُّ كأنها الثلج. النهاية (ثغم).

(٢) سنن الدارقطني (٦٤).

(٣) ينظر الأوسط ١/٣٠٦-٣٠٧، والتمهيد ١٨/٢٦٩-٢٧١.

(٤) في (ظ): إلا لعسارة.

(٥) الكافي ١/١٥٨.

والمدينة، فقيل له: إنَّ الكلاب والسِّباع تَرِدُ عليها. فقال: «لها ما أخذت في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهور» أخرجه الدَّارَقَطْنيّ[١]. وهذا نصٌّ في طهارة الكلابِ وطهارةِ ما تَلِغ فيه.

وفي البخاريِّ[٢] عن ابن عمر: أنَّ الكلاب كانت تُقْبِل وتدبر في مسجد رسولِ الله ﷺ، ولا يرشُّون شيئاً من ذلك.

وقال عمر بحضرة الصحابةِ لصاحب الحوضِ الذي سأله عمرو بنُ العاص: هل تَرِد حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحبَ الحوض، لا تُخْبِرنا، فإنَّا نَرِدُ على السباع وترد علينا. أخرجه مالكٌ والدَّارَقُطْنيّ[٣]. ولم يفرِّق بين السِّباع، والكلبُ مِن جملتها، ولا حُجَّةَ للمخالف في الأمر بإراقة ما ولغ فيه[٤] وأنَّ ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأنَّ النفسَ تعافة، لا لنجاسته؛ لأنَّ التنزُّهَ من الأقذار مندوبٌ إليه، أو تغليظاً عليهم؛ لأنهم نُهوا عن اقتنائها[٥]، كما قاله ابنُ عمر[٦] والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلَّظ عليهم في الماء، لِقلَّته عندهم في البادية، حتى يشتدَّ عليهم فيمتنعوا من اقتنائها.

وأما الأمرُ بغَسل الإناء فعبادةٌ؛ لا لنجاسته كما ذكرناه، بدليلين: أحدهما: أنَّ الغسل قد دخله العدد. الثاني: أنه جُعل للتراب فيه مدخل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وعفِّروه الثامنةَ بالتراب». ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه

(١) في سننه (٥٦). ورواه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بالإسناد نفسه، وجعله من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، كما هو عند ابن ماجه (٥١٩)، والبيهقي ١/ ٢٥٨ . قال البيهقي: وعبد الرحمن بن زيد ضعيف، لا يحتج بأمثاله.

(٢) برقم (١٧٤) تعليقاً. ووصله أحمد (٥٣٨٩)، وأبو داود (٣٨٢).

(٣) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ ، وسنن الدارقطني (٦٢).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٧٩): (٨٩) ولفظه: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه، ثم ليغسله سبع مرار».

(٥) سلف ٧/ ٣١٢ .

(٦) ينظر الاستذكار ٢٧/ ١٩٣ .

مدخل، كالبول[١]. وقد جعل ﷺ الهِرَّ وما ولغ فيه طاهراً[٢]، والهرُّ سبعٌ لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل المَيْته؛ فكذلك الكلبُ وما كان مِثلُه من السِّباع؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ في أحدهما كان نصّاً في الآخر. وهذا مِن أقوى أنواعِ القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل؛ وقد ذكرنا النصَّ على طهارته، فسقط قولُ المخالِف. والحمدُ لله.

السابعة: ما مات في الماء ممَّا لا دمَ له، فلا يضرُّ الماءَ إن لم يغيِّر ريحَه؛ فإنْ أنتنَ لم يُتوضأ به. وكذلك ما كان له دمٌ سائل من دوابِّ الماءِ، كالحوت والضِّفدِع، لم يُفسِد ذلك الماءَ موتُه فيه؛ إلَّا أن تتغيَّر رَائحتُه، فإن تغيَّرت رائحتُه وأنتن، لم يجز التطهرُ به ولا الوضوءُ منه، وليس بنجِس عند مالك. وأما مالَه نَفْسٌ سائلة فمات في الماء ونُزح مكانه، ولم يغيِّر لونَه ولا طعمه ولا ريحه، فهو طاهرٌ مطهِّر، سواءٌ كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. واستحبَّ بعضُهم أن يُنزحَ من ذلك الماءِ دِلاءٌ لتطيبَ النفسُ به، ولا يحدُّون في ذلك حدًّا لا يتعدَّى. ويكرهون استعمالَ ذلك الماءِ قبل نزحِ الدِّلاء، فإن استعمله أحدٌ في غسلٍ أو وضوء، جاز إذا كانت حالُه ما وصفنا. وقد كان بعضُ أصحاب مالكٍ يرى لمن توضَّأ بهذا الماءِ وإن لم يتغيَّر أن يتيمم، فيجمعَ بين الطهارتين احتياطاً، فإن لم يفعل وصلَّى بذلك الماءِ أجزأه[٣].

وروى الدارقطني عن محمد بن سِيرين أنَّ زِنجِيّاً وقع في زمزم - يعني فمات - فأمر به ابنُ عباس ﷺ فأُخرج، فأمر بها أن تُنزَح. قال: فغلبتْهم عينٌ جاءتهم من الرُّكن، فأمر بها فدُسِمت بالقباطِيِّ والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم[٤]. وأخرجه[٥] عن أبي الطُّفيل أنَّ غلاماً وقع في بئر زمزم فنُزحت. وهذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٠-١٤١١ . والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٩٢)، ومسلم (٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفَّل ﷺ.

(٢) سيأتي في المسألة الثامنة.

(٣) الكافي ١/ ١٥٦-١٥٨ .

(٤) سنن الدارقطني (٦٥)، وأخرجه البيهقي ١/ ٢٦٦ وقال: هذا بلاغ؛ فإن محمد بن سيرين لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما ولم يسمع منه. اهـ. وقوله: دُسمت، أي: سُدت. والقباطي: جمع قُبطية: وهو الثوب من ثياب مصر، رقيقة بيضاء. والمطارف: جمع مطرف: وهو الثوب الذي في طرفيه علمان. النهاية (قبط) (طرف).

(٥) سنن الدارقطني (٦٦)، وفيه جابر الجعفي، قال البيهقي في السنن ١/ ٢٦٦ : لا يحتج به.

يَحتمل أن يكونَ الماءُ تغيَّر، والله أعلم.

وروى شعبة عن مغيرة، عن إبراهيم أنه كان يقول: كلُّ نَفْسٍ سائلة لا يُتوضأ منها، ولكن رخص في الخُنْفَساء والعقرب والجراد والجُدْجُد إذا وقَعنَ في الرِّكاء فلا بأس به. قال شعبة: وأظنُّه قد ذكر الوَزَغة. أخرجه الدار قطني[١]: حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدَّثنا محمد بنُ الوليد قال: حدَّثنا محمد بنُ جعفر: قال: حدَّثنا شعبة، فذكَره.

الثامنة: ذهب الجمهورُ من الصحابة وفقهاءِ الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أنَّ ما ولغ فيه الهِرُّ من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالكٌ وغيره[٢]. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بنِ أبي رباح وسعيد بنِ المسيّب ومحمد بنِ سيرين أنهم أمروا بإراقة ماءٍ ولغ فيه الهرُّ وغسل الإناءِ منه. واختُلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكونَ الحسنُ رأى في فمه نجاسةً، ليصحَّ مخرجُ الروايتين عنه[٣].

قال الترمذيُّ لمَّا ذَكر حديثَ مالك: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول أكثرِ أهلِ العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين ومَن بعدَهم؛ مثل الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، لم يرَوا بسؤر الهرةِ بأساً. وهذا أحسنُ شيءٍ في الباب، وقد جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأتِ به أحدٌ أتمَّ من مالك.

قال الحافظ أبو عمر[٤]: الحجَّةُ عند التنازع والاختلافِ سُنَّةُ رسول الله ﷺ، وقد صحَّ من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناءَ حتى شربت. الحديث. وعليه اعتمادُ

---

(١) برقم (٦٧). والجُدجُد: حيوان كالجراد يصوّت في الليل. النهاية (جدد).

(٢) الموطأ ١/ ٢٢-٢٣ ، وهو عند أحمد (٢٢٥٨٠)، وأبي داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي ١/ ٥٥ ، وابن ماجه (٣٦٧).

(٣) التمهيد ١/ ٣٢٣ و ٣٢٤ .

(٤) في التمهيد ١/ ٣٢٤ - ٣٢٦ .

الفقهاءِ في كل مصر، إلَّا أبا حنيفة ومَن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤرَه. وقال: إنْ توضأ به أحدٌ أجزأه، ولا أعلم حُجَّةً لمن كره الوضوءَ بسؤر الهرة أحسنَ من أنه لم يبلغه حديثُ أبي قتادة، وبلغه حديثُ أبي هريرة[١] في الكلب، فقاس الهرَّ عليه، وقد فرَّقت السُّنةُ بينهما في باب التعبُّدِ في غَسل الإناء، ومَن حَجَّتْه السُّنةُ خاصمته، وما خالفها مُطَّرَح. وبالله التوفيق.

ومِن حُجَّتهم أيضاً ما رواه قُرَّة بنُ خالد، عن محمد بنِ سيرين، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «طهُور الإناءِ إذا ولغ فيه الهِرُّ أن يُغسلَ مرَّةً أو مرتين» شكَّ قرة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بنُ خالد، وقرة ثقةٌ ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني[٢]، ومتنُه: «طهورُ الإناء إذا ولغ فيه الكلبُ أن يغسلَ سبعَ مرات، الأُولى بالتراب، والهرُّ مرةً أو مرتين». قرةُ شكّ. قال أبو بكر[٣]: كذا رواه أبو عاصمٍ مرفوعاً، ورواه غيرُه عن قرة: ولوغ الكلب؛ مرفوعاً، وولوغ الهر؛ موقوفاً.

وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُغسل الإناءُ من الهر كما يغسلُ من الكلب» قال الدار قطني[٤]: لا يثبت هذا مرفوعاً، والمحفوظ من قول أبي هريرة، واختُلف عنه.

وذكر مَعْمَرٌ وابنُ جُرَيج عن ابن طاوس، عن أبيه أنه كان يجعل الهرَّ مثلَ الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور؛ قال: إغسلْه سبعَ مرات. قاله الدارقطني[٥].

---

(١) سلف في المسألة السادسة.

(٢) برقم (٢٠٥).

(٣) هو النيسابوري شيخ الدارقطني.

(٤) عقب الحديث (٢٠٨).

(٥) بسنده عنهما: (٢١٢) (٢١٣).

التاسعة: الماء المستعمل طاهرٌ إذا كانت أعضاءُ المتوضئ به طاهرةً؛ إلَّا أنَّ مالكاً وجماعةً من الفقهاء الجِلَّةِ كانوا يكرهون الوضوءَ به. وقال مالك: لا خيرَ فيه، ولا أُحِبُّ لأحد أن يتوضأ به، فإنْ فعل وصلَّى لم أرَ عليه إعادةَ الصلاة، ولْيتوضأ لِمَا يستقبل[1].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأصحابهما: لا يجوز استعمالُه في رفع الحدث، ومَن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، وتيمَّم واجدُه؛ لأنه ليس بواجد ماءً. وقال بقولهم في ذلك أَصبغ بنُ الفَرَج، وهو قولُ الأوزاعيّ. واحتجُّوا بحديث الصُّنابِحيِّ، خرَّجه مالكٌ[2]؛ وحديثِ عمرو بنِ عَبَسة[3]، أخرجه مسلم، وغيرِ ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا تُوضئ به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزهُ عنه؛ لأنه ماءُ الذنوب.

قال أبو عمر[4]: وهذا عندي لا وجه له؛ لأن الذنوب لا تنجِّس الماء، لأنها لا أشخاص لها، ولا أجسامَ تمازج الماءَ فتفسده، وإنما معنى قولِه: «خرجت الخطايا مع الماء» إعلامٌ منه بأنَّ الوضوء للصلاة عملٌ يكفِّر اللهُ به السيئاتِ عن عباده المؤمنين؛ رحمةً منه بهم وتفضُّلاً عليهم.

وقال أبو ثور وداودُ مثلَ قولِ مالك، وأنَّ الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماءٌ طاهر لا ينضاف إليه شيء، وهو ماءٌ مطلق. واحتجُّوا بإجماع الأمةِ على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيُّ محمد ابنُ نصر. وروي عن عليِّ بن أبي طالب وابنِ عمر وأبي أُمامة وعطاء بنِ أبي رَبَاحٍ والحسنِ البصريِّ والنَّخَعيِّ ومكحولٍ والزُّهريِّ أنهم قالوا فيمن نسي مسحَ رأسه؛

---

(١) الكافي ١/١٥٨ .

(٢) في الموطأ ١/ ٣١ ، وقد سلف ٧/ ٣٤٢ تخريجه والكلام عليه.

(٣) في (د) و (ز) و (م): عنبسة، وهو خطأ. وحديثه عند أحمد (١٧٠١٩)، ومسلم (٨٣٢)، وقد سلف ٧/ ٣٧٠ .

(٤) في الاستذكار ٢/ ١٩٧ ، وما قبله منه.

فوجد في لحيته بَلَلاً: إنه يجزئه أنْ يمسحَ بذلك البللِ رأسَه؛ فهؤلاء كلُّهم أجازوا الوضوءَ بالماء المستعمل[١].

وروى عبد السلام بنُ صالح: حدَّثنا إسحاق بنُ سُويد، عن العلاء بنِ زياد، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ مَرْضيٍّ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل، وقد بقيت لُمعةٌ من جسده لم يُصبها الماء، فقلنا: يا رسولَ الله، هذه لُمعةٌ لم يصبها الماء؛ فكان له شعرٌ وارد، فقال بشعره هكذا على المكان، فَبلَّه. أخرجه الدارقطني[٢]، وقال: عبد السلام بنُ صالح هذا بصريٌّ، وليس بقويّ، وغيرُه من الثقات يرويه عن إسحاق، عن العلاء مرسَلاً، وهو الصواب.

قلت: الرواي الثقةُ عن إسحاق بن سُويد العدويّ، عن العلاء بن زياد العدوي: أنَّ رسول الله ﷺ اغتسل... الحديث؛ فيما ذَكر هو[٣] هُشيم.

قال ابن العربي[٤]: مسألة الماءِ المستعمل إنما تَنبني على أصل آخرَ، وهو أنَّ الآلة إذا أُدِّي بها فرضٌ؛ هل يؤدَّى بها فرضٌ آخرُ أم لا؟ فمنع ذلك المخالفُ قياساً على الرقبة إذا أُدِّي بها فرضُ عتقٍ؛ لم يصلُح أن يتكرر[٥] في أداء فرضٍ آخر؛ وهذا باطلٌ من القول، فإنَّ العتق إذا أتى على الرِّقِّ أتلفه، فلا يبقى محلٌّ لأداء الفرضِ بعتقٍ آخر. ونظيرُه من الماء ما تلف على الأعضاء، فإنه لا يصحُّ أنْ يؤدَّى به فرضٌ آخر؛ لِتلف عينِه حِسّاً، كما تلف الرقُّ في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيسٌ فتأمَّلوه.

العاشرة: لم يفرِّق مالكٌ وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسةُ وبين النجاسة يَرِد

---

(١) التمهيد ٤/ ٤٣ .

(٢) في سننه (٣٨٦) والشعر الوارد: الطويل المسترسل. القاموس (ورد).

(٣) لفظة: هو، ليست في (د) و(ز)، وفي (م): ذكره، والمثبت من (ف) و (ظ). وهو خبر لقوله: الرواي الثقة..، ورواية هُشيم المرسلة هي عند الدارقطني (٣٨٧).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٦-١٤٠٧ .

(٥) في (د): يكون، وفي (ظ) و(ف): تكون، وفي (ز): يكون.

عليها الماء، راكداً كان الماءُ أو غيرَ راكد؛ لقول رسولِ الله ﷺ: «الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غلب عليه، فغيَّر طعمَه أو لونه أو ريحه»[(١)].

وفرَّقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسةُ على الماء تنجَّس؛ واختاره ابنُ العربي، وقال[(٢)]: مِن أصول الشريعة في أحكام المياهِ أنَّ ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماءِ على النجاسة؛ لقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح[(٣)]: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فلا يَغْمسْ يده في الإناء حتى يَغْسِلَها ثلاثاً؛ فإنَّ أحدَكم لا يدري أين باتت يدُه». فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماءِ عليها، وهذا أصلٌ بديع في الباب، ولولا ورودُه على النجاسة ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ لَمَا طهرت. وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال في بول الأعرابيِّ في المسجد[(٤)]: «صُبُّوا عليه ذَنُوباً من ماء».

قال شيخنا أبو العباس[(٥)]: واستدلُّوا أيضاً بحديث القُلَّتين[(٦)]، فقالوا: إذا كان الماءُ دون القلتين فحلَّته نجاسة، تنجَّسَ وإن لم تغيِّره، وإن ورد ذلك القدرُ فأقَلُّ على النجاسة فأذهب عينَها، بقي الماءُ على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطةُ قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماءِ على النجاسة وورودِها عليه فرقٌ صوريٌّ، ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب بابَ التعبُّدات، بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامِها. ثم هذا كلُّه منهم يردُّه قولُه عليه

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٢، وينظر المفهم ١/ ٥٤٤.

(٣) قوله: في الحديث الصحيح ليس في (د) و (ز) و (م). والحديث أخرجه أحمد (٧٢٨٢)، والبخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٨٢)، والبخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤) و(٢٨٥) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٢٥٥)، والبخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) في المفهم ١/ ٥٤٤.

(٦) سلف في المسألة الثالثة.

الصلاة والسلام: «الماءُ طَهورٌ لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه».

قلت: هذا الحديثُ أخرجه الدارقطني عن رِشدِين بن سعدٍ أبي الحجَّاج، عن معاوية بنِ صالح، عن راشد بن سعد، عن أبي أُمامة الباهلي؛ وعن ثوبان، عن النبيِّ ﷺ، وليس فيه ذِكْرُ اللون[1]. وقال: لم يرفعه غيرُ رشدين بنِ سعد، عن معاوية ابن صالح، وليس بالقوي[2].

وأحسنُ منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير، عن محمد بن كعب، عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خَدِيج، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضاعة؟ وهي بئرٌ يلقى فيها الحِيَضُ ولحومُ الكلاب والنَّتْن؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الماء طَهورٌ لا ينجِّسه شيء». أخرجه أبو داود والترمذيُّ والدارقطني، كلُّهم بهذا الإسناد[3].

وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن، وقد جوَّد أبو أسامة هذا الحديثَ، ولم يَروِ أحدٌ حديثَ أبي سعيد في بئر بُضاعة أحسنَ مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نصٌّ في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره.

قال أبو داود[4]: سمعت قتيبة بنَ سعيد قال: سألت قيِّمَ بئرِ بضاعةَ عن عمقها؛ قلت: [ما] أكثرُ ما يكون الماءُ فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدَّرت بئر بُضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته، فإذا عرضُها ستةُ أذرع، وسألت الذي فتح لي بابَ البستان فأدخلني إليه: هل غُيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال: لا. ورأيت فيها ماءً متغيرَ اللون.

---

(١) سنن الدارقطني (٤٥)، (٤٧). وأخرجه ابن ماجه (٥٢١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفيه ذكر اللون. قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٣١ : فيه رشدين، وهو ضعيف، واختلف عليه مع ضعفه.

(٢) وقال الدارقطني بعده: والصواب من قول راشد، وقد أخرجه عنه برقم (٤٦).

(٣) سنن أبي داود (٦٦)، والترمذي (٦٦)، والدارقطني (٥٤). وسلف في المسألة الثالثة.

(٤) إثر الحديث (٦٧). ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١١-١٤١٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أنَّ ابن العربيِّ قال: إنها في وسط السَّبَخة[١]، فماؤها يكون متغيراً من قرارها، والله أعلم.

الحادية عشرة: الماء الطاهر المطهِّرُ الذي يجوز به الوضوءُ وغَسلُ النجاسات هو الماء القَرَاحُ الصافي، من ماء السماء والأنهارِ والبحار والعيون والآبار، وما عرَفه الناسُ ماءً مطْلقاً غيرَ مضافٍ إلى شيء خالطه؛ كما خلقه اللهُ عزَّ وجلَّ صافياً، ولا يضرُّه لونُ أرضه[٢]، على ما بيَّنّاه.

وخالف في هذه الجملةِ أبو حنيفة وعبد الله بنُ عمرو وعبد الله بنُ عمر، فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوءَ بالنبيذ في السفر[٣]، وجوَّز إزالةَ النجاسة بكل مائعٍ طاهر. فأمَّا بالدُّهن والمَرَق، فعنه روايةٌ أنه لا يجوز إزالتُها به. إلَّا أنَّ أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسةُ به جاز. وكذلك عنده النارُ والشمس؛ حتى إنَّ جلد الميتة إذا جفَّ في الشمس طَهُر من غير دباغ. وكذلك النجاسةُ على الأرض إذا جفَّت بالشمس، فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاةُ عليه، ولكن لا يجوز التيممُ بذلك التراب[٤].

قال ابن العربي[٥]: لمَّا وصف اللهُ سبحانه الماءَ بأنه طَهور، وامتنَّ بإنزاله من السماء ليطهِّرَنا به، دلَّ على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) السبخة: الأرض ذات النزِّ والملح. القاموس (سبخ).

(٢) الكافي ١/ ١٥٥.

(٣) وقد رُويَ عنه أنه قد رجع عن ذلك. وعند محمد لابد من الجمع بينه وبين التيمم، وقال أبو يوسف: يتيمم ولا يتوضأ به، وهو المفتى به. ينظر الجامع الصغير ص٥٥، والمبسوط ١/ ٨٨، ومجمع الأنهر ١/ ٢٤، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٨١. وفي بدائع الصنائع ١/ ١٦٨: ذكر في الجامع الصغير أن المسافر إذا لم يجد الماء ووجد نبيذ التمر توضأ به ولم يتيمم. اهـ. ولم نقف على تقييده بالسفر عند غيره.

(٤) ينظر البناية شرح الهداية ١/ ٧٠٩-٧١٠، ٧٣٢، ٧٢٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٩، ١٤١٠.

لأسماء بنتِ الصِّدِّيق حين سألته عن دم الحيضِ يصيب الثوب[١]: «حُتِّيه ثم اقرُصيه، ثم اغسليه بالماء». فلذلك لم يُلحِق غيرَ الماء بالماء؛ لِمَا في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنىً[٢] محسوساً حتى يقال: كلُّ ما أزالها فقد قام به الفرض، وإنما النجاسةُ حكمٌ شرعيٌّ عيَّن له صاحبُ الشرع الماءَ؛ فلا يَلحَق به غيرُه؛ إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقُه بالأصل في إسقاطه[٣] سقط في نفسه. وقد كان تاجُ السُّنة ذو العِزِّ ابنُ المرتضى[٤] الدبوسي يسمِّيه فرخَ زنى.

قلت: وأما ما استُدِلَّ به على استعمال النبيذ، فأحاديثُ واهيةٌ ضِعَاف، لا يقوم شيءٌ منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعَّفها ونصَّ عليها[٥]. وكذلك ضعَّف ما رَوَى عن ابن عباس موقوفاً: «النبيذ وضوءُ من[٦] لم يجد الماء». في طريقه ابنُ محرَّر[٧]، متروكُ الحديث. وكذلك ما رَوَى عن عليٍّ أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجَّاج وأبو ليلى ضعيفان[٨]. وضعَّف حديثَ ابنِ مسعود[٩]، وقال: تفرَّد به ابنُ لهيعة، وهو ضعيفُ الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أَشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجِنّ؟ فقال: لا. قال

(١) أخرجه الشافعي في المسند (٤٦) عن سفيان بن عيينة، عن هشام، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٢٦٩٢٠)، والبخاري (٢٢٧)، ومسلم (٢٩١) من طرق عن هشام، عن فاطمة، عن أسماء قال: أتت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت... قال ابن حجر في الفتح ١/ ٣٣١ : رواية الشافعي صحيحة الإسناد، ولا بعد في أن يبهم الراوي اسم نفسه.

(٢) في النسخ الخطية: عيناً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في (ف): في الإسقاط، وفي أحكام القرآن: بالإسقاط.

(٤) في النسخ الخطية: ذو العزيز المرتضى.

(٥) في السنن ١/ ١٢٦ فما بعد.

(٦) في (م): لمن.

(٧) في النسخ: محرز، وهو خطأ. والمثبت من سنن الدارقطني.

(٨) سنن الدارقطني (٢٤١) و(٢٥٤) و(٢٥٥).

(٩) سنن الدارقطني (٢٤٤)، وأخرجه أحمد (٣٧٨٢)، وابن ماجه (٣٨٥).

الشيخ[١]: هذا إسنادٌ صحيح لا يُختلف في عدالة رُواته.

وأخرج الترمذيُّ[٢] حديثَ ابن مسعود؛ قال: سألني النبيُّ ﷺ: «ما في إداوتك» فقلت: نبيذ. فقال: «تمرةٌ طيِّبةٌ وماءٌ طَهور» قال: فتوضأ منه.

قال أبو عيسى: وإنما رُويَ هذا الحديثُ عن أبي زيد، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ، وأبو زيد رجلٌ مجهول عند أهل الحديث، لا تُعرف له روايةٌ غير هذا الحديث، وقد رأى بعضُ أهل العلم الوضوءَ بالنبيذ؛ منهم سفيانُ وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يُتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، وقال إسحاق: إن ابتُلي رجلٌ بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيَمَّم أحبُّ إلي. قال أبو عيسى: وقولُ مَن يقول: لا يتوضأ بالنبيذ؛ أقربُ إلى الكتاب والسنة وأشبهُ[٣]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

وهذه المسألة مطوَّلةٌ في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسُّكُ بلفظ الماء، حَسبما تقدم في «المائدة» بيانُه، والله أعلم.

الثانية عشرة: لمَّا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وقال: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، توقَّف جماعةٌ في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وابن عمرٍو معاً أنه لا يتوضأ به[٤]؛ لأنه نار، ولأنه طبق جهنم. ولكنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن حكمَه حين قال لمن سأله: «هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ ميتته»[٥] أخرجه مالك[٦].

---

(١) في (م): قلت، بدل: قال الشيخ. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في سنن الدار قطني (٢٤٥). والحديث أخرجه أيضاً أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٢) برقم (٨٨)، وهو في مسند أحمد (٣٨١٠).

(٣) قوله: والسنة، ليس في (ظ)، وقوله: وأشبه، ليس في (د) و (ز) و (ف).

(٤) سيأتي قريباً.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٣ .

(٦) في الموطأ ١/ ٢٢ . وسلف ٨/ ٢١٢ .

وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح. وهو قول أكثرِ الفقهاء من أصحاب النبيِّ ﷺ، منهم أبو بكر وعمرُ وابن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ الوضوءَ بماء البحر؛ منهم ابنُ عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بنُ عمرو: هو نار[١].

قال أبو عمر[٢]: وقد سأل[٣] أبو عيسى الترمذيُّ [محمدَ بنَ إسماعيل البخاريَّ] عن حديث مالك هذا، عن صفوان بن سُلَيم، فقال: هو عندي حديثٌ صحيح. قال أبو عيسى: فقلت للبخاري: هُشيم يقول فيه: ابن أبي بَرْزة. فقال: وَهم فيه، إنما هو المغيرة بنُ أبي بُرْدة.

قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاريِّ رحمه الله، ولو كان [عنده] صحيحاً، لَأخرجه في مصنَّفه الصحيحِ عنده، ولم يفعل؛ لأنه لا يعوِّل في الصحيح إلَّا على الإسناد. وهذا الحديثُ لا يحتجُّ أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح؛ لأن العلماءَ تلقَّوه بالقَبول له والعملِ به، ولا يخالف في جملته أحدٌ من الفقهاء، وإنما الخلافُ بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهورُ[٤] العلماء وجماعةُ أئمَّةِ الفتوى بالأمصار من الفقهاء أنَّ البحر طهورٌ ماؤه، وأنَّ الوضوء به جائز؛ إلَّا ما روي عن عبد الله بنِ عمر بنِ الخطاب وعبد الله بن عمرو بنِ العاص أنهما كرها الوضوءَ بماء البحر، ولم يتابعهما أحدٌ من فقهاء الأمصار على ذلك، ولا عرَّج عليه، ولا التفت إليه؛ لحديث هذا الباب[٥]. وهذا يدلُّك على اشتهار الحديثِ عندهم، وعملِهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهرِ الصحة لمعنىً تردُّه

(١) سنن الترمذي إثر الحديث (٦٩). قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في التعليق عليه: هذا رأي لعبد الله ابن عمرو إن صح إسناده إليه. اهـ. وأثر ابن عمر وابن عمرو أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ .

(٢) في التمهيد ١٦/ ٢١٨ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): سئل، وهو خطأ.

(٤) في (م): زيادة: من، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في التمهيد ١٦/ ٢٢١ .

(٥) جاء في حاشية (ظ) ما نصه: لعل إنما كره رضي الله تعالى عنهما الوضوء بماء البحر لأن ماء البحر يضر بالاستعمال للعين وسائر البدن. . . والله أعلم.

الأصول. وبالله التوفيق.

قال أبو عمر[١]: صفوان بن سُلَيم مولى حميد بنِ عبد الرحمن بنِ عوف الزُّهري، من عُبَّاد أهلِ المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثيرَ الصدقة بما وجد من قليلٍ وكثير، كثيرَ العمل، خائفاً لله، يُكنى أبا عبد الله، سكن المدينةَ لم ينتقل عنها، ومات بها سنة اثنتينِ وثلاثين ومئة.

ذكر عبد الله بنُ أحمد بنِ حنبل قال: سمعت أبي يُسأل عن صفوان بنِ سُلَيم، فقال: ثقةٌ من خيار عبادِ الله وفضلاء المسلمين[٢].

وأما سعيد بنُ سلمة فلم يروِ عنه فيما علمتُ إلَّا صفوان، والله أعلم. ومَن كانت هذه حالَه، فهو مجهولٌ لا تقوم به حجَّةٌ عند جميعهم.

وأما المغيرة بنُ أبي بُرْدة فقيل عنه: إنه غيرُ معروفٍ في حَمَلة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول.

قال أبو عمر[٣]: المغيرة بن أبي بُردة وجدت ذِكْره في مغازي موسى بنِ نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحاتٍ في البَرِّ والبحر.

وروى الدارقطني من غير طريق مالكٍ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن لم يطهِّره ماءُ البحر فلا طهَّره الله». قال: إسنادٌ حسن[٤].

الثالثة عشرة: قال ابن العربي: توهَّمَ قومٌ أنَّ الماء إذا فَضَلت للجُنب منه فضلةٌ لا يُتوضأ به، وهو مذهبٌ باطل؛ فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أَجنبتُ أنا ورسولُ الله ﷺ،

---

(١) في التمهيد ١٦/٢٠٩، ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) بنحوه في العلل ومعرفة الرجال لأحمد ٢/ ٤٩٥.

(٣) في التمهيد ١٦/٢١٨.

(٤) سنن الدارقطني (٧٨).

واغتسلت من جَفْنة وفضَلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منها[١]، فقلت: إني قد اغتسلت منه. فقال: «إنَّ الماء ليس عليه نجاسة، أو[٢]: إن الماء لا يُجْنِب»[٣].

قال أبو عمر[٤]: وردت آثارٌ في هذا الباب مرفوعةٌ في النهي عن أن يتوضأ الرجلُ بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغترفا جميعاً[٥]. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترفَ الرجلُ مع المرأة في إناءٍ واحد؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما متوضِّئٌ [حينئذٍ] بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كُره من ذلك أن تنفردَ المرأةُ بالإناء، ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكلٌّ واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعةُ فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة؛ وتتوضأ المرأةُ من فضله، انفردت المرأةُ بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثارٌ كثيرةٌ صِحَاح. والذي نذهب إليه أنَّ الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما ظهر فيه من النجاسات، أو غلب عليه منها؛ فلا وجهَ للاشتغال بما لا يصحُّ من الآثار والأقوال. واللهُ المستعان.

روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: حدَّثتني ميمونة قالت: كنت أغتسل أنا ورسولُ الله ﷺ من إناءٍ واحد من الجنابة. قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٦].

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبيُّ ﷺ من إناءٍ واحد يقال له: الفَرَق[٧].

---

(١) في (م): منه.

(٢) في النسخ الخطية: و.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٤١٠ . والحديث أخرجه أحمد (٢٦٨٠٢) ولفظه: ..فقال: «إن الماء ليس عليه جنابة. أو: لا ينجسه شيء» فاغتسل منه. وستأتي شواهده.

(٤) في التمهيد ١٤/ ١٦٤-١٦٥ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) سيأتي تخريج الراوية بنحو هذا اللفظ .

(٦) سنن الترمذي (٦٢). وأخرجه أحمد (٢٦٧٩٧)، ومسلم (٣٢٢) دون قولها: من الجنابة. وهو عند البخاري (٢٥٣) إلا أنه قال: عن ابن عباس أن النبي ﷺ وميمونة...

(٧) صحيح البخاري (٢٥٠)، وأخرجه أحمد (٢٤٠١٤) (٢٥٦٣٤)، ومسلم (٣١٩): (٤١). والفَرَق =

وفي صحيح مسلمٍ[١] عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة.

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: اِغتسلَ بعضُ أزواج النبيِّ ﷺ في جَفْنة، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. فقال: «إنَّ الماء لا يُجْنِب». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريِّ ومالكٍ والشافعي[٢].

وروى الدارقطني عن عَمْرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبيُّ ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهِرَّةُ منه قبل ذلك. قال: هذا حديثٌ صحيح[٣].

وروى أيضاً عن رجل من بني غِفَار قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن فضل طهورِ المرأة[٤].

وفي الباب عن عبد الله بن سَرْجِس، وكره بعضُ الفقهاء فضلَ طهورِ المرأة، وهو قول أحمدَ وإسحاق[٥].

الرابعة عشرة: روى الدارقطني عن زيد بنِ أسلم، [عن أسلم] مولى عمر بنِ الخطاب: أنَّ عمر بنَ الخطاب كان يسخَّن له ماءٌ في قُمْقُمَة ويغتسل به. قال:

= بالتحريك: مكيال يسع ستة عشر رطلاً، النهاية (فرق).

(١) برقم (٣٢٣)، وأخرجه أحمد (٣٤٦٥).

(٢) سنن الترمذي ١/ ٩٤ حديث (٦٥). وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٠٢)، وأبو داود (٦٨)، والنسائي ١/ ١٧٣، وابن ماجه (٣٧٠). وسلف من حديث ميمونة رضي الله عنها أول هذه المسألة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): حسن صحيح، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الدارقطني (٢١٤). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٦٨). قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٠٥: هذا إسناد ضعيف.

(٤) سنن الدارقطني (١٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٦٥٥)، وأبو داود (٨٢)، والترمذي (٦٣) و(٦٤)، والنسائي ١/ ١٧٩، وابن ماجه (٣٧٣). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٥) قاله الترمذي إثر الحديث (٦٣). وحديث عبد الله بن سرجس أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٤، والدارقطني (٤١٧)، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ أن يغتسل الرجل بفضل المرأة، والمرأة بفضل الرجل، ولكن يشرعان جميعاً. وأخرجه بنحوه الدارقطني (٤١٨) موقوفاً، وقال: هو أولى بالصواب.

وهذا إسنادٌ صحيح[١].

ورَوَى عن عائشة قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وقد سخَّنتُ ماءً في الشمس. فقال: «لا تفعلي يا حُميراء؛ فإنه يورث البَرَص». رواه خالد بنُ إسماعيل المخزوميُّ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بنُ محمد الأعسمُ[٢] عن فُليح، عن الزُّهريِّ، عن عروة، عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروِهِ غيرُه عن فليح، ولا يصحُّ عن الزهري؛ قاله الدارقطني[٣].

الخامسة عشرة: كلُّ إناءٍ طاهر فجائزٌ الوضوءُ منه، إلَّا إناءَ الذهب والفضة؛ لِنهي رسولِ الله ﷺ عن اتِّخاذهما. وذلك ـ والله أعلم ـ للتشبُّه بالأعاجم والجبابرة، لا لنجاسةٍ فيهما. ومَن توضأ فيهما أجزأه وضوؤه، وكان عاصياً باستعمالها. وقد قيل: لا يُجزئ الوضوءُ في أحدهما. والأوَّلُ أكثر؛ قاله أبو عمر[٤]. وكلُّ جلدٍ ذُكِّيَ فجائزٌ استعمالُه للوضوء وغيرِ ذلك. وكان مالكٌ يكره الوضوءَ في إناء جلدِ الميتة بعد الدِّباغ؛ على اختلافٍ من قوله. وقد تقدَّم في «النحل»[٥].

قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالجدوبة والمَحْل وعدم النبات. قال كعب: المطرُ روح الأرض يحييها الله به[٦]. وقال: «ميتاً» ولم يقل ميتةً؛ لأنَّ معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أرادَ بالبلد المكان[٧].

---

(١) سنن الدارقطني (٨٥) ومن طريقه البيهقي ١/ ٦ ، وما بين حاصرتين منهما. والقمقمة: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره . النهاية (قمقم).

(٢) في (ف) و(م): الأعشم . وهو خطأ.

(٣) سنن الدارقطني برقم (٨٦) و(٨٧).

(٤) في الكافي ١/ ١٦٢-١٦٣ ، وما بعده منه. وحديث النهي عن آنية الذهب والفضة أخرجه أحمد (٢٣٢٦٩)، والبخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة ﷺ. ورُوي عن غيره أيضاً.

(٥) ١٢/ ٣٩٩ .

(٦) لفظة: به. من(م)، وقول كعب أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٣٤) دون قوله: يحيها الله به.

(٧) زاد المسير ٦/ ٩٤ ، وكلام الزجاج السالف فيه، وهو في معاني القرآن له ٤/ ٧١ .

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ قراءةُ العامَّة بضمِّ النون. وقرأ عمرُ بن الخطاب، وعاصمٌ والأعمش فيما روى المفضَّل عنهما: «نَسْقِيَهُ»؛ بفتح النون[١].

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: بَشَراً كثيراً، وأناسيُّ واحدُه إنسيّ ـ نحو جمع القُرْقُور[٢]: قَرَاقير وقَرَاقِر ـ في قول الأخفش[٣] والمبرِّد وأحد قولي الفراء[٤]، وله قولٌ آخر، وهو أنْ يكونَ واحده إنساناً، ثم يُبدل من النون ياءً؛ فيقول: أناسيّ، والأصل: أناسين، مثل: سِرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياءَ عوضاً من النون، وعلى هذا يَجوزُ: سَراحيّ وبَساتيّ، لا فرق بينهما[٥].

قال الفراء: ويجوز «أَنَاسِي» بتخفيف الياء[٦]؛ كأنهم أسقطوا الياء[٧] التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قَراقِير وقَراقِر.

وقال: «كَثِيراً» ولم يقل: كثيرين؛ لأن فعيلاً قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: القرآن[٨]، وقد جرى ذكره في أوّل السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية: ١]. وقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٣، والبحر ٦/ ٥٠٥. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٢) القرقور: ضربٌ من السفن، وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة. اللسان (قرر).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٣.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٩، وما بعده فيه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧١.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٠، وهي قراءة شاذة عن يحيى بن الحارث الذماري. القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر المحيط ٦/ ٥٠٥.

(٧) قوله: كأنهم أسقطوا الياء. من (ظ).

(٨) في (د) و(ز): ليذكروا القرآن.

﴿ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الآية: ٢٩]. وقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الآية: ٣٠].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: جُحوداً له وتكذيباً به. وقيل: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ»: هو المطر. رُوي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنَّه ليس عامٌ بأكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ الله يُصرِّفه حيث يشاء، فما زِيد لبعضٍ نَقَص من غيرهم[١]. فهذا معنى التصريف. وقيل: «صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ» وابلاً وطَشًّا وطَلًّا ورِهاماً ورَذَاذاً[٢]. وقيل: تصريفُه تنويعُ الانتفاع به في الشُّرب والسَّقي والزِّراعات به، والطَّهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه[٣].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قال عكرمة: هو قولُهم في الأنواء: مُطِرْنَا بنوءِ كذا[٤].

قال النَّحَّاس[٥]: ولا نَعلمُ بين أهل التفسير اختلافاً أنَّ الكفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا؛ وأنَّ نظيرَه: فَعَلَ النَّجمُ كذا[٦]، وأنَّ كلَّ من نَسَب إليه فعلاً فهو كافر.

وروى الربيع بن صَبيح[٧] قال: مُطِر النّاس على عهد رسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فلمَّا أصبحَ قال النبيُّ ﷺ: «أصبحَ النَّاسُ فيها رجلين شاكرٌ وكافر؛ فأمَّا الشاكر فيحمدُ

---

(١) أخرجهما الطبري ١٧/ ٤٦٨-٤٦٩ .

(٢) ذكره الواحدي في الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ١٠٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٦ . دون نسبة. ووقع في (د) و(ز) و(م) قبل قوله: ورذاذاً، ما نصه: الجوهري: الرهام الأمطار اللينة، وزاد بعدها في (د): الوابلة، وزاد في (ز): الواحدة: رهمة، بالكسر، ويجمع أيضاً: رِهَماً. ووقعت هذه الزيادة في (ف) بعد قوله: وشبهه؛ نهاية الكلام.

(٣) تفسيرالرازي ٢٤/ ٩٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٩ . دون قوله: مطرنا بنوء كذا.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٣ -١٦٤ .

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: وأن نظيره قول المنجم: فعل النجم كذا وكذا.

(٧) البصري العابد، كان من عباد أهل البصرة وزُهَّادهم، إلا أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان يهم كثيراً. توفي بالسند سنة ستين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٧-٢٨٩ .

الله تعالى على سُقياه وغياثه، وأمَّا الكافرُ فيقول: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا»[١]. متفقٌ على صحَّته بمعناه[٢]، وسيأتي في الواقعة إنْ شاء الله[٣].

ورُوي من حديث ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما من سَنَةٍ بأمطرَ من أخرى، ولكنْ إذا عَمِل قومٌ بالمعاصي، صَرف الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عَصَوا جميعاً صَرَف الله ذلك إلى الفيافي والبحار»[٤]. وقيل: التَّصريف راجعٌ إلى الريح[٥]، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٦].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لِيَذْكُرُوا»[٧] مخففةَ الذَّال؛ من الذِّكر. الباقون مُثَقَّلاً من التذكُّر، أي: ليذْكُروا نِعمَ الله، ويعلَموا أنَّ من أنْعَمَ بها لا يجوز الإشراكُ به؛ فالتذكُّر قريبٌ من الذِّكر، غير أنَّ التذكُّر يُطلَقُ فيما بَعُدَ عن القلب، فيحتاج إلى تكلُّفٍ في التذكُّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي: رسولاً يُنْذِرهم، كما قَسَمْنَا المطرَ؛ ليخفَّ عليكَ أعباءُ النبوّة، ولكنَّا لم نفعلْ، بل جعلناك نذيراً للكلِّ؛ لترتفعَ[٨] درجتُك، فاشكر نعمةَ الله عليك[٩].

---

(١) لم نقف عليه من طريق الربيع بن صبيح، وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه بمعناه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجُهني ﷺ. وهو عند أحمد (١٧٠٦١).

(٣) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٣٧٢، وسلف بنحوه موقوفاً على ابن عباس وابن مسعود.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٢.

(٦) ٢/ ٤٩٨.

(٧) السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص١٦٤.

(٨) في (د) و(ز): لرفع.

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٩٦، وتفسير الرازي ٢٤/ ٩٩.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فيما يدعونَك إليه من اتِّباع آلهتهم. ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام[١]. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ونزلَتْ قبلَ الأمر بالقتال[٢]. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا يخالطُه فُتور.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلامُ إلى ذِكْر النِّعم. و«مَرَجَ»: خَلَّى وخَلَط وأرسلَ. قال مجاهد: أرسلهما وأفاضَ أحدَهما في الآخر[٣].

قال ابن عرفة: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مَرَجْتُه إذا خلطتَه.

ومَرِجَ الدِّينُ والأمرُ: اختلطَ واضطرب[٤]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بنِ عمرو بن العاصي: «إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودُهم، وخَفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا وهكذا» وشبَّك بين أصابعه، فقلتُ له: كيفَ أصنعُ عند ذلك؟ جعلني الله فداك. قال: «الزمْ بيتَك، واملِكْ عليكَ لسانكَ، وخُذْ ما[٥] تعرِف، ودعْ ما تُنكِر، وعليك بخاصَّةِ أمر نفسِك، ودعْ عنكَ أمرَ العامَّة». خرَّجه النسائي وأبو داود وغيرهما[٦].

وقال الأزهريّ[٧]: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ»: خلَّى بينهما؛ يقال: مَرَجْتُ الدابَّة: إذا خَلَّيتَها ترعى.

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٧/ ٤٧٠ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ١٠٠ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٢ ، وفيه: وأفاض أحدهما على الآخر.

(٤) الصحاح (مرج).

(٥) في (م): بما.

(٦) السنن الكبرى للنسائي (٩٩٦٢)، وسنن أبي داود (٤٣٤٣). وهو عند أحمد (٦٩٨٧).

(٧) لم نقف على كلامه، وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٧٢ ، وينظر الصحاح (مرج).

وقال ثعلب: المرجُ: الإجراء، فقوله: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: أجراهما[١]. وقال الأخفش: ويقولُ قومٌ: أمرجَ البحرين، مثل: مَرَجَ، فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنًى[٢].

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: حلوٌ شديدُ العُذُوبة. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: فيه ملوحةٌ ومرارة. ورُوِيَ عن طلحة أنَّه قرأ: «وَهَذَا مَلِحٌ»؛ بفتح الميم وكسر اللام[٣].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً من قدرته لا يَغْلِب أحدُهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الآية:١٩-٢٠].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ستراً مستوراً يمنعُ أحدَهما من الاختلاط بالآخر. فالبَرْزَخ: الحاجز، والحِجْر: المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم[٤]. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض[٥]. قال ابن عباس: يلتقيان في كلِّ عامٍ وبينهما برزخٌ؛ قضاءٌ من قضائه[٦]. «وَحِجْراً مَحْجُوراً»: حراماً مُحرَّماً أنْ يَعْذُبَ هذا المالحُ بالعذب، أو يملُح هذا العذْبُ بالمالح.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي: خلَق من النُّطفة إنساناً. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعلَ الإنسانَ «نَسَباً وصِهْراً». وقيل: «مِنَ الْمَاءِ» إشارةٌ إلى أصل الخلقة في أنَّ كلَّ حيٍّ مخلوقٌ من الماء. وفي هذه الآية تعديدُ النعمة على النَّاس في

(١) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١١/ ٧٣ عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

(٢) الصحاح (مرج).

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب ٢/ ١٢٤ . والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/٢٧٠٨ (١٥٢٥٩).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٥٠ ، ونسب القول الأخير لمجاهد وابن جبير.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه ٨/ ٢٧٠٩ (١٥٢٦٩)

إيجادهم بعد العدم، والتنبيهُ على العبرة في ذلك[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب والصهر معنيان يعمّان كلَّ قربى تكونُ بين آدمِيِّين[٢]. قال ابن العربي[٣]: النسبُ عبارةٌ عن خلطِ الماء بين[٤] الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإنْ كان بمعصيةٍ كان خلقاً مطلقاً، ولم يكنْ نسباً محقَّقاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] بنتُه من الزنى؛ لأنَّها ليست ببنتٍ له في أصحِّ القولين[٥] لعلمائنا، وأصحُّ القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسبٌ شرعاً فلا صِهْر شرعاً فلا يُحرِّم الزنى بنتَ أمٍّ ولا أمَّ بنتٍ[٦]، وما يُحرِّم مِن الحلال لا يُحَرِّم من الحرام؛ لأنَّ الله امتنَّ بالنَّسب والصِّهْر على عباده، ورفع قدرَهما، وعلَّقَ الأحكامَ في الحِلِّ والحُرْمَة عليهما، فلا يلحقُ الباطلُ بهما ولا يساويهما.

قلت: اختلفَ الفقهاءُ في نكاحِ الرجل ابنتَه من زنى، أو أختِه أو بنتِ ابنه من زنى؛ فحرَّم[٧] ذلك قومٌ منهم: ابنُ القاسم، وهو قول أبي حنيفةَ وأصحابه، وأجازَ ذلك آخرون منهم: عبدُ الملك بن الماجشون، وهو قولُ الشافعيّ [على كراهة]، وقد مضى هذا في «النساء» مجوّداً[٨].

قال الفراء[٩]: النسبُ: الذي لا يَحِلُّ نكاحه، والصِّهر: الذي يحلُّ نكاحه[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤.
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٤.
(٤) في النسخ الخطية: المائين.
(٥) في (ظ): وبنته من الزنى ليست ببنتٍ له في أصح القولين، واضطربت العبارة في (د) و (ز) والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.
(٦) العبارة في أحكام القرآن لابن العربي: فلا يحرم الزنى ببنتٍ أماً، ولا بأمٍ بنتاً.
(٧) في (ظ): فمنع.
(٨) ٦/ ١٩٠-١٩١، والكلام السالف في التمهيد ٨/ ١٩١، وما بين حاصرتين منه.
(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٠.
(١٠) قوله: والصهر الذي يحل نكاحه. من (م).

وقاله الزَّجَّاج، وهو قول علي بن أبي طالب ﷺ[١]. واشتقاقُ الصِّهر من صَهرْتُ الشيءَ: إذا خلطتَه؛ فكلُّ واحدٍ من الصِّهرين قد خالطَ صاحبَه، فسُمِّيت المناكِحُ صِهْراً؛ لاختلاط النَّاس بها[٢].

وقيل: الصهرُ: قرابةُ النِّكاح؛ فقرابةُ الزوجةِ هم الأَخْتَان، وقرابةُ الزوجِ هم الأَحْماء. والأصهارُ يقع عامًّا لذلك كلِّه؛ قاله الأصمعيّ.

وقال ابن الأعرابي: الأَخْتَان: أبو المرأة وأخوها وعمُّها، كما قال الأصمعيّ، والصهرُ: زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه.

وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجُوزَجَانيِّ: أَخْتَانُ الرجل: أزواجُ بناته وأخواتِه وعماتِه وخالاتِه، وكلِّ ذاتِ مَحْرمٍ منه، وأصهارُه: كلُّ ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ من زوجته.

قال النَّحَّاس[٣]: الأَوْلَى في هذا أنْ يكونَ القولُ في الأصهار ما قال الأصمعي، وأنْ يكونَ من قِبَلِهما جميعاً؛ يقال: صَهَرْتُ الشيءَ، أي: خلطتُه؛ فكلُّ واحدٍ منهما قد خَلَط صاحبه. والأَوْلَى في الأَخْتَان ما قاله محمدُ بن الحسن لجهتين:

إحداهُما: الحديثُ المرفوع؛ رَوى محمدُ بنُ إسحاق عن يزيدِ بن عبد الله بن قُسَيط، عن محمدِ بن أسامة بن زيد[٤] عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنتَ يا علي فَخَتَنِي وأبو ولدي، وأنت منِّي وأنا منك»[٥]. فهذا على أنَّ زوجَ البنت خَتَنٌ.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٢، ونسبه لعلي بن أبي طالب ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٥١.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٩. وأقوال الأصمعي وابن الأعرابي ومحمد بن الحسن السالفة منه.

(٤) في (د) و (ز) عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أسامة بن زيد...، وفي (ظ) عن أبي أسامة بن زيد.. والمثبت من (م) ومعاني القرآن ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٧٧)، والنسائي في الكبرى (٨٤٧١) مطولاً. ومحمد بن اسحاق. صدوق يدلِّس. تقريب التهذيب. وقد عنعن في هذا الحديث. أما قوله ﷺ لعلي ﷺ: «أنت منِّي وأنا منك» فصحيح أخرجه البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

والجهةُ الأخرى: أنَّ اشتقاقَ الخَتَنِ من خَتَنَه: إذا قطعه؛ وكأنَّ الزوجَ قد انقطعَ عن أهله، وقطعَ زوجتَهُ عن أهلها.

وقال الضحاك: الصِّهرُ قرابةُ الرَّضَاع. قال ابنُ عطية[١]: وذلك عندي وَهَمٌ أوجَبه أنَّ ابنَ عباسٍ قال: حُرِّم من النسب سبعٌ، ومن الصهر خمس. وفي روايةٍ أخرى[٢] من الصِّهر سبعٌ، يريدُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾. فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قولَه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]. ثمَّ ذكرَ المحصَنات. ومحمل هذا أنَّ ابنَ عباس أراد: حُرِّم من الصهر ما ذُكِر معه[٣]، فقد أشار بما ذكر إلى عُظمه وهو الصِّهر، لا أنَّ الرَّضاع صهرٌ، وإنَّما الرَّضاع عديلُ النسب؛ يَحرُم منه ما يَحرُم من النسب بحكم الحديث[٤] المأثور فيه. ومن رَوى: وحُرِّم من الصهر خمسٌ، أسقطَ من الآيتين الجمعَ بين الأختين والمحصَنات؛ وهنَّ[٥] ذواتُ الأزواج.

قلت: فابن عطيَّة جعلَ الرَّضاع مع ما تقدَّم نسباً، وهو قول الزجَّاج. قال أبو إسحاق[٦]: النسبُ الذي ليسَ بصهر؛ من قوله جلَّ ثناؤه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] والصهرُ من يَحِلُّ[٧] له التزويج.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ . وقول الضحاك السالف منه.

(٢) قول ابن عباس: حرِّم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، سلف ٦/ ١٧٤ ، ولم نقف على لفظ: خمس، عن ابن عباس، وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٦ عن الضحاك .

(٣) في المحرر الوجيز: مع ما ذكر معه.

(٤) سلف ٦/ ١٧٩ .

(٥) في (د) و (ز): ومن ، وفي (ظ): من. والمثبت من(م) والمحرر الوجيز.

(٦) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٧٢ .

(٧) لفظة: يحل. من (ظ).

قال ابن عطية[١]: وحكى الزهراوي قولاً أنَّ النسبَ من جهة البنين، والصهرَ من جهة البنات.

قلت: وذكرَ هذا القول النَّحَّاس[٢]، وقال: لأنَّ المصاهرةَ من جهتين تكون.

وقال ابن سيرين: نزلَتْ هذه الآية في النبيِّ ﷺ وعليٍّ ﷺ؛ لأنَّه جَمعَه معه نسبٌ وصهر. قال ابن عطية[٣]: فاجتماعُهما وُكادةُ حرمةٍ إلى يوم القيامة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على ما خلق ما يريده.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ لما عَدَّد النعم وبيَّن كمال قدرته، عَجِبَ من المشركين في إشراكهم به من لا يقدِرُ على نفعٍ ولا ضَرّ، أي: إنَّ الله هو الذي خَلَق ما ذكره، ثمَّ هؤلاء بجهلهم[٤] يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تَنفعُ ولا تَضرّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ رُويَ عن ابن عباس: «الكَافِرُ» هنا أبو جهلٍ لعنه الله[٥]؛ وشرحه أنَّه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه[٦]. وقال عكرمة: «الْكَافِرُ» إبليس، ظهر على عداوة ربّه. وقال مَطر[٧]: «الْكَافِرُ» هنا الشيطان.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٤ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ ، وما قبله منه.

(٤) في (م): لجهلهم.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ٤٧٨ . دون قوله: لعنه الله، وهي من (م).

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: أبو جهل وشيعته لأنه يستظهر بعبدة الأوثان على أولياء ربه.

(٧) في (م): مطرف. والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٤ ورواية ابن عباس وعكرمة ومطر منه.

وقال الحسن: «ظَهِيراً» أي: مُعِيناً للشيطان على المعاصي[١]. وقيل: المعنى؛ وكان الكافرُ على ربه هيِّناً ذليلاً، لا قَدْر له ولا وزن عنده؛ من قول العرب: ظهرتَ به، أي: جعلتَه خلف ظهرك، ولم تلتفت إليه[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٦٢] أي: هيِّناً ومنه قول الفرزدق:

تميمَ بنَ بَدْرٍ[٣] لا تكونَنَّ حاجتي بِظَهْرٍ فلا يعيا عليَّ جوابُها[٤]

هذا معنى قول أبي عبيدة: وظهير بمعنى مظهور[٥]، أي: كفرُ الكافر هينٌ على الله تعالى، والله مستهينٌ به؛ لأنَّ كفره لا يضره.

وقيل: وكان الكافرُ على ربِّه الذي يعبدُه؛ وهو الصنم قويًّا غالباً يعملُ به ما يشاء؛ لأنَّ الجمادَ لا قدرةَ له على دفعٍ[٦] ونفع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النَّار؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يريدُ على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و«مِن» للتأكيد.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾: لكن من شاء؛ فهو استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أَن

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٨ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٣ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٩٧ .

(٣) في (م): قيس.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٥٢ ، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ٨٦ ، وجاءت رواية البيت فيه:

تميمَ بن زيدٍ لا تهونَنَّ حاجتي لديك ولا يعيا عليَّ جوابها

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٧٧ . وقاله أيضاً الطبري ١٧/ ٤٧٩ . ورجحه.

(٦) بعدها في (م): ضر.

﴿يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله؛ فلْيُنْفِق. ويجوز أنْ يكونَ متصلاً ويقدَّر حذفُ المضاف؛ التقدير: إلَّا أجْرَ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني حتى ينالَ كرامةَ الدُّنيا والآخرة[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ تقدَّم معنى التوكُّل في «آل عمران» وهذه السورة[2] وأنَّه اعتمادُ القلب على الله تعالى في كُلِّ الأمور، وأنَّ الأسبابَ وسائطُ أمرَ بها من غير اعتمادٍ عليها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: نزِّه اللهَ تعالى عمَّا يُضيفُه هؤلاء الكفارُ إليه[3] من الشركاء. والتسبيحُ: التنزيه، وقد تقدَّم[4]. وقيل: «وَسَبِّحْ» أي: وصلِّ له؛ وتُسمَّى الصلاةُ تسبيحاً. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: عليماً، فيجازيهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في الأعراف[5]. و«الذي» في موضع خفضٍ نعتاً للحيّ. وقال: «بَيْنَهُمَا» ولم يقل: بينهنّ؛ لأنَّه أرادَ الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القُطاميّ[6]:

ألم يَحْزُنْكِ أنَّ حبالَ قيسٍ وتغلِبَ قد تباينتا انقطاعا

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥.

(٢) ٥/ ٢٩٠-٢٩٢، وص٣٨٦-٣٨٧ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(م) يصفه، بدل: يضيفه، وفي (م): به، بدل: إليه.

(٤) ١/ ٤١٢.

(٥) ٩/ ٢٣٧.

(٦) في ديوانه ص٣٢.

أراد: وحبالَ تغلب؛ فثنَّى، والحبالُ جمع؛ لأنَّه أرادَ الشيئين والنوعين[١].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ قال الزَّجَّاج[٢]: المعنى: فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعةٌ من أهل اللغة أنَّ الباء تكون بمعنى «عن»؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] وقال الشاعر:

هَلَّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... إنْ كُنتِ جاهلةً بما لم تعلمي[٣]

وقال امرؤ القيس[٤]:

فإنْ تسألوني بالنساء فإنَّني ... خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

أي: عن النساء، وعما لم تعلمي.

وأنكره عليُّ بن سليمان وقال: أهلُ النظر ينكِرون أنْ تكونَ الباءُ بمعنى «عن»؛ لأنَّ في هذا إفسادَ المعاني[٥]، [قال: ولكنَّ هذا مثلُ] قول العرب: لو لقيتَ فلاناً للقيَكَ به الأسد، أي: للقيَك بلقائك إيَّاه الأسد؛ المعنى: فاسأل بسؤالك إيَّاه خبيراً[٦]. وكذلك قال ابنُ جبير: الخبيرُ هو الله تعالى: ف«خَبِيراً» نصب على المفعول به بالسؤال[٧].

قلت: قول الزجَّاج يُخرَّج على وجهٍ حسن، وهو أنْ يكون الخبيرُ غيرَ الله، أي: فاسأل عنه خبيراً، أي: عالماً به، أي: بصفَاته وأسمائه.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٠، والبيت السالف فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٧٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٢٥.

(٤) كذا في النسخ. والبيت لعلقمة بن عَبَدَة كما في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٧، وأدب الكاتب ص٥٠٨.

(٥) بعدها في (ظ) منه، وجاءت العبارة في (م): لأن في هذا إفساداً لمعاني.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٦، وقول ابن جبير أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨١.

وقيل: المعنى: فاسأل له خبيراً، فهو نصب على الحال من الهاء المضمرة. قال المهدويّ: ولا يحسنُ حالاً إذ لا يخلو أنْ تكون الحال من السائل أو المسؤول. ولا يصحُّ كونُها حالاً من الفاعل؛ لأنَّ الخبير لا يَحتاج أنْ يَسألَ غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأنَّ المسؤول عنه ـ وهو الرحمن ـ خبيرٌ أبداً، والحالُ في أغلب الأمر [لِما] يتغيرُ وينتقل؛ إلَّا أنْ يُحمل على أنَّها حالٌ مؤكِّدة؛ مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، فيجوز[١].

وأمَّا «الرَّحْمَنُ» ففي رفعه ثلاثةُ أوجه: يكون بدلاً من المضمر الذي في «اسْتَوَى». ويجوز أنْ يكونَ مرفوعاً بمعنى: هو الرحمن. ويجوز أنْ يكون مرفوعاً بالابتداء، وخبرُه: «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً». ويجوزُ الخفض، بمعنى: وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموتُ الرَّحمنِ؛ يكون نعتاً. ويجوز النصبُ على المدح[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: لله تعالى. ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على جهةِ الإنكَار والتعجُّب، أي: ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانُ اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب[٣].

وزعم القاضي أبو بكر ابن العربيّ أنَّهم إنَّما جَهلوا الصفَةَ لا الموصوف، واستدلَّ على ذلك بقوله: «وَمَا الرَّحْمَنُ»، ولم يقولوا: ومن الرَّحمن. قال ابن الحصَّار: وكأنَّه ـ رحمهُ الله ـ لم يقرأ الآيةَ الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٤] [الرعد: ٣٠].

---

(١) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٣-٥٢٤ . وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥ ، وينظر مشكل إعراب القرآن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٤ .

(٤) قولا ابن العربي وابن الحصار سلفا ١/ ١٦٠ .

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءةُ المدنيِّين والبصريين[١]، أي: لِمَا تأمُرنا أنت يا محمد. واختاره أبو عبيدٍ وأبو حاتم.

وقرأ الأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «يَأْمُرُنَا» بالياء. يعنونَ الرحمن؛ كذا تأوَّله أبو عبيد، قال: ولو أقرُّوا بأنَّ الرحمن أمرَهم ما كانوا كفاراً.

فقال النحاس[٢]: وليس يجب أنْ يتأوَّل عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكنَّ الأَولى أنْ يكون التأويل لهم: أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنا النبيُّ ﷺ؛ فتصحُّ القراءةُ على هذا، وإنْ كانت الأُولى أبينَ وأقربَ مُتناولاً[٣].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادَهم قولُ القائل لهم: اسجدوا للرحمن؛ نفوراً عن الدِّين. وكان سفيانُ الثوريّ يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل؛ وقد تقدَّم ذكرها[٤].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ قال ابن عباس: يعني الشمس[٥]؛ نظيره: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقراءة العامة: «سِرَاجاً» بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: «سُرُجاً»[٦]، يريدون النجوم العِظَام الوَقَّادة. والقراءةُ الأُولى عند أبي عبيدٍ أولى؛ لأنَّه

---

(١) قرأ: تأمرنا؛ بالتاء، من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم. السبعة ص٤٦٦، والتيسير ص١٦٤ .

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٥ . وما قبله منه.

(٣) في (م): تناولاً. وقال الطبري رحمه الله في تفسيره ١٧/ ٤٨٢ بعد ذكر القراءتين: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القرأةِ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

(٤) ١٢/ ١٨٦.

(٥) ذكره عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٤ عن قتادة.

(٦) السبعة ص ٤٦٦ ، والتيسير ص ١٦٤.

تأوّل أنَّ السُّرُج: النجومُ وأنَّ البروج النجوم، [وليس يجبُ أنْ يُتأوَّل لهم هذا] فيجيء المعنى: نجوماً ونجوماً.

النحّاس[١]: ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبانَ بن تغلب قال: السُّرُج: النجومُ الدراري. الثعلبي: كالزُّهَرَة والمشترِي وزُحَل والسمَاكَين[٢] ونحوها.

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع. ورَوى عِصْمَةُ عن الأعمش: «وَقُمْراً» بضمّ القاف وإسكان الميم؛ وهذه قراءةٌ شاذة، ولو لم يكنْ فيها إلا أنَّ أحمدَ بن حنبل ـ وهو إمامُ المسلمين في وقته ـ قال: لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذي يروي القراءات، وقد أُولِع أبو حاتم السِّجِسْتاني بذكرِ ما يرويه عِصمةُ هذا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخِلفَةُ: كلُّ شيء بعد شيءٍ، وكلُّ واحدٍ من الليل والنَّهار يَخْلُفُ صاحبَه[٤]، ويقال للمبْطُون: أصابَه خِلفةٌ، أي: قيامٌ وقعودٌ يَخلفُ هذا ذاك. ومنه خِلْفَةُ النبات؛ وهو ورقٌ يخرج بعد الورق الأوَّل في الصيف[٥]. ومن هذا المعنى قولُ زهير بن أبي سُلْمى:

بـهـا الـعِيـنُ والآرامُ يَـمْـشِـيـنَ خِـلْـفـةً وأَطْلَاؤُهَا يَـنْـهَـضْـنَ من كُلِّ مَـجْـثَـمِ[٦]

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦ ، و ما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) السماك: نجم معروف ، وهما سماكان: رامح وأعزل. اللسان (سمك).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٦ ، وذكر هذه القراءة أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧ .

(٤) ذكر قول أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥ ، والطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٢٣.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠ ، ولسان العرب (خلف).

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٥. قال شارحه ثعلب: العِين: البقر ، الواحدة عَيْنَاء والطَّلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغير. اهـ . والمجثم: مكان الجثوم. معجم متن اللغة (جثم).

الرِّئم: ولدُ الظبي، وجمعُه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوجٌ جاء فوج[(١)].

ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دَأباً[(٢)]:

ولــهــا بــالــمــاطِــرُونِ[(٣)] إذا أَكَــلَ الــنــمــلُ الــذي جَــمَــعَــا
خِــلْــفَــةٌ حــتــى اذا ارْتــبــعَــتْ سَــكَــنــتْ مِــن جِــلَّــقٍ بِــيَــعَــا[(٤)]
فــي بــيــوت[(٥)] وَسْــطَ دَسْــكَــرةٍ[(٦)] حــولَــهــا الــزيــتــونُ قــد يَــنَــعَــا

قال مجاهد: «خِلْفَةً» من الخِلاف؛ هذا أبيضُ؛ وهذا أسود، والأوَّل أقوى[(٧)]. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظَّلام، والزيادة والنقصان[(٨)]. وقيل: هو من باب حذف المضاف، أي: جعلَ الليلَ والنهار ذَوَي خِلفة، أي: اختلاف[(٩)].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر، فيعلم أنَّ الله لم يجعلْهُ كذلك عبثاً، فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نِعَمه عليه في العقل والفكر والفهم.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٨٢.

(٢) اختلف في قائل هذه الأبيات. قال المبرد في الكامل ٢/ ٤٩٨: قال أبو عبيدة: هذا الشعر يُخْتَلف فيه. فبعضهم ينسبه إلى الأحوص، وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية قال أبو الحسن [علي بن سليمان الأخفش]: الصحيح أنه ليزيد. اهـ. ونسبها الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٠ لأبي دهبل.

(٣) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. معجم البلدان ٥/ ٤٢-٤٣.

(٤) وقع في المصدرين السالفين: خرفةٌ، بدل: خلفة. والأبيات برواية المصنف في تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٧ وعنه نقل المصنف. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩ (طبعة دار صادر): ارتبعت: دخلت في الربيع، وجِلَّق: مدينة بالشام.

(٥) في المصادر: في قباب.

(٦) في المصادر عدا الحيوان للجاحظ: حول دسكرة، والدسكرة: يشبه قصراً حوله بيوت ـ وجمعها دساكر ـ تكون للملوك. خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٥٥، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٥.

(٩) الكشاف ٣/ ٩٩.

وقال عمرُ بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه: من فاته شيءٌ من الخير بالليل أدركَه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركَه بالليل[١].

وفي الصحيح: «ما من امرئٍ تكونُ له صلاةٌ بالليل، فغلَبه عليها نومٌ، فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر؛ إلَّا كَتَب الله له أجرَ صلاته وكان نومُه عليه صدقةً»[٢].

وروى مسلمٌ[٣] عن عمرَ بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من نامَ عن حزبه، أو عن شيءٍ منه فقرأه فيما[٤] بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كُتِبَ[٥] له كأنما قرأه من الليل».

الثانية: قال ابن العربي[٦]: سمعتُ ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خَلَق العبدَ حيًّا عالماً، وبذلك كمالُه، وسلَّط عليه آفةَ النَّوم، وضرورةَ الحَدَث، ونقصان الخِلقَة، إذ الكمالُ للأوَّل الخالق، فمتى[٧] أمكنَ الرجلُ من دفعِ النوم بقلَّة الأكل، والسهرِ في طاعة الله؛ فليفعل. ومِن الغَبْن العظيم أنْ يعيشَ الرجلُ ستين سنةً، ينامُ ليلَها، فيذهبُ النصفُ من عمره لغواً، وينامُ سُدس النَّهار راحةً، فيذهبُ ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسَّفاهة أن يُتْلِف الرجلُ ثلثي عُمرِه في لذةٍ فانية، ولا يُتلِفَ عمرَه بسهرٍ في لذةٍ باقية عند الغنيِّ الوفيِّ، الذي ليس بعديم[٨] ولا ظلوم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧-٢١٨ ، وقول عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٤١) ، وأبو داود (١٣١٤) ، والنسائي٣/ ٢٥٧ عن عائشة. دون قوله: فيصلي مابين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر. وهو بلفظ المصنف في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٦.

(٣) في صحيحه (٧٤٧).

(٤) في (ظ): ما. وليست في (د) و (ز).والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٥) في (د) و(ز): كتب الله.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٦.

(٧) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي: فما.

(٨) في النسخ الخطية: بعدوم، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن.

الثالثة: الأشياءُ لا تتفاضلُ بأنفسها؛ فإن الجواهرَ والأعراضَ من حيث الوجودُ متماثلة، وإنما يقع[١] التفاضل بالصفات. وقد اختُلِف أيُّ الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنيةٌ في الدِّلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي[٢].

قلت: والليل عظيمٌ قدْره؛ أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزمل: ٢] على ما يأتي بيانه. وَمَدَح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماء النَّار، وصلاةُ الرَّجل في جوف الليل»[٣] وفيه ساعةٌ يُستجاب فيها الدُّعاء، وفيه يَنْزِل الربُّ تبارك وتعالى[٤] حسبما يأتي بيانُه إنْ شاء الله تعالى.

الرابعة: قرأ حمزة وحدَه: «يَذْكُرَ» بسكون الذَّال وضمِّ الكاف[٥] وهي قراءة ابن وثَّاب وطلحة والنَّخعي[٦]. وفي مصحف أُبيّ: « يَتَذَكَّرَ» بزيادة تاء[٧]. وقرأ الباقون: «يَذَّكَّرَ» بتشديد الكاف[٨].

ويَذْكُرَ ويَذَّكَّر بمعنًى واحد[٩]. وقيل: معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف، أي: يذكر ما نسيَه

(١) في النسخ الخطية: معنى. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧.

(٣) هو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ. أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٧٥٨): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخِر. فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، و من يسألني فأعطيَه، ومن يستغفرني فأغفرَ له».

(٥) السبعة ص ٤٦٦، والتيسير ص ١٦٤.

(٦) ينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٧) قراءة أبي بن كعب ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٧١، و الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٩.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. والكلام من أول المسألة منه.

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٩.

في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر[١] تنزيهَ الله وتسبيحه فيها.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شُكراً وشُكوراً؛ مثل: كَفر يكفُر كُفراً وكُفوراً. وهذا الشُّكر[٢] على أنَّهما[٣] جعلَهما قَواماً لمعاشهم، وكأنَّهم لمَّا قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قال[٤]: هو الذي يَقْدِر على هذه الأشياء[٥].

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾. لمَّا ذكر جهالاتِ المشركين، وطعنَهم في القرآن والنبوَّة؛ ذَكَر عبادَه المؤمنين أيضاً، وذَكَر صفاتِهم، وأضافَهم إلى عبوديَّته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وقد تقدَّم. فمن أطاعَ الله وعبدَه، وشغل سمعَه وبصَرَه ولسانَه وقلبَه بما أمرَه؛ فهو الذي يستحقُّ اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شملَه قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدَّم في «الأعراف»[٦].

وكأنَّه قال: وعبادُ الرَّحمن هم الذين يمشون على الأرض هوناً[٧]، فحذف «هم»؛ كقولك: زيدٌ الأمير، أي: زيدٌ هو الأمير. فـ«الَّذِينَ» خبرُ مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش[٨].

---

(١) في (ظ): ليذكروا.

(٢) في (م): الشكور.

(٣) في (ظ): أنه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): قالوا. والمثبت من (ظ)

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٤/١٠٧.

(٦) ٩/ ٣٩٠ .

(٧) لفظة: هوناً، من (ظ).

(٨) كلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/١٦٦: أن قوله: ﴿وعباد الرحمن..﴾ مبتدأ ليس له خبر إلا في المعنى.

وقيل: الخبرُ قوله في آخر السورة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الآية: ٧٥] وما بين المبتدأ والخبر أوصافٌ لهم، وما تعلَّق بها؛ قاله الزَّجَّاج[١]. قال: ويجوز أنْ يكون الخبر: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

و«يَمْشُونَ» عبارةٌ عن عيشهم، ومدَّةِ حياتهم، وتصرفاتِهم، فذكر من ذلك العُظم؛ لاسيما وفي[٢] الانتقال في الأرض وهي[٣] معاشرة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿هَوۡنٗا﴾ الهَوْنُ مصدر الهيِّن، وهو من السَّكينة والوَقَار. وفي التفسير: يمشون على الأرض حُلماء[٤] متواضعين، يمشون في اقتصاد.

والقَصدُ والتُّؤَدَةُ وحُسْنُ السَّمْت من أخلاق النبوة[٥]. وقال ﷺ: «أيُّها النَّاس، عليكم بالسَّكينة، فإنَّ البِرَّ ليس في الإيضاع»[٦].

ورُويَ في صفته ﷺ أنَّه إذا زال؛ زال تَقلُّعاً، ويخطو تَكَفُّؤاً، ويمشي هَوْناً، ذرِيعَ المِشية إذا مشى، كأنَّما ينحطُّ من صَبَب[٧].

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧.

(٢) بعدها في (م) ذلك.

(٣) في (م): وهو. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ والكلام منه، وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٤) في النسخ الخطية: حكماء. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٥. والقول فيه منسوب للحسن وعطاء والضحاك ومقاتل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٧.

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٩٩)، والبخاري (١٦٧١) عن ابن عباس. واللفظ الذي ذكره المصنف هو لفظ البخاري. وقال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ إثر الحديث: أوضعوا: أسرعوا.

(٧) هو قطعة من حديث هند بن أبي هالة؛ أخرجه الترمذي في الشمائل (٧)، والطبراني في الكبير ٢٢/ (١٥٥) - (١٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠)، وأخرجه القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٣٤ (شرح الشفا للملا علي القاري)؛ بإسنادين أحدهما من طريق الترمذي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٧: رواه الطبراني وفيه من لم يسم، وقال المناوي في فيض القدير ٥/ ٩٠: رمز المصنف[السيوطي] إلى حسنه، ولعله لاعتضاده عنده اهـ. ينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٤٦، وينظر كلام الملا علي القاري حول إسنادي القاضي عياض في شرح االشفا ١/ ٣٣٤ - ٣٣٦.

التقلُّع: رفعُ الرِّجْل بقوَّة، والتَّكفُّؤ: الميلُ إلى سَنَن الممشى[١] وقَصْده، والهَون: الرِّفقُ والوَقار، والذَّريعُ: الواسعُ الخَطو[٢]، أي: إنَّ مشيَه كان يرفعُ فيه رجليه[٣] بسرعة، ويمدُّ خَطْوَه؛ خلافَ مِشية المختال، ويَقصِد سَمْتَه[٤]؛ وكلُّ ذلك برفقٍ وتثبتٍ دونَ عَجَلة. كما قال: كأنَّما ينحطُّ من صَبَب[٥]؛ قاله القاضي عياض[٦].

وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُسْرِعُ جِبلَّةً؛ لا تكلُّفاً[٧].

قال الزُّهري: سرعة المشي تَذْهب ببهاء الوجه. قال ابن عطية[٨]: يريد الإسراعَ الحثيث لأنَّهُ يُخِلُّ بالوقار، والخيرُ في التوسط. وقال زيدُ بن أسلم: كنتُ أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدتُ من ذلك شفاءً، فرأيتُ في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أنْ يُفسدوا في الأرض[٩].

قال القُشيري: وقيل: لا يمشون لإفسادٍ ومعصية، بل في طاعة الله والأمورِ المباحة من غير هَوَك[١٠]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]. وقال ابن عباس: بالطَّاعة والمعروف والتَّواضع[١١].

---

(١) في (م): المشي، والمثبت من النسخ الخطية. وهو الموافق للمطبوع من الشفا. وفي شرح الشفا للملّا علي القاري ١/ ٣٥٦ : سنن المشي. قال: وفي نسخة: الممشى؛ على أنه مصدر ميمي أو اسم مكان. اهـ وسنن الطريق: نهجه وجهته. القاموس (سنن).

(٢) في (م): الخطا.

(٣) في (م): رجله.

(٤) أي: مقصده في طريقه بدون ميل عن وسطه ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]. شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٥٦ .

(٥) أي: منحدر. شرح الشفا ١/ ٣٥٧ .

(٦) في الشفا ١/ ٣٠٧، ٣١٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٧ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨، وكلام الزهري السالف منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩١ .

(١٠) في (د): هول، وفي (ظ): هزل، والمثبت من (ز) و(م)، والهَوَك: الحمق. القاموس المحيط (هوك).

(١١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩١. وفيه: والعفاف. بدل: والمعروف.

الحسن: حلماء؛ إنْ جُهِل عليهم لم يَجهلوا[١]. وقيل: لا يتكبَّرون على الناس[٢]. قلت: وهذه كلُّها معانٍ متقاربة، ويجمعُها العلمُ بالله، والخوفُ منه، والمعرفةُ بأحكامه، والخشيةُ من عذابه وعقابه؛ جَعَلَنا اللهُ منهم بفضله ومنِّه.

وذهبت فرقةٌ إلى أنَّ «هَوْناً» مرتبطٌ بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، إي[٣]: إنَّ المشيَ هو هون[٤].

قال ابنُ عطية[٥]: ويُشبه أنْ يُتأول هذا على أنْ تكون أخلاقُ ذلك الماشي هَوْناً مناسبةً لمشيه، فيرجعُ القول إلى نحو ما بيَّنَّاه. وأمَّا أنْ يكون المرادُ صفةَ المشي وحدَه فباطل؛ لأنَّه رُبَّ ماشٍ هَوْناً رويداً وهو ذئبٌ أطلس[٦]. وقد كان رسول الله ﷺ يَتكفَّأُ في مشيه كأنَّما يمشي[٧] في صبب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدرُ في هذه الأمَّة. وقولُه عليه الصلاة والسلام: «من مشى منكم في طمعٍ فليمش رويداً»[٨] إنما أراد في عَقْد نفسه، ولم يُرد المشيَ وحده، ألا ترى أنَّ المبطلين المتحلِّين بالدِّين تَمسَّكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم:

كلُّهم يمشي رُوَيْد كلُّهم يَطلُبُ صَيْد[٩]

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٣٨، والطبري ١٧/ ٤٩٢. ووقع في (ظ) بدل لفظ حلماء: حكماء، وفي (ز) والمحرر الوجيز: حلماً، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٢ عن ابن زيد.

(٣) لفظة: أي. من (ظ).

(٤) في (ظ): الهون.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. وما قبله منه.

(٦) الأطلس: الذئب الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبثها. معجم متن اللغة (طلس).

(٧) في (م) ينحط، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٨) قطعة من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٩٩)، وفيه إبراهيم بن زياد العجلي؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٢: قال الأزدي: متروك الحديث .اهـ. وذكر ابن الجوزي طرفه في الموضوعات (٨٧٢).

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢١، والبيت لأبي جعفر المنصور كما في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٠٩، =

قلت: وفي عكسه أنشدَ ابن العربيّ[١] لنفسه.

تواضعتُ في العلياء والأصلُ كابر وحزتُ قِصابَ السَّبقِ بالهَوْن في الأمرِ
سكونٌ فلا خبثُ السريرة أصلُه وجُلُّ سكونِ النَّاس من عِظَم الكبرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قال النَّحَّاس[٢]: ليس «سَلَاماً» من التسليم؛ إنَّما هو من التسلُّم؛ تقول العرب: سلاماً، أي: تَسلُّماً[٣] منك، أي: براءةً منك. منصوبٌ على أحد أمرين: يجوز أنْ يكون منصوباً بـ «قَالُوا»، ويجوزُ أنْ يكون مصدراً؛ وهذا قولُ سيبويه[٤].

قال ابن عطية[٥]: والذي أقوله: إنَّ «قَالُوا» هو العاملُ في «سَلَاماً» لأنَّ المعنى: قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى «سَلَاماً»: سَدَاداً[٦]. أي: يقولُ للجاهل كلاماً يدفعُه به برفقٍ ولين. فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عاملٌ في قوله: «سَلَاماً» على طريقة النحْويين؛ وذلك أنَّه بمعنى قولاً.

وقالت فرقةٌ: ينبغي للمخاطب أنْ يقولَ للجاهل: سلاماً؛ بهذا اللفظ. أي: سلَّمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا، فيكون العاملُ فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة: هذه الآيةُ كانت قبل آية السيف، نُسِخ منها ما يخصُّ الكفرة وبقي أدبُها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذَكر سيبويه النسخَ في هذه الآية في كتابه[٧]، وما تكلَّم

= والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ١٦٥ . وفيهما: كلكم. بدل: كلهم. وخاتل. بدل: يطلب. وهو في مدح عمرو بن عبيد وبعده: غير عمرو بن عبيد.

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٨ .

(٣) في النسخ الخطية: تسليماً. والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٢٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٤ .

(٧) ١/ ٣٢٥ .

فيه على نسخٍ سواه؛ ورجَّح به أنَّ المرادَ السلامةُ لا التسليم؛ لأنَّ المؤمنين لم يؤمروا قَطُّ بالسَّلام على الكفرة. والآيةُ مكيَّةٌ، فنسخَتها آيةُ السَّيف[1].

قال النَّحَّاس[2]: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى النَّاسخ والمنسوخ إلَّا في هذه الآية.

قال سيبويه[3]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسَلِّموا على المشركين، لكنَّه على معنى قوله: تَسلُّماً[4] منكم، ولا خير ولا شرَّ بيننا وبينكم.

المبرِّد: كان ينبغي أنْ يُقال: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم ثُمَّ أمروا بحربهم. محمد بن يزيد[5]: أخطأ سيبويه في هذا وأساءَ العبارة.

ابن العربي[6]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسلِّموا على المشركين، ولا نُهوا عن ذلك، بل أُمِروا بالصَّفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقفُ على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم، ولا يداهنهم. وقد اتَّفق النَّاسُ على أنَّ السفيهَ من المؤمنين إذا جفاك يجوزُ أنْ تقول له: سلامٌ عليك.

قلت: هذا القول أشبهُ بدلائل السنَّة. وقد بيَّنَّا في سورة مريم[7] اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجةَ إلى دعوى النَّسخ؛ والله أعلم.

وقد ذكر النضرُ بن شُميل قال: حدثني الخليلُ قال: أتيتُ أبا ربيعةَ الأعرابيّ، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلَّمنا، فردَّ[8] علينا السلام، وقال لنا: استووا. وبقينا متحيرين ولم ندرِ ما قال. فقال لنا أعرابيٌّ إلى جنبه: أَمَرَكم أنْ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨.
(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠. وكلام سيبويه والمبرِّد الآتيان منه.
(٣) في الكتاب ١/ ٣٢٥.
(٤) في (د) و(ظ) تسليماً. والمثبت من (ز) و(م)، وهو الموافق للكتاب.
(٥) هو المبرِّد.
(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٨.
(٧) عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ٤٧].
(٨) في (د) و(ز): فلما سلمنا فرد، وفي (م): فلما سلمنا رد، والمثبت من (ظ) والتمهيد.

ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. فصَعِدنا إليه فقال: هل لكم في خبزٍ فطير، ولبنٍ هجير، وماءٍ نَمِير؟ فقلنا: الساعةَ فارقناه. فقال: سلاماً. فلم ندر ما قال. قال: فقال الأعرابيّ: إنَّه سالمكُم[١]؛ مُتاركةٌ[٢] لا خيرَ فيها ولا شرّ. فقال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

قال ابن عطية: ورأيتُ في بعض التواريخ أنَّ إبراهيم بن المهديّ[٣] ـ وكان من المائلين على عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنتُ أرى عليّ بن أبي طالب في النوم، فكنتُ أقولُ له: من أنت؟ فكان يقول: عليُّ بن أبي طالب. فكنتُ أجيء معه إلى قنطرةٍ، فيذهبُ، فيتقدمني في عبورها، فكنتُ أقول: إنَّما تدَّعي هذا الأمر بامرأةٍ، ونحن أحقُّ به منك، فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُذْكر عنه. قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقولُ لي: سلاماً سلاماً[٤]. قال الراوي: وكأنَّ إبراهيمَ بن المهديّ لا يحفظ الآية. أو ذَهَبَتْ عنه في ذلك الوقت. فنبَّه المأمونُ على الآية من حَضَرَه وقال: هو والله يا عم عليُّ بن أبي طالب، وقد جاوبَك بأبلغ جواب، فَخزِي[٥] إبراهيمُ واستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ قال الزجاج[٧]: بَاتَ الرجل

---

(١) في (د) و(م): سألكم. والمثبت من (ز) و(ظ) وهو الموافق للتمهيد ٧/ ١٣٢ والكلام منه.

(٢) في (د) و(ز): منازلة.

(٣) هو الأمير أبو إسحاق. الملقب بالمبارك. كان، فصيحاً، بليغاً، عالماً، أديباً، شاعراً، رأساً في فن الموسيقا. بويع بالخلافة زمن المأمون، ثم هُزم جمع إبراهيم، واختفى إبراهيم زماناً إلى أن ظفر به المأمون، فعفا عنه. توفي سنة أربع وعشرين ومئتين. ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٥٧ - ٥٦١.

(٤) لفظة: سلاماً (الثانية) من (ز) و(ظ) والمصادر.

(٥) في المحرر الوجيز: فحزن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٩. وذكر هذه القصة الأصفهاني في الأغاني ١٠/ ١٢٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

يَبيتُ: إذا أدركَهُ اللَّيل، نَامَ أو لم ينم. قال امرؤ القيس[١]:

فبتنا قياماً عند رأس جوادِنا ... يزاولُنا عن نفسه ونزاولُه[٢]

وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونَك أنْ تذوقَ مناماً ... واذْرِ الدموعَ على الخدود سِجاما[٣]

واعلم بأنَّك ميتٌ ومُحَاسَبٌ ... يا من على سَخَط الجليل أقاما

لله قومٌ أخلصوا في حبِّه ... فرضِي بهم واختصَّهُم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهم ... باتوا هنالك سُجَّداً وقِياما

خُمْصَ البطونِ من التعفُّف ضُمَّراً[٤] ... لا يعرفونَ سوى الحلال طعاما[٥]

وقال ابنُ عباس: من صلَّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد باتَ لله ساجداً وقائماً[٦]. وقال الكلبيُّ: من أقام ركعتين بعد المغرب، وأربعاً بعد العشاء، فقد باتَ ساجداً وقائماً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وَجِلُون من عذاب الله. ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم.

---

(١) كذا في النسخ، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٣٢ .

(٢) في ديوان زهير: فبتنا عراةً. قال شارحه ثعلب: عُراةً: مؤتزرون تجردوا للفرس من صعوبته. يزاولنا عن نفسه ونزاوله: يعالجنا ونعالجه، ويجذبنا ونجذبه.

(٣) سجمَ الدمع: سال. مختار الصحاح (سجم).

(٤) في (د) و(ز): من الحرام تعففاً.

(٥) لم نقف عليها.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥ من طريق الكلبي عن ابن عباس .

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً دائماً غيرَ مفارق، ومنه سُمِّي الغريمُ؛ لملازمته. ويقال: فلانٌ مُغْرَمٌ بكذا، أي: لازمٌ له مُولَعٌ به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابيّ وابنُ عرفة وغيرهما. وقال الأعشى[1]:

إنْ يُعاقِبْ يكنْ غراماً وإنْ يعـ ـطِ جزيلاً فإنَّه لا يبالي

وقال الحسن: قد علموا أنَّ كلَّ غريمٍ يُفارِق غريمَه إلَّا غريمَ جهنم[2].

وقال الزَّجَّاج[3]: الغرامُ أشدُّ العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشرّ[4]. وقال أبو عبيدة[5]: الهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبَهم الله تعالى بثمن النَّعيم في الدُّنيا، فلما لم[6] يأتوا به؛ غَرَّمهم[7] ثمنها بإدخالهم النار.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المُستقرُّ وبئسَ المُقام، أي: إنَّهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علمٍ كانوا أعرفَ بِعِظَم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقربَ إلى النُّجح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ اختلفَ المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النَّحَّاس[8]: ومن أحسن ما قيل في معناه أنَّ من أنفق في غير طاعةِ الله فهو

---

(١) في ديوانه ص٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٨٠ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلم يأتوا. والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٥/٤٨، وقول محمد بن كعب فيه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٦ .

(٧) في (م) فاغرمهم.

(٨) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٧ - ١٦٨ . والقول فيه بإسناده عن أبي عبد الرحمن الحبلي.

الإسراف، ومن أمسكَ عن طاعة الله عزَّ وجلَّ فهو الإقتار، ومن أنفقَ في طاعة الله تعالى فهو القَوام. وقال ابن عباس: من أنفق مئة ألفٍ في حقٍّ فليس بسَرَف، ومن أنفق درهماً في غير حقِّه فهو سَرَف، ومن منع من حقٍّ عليه فقد قتر[١]. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما[٢]. وقال عون بن عبد الله: الإسرافُ أنْ تُنفقَ مالَ غيرك[٣].

قال ابن عطية[٤]: وهذا ونحوه غيُر مرتبطٍ بالآية، والوجهُ أنْ يُقال: إنَّ النفقة في معصيةٍ أمرٌ قد حَظرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون مُنزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ في هذه الآية هو في نفقة الطاعات، وفي[٥] المباحات، فأدَبُ الشرع فيها ألَّا يُفرِّط الإنسانُ حتى يُضيع حقًّا آخر، أو عيالاً ونحو هذا، وألَّا يضيِّق أيضاً ويُقتِّر حتى يُجيع العيال ويُفرِط في الشحّ، والحسن في ذلك هو القَوام، أي: العدل، والقَوام في كلِّ واحدٍ بحسب عياله وحاله، وخِفَّة ظهره وصبره وجَلَده على الكسب، أو ضدُّ هذه الخصال، وخيُر الأمور أوساطُها، ولهذا تَرك رسول الله ﷺ أبا بكرٍ أن يتصدَّق بجميع ماله[٦]، لأنَّ ذلك وسطٌ بنسبة جَلَده وصبره في الدِّين، ومنعَ غيره من ذلك. ونِعْم ما قال إبراهيمُ النَّخعيّ: هو الذي لا يُجيع ولا يُعري، ولا يُنفقُ نفقةً يقول الناسُ: قد أسرف[٧]. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسونَ الثيابَ لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذَّة[٨].

وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ؛ كانوا لا يأكلون طعاماً

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس ١٧/ ٤٩٧- ٤٩٨ بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ٤٩٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ . وما قبله منه .

(٥) في النسخ: في، بدون واو، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٦) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥).

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ .

للتنعُّم واللَّذَّة، ولا يلبسون ثوباً[1] للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يَسُدُّ عنهم الجوعَ، ويُقوِّيهم على عبادة ربِّهم، ومن اللِّباس ما يَستُر عوراتِهم، ويُكِنُّهم من الحرِّ والبرد[2].

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوَّجه ابنَتَه فاطمة: ما نفقتُك؟ فقال له عمر: الحسنةُ بين سيئتين، ثم تلا الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سَرَفاً ألَّا يشتهيَ شيئاً إلَّا اشتراه فأكله[3].

وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرَف أنْ تأكل كُلَّ ما اشتهيت»[4].

وقال أبو عبيدة: لَم يزيدوا على المعروف ولم يَبخلوا. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال الشاعر:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِد ... كِلَا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ[5]

وقال آخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ... ولم يَنْهها تاقت إلى كلِّ باطلِ
وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي ... دعتْهُ إليه من حلاوةِ عاجلِ[6]

وقال عمرُ لابنه عاصم: يا بنيّ، كُلْ في نصف بطنك؛ ولا تطرحْ ثوباً حتى

---

(١) في (م): ثياباً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٦ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ . دون قوله: أولئك أصحاب محمد ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٢٥ (١٥٣٧٧) مختصراً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧١ .

(٤) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢) . وينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٢٥٦ ، وفيض القدير ٢/ ٥٢٧ . وسلف ٩/ ٢٠٢ .

(٥) البيت لأبي سليمان الخطابي كما نسبه له الثعالبي في يتيمة الدهر ٤/ ٣٨٥ ، وينظر خزانة الأدب ٢/ ١٢٣ وسلف ٧/ ٢٢٩ .

(٦) البيتان لحسين بن محمد الملقب بالبارع البغدادي، كما في معجم الأدباء ١٠/ ١٥٣ .

تستَخْلِقَه، ولا تكنْ من قومٍ يجعلون ما رزقَهُم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طيّ[١]:

إذا أنتَ قد أعطيتَ بطنكَ سؤلَه وفرجَك نالا منتهى الذَّمِّ أجمعَا

﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثّاب ـ على اختلاف عنهما ـ «يَقْتُرُوا» بفتح الياء وضمِّ التاء، وهي قراءةٌ حسنة؛ من قَتَر يَقْتُر. وهذا القياس في اللّازم، مثل: قَعَد يَقْعُد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابنُ كثير بفتح الياء وكسر التاء؛ وهي لغةٌ معروفةٌ حسنة. وقرأ أهلُ المدينة وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم بضمِّ الياء وكسر التاء[٢]. قال الثعلبي: كلُّها لغات صحيحة.

النَّحَّاس[٣]: و تَعجَّب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه؛ لأنَّ أهلَ المدينة عندَه لا يقعُ في قراءتهم الشاذّ، وإنَّما يقال: أَقْتَر يُقْتِر: إذا افتقر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وتأوَّل أبو حاتم لهم أنَّ المسرفَ يفتقرُ سريعاً. وهذا تأويلٌ بعيد، ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبا عُمَر الجَرْميّ حَكى عن الأصمعيّ أنه يُقال للإنسان إذا ضيَّق: قَتَر يَقْتُر ويَقْتِر [وقتَّرَ يُقَتِّرُ]، وأَقْتَر يُقْتِر[٤]. فعلى هذا تصحُّ القراءة. وإنْ كان فتحُ الياء أصحَّ وأقربَ متناولاً، وأشهرَ وأعرف.

وقرأ أبو عمرو والناس: «قَوَاماً» بفتح القاف؛ يعني: عدلاً. وقرأ حسَّان بن عبد الرحمن: «قِوَاماً» بكسر القاف، أي: مبلغاً وسِدَاداً ومِلاك حال[٥]. والقِوام

(١) في ديوانه ص٦٨، وسلف ٩/ ١٩٨ .

(٢) السبعة ص٤٦٦ ، والتيسير ص١٦٤ ، ورواية أبي بكر (وهو شعبة) عن عاصم بضم الياء وكسر التاء؛ ذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧ .

(٤) وقعت العبارة في النسخ الخطية: قتر يقتر، وقتر يقتر، وفي (م): قتر يقتر ويقتر، وأقتر يُقتر. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، و«قَواما» بفتح القاف هي قراءة العشرة، وقراءة حسان بن عبد الرحمن في القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب ٢/ ١٢٥ . وحسان بن عبد الرحمن قال عنه ابن جني في المحتسب: صاحب عائشة. ولم نقف له على ترجمة.

بالكسر[١]: ما يدومُ عليه الأمر ويستقرّ. وقيل: هما لغتان بمعنًى.

و«قَوَاماً» خبرُ كان، واسمها مقدَّرٌ فيها، أي: كان الإنفاقُ بين الإسراف والقَتْر قَواماً[٢]؛ قاله الفراء[٣]. وله قولٌ آخر يجعل «بَيْنَ» اسم كان وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كَثُر[٤] استعمالُها، فتُرِكت على حالها في موضع الرفع. قال النَّحَّاس[٥]: ما أدري ما وجهُ هذا؛ لأنَّ «بيناً» إذا كانت في موضع رفعٍ رُفعت؛ كما يقال: بَيْنُ عينيه أحمرُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾. إخراجٌ لعباده المؤمنين من صفات الكَفَرة في عبادتهم الأوثان، وقَتْلِهم النَّفْسَ بَوأْد البنات، وغير ذلك من الظُّلم والاغتيال والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً[٦].

وقال مَن صَرفَ هذه الآيةَ عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليقُ بمن أضافهمُ الرحمن إليه إضافةَ الاختصاص، وذكرهم ووصفهم[٧] من صفات المعرفة والتشريف وقوعُ هذه الأمور القبيحة منهم حتى يُمدَحوا بنفيها عنهم؛ لأنَّهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعونَ الهوى إلهاً، ولا يُذلُّون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها.

---

(١) في (د) و(م): والقوام بكسر القاف. والمثبت موافق لمعاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٠ والكلام منه.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤) في (د) و(ز): كثيراً، وفي (م): كثير. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لمشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥ و الكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠.

(٧) في (ظ): وذكر وصفهم، وفي المفهم: ووصفهم بما ذكرهم.

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلاَّ بسِكِّين الصبر، وسيف المجاهدة، فلا يَنظرون إلى دنيا[١] ليست لهم بمحرَمٍ بشهوةٍ فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة، فيكون كالنكاح.

قال شيخنا أبو العباس[٢]: وهذا كلامٌ رائق، غير أنَّه عند السَّبر مائق[٣]، وهي نبعةٌ باطنيَّة، ونزعةٌ باطليَّة، وإنَّما يَصحُّ[٤] تشريفُ عباد الرحمن باختصاصِ الإضافة بعد أن تحلَّوا بتلك الصفات الحميدة، وتخلَّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلِّي تشريفاً لهم، ثم أعقَبها بصفات التخلِّي تقعيداً لها، والله أعلم.

قلت: ومما يدلُّ على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أنَّ تلك الأمور ليست على ظاهرها ما رَوى مسلمٌ من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أنْ تَدْعوَ لله ندًّا وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تَقتلُ ولدَك مخافةَ أنْ يطعم معك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تُزَاني حليلةَ جارك». فأنزلَ الله تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[٥].

والأثامُ في كلام العرب العِقاب، وبه فسَّر[٦] ابنُ زيدٍ وقتادةُ هذه الآية.

ومنه قول الشاعر:

جَزى اللهُ ابنَ عُروة حيث أمسى　　عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ[٧]

---

(١) في (د) و(ز) و(م) ومطبوع المفهم: نساء، والمثبت من (ظ) وكذلك جاءت العبارة في نسخ المفهم كما ذكر محققوه، وينظر لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) في المفهم ٧/ ٣٨٣.

(٣) المائق: الهالك حمقاً وغباوة. اللسان (موق).

(٤) في (ظ) و(م): صح.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٨٦): (١٤١) دون ذكر الآية، وبرقم (٨٦): (١٤٢): مع ذكر الآية وفيه روى ابن مسعود أن السائل رجل. وأخرجه أحمد (٤١٣٤) والبخاري (٦٠٠١) بالسياق الذي ذكره المصنف.

(٦) في (د) و(ز) و(م): قرأ، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ والكلام منه.

(٧) البيت لبَلْعَاء بن قيس الكناني كما في مجاز القرآن ٢/ ٨١، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥. وهو في =

أي: جزاءٌ وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إنَّ «أثاما» وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة[١]. قال الشاعر:

لقيتَ المهالِك في حربنَا وبعدَ المهالك تَلْقى أثاما[٢]

وقال السُّدِّي: جبلٌ فيها[٣]. قال:

وإنَّ مُقامَنا ندعو عليكم بأبطَحَ ذي المجَاز له أثامُ[٤]

وفي صحيح مسلم[٥] أيضاً عن ابن عباس: أنّ ناساً من أهل الشرك قَتلُوا فأكثروا، وزَنوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لحسن، ولو تُخبرنا أنَّ[٦] لِمَا عملْنا كفارة، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾. ونزل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وقد قيل: إنَّ هذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ نزلَتْ في وحشِيّ قاتل حمزة؛ قاله سعيدُ بن جبير وابنُ عباس، وسيأتي في «الزُّمر» بيانه[٧].

= لسان العرب (أثم) منسوبٌ لشافع الليثي.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠، وقول عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٣ - ٥١٤.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨.

(٣) كذا في النسخ، وقول السدي كما ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨ والكلام منه: الجزاء وهو المتوافق مع الشاهد الآتي.

(٤) لفظ الشطر الأول في (م): وكان مقامنا ندعوا عليهم. وهو كذلك في اللسان (أثم) وفي (د) و(ز) و(ظ): وإن مقاماً يدعوا عليكم. والمثبت من ديوان بشر بن أبي خازم ص٢١١، والأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. اللسان (بطح). وذو المجاز: موضع سوق بعرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) برقم (١٢٢): (١٩٣)، وأخرجه البخاري (٤٨١٠).

(٦) في (د) و(ز) و(م): وهو يخبرنا بأن. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٧) عند تفسير الآية (٥٣) منها. وخبر ابن عباس سيأتي ثمّة مطولاً. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يحقُّ أنْ تُقْتَلَ به النفوس؛ من كفرٍ بعد إيمان، أو زِنًى بعد إحصان؛ على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[(١)].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ فيستحلُّون الفروجَ بغير نكاح ولا مِلك يمين. ودلَّت هذه الآية على أنَّه ليسَ بعد الكفر أعظمَ من قتل النفس بغير الحق، ثم الزِّنى؛ ولهذا ثبتَ في حد الزِّنا القتل لمن كان محصَناً، أو أقْصى الجلدِ لمن كان غيرَ مُحْصَن.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «يُضَاعَفْ. وَيَخْلُدْ» جزماً، وقرأ ابنُ كثير: «يُضَعَّفْ» بشدِّ العين وطرح الألف؛ وبالجزم في «يُضَعَّفْ. وَيَخْلُدْ»[(٢)]. وقرأ طلحةُ بن سليمان: «نُضَعِّفُ» بضمِّ النون وكسرِ العين المشدَّدة، «الْعَذَابَ» نصب، «وَيَخْلُدْ» جزم، وهي قراءةُ أبي جعفر وشيبة. وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر: «يُضَاعَفُ. وَيَخْلُدُ» بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحةُ بن سليمان: «وَتَخْلُدْ» بالتَّاء على معنى مخاطبة الكافر[(٣)]. ورويَ عن أبي عمرو: «وَيُخْلَدْ» بضمِّ الياء من تحت وفتح اللام[(٤)]. قال أبو علي[(٥)]: وهي غلطٌ من جهة الرواية.

و«يُضَاعَفْ» بالجزم بدلٌ من «يَلْقَ» الذي هو جزاءُ الشرط. قال سيبويه: مضاعفةُ العذاب لُقيُّ الأثام[(٦)]. قال الشاعر:

---

(١) ٩/ ١٠٩ .

(٢) السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ ، وفيهما قراءة ابن عامر: يُضَعَّفُ، ويَخْلُدُ، ووافق حمزةَ ونافعاً والكسائيَّ من السبعة في قراءتهم لهذين الحرفين: عاصم في رواية حفص، وأبو عمرو. وأما ما ذكره المصنف من قراءة ابن عامر، فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ (والكلام منه): وكذلك ذكر عنه أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣١٤ أنه جَزَمَ هذين الحرفين، غير أنه قال: يُضَعَّفْ، بحذف الألف وتشديد العين، كقراءة ابن كثير.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ . وقد قرأ أبو جعفر: يُضَعَّفْ ويَخْلُدْ، كقراءة ابن كثير، وقراءة طلحة ابن سليمان: تخلُد؛ بالتاء، في المحتسب ٢/ ١٢٥ ، وينظر النشر ٢/ ٢٢٨ و ٣٣٤ .

(٤) ذكر هذه الرواية ابن مجاهد في السبعة ص٤٦٧ وقال: وهي غلط.

(٥) في الحجة في القراءات السبع ٥/ ٣٥٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تَأَجَّجا[١]

وقال آخر:

إنّ عليَّ الله أنْ تُبايِعَا تُؤْخَذَ كَرْهاً أو تَجِيءَ طائعَا[٢]

وأمَّا الرفعُ ففيه قولان: أحدُهما: أَنْ يقطَعه[٣] مما قبلَه. والآخرُ: أن يكونَ محمولاً على المعنى؛ كأنَّ قائلاً قال: ما لُقيُّ الأثام؟ فقيل له: يُضاعفْ له العذاب[٤]. و﴿مُهَانًا﴾ معناه: ذليلاً خاسئاً مُبعَداً مطروداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لا خلافَ بين العلماء أنَّ الاستثناء عاملٌ في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين[٥] على ما تقدَّم بيانه في «النساء»[٦].

ومضى في «المائدة»[٧] القولُ في جواز التَّراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهبُ ابن عباس مستدلًّا بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ قال النحاس[٨]: من أحسن

---

(١) البيت في الكتاب ١/٨٦، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٩٠ لعبيد الله بن الحر. وقال في الخزانة ٩/ ٩٦ - ٩٧ : فإنَّ تُلمِمْ فيه بدلٌ من تأتنا... والحطب الجزل، بفتح الجيم: الغليظ منه، يريد أنهم يوقدون الجزل من الحطب لتقوى نارهم فينظر إليها الضيوف عن بعد ويقصدونها.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ١٥٦، وخزانة الأدب ٥/ ٢٠٣ . يحلف الشاعر على مخاطَبِه بالله، أنه لابد أن يبايع. وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها. الخزانة ٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) في (م) تقطعه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢١ .

(٦) ٧/ ٣٩ وما بعدها.

(٧) ٨/ ١٣٥ وما بعدها.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٩ .

ما قيل فيه: إنَّه يكتب موضع كافرٍ: مؤمن، وموضع عاصٍ: مطيع.

وقال مجاهد والضحاك[١]: أن يبدلهم الله من الشرك الإيمانَ؛ ورُوي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قومٌ يقولون: التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنَّما التبديلُ في الدُّنيا؛ يُبدلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشكّ، وإحصاناً من الفجور[٢]. وقال الزجاج[٣]: ليس يجعل[٤] مكان السيئة الحسنة، ولكن يَجعل مكانَ السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وروى أبو ذرّ عن النبيّ ﷺ: أنَّ السيئاتِ تبدَّل بحسنات[٥]. ورُوي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما[٦].

قال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناتُه على سيئاته، فيبدلُ الله السيئات حسنات[٧]. وفي الخبر: «لَيتمنَّيَنَّ أقوامٌ أنَّهم أكثروا من السيئات» فقيل: ومن هم؟ قال: «الذين يُبدِّل الله سيئاتِهم حسنات». رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[٨]؛ ذكره الثعلبي والقُشيري. وقيل: التبديلُ عبارةٌ عن الغفران، أي: يغفرُ الله لهم تلك السيئات لا أنْ يبدِّلها حسنات.

قلتُ: فلا يَبْعُد في كرم الله تعالى إذا صحَّتْ توبة العبد أنْ يضعَ مكان كلِّ سيئةٍ حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «أتْبِعِ السيِّئة الحسنةَ تمحُها، وخالِق النَّاس بِخُلقٍ

---

(١) قول مجاهد أخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٩، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٧ - ٥١٨ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٣.

(٤) في (م): بجعل. في الموضعين.

(٥) حديث أبي ذر سيرد مطولاً.

(٦) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ - ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣) و (١٥٤٣٩).

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٥٨.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ (١٥٤٢٩) عن أبي هريرة موقوفاً.

حسن»[١]. وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعلم آخِرَ أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة، وآخرَ أهل النَّار خروجاً منها؛ رجلٌ يؤتى به يومَ القيامة، فيقال: اعرِضُوا عليه صِغَار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارَها. فتُعرضُ عليه صغارُ ذنوبه. فيقالُ: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعم. لا يستطيعُ أنْ يُنْكِر، وهو مشفِقٌ من كبار ذنوبه أنْ تُعْرض عليه. فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سيِّئَةٍ حسنةً. فيقول: يا رب، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا». فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضَحكَ حتى بَدَتْ نَواجذُه.

وقال أبو طَويل[٣]: يا رسول الله، أرأيتَ رجلاً عملَ الذُّنوب كلَّها ولم يَتْرك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يَتْرك حاجَّةً ولا داجَّةً إلا اقتطَعها، فهل له من توبةٍ؟ قال: «هل أسلمتَ» قال: أنا أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّك عبدُ الله ورسولُه. قال «نعم. تفعلُ الخيراتِ، وتتركُ السيئات، يجعلُهنَّ الله كلَّهُنَّ خيرات». قال: وغَدَراتي وفَجَراتي يا نبيّ الله؟ قال: «نعم». قال: الله أكبر! فما زالَ يُكَرِّرُها حتى توارى[٤]. ذكره الثعلبي. قال مُبَشِّر بن عُبيد[٥] ـ وكان عالماً بالنحو والعربية[٦] ـ: الحاجَّةَ: الذي يَقطعُ[٧] على الحاجِّ إذا توجهوا. والداجَّة: الذي يَقطعُ عليهم إذا قَفَلوا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، وسلف ١٢/ ٥٩.

(٢) برقم (١٩٠): (٣١٤)، وهو عند أحمد (٢١٣٩٣)، (٢١٤٩٢).

(٣) هو شطب الممدود الكندي، نزل الشام وسكن بها. الإصابة ٥/ ٧٨ - ٧٩، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٤ - ٨٦.

(٤) أخرجه البزار (٣٢٤٤) ـ كشف الأستار، والطبراني في الكبير (٧٢٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣١: رواه الطبراني والبزار بنحوه. ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة. وقال ابن حجر في الإصابة ٥/ ٧٩: هو على شرط الصحيح. وأخرجه ابن حجر أيضاً في الأمالي المطلقة ص١٤٤-١٤٥ ثم قال بعده: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) هو القرشي، أبو حفص الحمصي، كوفي الأصل. قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقية، منكر الحديث. تهذيب الكمال ٢٧/ ١٩٤، وميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣.

(٦) ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣.

(٧) في (د) و(م): التي تقطع، (في الموضعين)، وينظر الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٦، والأمالي المطلقة ص١٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا يقال: من قام فإنَّه يقوم؛ فكيف قال: من تابَ فإنَّه يَتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكّة وهاجر، ولم يكن قَتل وزَنى، بل عَملَ صالحاً، وأدّى الفرائض؛ فإنّه يتوبُ إلى الله متاباً، أي: فإنّي قَدَّمتُهم وفضَّلْتُهم على من قَاتل النبيَّ ﷺ، واستحلَّ المحارم[١].

وقال القَفّال: يَحتملُ أنْ تكون الآيةُ الأولى فيمن تَابَ من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، ثمَّ عَطف عليه من تاب من المسلمين، وأَتْبَع توبتَه عملاً صالحاً، فله حُكم التائبين أيضاً.

وقيل: أي: من تابَ بلسانه ولم يحقِّق ذلك بفعله، فليست تلك التوبةُ نافعة، بل من تَابَ وعمل صالحاً، فحقَّق توبَتَه بالأعمال الصالحة؛ فهو الذي تابَ إلى الله مَتاباً، أي: تاب حقَّ التوبة، وهي النَّصوح، ولذلك أكّد بالمصدر. فـ«متاباً» مصدرٌ معناه التأكيد[٢]، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي: فإنَّه يتوبُ إلى الله حقًّا فيقبل الله توبَتَه حقًّا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الكذبَ والباطل ولا يشاهدونه. والزُّور: كلُّ باطلٍ زُوْر وزُخْرِف، وأَعْظَمُه الشركُ وتعظيم الأنداد، وبه فسر الضَّحّاكُ وابنُ زيدٍ وابن عباس[٤]. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنّه أعيادُ المشركين. عِكرمة: لعبٌ كان في الجاهلية يسمَّى بالزُّور[٥]. مجاهد: الغناء؛

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩ .

(٣) لفظة: حقاً. ليست في (د) و (ز).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وأخرج قولي الضحاك وابن زيد الطبريُّ ١٧/ ٥٢٢ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٨ (١٥٤٥٨).

وقاله محمدُ ابن الحنفيَّة أيضاً. ابن جُريج: الكذب[١]؛ ورُوِيَ عن مجاهد[٢]. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ ومحمد بن عليّ: المعنى: لا يشهدون بالزُّور، من الشهادة لا من المشاهدة[٣].

قال ابن العربي[٤]: أمّا القولُ بأنّه الكذبُ فصحيح؛ لأنَّ كلَّ ذلك إلى الكذب يرجع، وأمّا من قال: إنّه لعِبٌ كان في الجاهلية؛ فإنّه يَحرُم ذلك إذا كان فيه قمارٌ أو جهالة، أو أمرٌ يعود إلى الكفر، وأمّا القول بأنّه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحدّ.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعُه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمرُ وغير ذلك مما يُحرِّك الطِّباع ويُخرِجها عن الاعتدال، أو يثير كامناً من حبّ اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبيُّ اللَّون تَحسِب من وجنتيه النَّار تُقتدَحُ
خوّفوني من فضيحته ليتَه وافى وأفتضحُ

لاسيَّما إذا اقترنَ بذلك شبّابَاتٌ وطاراتٌ مثل ما يُفْعَل اليومَ في هذه الأزمان، على ما بيَّنّاه في غير هذا الموضع.

وأما من قال: إنه شهادة الزور؛ وهي:

الثانية: فكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يَجلدُ شاهدَ الزُّور أربعين جلدة، ويُسَخِّم وجهَه، ويَحلِقُ رأسَه، ويَطوفُ به في السوق[٥]. وقال أكثرُ أهل العلم: ولا تُقْبل له

(١) قولا مجاهد وابن جريج أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٢٢ ، وقول محمد ابن الحنفية أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧ (١٥٤٥٠).

(٢) لم نقف عليه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٠ .

(٥) أخرج خبر ضرب عمر شاهدَ الزور البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤١ - ١٤٢ وليس فيه أنه حلق شعره. وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٥٣٩٢)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٢)، والبيهقي ١٠/ ١٤٢ أن عمر ابن الخطاب كتب إلى عماله في كور الشام في شاهد الزور أن يجلد أربعين ويحلق رأسه، ويسخم وجهه ويطاف به ويطال حبسه. اهـ . هذا لفظ البيهقي. وقال في هذه الرواية والتي قبلها. هاتان الروايتان ضعيفتان ومنقطعتان.

شهادةٌ أبداً، وإنْ تاب وحَسُنت حالُه فأمره إلى الله. وقد قيل: إنَّه إذا كان غير مبرَّز فحسُنت حالُه قُبلت شهادتُه حسبما تقدَّم بيانه في سورة الحج، فتأمَّله هناك(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدَّم الكلام في اللَّغو(٢)، وهو كلُّ سَقَطٍ من قولٍ أو فعل؛ فيدخلُ فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك ممَّا قَاربه، ويَدخلُ فيه: سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساء، وغير ذلك من المنكر(٣). وقال مجاهد: إذا أُوذوا صَفَحوا. ورُوي عنه: إذا ذُكِر النِّكاحُ كَنَوا عنه. وقال الحسن: اللَّغو المعاصي كلُّها(٤). وهذا جامع. و«كِرَاماً» معناه مُعرِضين مُنكرين لا يرضَونه، ولا يُمَالِئون عليه، ولا يُجَالسون أهلَه. أي: مروا مرَّ الكرامِ الذين لا يدخلون في الباطل. يقال: تكرَّم فلان عما يشينه، أي: تنزّه وأكرم نفسه عنه(٥). وروي أن عبد الله بن مسعود(٦) سمع غناءً فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريماً»(٧). وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إذا قرئ عليهم

(١) ١٢/ ٥٥.

(٢) ٤/ ١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) أخرج الأقوال المذكورة الطبري ١٧/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٨.

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): عمر، بدل: مسعود.

(٧) في (د) و(ظ): ابن آدم عبداً كريماً، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢، وروى الغزالي هذا الخبر في الإحياء ٣/ ١٧٧ بنحوه، ونسبه العراقي في تخريجه لابن المبارك في البر والصلة.

القرآنُ ذكروا آخرتَهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة مَن لا يسمع[١].

وقال: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾ وليس ثَمَّ خُرور؛ كما يقال: قعد يبكي، وإن كان غيرَ قاعد؛ قاله الطبريُّ واختاره[٢]؛ قال ابن عطية[٣]: وهو أن يخِرُّوا صُمًّا وعُمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارةٌ عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلانٌ يشتِمني، وقام فلان يبكي، وأنت لم تقصد الإخبارَ بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئاتٌ في الكلام والعبارة.

قال ابن عطية[٤]: فكأنَّ المستمع للذِّكر قائمُ القناة قويمُ الأمر، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خُروراً، وهو السقوط على غير نظامٍ وترتيب؛ وإن كان قد شُبِّه به الذي يَخرُّ ساجداً، لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي: إذا تُليت عليهم آياتُ الله، وَجِلت قلوبهم فخرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا، ولم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: أي: لم يقعدوا على حالهم الأولِ كأنْ لم يسمعوا.

الثانية: قال بعضهم: إنَّ مَن سمع رجلاً يقرأ سجدة، يسجد معه؛ لأنه قد سمع آياتِ الله تتلى عليه. قال ابن العربيّ[٧]: وهذا لا يلزم إلَّا القارئَ وحده، وأما غيرُه فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة[٨]؛ وهو أنَّ الرجل إذا تلا القرآنَ وقرأ السجدة، فإن كان الذي جلس معه جلس لِيَسمَعه، فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماعَ معه فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في «الأعراف»[٩].

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٣١٥، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٥٢٨.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) الموضع السابق.

(٥) في المحرر الوجيز بنحوه.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٤.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢١. وما قبله منه.

(٨) في أحكام القرآن زيادة: ذكرها مالك.

(٩) ٩/ ٤٤٠.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضَّحَّاك: أي: مطيعين لك(١). وفيه جوازُ الدعاء بالولد، وقد تقدَّم(٢).

والذُّرِّيَّة تكون واحداً وجمعاً. فكونُها للواحد قولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]. وكونُها للجمع: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾(٣) [النساء: ٩]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُها مستوفًى(٤).

وقرأ نافعٌ وابن كثير وابن عامر والحسن: «وَذُرِّيَّاتِنَا». وقرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وطلحة وعيسى: «وذريتنا» بالإفراد(٥).

«قُرَّةَ أَعْيُنٍ» نصب على المفعول، أي: قرَّة أعينٍ لنا. وهذا نحوُ قولِهِ عليه الصلاة والسلام لأنس: «اللهم أكثِر مالَه وولَدَه، وبارك له فيه» وقد تقدَّم بيانُه في «آل عمران» و«مريم»(٦). وذلك أنَّ الإنسان إذا بورك له في ماله وولده، قرَّت عينُه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه، من جمال وعِفَّةٍ ونظر وحَوطة، أو كانت عنده ذرِّيةٌ محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدِّين والدنيا، لم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٥ . وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٠ عن ابن عباس وغيره.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٨ .

(٤) ٢/ ٣٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وقرأ عاصم في رواية حفص بالجمع، وفي رواية أبي بكر بالإفراد. السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٦) ٥/ ١١٠ - ١١١ ، ١٣/ ٤١٣ . وتقدم الحديث في الموضع الأول.

يلتفت إلى زوجٍ أحدٍ ولا إلى ولده، فتسكن عينُه عن الملاحظة، ولا تمتدُّ عينه إلى ما ترى؛ فذلك حِينُ قرَّةِ العين، وسكونِ النفس[(١)].

ووحَّد «قُرّة» لأنه مصدر؛ تقول: قرَّت عينُك قُرّة[(٢)]. وقُرّة العين يحتمل أن تكونَ من القَرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ، وهو الأشهر[(٣)]. والقُرُّ: البرد؛ لأن العرب تتأذّى بالحرّ وتستريح إلى البرد[(٤)]. وأيضاً فإنَّ دمع السرور بارد، ودمعَ الحزن سُخْن، فمن هذا يقال: أقرَّ اللهُ عينك، وأسخن اللهُ عينَ العدو[(٥)]. وقال الشاعر[(٦)]:

فكم سَخُنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ وقرَّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: قدوةً يُقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلَّا أن يكونَ الداعي متَّقياً قدوة؛ وهذا هو قصدُ الداعي[(٧)].

وفي الموطأ: «إنكم أيها الرَّهط أئمَّةٌ يُقْتَدَى بكم»[(٨)]. وكان ابنُ عمر يقول في دعائه: اللهم اجعلنا من أئمة المتقين[(٩)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢١.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٦) هو ابن عبد ربه، والبيت في ديوانه ص٢٢.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٨) الحديث بتمامه: أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى على طلحة بن عبيد الله ثوباً مصبوغاً وهو مُحْرِم. فقال عمر: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟ فقال طلحة: يا أمير المؤمنين، إنما هو مَدَر. فقال عمر: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس، فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب لقال: إن طلحة بن عبيد الله كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام. فلا تلبسوا أيها الرهط شيئاً من هذه الثياب المصبغة. الموطأ ١/ ٣٢٦. قال ابن حجر في المطالب العالية ٦/ ٣٧٣ (دار العاصمة): هذا إسناد صحيح موقوف، وهو أصل في سد الذرائع.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢. وأثر ابن عمر رضي الله عنهما في الموطأ ١/ ٢١٩ بلاغاً، ووصله ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٨-٤٣٩، والبيهقي ٥/ ٩٤ مطولاً.

وقال: «إِمَاماً» ولم يقل: أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أَمَّ فلانٌ فلاناً[١] إماماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد: أئمة، كما يقول القائل: أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تُرِدْنَ[٢] مَلامَتي إنَّ العواذل لَسْنَ لي بأميرِ[٣]

أي: أمراء[٤].

وكان القشيريُّ أبو القاسم شيخُ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدَّعوى، يعني: بتوفيق الله وتيسيره ومِنَّته، لا بما يدَّعيه كلُّ أحدٍ لنفسه[٥]. وقال إبراهيم النَّخَعيّ: لم يطلبوا الرِّياسة، بل بأن يكونوا قدوةً في الدِّين[٦]. وقال ابن عباس[٧]: اجعلنا أئمةَ هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال مكحول: اجعلنا أئمةً في التقوى؛ يقتدي بنا المتقون[٨]. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازُه: واجعل المتقين لنا إماماً؛ وقاله مجاهد[٩]. والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليلٌ على أنَّ طلب الرياسة في الدين ندب[١٠].

---

(١) في (د) و(ز): أم القوم فلاناً، وفي (م): أم القوم فلان، والمثبت من (ظ) و(ف). وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٣ .

(٢) في (ظ) و(ف) و(م): تزدن.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٣ . والبيت في الخصائص ٣/ ١٧٤ ، ومغني اللبيب ص٢٧٩ ، قال البغدادي في شرح شواهده ٤/ ٢٨٤ : البيت مشهور بتداول العلماء إياه في مصنفاتهم، ولم أقف على قائله، والله أعلم . وقد سلف البيت ١٤/ ٣٢٢ بنحوه .

(٤) الصحاح (ظهر).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢ . وكلام الإمام القشيري في لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٣ (١٥٤٨٩).

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ - ٥٣٣ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

وإمامٌ واحد يدلُّ على جمع؛ لأنه مصدرٌ كالقيام. قال الأخفش[١]: الإمام جمع آمّ؛ من: أمَّ يؤمُّ، جمع على فِعال، نحو: صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ «أولَئِكَ» خبر «وعِبَادُ الرَّحْمَنِ»، في قول الزجَّاجِ على ما تقدَّم[٢]، وهو أحسنُ ما قيل فيه. وما تخلَّل بين المبتدأ وخبرِهِ أوصافُهم من التحلِّي والتخلِّي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحِلم، والتهجُّد، والخوف، وترك الإسراف والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّرك والزنى والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّب الكذب، والعفوُ عن المسيء، وقَبول المواعظ، والابتهال إلى الله تعالى.

و«الغُرْفَةَ»: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازلِ الجنة وأفضلُها، كما أنَّ الغرفة أعلى مساكنِ الدنيا. حكاه ابنُ شجرة. وقال الضحَّاك: الغرفة: الجنة[٣].

«بِمَا صَبَرُوا» أي: بصبرهم على أمر ربِّهم، وطاعةِ نبيِّهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن عليِّ بن الحسين: «بِمَا صَبَرُوا» على الفقر والفاقةِ في الدنيا. وقال الضحَّاك: «بِمَا صَبَرُوا» عن الشهوات[٤].

﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ قرأ أبو بكر والمفضَّلُ والأعمش ويحيى وحمزة والكِسائيُّ وخلف: «وَيَلْقَوْنَ» مخفَّفة[٥]، واختاره الفرَّاء[٦]؛ قال: لأن العرب تقول: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالتحيةِ وبالخير، بالباء[٧]، وقلَّما يقولون: فلان يُلقَّى السَّلامةَ.

---

(١) كلامه في تفسير الرازي ٢٤/ ١١٥ مختصر.

(٢) ص٤٦٦ من هذا الجزء، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٧٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦١.

(٤) كلام محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٤ (١٥٤٩٧). وكلام الضحاك في النكت والعيون ٤/ ١٦١.

(٥) السبعة ص٤٦٨، والتيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥.

(٧) في (م): بالتاء. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩.

وقرأ الباقون: «وَيُلَقَّوْنَ»، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَّنْهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

قال أبو جعفر النحّاس(١): وما ذهب إليه الفرَّاءُ واختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت «يُلَقَّوْنَ»، كانت في العربية: بتحية وسلام، وقال: كما يقال: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيبِ ما في هذا البابِ(٢) أنه قال: يتلقَّى، والآية «يُلَقَّوْنَ»، والفرق بينهما بيِّن؛ لأنه يقال: فلان يُتلقَّى بالخير، ولا يجوز حذف الباء، فكيف يُشبه هذا ذاك؟ وأعجبُ مِن هذا أنَّ في القرآن: ﴿وَلَقَّنْهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولا يجوز أن يُقرأ بغيره. وهذا يبيِّن أنَّ الأولى خلافُ ما قال.

والتحية من الله، والسلام من الملائكة. وقيل: التحية: البقاءُ الدائم(٣) والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنًى واحد، وأنهما من قِبَل الله تعالى؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وسيأتي.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصب على الحال(٤) ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ هذه آيةٌ مشكلة، تعلَّقت بها الملحدة. يقال: ما عبأتُ بفلان، أي: ما باليتُ به، أي: ما كان له عندي وزن ولا قَدْر(٥).

وأصل يعبأ من العِبْء، وهو الثِّقْل. وقول الشاعر:

كأنَّ بصدره وبجانبيهِ عَبِيراً باتَ يَعْبَؤُهُ عَروسُ

---

(١) في إعراب القرآن ٣/١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) لفظة: الباب ليست في (ف) والمصدر، وفي (د) و(ز): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٠ .

(٥) أمالي ابن الشجري ١/ ٧٧ .

أي: يجعل بعضَه على بعض[(١)]. فالعِبْء: الحِمْل الثقيل، والجمع: أعباء. والعِبْء المصدر. و«ما» استفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجّاج، وصرَّح به الفرَّاء[(٢)]. وليس يَبْعُد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفيٌ خرج مَخرَجَ الاستفهام؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ابن الشَّجَري[(٣)]: وحقيقة القول عندي أنَّ موضع «ما» نصب، والتقدير: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم، أي: أيَّ مبالاة يبالي ربِّي بكم لولا دعاؤكم، أي: لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيارُ الفرَّاء[(٤)]. وفاعله محذوف، وجوابُ لولا محذوف، كما حُذف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبالي اللهُ بكم لولا عبادتُكم إياه أن[(٥)] لو كانت؛ وذلك الذي يُعبأ بالبشر من أجله. ويؤيِّد هذا قراءةُ ابن الزبير[(٦)] وغيرِه: «فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ»؛ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذَّبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون التكذيبُ هو سببَ العذاب لِزاماً.

وقال النقَّاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتُكم إليه في الشدائد ونحوِ ذلك[(٧)]. بيانُه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوُ هذا .

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٦ . والبيت لأبي زبيد الطائي يصف أسداً، وهو في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٠٢ ، والمعاني الكبير ١/ ٢٤٥ ، والصحاح (عبأ). قال ابن قتيبة: العبير عند العرب: الزعفران.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٥ .

(٣) في أماليه ١/ ٨٠ - ٨١ وما قبله منه.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف عن أمالي ابن الشجري.

(٥) في (ظ): إذ.

(٦) ستأتي قريباً.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ .

وقيل: «مَا يَعْبَأُ بِكُمْ» أي: بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» معه الآلهةَ والشُّركاء. بيانُه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[1] [النساء: ١٤٧] قاله الضحَّاك[2].

وقال الوليد بن أبي الوليد[3]: بلغني فيها: أي: ما خلقتكم ولي حاجةٌ إليكم، إلا [أن] تسألوني فأغفرَ لكم وأُعطِيَكم. وروى وَهْبُ بن مُنبِّه أنه كان في التوراة: «يا ابنَ آدم، وعزَّتي ما خلقتك لأربحَ عليك، إنما خلقتك لتربحَ عليّ، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فأنا خيرٌ لك من كل شيء».

قال ابن جِنِّي: قرأ ابن الزُّبير وابنُ عباس: «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ»[4]. قال الزهراويُّ والنحاس[5]: وهي قراءة ابنِ مسعود، وهي على التفسير للتاء والميم في «كَذَّبْتُمْ».

وذهب القُتَبيُّ[6] والفارسيُّ إلى أنَّ الدعاء مضاف إلى الفاعل، والمفعولُ محذوف، الأصل: لولا دعاؤكم آلهةً مِن دونهِ؛ وجواب «لَوْلَا» محذوف، تقديره في هذا الوجه: لَمْ يعذبْكم. ونظير قولِه: لولا دعاؤكم آلهةً قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذَّبتم بما دُعِيتم إليه؛ هذا على القول الأوَّل؛ وكذبتم

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٢) قوله: وقاله الضحاك ليس في (ظ).

(٣) أبو عثمان المدني، مولى ابن عمر، وقيل: مولى عثمان. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف على قلة روايته. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٢٧ ، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٥ (١٥٥٠٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٦ ، وذكرها ابن خالويه ص١٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجها الطبري ١٧/ ٥٣٧ - ٥٣٨ عنهما.

(٥) كلام الزهراوي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ ، وكلام النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠ .

(٦) في تأويل مشكل القرآن ص٣٣٩ ، ونقل المصنف كلامه وكلام الفارسي من أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ .

بتوحيد الله تعالى؛ على الثاني. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب، كما قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] أي: جزاءَ ما عملوا، وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠، الأنفال: ٣٥] أي: جزاءَ ما كنتم تكفرون. وحَسُن إضمارُ التكذيب لِتقدُّم ذِكْرِ فعلِهِ؛ لأنك إذا ذكرت الفعلَ، دلَّ بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: لكان الإيمان، وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي: يرضى الشُّكر[١]. ومثلُه كثير.

وجمهورُ المفسرين على أنَّ المراد باللِّزام هنا ما نزل بهم يومَ بَدْر، وهو قول عبد الله بنِ مسعود وأُبيِّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم[٢].

وفي صحيح مسلم[٣] عن عبد الله: وقد مضت البطشةُ والدخان واللزام. وسيأتي مبيَّناً في سورة الدخانِ إن شاء الله تعالى[٤].

وقالت فرقة: هو توعُّدٌ بعذاب الآخرة[٥].

وعن ابن مسعود أيضاً: اللِّزام: التكذيبُ نفسُه، أي: لا يعطَون التوبةَ منه؛ ذكره الزهراوي[٦]؛ فدخل في هذا يومُ بَدْر وغيرُه من العذاب الذي يُلزَمونه[٧].

وقال أبو عبيدة: لِزاماً: فيصلاً[٨]، أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ - ٨٢ .

(٢) أخرجه عن ابن مسعود وأُبي ومجاهد الطبري ١٧/ ٥٣٨-٥٣٩ ، وأخرجه عن أبي مالك ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٢).

(٣) برقم (٢٧٩٨) .

(٤) عند تفسير الآية (١٠) منها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٣) عن الحسن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٣ .

(٧) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢ .

(٨) مجاز القرآن ٢/ ٨٢ .

المؤمنين. والجمهور من القرَّاء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فـإمَّـا يَـنْـجُـوَا مـن خَـسْـفِ أرضٍ فـقـد لَـقِـيـا حُـتُـوفَـهـمـا لِـزامـا[١]

ولِزاماً وملازمةً واحد.

وقال الطبري: «لِزاماً» يعني: عذاباً دائماً لازماً، وهلاكاً مُفْنياً يُلحِق بعضَكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

فـفـاجـأه بـعـاديـةٍ لِـزامٍ كـمـا يَـتَـفَـجَّـرُ الـحـوضُ الـلَّـقِـيـفُ

يعني باللزام: الذي يَتْبع بعضُه بعضاً، وباللقيف: المتساقطَ الحجارةِ المتهدِّمَ[٢].

النحَّاس[٣]: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد، قال: سمعت قَعْنَباً أبا السَّمَّال يقرأ: «لَزاماً» بفتح اللام[٤]. قال أبو جعفر: يكون مصدرَ لَزِم، والكسر أولى، يكون مثل: قِتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

قال غيره: اللِّزام بالكسر: مصدر لازَمَ لِزاماً، مثل: خاصم خِصاماً، واللَّزام بالفتح: مصدر لَزِم لَزاماً، مثل: سَلِم سَلاماً، أي: سلامة؛ فاللَّزام بالفتح: اللُّزوم، واللِّزام: الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقعَ اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم، واللَّزام وقع موقع لازِم. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾

---

(١) المصدر السابق. وصخر هو ابن عبد الله الخيثمي من بني هذيل. ولقب بصخر الغي لخلاعته، وشدة بأسه، وكثرة شره. الأغاني ٢٢/ ٣٤٥ . والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٥ . ورسالة الصاهل والشاحج ص١٣٨ ، وهو في وصف حمارَين.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٧ . وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين ١/ ١٠٢ ، وروايته فيه: فلم يرَ غير عادية لزاماً، كما يتهدم الحوض اللقيف. والعادية: القوم يعدون على أرجلهم، أي: فحَملتهم لزام، كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه. اللسان (لزم) والبيت فيه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠ .

(٤) كذا في إعراب القرآن، وفي القراءات الشاذة ص١٠٥ أنه قرأ: «لَزام» بفتح اللام ولا ألف. وذكر في الدر المصون ٨/ ٥٠٧ عنه القراءتين. ولَزامِ بكسر الميم على وزن: حَزامِ. وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٨ .

[الملك: ٣٠] أي: غائراً[١].

قال النحاس[٢]: وللفرَّاء قولٌ في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولاً[٣]. وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبرُه إلَّا جملة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وكما حكى النحويُّون: كان زيدٌ منطلقٌ، يكون في كان مجهول، ويكون المبتدأُ وخبره خبرَ المجهول، والتقدير: كان الحديث؛ فأمَّا أنْ يقال: كان منطلقاً، ويكون في كان مجهول، فلا يجوز عند أحدٍ عَلِمناه.

وبالله التوفيق، وهو المستعان، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السادس عشر، ويبدأ بسورة الشعراء

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧١.

(٣) في إعراب القرآن: يكون فيها مجهول. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥.

تفسير سورة الفرقان

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾.

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ [أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا] (١) ﴾ [الكهف : ١ ـ ٣] ، وقال هاهنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزّل: فعّل ، من التكرر ، والتكثر ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل (٢) مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢، ٣٣]. ولهذا سماه هاهنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها فى أشرف أحواله ، وهى ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أى : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذى جعله فرقاناً عظيما ــ إنما خصّه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٣) . وقال : « أعطيت خمساً لم

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « ينزل » .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) هو والذى يليه من حديث جابر ،رضى الله عنه .

يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى . الناس عامة» ، وقال الله تعالى :﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ]** (١) **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض، الذى يقول للشىء كن فيكون ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا:﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾، فَنَزّه نفسه عن الولد ، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾ أى : كل شىء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره [وتسخيره] (٢) ، وتدبيره وتقديره(٣).

﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣)** ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شىء ، المالك لأزمّة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ **وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا** ﴾ أى : ليس لهم من ذلك شىء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ،﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [لقمان : ٢٨]،﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ** ﴾ [النازعات :١٣ ،١٤]،﴿ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ** ﴾ [الصافات : ١٩] ،﴿ **إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴾ [يس : ٥٣] . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولاوالد ، ولا عديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)** ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ** ﴾ : أى : كذب ،﴿ **افْتَرَاهُ** ﴾ يعنون النبى (٤) ﷺ ،﴿ **وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** ﴾ أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين . قال الله تعالى :﴿ **فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا** ﴾ أى : فقد افتروا هم قولا باطلا، هم

---

(١) زيادة من أ وهو الصواب . (٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف ، أ : « قهره وتقديره وتسخيره وتدبيره » . (٤) فى ف ، أ : « محمدا » .

يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون (١) .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون : كتب الأوائل استنسخها ، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام ـ لسخافته وكذبه وبهْته منهم ـ كُلّ أحد يعلم (٢) بطلانه ، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول اللّه لم يكن يعانى شيئًا من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه اللّه نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث (٣) إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه اللّه بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورَمَوْه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون، وتاره يقولون: كذاب ، قال اللّه تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلا ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : اللّه الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ : دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة [سبحانه وتعالى] (٤) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن

---

(١) فى ف ، أ : « زعموه » .
(٢) فى ف ، أ : « بهته كل أحد منهم يعلم » .
(٣) فى أ : « بعثه » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ، يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون (١) : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ (٢) مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أى : علم كنز [يكون](٣) ينفق منه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا ﴾ أى : عن طريق الهدى، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّق بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال [تعالى] (٤) : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ .

قال مجاهد : يعنى : فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً ، سواء كان كبيرا أو صغيرا (٥) .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خَيْثَمَة ؛ قيل للنبى ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبى قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : اجمعوها لى فى الآخرة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن

---

(١) فى أ : « يقول » . (٢) فى ف : « أسورة » . (٣، ٤) زيادة من أ .
(٥) فى ف ، أ : « صغيراً أو كبيراً » .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (١) .

وقوله :﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أى :وأرصدنا ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أى : عذاباً أليما حاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن سعيد بن جبير : «السَّعِير»: واد من قيح جهنم .

وقوله :﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أى: جهنم ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعنى : فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾أى :حنقا (٢) عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٧، ٨] أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ؛ من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف (٣) الواسطى : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيْك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من يقل عَلَيَّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ [مقعده من النار » . وفى رواية : « فليتبوأ] (٤) بين عينى جهنم مقعدا » . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « أما سمعتم الله يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ » الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد (٥) بن خِدَاش ، عن محمد بن يزيد (٦) الواسطى ، به (٧) .

وقال أيضًا : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى ابن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله ـ يعنى : ابن مسعود ـ ومعنا الربيع بن خَيْثَم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتّون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية :﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فصعق ـ يعنى : الربيع بن خيثم ـ فحملوه إلى أهل بيته (٨) ، ورابطه عبد الله إلى الظُّهر فلم يفق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨/ ١٤٠) من طريق سفيان به مرسلاً .
(٢) فى أ : « خنقًا » . (٣) فى ف ، أ : « الأحنف » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف : « محمود » . (٦) فى أ : « زيد » .
(٧) تفسير الطبرى (١٨/ ١٤٠) .
(٨) فى أ : « إلى أهله » .

هكذا رواه ابن أبى حاتم مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى ، حدثنا عُبَيْد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى . فيقول : أرسلوا [١] عبدى . وإن الرجل لَيُجَرّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسَعنى رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل لَيُجَرّ إلى النار ، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عُبَيد بن عُمَيْر فى قوله : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبى إلا خَرّ تَرْعَد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ، عليه السلام ، ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسى [٢] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾: قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله [٣] بن عمرو قال: مثل الزُج فى الرمح [٤] ، أى : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبى أسيد ـ يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال : « والذى نفسى بيده ، إنهم ليُستكرهون فى النار ، كما يستكره الوتد فى الحائط » [٥] .

وقوله : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ : قال أبو صالح : يعنى مُكتفين : ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة، ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد [٦] ، عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يُكسَى حُلَّةً من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها منْ خَلْفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادى : ياثبوراه . وينادون : ياثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوراه . ويقولون : ياثبورهم . فيقال لهم : لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبى حاتم ، عن أحمد بن سِنَان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة به[٧] .

---

(١) فى أ : « أن تنقلوا » .
(٢) تفسير عبد الرزاق (٥٦/٢) .
(٣) فى ف ، أ : « عبيد الله » .
(٤) فى ف : « رمحه » .
(٥) رواه ابن أبى حاتم ، كما فى الدر المنثور (٢٤٠/٦) .
(٦) فى هـ ، ف ، أ « على بن يزيد » والصواب ما أثبتناه من المسند (٣ / ٢٥٢) .
(٧) المسند (١٥٢/٣) وتفسير الطبرى (١٤١/١٨) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أى : لا تدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا (١) كثيرا .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر: أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون:﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أى : هالكا . وقال عبد الله بن الزبعْرى :

إذْ أجَارى الشَّيطانَ فى سَنَن الغَـ ـىِّ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ (٢) مَثْبُورُ (٣)

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد ، هذا (٤) الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء (٥) ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ (٦) وزفير ، ويُلقَون فى أماكنها الضيقة مقرَّنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاكا مما هم فيه ـ : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [أى](٧): من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَر على قلب أحد (٨) . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما (٩) سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ،لا يبغون عنها حوَلا . وهذا من وَعْد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ أى: وعدا واجبا .

وقال ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾: يقول : سلوا الذى واعدتكم ـ أو قال : واعدناكم ـ نُنجِزْ .

وقال محمد بن كعب القُرَظى فى قوله :﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم ﴾ [غافر : ٨] .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾.

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى

---

(١) فى ف ، أ : « بلاءً » . (٢) فى أ : « مثله » .
(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩) .
(٤) فى أ : « أهذا » . (٥) فى أ : « من هؤلاء الأشقية » . (٦) فى أ : « وتغيظ » .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بشر » . (٩) فى ف : « دائماً أبدًا » .

سورة « الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم مَن عبدوا من دون اللّه ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ [1] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعُزَير ، والملائكة . ﴿ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أى : فيقول الرب تبارك وتعالى [للمعبودين] [2] أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ [3] ﴾ ، إلى آخر الآية [المائدة : ١١٦، ١١٧] ؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة :﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله :﴿ نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا [4] ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم [5] مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١].
وقرأ آخرون: «مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نُتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء » أى : ما ينبغى لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى .

﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى : طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر ، أى : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

---

(١) فى ف : « يحشرهم » .   (٢) زيادة من أ .
(٣) بعدها فى ف ، أ : ﴿ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ .
(٤) فى أ : « فعلوا » .   (٥) فى هـ : « به » والمثبت من أ ، وهو الصواب .

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ : قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى : أى لا خير فيهم . وقال ابن الزِّبَعْرى حين أسلم :

يا رَسُولَ المَلِيك إنّ لسَانى ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَـ ... ـىّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

قال اللّه تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم (١) إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ فَمَا (٢) تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا ﴾ أى : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾أى : يشرك باللّه ، ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جميع مَن بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذى به ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن اللّه جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة [القاهرة] (٣)، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من اللّه عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى:اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصى ؛ ولهذا قال :﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى : بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه اللّه لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ قال : يقول اللّه : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنّى قد أردتُ أن أبتلى العباد بهم ،

---

(١) فى أ : « يقربو بكم » . (٢) فى أ : « فلا » وهو خطأ . (٣) زيادة من أ .

وأبتليهم (١) بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إنى مُبْتَليك ومُبْتَلٍ بك » (٢) . وفى المسند عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » ، وفى الصحيح أنه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تَعَنُّت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم :﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا (٣) الْمَلائِكَةُ ﴾ أى : بالرسالة كما نُزِّل (٤) على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ﴾ فنراهم عيانا ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم (٥) :﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى سورة « سبحان » ؛ ولهذا قال(٦): ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ؛ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال [الله] (٧) تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم (٨) ، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سَموم وحَميم ، وظلٍّ من يحموم . فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن (٩) ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] . وقال :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بالضرب ، ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية

---

(١) فى أ : « وابتليكم » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٣) فى أ : « عليه » وهو خطأ .

(٤) فى أ : « تنزل » . (٥) فى ف ، أ : « وكقولهم » . (٦) فى ف ، أ : « قالوا » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « للمجرمين » . (٩) فى أ : « الجسد » .

الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين فى وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها النفس الطيبة(١) فى الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم » (٢) . عند قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله :﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ يعنى : يوم القيامة . قاله مجاهد ، والضحاك ؛ وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفَه ، أو فَلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سمى « الحجْر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُّواف أن يطوفوا فيه (٣) ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حجر » (٤) ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق .

والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العَوفى ، وعطاء الخراسانى ، وخُصَيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى ـ يعنى ابن قيس ـ عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى :﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ قال : حراما مُحَرّما أن يُبَشَّر بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جرير ،عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين :﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ﴾ ، [أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة] (٦) يقولون : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

---

(١) فى ف ، أ : « المطمئنة » .
(٢) عند الآية : ٢٧ .
(٣) فى ف : « به » .
(٤) فى أ : « حجراً » .
(٥) تفسير الطبرى (٢/١٩) .
(٦) زيادة من ف ، أ .

وهذا القول ـ وإن كان له مأخذ ووجه ـ ولكنه بالنسبة إلى السياق فى الآية بعيد ، ولاسيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابنُ أبى نَجِيح ، عن مجاهد ؛ أنه قال فى قوله : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : عوذاً معاذاً . فيحتمل (١) أنه أراد ما ذكره ابن جريَج . ولكن فى رواية ابن أبى حاتم، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد أنه قال : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [أى] (٢): عوذاً معاذاً ، الملائكة تقُوله . فالله(٣) أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ : وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب اللّه العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال ـ التى ظنوا أنها منجاة لهم ـ شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع اللّه . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ .

قال مجاهد ، والثورى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى : عمدنا .

وقال السدى : (قدمنا) : عَمَدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ : قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على، رضى اللّه عنه ، فى قوله : ﴿[فَجَعَلْنَاهُ] (٤) هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكُوَّة . وكذا روى من غير هذا الوجه عن على . ورُوى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جُبَير ، والسُّدِّى ، والضحاك، وغيرهم . وكذا قال الحسن البصرى : هو الشعاع فى كوة أحدهم (٥) ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ قال : هو الماء المهراق .

وقال أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : ﴿ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ قال : الهباء رَهْج (٦) الدواب ورُوى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة فى قوله : ﴿ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ قال : أما رأيت يَبِيس الشجر إذا ذرته (٧) الريح ؟ فهو ذلك الورق .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (٨) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم (٩) العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال

---

(١) فى ف ، أ: « فيحمل » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « والله » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « أحدكم » . (٦) فى ف ، أ : « وهج » . (٧) فى أ : « أذرته » .
(٨) فى أ : « عبيد بن يعلى » . (٩) فى ف : « الحكم » .

الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن (١) أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أى: بئس المنزل منظرا وبئس (٢) المقيل مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه (٣) ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فَنَبَّه ـ تعالى ـ بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويَقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] (٤) الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] (٥) وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم [ذلك] (٦) كلهم ، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال سفيان ، عن مَيسَرة ، عن المنْهَال ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات :٦٨] .

---

(١) فى أ : « أن » . (٢) فى ف : « أو » . (٣) فى ف : « وصاروا إلى ما إليه صاروا » .
(٤ ، ٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن (١) عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ٩] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : مأوى ومنزلا ـ قال قتادة : وحَدّث صفوان بن مُحْرِز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا (٢) فى الدنيا ـ إلى الحمرة والبياض فيحاسب ، فإذا عبدٌ ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء الله . ثم يدعى صاحب (٣) النار ، فإذا هو مثل الحُمَمة (٤) السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقَيل . فيقال (٥) له : عد(٦) . ثم يُدعَى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رب ، خير مَقيل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا (٧) الصوَّاف حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يَقصرُ على المؤمن (٨) حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك (٩) قوله تعالى :﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (١٠) .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق (١١) السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظُلَل (١٢) النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى :﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

---

(١) فى أ : « إذ » . (٢) فى أ : « ملك » . (٣) فى أ : « بصاحب » . (٤) فى ف ، أ : « الفحمة » .
(٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف ، أ : « عده » . (٧) فى أ : « سعيد » . (٨) فى أ : « المؤمنين » .
(٩) فى ف ، أ : « فذلك » .
(١٠) تفسير الطبرى (١٩/٥) .
(١١) فى أ : « اشتقاق » . (١٢) فى أ : « ظل » .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا مُؤَمّل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على ابن زيد ، عن يوسف بن مِهْرَان ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية :﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً**﴾ قال ابن عباس : يجمع اللّه الخلق يوم القيامة (١) فى صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ـ وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق (٢) ـ فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق (٣)] (٤) ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق، فيحيطون (٥) بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وينزل ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس (٦) والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا ، وهم تحت العرش ، لهم زَجَل بالتسبيح والتهليل (٧) والتقديس للّه عز وجل، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبته (٨) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبته إلى حُجْزَته (٩) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْزَته (١٠) إلى تَرقُوته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم مجنبته (١١) ، هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن على بن زيد بن جُدْعَان ، عن يوسف بن مِهْرَان ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يجئ ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] (١٢) نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل (١٣) الملائكة الكَرُوبيُون ، ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القَبَاء (١٤) ، والعرش فوق ذلك .

---

(١) فى ف ، أ : « يجمع الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة » . (٢) فى ف ، أ : « الخلق » . (٣) فى ف ، أ : « الخلائق » .
(٤) زيادة من ف ، أ ، والدر المنثور ٥ / ٦٨ . (٥) فى أ : « فيحطون » . (٦) فى ف ، أ : « والإنس » .
(٧) فى ف ، أ : « بالتهليل والتسبيح » . (٨) فى أ : « ركبتيه » . (٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « أرنبته » .
(١١) فى هـ ، ف غير منقوطة ، وفى أ : « مجنبته » . (١٢) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(١٣) فى ف ، أ : « فينزل » . (١٤) فى أ : « القفاء » .

ثم وقف ، فمداره على عليٍّ بن زيد بن جُدْعان ، وفيه ضعف ، وفى سياقاته غالبا نكارة شديدة. وقد ورد فى حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال [الله] (٢) تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٥ ـ ١٧] ،قال شهر بن حَوْشَب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورَجَفَت كُلاَهم فى أجوافهم،وطارت قلوبهم من مَقَرّها من صدورهم إلى حناجرهم.

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن عبدالجليل، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة ، فيُصَوّت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع منه (٣) القلوب .

وهذا موقوف على (٤) عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزاملتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] .وفى الصحيح:« إن الله يطوى السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون » (٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى :﴿ [فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ](٦) ﴾، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠] ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن (٧) بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا درَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال :قيل : يا رسول الله:﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾:ما (٨) أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف . أ : « له » . (٤) فى ف ، أ : « عن » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وليس فيه : « أنا الديان » .

(٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « حسين » . (٨) فى ف ، أ : « وما » .

أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » (١) .

وقوله : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا مرية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى مُعَيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى :﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ - ٦٨] فكل (٢) ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يديه قائلا : ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ يعنى : مَن(٣) صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة [من دعاة الضلالة] (٤) ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف ، أو غيرهما .

﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ [وهو القرآن] (٥) ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال الله تعالى: ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل،ويدعوه إليه .

﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا (٣٠) وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا (٣١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد (٦) ـ صلوات الله وسلامه (٧) عليه دائما إلى يوم الدين ـ أنه قال : ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه (٨) ، كما قال تعالى :﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره ، حتى لا يسمعوه . فهذا من هجرانه ، وترك [علمه وحفظه أيضا من هجرانه ، وترك] (٩) الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدولُ عنه إلى غيره ـ من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ـ مَن هجرانه ، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء ، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار ، على الوجه الذى

---

(١) المسند (٣/ ٧٥) وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٢) فى ف ، أ : « وكل » . (٣) فى ف ، أ : « لمن » . (٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « محمدًا » .

(٧) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٨) فى أ : « يستمعونه » . (٩) زيادة من ف ، أ .

يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: كما حصل لك - يا محمد - فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أى : لمن اتبع رسوله ، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم ، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت [(١)] قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾: قال قتادة : وبيناه تبيينا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم [(٢)] بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم.

قال [(٣)] سعيد بن جبير، عن ابن عباس : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى: إلا نزل جبريل منَ الله بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ؛ لشرف الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه [(٤)] ، حيث كان يأتيه الوحى من الله بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى [(٥)] وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ، صلوات

---

(١) فى أ : « ليثبت » . (٢) فى أ : « جئناهم » . (٣) فى ف : « ثنا » .
(٤) فى ف : « عليه وسلامه » . (٥) فى أ : « لعلى » .

الله وسلامه عليه ، أعظم نبى أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا (١) ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٢) [الإسراء : ١٠٦].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلا قال : يارسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيَه على وجهه يوم القيامة » (٣) . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين ، [والله أعلم] (٤).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى متوعداً من كذّب رسولَه محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، من مشركى قومه ومن خالفه (٥) ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبيًّا مُوَازرا ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، فـ ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] . وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقَمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله

---

(١) فى أ : « من السماء الدنيا » .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى ف ، أ : « خالفهم » .

جميعاً ، ولم يَبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أي : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] . أى : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لُجَج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم فى إنجائكم من الغرق ، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصدّق أمره .

وقوله : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قد (١) تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة ، منها فى سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة (٢) .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جُرَيْج ، عن (٣) ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود .

وقال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرَسّ بفَلَج وهم أصحاب يس .

وقال قتادة : فَلَج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم [النبيل] (٤) ، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر (٥) ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ قال : بئر بأذربيجان .

وقال سفيان الثورى عن أبى بُكَيْر (٦) ، عن عكرمة : الرس بئر رَسوا فيها نبيهم . أى دفنوه بها(٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب [القرظى] (٨) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن الله ـ تعالى وتبارك ـ بعث نبياً (٩) إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدَوَا على النبى ، فحفروا له بئرا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم (١٠) » قال : « فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتى به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه الله عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحَزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام . فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هَبّ فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حُزْمَته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعة من نهار (١١) ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب (١٢) إلى الحفيرة فى موضعها الذى كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بَداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه » . قال :

---

(١) فى ف : « وقد » . (٢) فى ف ، أ : « إعادته » . (٣) فى أ : « قال » . (٤) زيادة من ف .
(٥) فى أ : « بشير » . (٦) فى ف ، أ : « بكر » . (٧) فى ف : « فيها » . (٨) زيادة من ف ، والطبرى .
(٩) فى ف : « بعث نبيا من الأنبياء » . (١٠) فى ف : « أصم » .
(١١) فى أ : « النهار » . (١٢) فى ف ، أ : « ثم إنه ذهب » .

« فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض اللّه النبى ، وأهبّ الأسودَ من نومته بعد ذلك » . فقال رسول اللّه ﷺ : « إن ذلك الأسودَ لأولُ من يدخل الجنة » .

هكذا رواه ابن جرير (١) ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلا . وفيه غرابة ونكارةٌ ، ولعل فيه إدْرَاجاً ، واللّه أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا فى القرآن ؛ لأن اللّه أخبر عنهم أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم ، واللّه أعلم .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج، فاللّه أعلم .

وقوله :﴿ **وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً** ﴾ أى : وأمما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ** ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة ـ كما قال قتادة : أزحنا (٢) عنهم الأعذار ـ ﴿ **وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾ أى : أهلكنا إهلاكاً ، كقوله :﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾ [الإسراء : ١٧] .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٣١]. وحده بعضهم (٣) بمائة وعشرين سنة . وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث .

وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهي سدوم ومعاملتها التى أهلكها اللّه بالقلب ، وبالمطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال :﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] وقال تعالى :﴿ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ [الحجر : ٧٦] . وقال:﴿ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر : ٧٩]؛ ولهذا قال :﴿ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا** ﴾ أى : فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنَّكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر اللّه .

وقوله : ﴿ **بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا** ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ

---

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠ .

(٢) فى أ : « وأزحنا » . (٣) فى ف ، أ : « بعض المفسرين » .

آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤) ﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذا رأوه، كما قال: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ [الأنبياء: ٣٦] يعنونه بالعيب والنقص، وقال هاهنا: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ﴾؟ أى: على سبيل التنقص (١) والازدراء ـ قبحهم الله ـ كما قال: ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقولهم (٢): ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهددا: ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾.

ثم قال تعالى لنبيه، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله.

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ أى: مهما استحسن من شىء ورآه حسناً فى هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر: ٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾. قال ابن عباس: كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول.

ثم قال: ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ أى: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا (٤٥) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا (٤٦) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا (٤٧) ﴾.

من هاهنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾؟ قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو

(١) فى ف، أ: «التنقيص».
(٢) فى أ: «وقوله».

العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ،﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن (١) الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسّدى : دليلا يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : الظل . وقيل : الشمس .﴿ يَسِيرًا﴾ أى : سهلا . قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السّدى ؛ قبضاً خفَياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .

وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : قليلا قليلا .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أى : يلبس الوجود ويُغَشّيه (٢) ،كما قال : [﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل : ١] وقال](٣) : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[الشمس : ٤] .

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى : قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعايش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أى : ينتشر الناسُ فيه (٤) لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجىء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض ،ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسَّحُور والوقود (٥) وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك .وأما من قال : إنه فعول

---

(١) فى ف: « وإن » . (٢) فى ف : « ويغشاه » . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف : « فيه الناس » . (٥) فى أ : « والوجود » .

بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما [١] إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس [٢] هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، عن أبى جعفر الرازى، حدثنى حُمَيد الطويل ، عن ثابت البنانى قال : دخلت معَ أبى العالية فى يوم مطير ، وطرق البصرة قذرة ، فصلى ، فقلت له ، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، قال : طهره ماء السماء.

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وُهَيب [٣] ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [قال : أنزله الله ماءً طاهرًا] [٤] لا ينجسه شىء .

وعن أبى سعيد قال : قيل : يارسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ ـ وهى بئر يُلقَى فيها النَّتَن ولحوم الكلاب ـ فقال : « إن الماء طهور لا ينجسه شىء » . رواه الشافعى ، وأحمد وصححه ، وأبوداود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى [٥] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى يحدث عن سَيَّار ، عن خالد بن يزيد ، قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فَيُعْذِبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها فى الأرض عشبة أو فى البحر لؤلؤة . وقال غيره : فى البر بُر ، وفى البحر دُرّ .

وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لا نبات فيها ولا شىء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى :﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إنه[٦] كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، [فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا ، والتى وراءها] [٧] لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

---

(١) فى أ : « منها » . (٢) فى ف ، أ : « وليس » . (٣) فى أ : « وهب » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) الأم للشافعى (١/ ٩) والمسند (٣/ ١٥) وسنن أبى داود برقم (٦٦) وسنن الترمذى برقم (٦٦) وسنن النسائى (١/ ١٧٤) .
(٦) فى ف ، أ : « وهو على » وهو الصواب . (٧) زيادة من ف ، أ .

قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات (١) والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقال عُمَر مولى غُفْرَة (٢) : كان جبريل ، عليه السلام ، فى موضع الجنائز ، فقال له النبى ﷺ: « يا جبريل ، إنى أحب أن أعلم أمرَ السحاب ؟ » قال : فقال جبريل : يا نبى الله ، هذا ملك السحاب فسله . فقال : تأتينا صكَاك مُختَّمة : اسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل .

وقوله : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ : قال عكرمة : يعنى : الذين (٣) يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى ، مؤمن بالكوكب »(٤) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ : يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك ـ يا محمد ـ بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩]، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وفيهما : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣ ،

---

(١) فى ف ، أ : « الموتى » . (٢) فى ف ، أ : « عقبة » . (٣) فى أ : « الذى » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى .

التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لاشك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع (١) لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيوناً فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : مالح مُرّ زعَاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها (٢) من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجَزْر، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض (٣) ، فإذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرت ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة (٤) ثم تشرع فى النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وله القدرة التامة ـ العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد(٥) .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أى : حاجزاً ، وهو اليَبَس من الأرض ، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال :﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢١] ، وقال تعالى :﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعَدّله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا

(١) فى أ : « عن الواقع » . (٢) فى أ : « وأشبهها » . (٣) فى أ : « وقيض » . (٤) فى أ : « عشر » .
(٥) سبق تخريجه عند تفسير الآية : ٣ من سورة المائدة .

أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير اللّه من الأصنام ، التى لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم [1] ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون اللّه ورسوله [والمؤمنون] [2] فيهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ أى: عوناً فى سبيل الشيطان على حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ** ﴾ [يس: ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التى اتخذوها من دون اللّه لا تملك [3] لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذبُّون عن حَوْزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة للّه ولرسوله فى الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : ﴿ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية اللّه ، يعينه .

وقال سعيد بن جُبَير : ﴿ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال زيد بن أسلم : ﴿ **وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله ، صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشرا بالجنة لمن أطاع اللّه ، ونذيراً بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر اللّه .

﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أى : على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه اللّه ، ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾ [التكوير : ٢٨] ، ﴿ **إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ أى : طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

ثم قال : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ أى: فى أمورك كلها كُن متوكلا على اللّه الحى الذى لا يموت أبدا ، الذى هو ﴿ **الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد : ٣]، الدائم الباقى السرمدى الأبدى ، الحى القيوم ربّ كل شىء ومليكه ، اجعله ذُخْرك وملجأك ، وهو الذى يُتوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا**

(١) فى أ : « والتشهى فيهم يوالون لهم » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « لا يملكون » .

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عبد اللّه بن محمد بن على بن نُفَيْل قال : قرأت على مَعْقِل ـ يعنى ابن عبيد اللّه ـ عن عبد اللّه بن أبى حسين ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لقى سلمانُ رسولَ اللّه ﷺ فى بعض فجاج (١) المدينة ، فسجد له ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » . وهذا مرسل حسن (٢) .

[وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ، أى : اقرن بين حمده وتسبيحه] (٣) ؛ ولهذا كان رسول اللّه ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك » أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل : ٩] .

وقال : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك : ٢٩] .

وقوله : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أى : لعلمه (٤) التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى : هو الحى الذى لا يموت ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ [الرَّحْمَنُ](٥)﴾ ، أى: يدبر الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أى : استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم باللّه ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ، صلوات اللّه وسلامه ، على (٦) سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ـ فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله ، وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها (٧) فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال اللّه تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ؛

---

(١) فى أ : « مخارج » .

(٢) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق محمد بن أحمد بن سيار عن هشام عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين به .

(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « بعلمه » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف ، أ : « عليه » . (٧) فى أ : « وما خالفها » .

ولهذا قال : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : ما أخبرتك [١] من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جُرَيج .

وقال شمْر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسَمّى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية [٢] : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرفه ولا نُقر به ؟ ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أى : لمجرد قولك ؟ . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾، أما [٣] المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء ـ رحمهم الله ـ على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [٤] (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى ممجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج ـ وهى الكواكب العظام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهْران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] .

﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ [يونس: ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [نوح: ١٥ ، ١٦] .

---

(١) فى أ : « ما أخبرك » .
(٢) فى ف ، أ : « الآية الكريمة » .
(٣) فى ف ، أ : « فأما » .
(٤) فى أ : « نشورا » وهو خطأ .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران . إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك (١) ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال :﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال :﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله :﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» (٢) .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حُرَّة (٣) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على من وردى شىء ، فأحببت أن أتمه ـ أو قال : أقضيه ـ وتلا هذه الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً [لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] (٤)﴾ (٥).

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس [قوله :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾(٦)] يقول: من فاته شىء من الليل أن يعمله ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة :﴿ خِلْفَةً ﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ .

هذه صفات عباد اللّه المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾أى : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال:﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ،

---

(١) فى أ : « هذا » .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « أبو حمزة » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا منقطع ، فالحسن لم يسمع من عمر .

(٦) زيادة من ف ، أ .

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى، عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رُويداً ، فقال : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين. فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما (١) المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » (٢) .

وقال عبد اللّه بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن يحيى (٣) بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قال : إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت منهم ـ واللّه ـ الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن . أما واللّه ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء اللّه تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير للّه نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه (٤) وحَضَر عذابُه .

وقوله :﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ أى : إذا سَفه عليهم الجهال بالسّيىء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول اللّه ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى خالد الوالبى ، عن النعمان بن مُقَرّن المُزَنى قال : قال رسول اللّه ﷺ [وسبّ رجلٌ رجلا عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « أما] (٥) إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناد حسن ، ولم يخرجوه (٦) .

وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلامًا ﴾ يعنى : قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا [سَلامًا ﴾ ، قال : حلماء لا يجهلون] (٧) ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد اللّه نهارهم بما تسمعون (٨) . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

---

(١) فى ف ، أ : « وأما » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٠٣) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « عمر » . (٤) فى أ : « عمله » . (٥) زيادة من ف ، أ ،والمسند .

(٦) المسند (٥/ ٤٤٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٥) : « رجاله رجال الصحيح ، غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بما يسمعون » .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أى: فى عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] وقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر: ٩]، ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر(١):

إنْ يُعَذِّب يكُنْ غَرَاماً، وإن يُعـ ... ـطِ جزيلا، فإنه لا يُبَالى

ولهذا قال الحسن فى قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾: كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمى.

وقال محمد بن كعب [القرظى] (٢): ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يعنى: ما نعموا فى الدنيا؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار.

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى: بئس المنزل منظرا، وبئس المقيل مقاماً.

[و] (٣) قال ابن أبى حاتم عند قوله: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾: حدثنا أبى، حدثنا الحسن ابن الربيع، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طُرح الرجل فى النار هوى فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأسا من سُمِّ الأساود والعقارب، قال: فيميز الجلد على حدة، والشعر على حدة، والعصب على حدة، والعروق على حدة.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عُبيد بن عمير قال: إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت، وعقارب أمثال البغال الدُّلْم (٤)، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سلام ـ يعنى ابن مسكين ـ عن أبى ظلال، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة: يا حنان، يامنان. فيقول الله لجبريل: اذهب فأتنى بعبدى هذا. فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين(٥) يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول الله عز وجل: آتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا. فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول له: ياعبدى، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يارب شر مكان، شر مقيل. فيقول: ردوا عبدى. فيقول: يارب، ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها! فيقول: دعوا عبدى (٦).

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أى: ليسوا بمبذرين فى

(١) هو الأعشى ـ ميمون بن قيس ـ والبيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٢٣).
(٢، ٣) زيادة من أ. (٤) فى أ: « الدهم ». (٥) فى أ: « مكبين ».
(٦) المسند (٣/ ٢٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٤): « رجاله رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان ».

إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهْليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عَدْلا خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾، كما قال : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام (١) بن خالد ، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن ضَمْرَة ، عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « من فقه الرجل رفقه فى معيشته » . ولم يخرجوه (٢) .

وقال [الإمام] (٣) أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سُكَين (٤) بن عبد العزيز العَبْدى، حدثنا إبراهيم الهَجَرى عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » . ولم يخرجوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون (٦) ، حدثنا سعيد (٧) بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال ـ يعنى العبسى ـ عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة » . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه (٨) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف [والله أعلم] (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : سُئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعَم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى

(١) فى أ : « عاصم » .
(٢) المسند (٥/ ١٩٤) .
(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « مسكين » .
(٥) المسند (١/ ٤٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « فى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف » .
(٦) فى ف ، أ : « إبراهيم بن محمد بن محمد بن ميمون » . (٧) فى ، أ : « سعد » .
(٨) مسند البزار برقم (٣٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان فى ترجمة سعيد الراوى عنه ، وبقية رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من أ .

حليلة جارك » . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ .

وهكذا رواه النسائى عن هَنَّاد بن السرى ، عن أبى معاوية ، به (١) .

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور ـ زاد البخارى : وواصل ـ ثلاثتهم عن أبى وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبى مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (٢) ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت: يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى ، حدثنا عامر بن مُدْرِك ، حدثنا السرى ـ يعنى ابن اسماعيل ـ حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشَز من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه، واغتنمت (٣) خلوته وقلت (٤) : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أى الذنوب (٥) أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم مه ؟ (٦) قال : « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » . قلت : ثم مه ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » . ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾. [إلى آخر] (٧) الآية (٨).

وقال النسائى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يَسَاف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع ـ فما أنا بأشح عليهن منى منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ـ : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى ،رحمه الله ،حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان ، حدثنا محمد بن سعد (١٠) الأنصارى ، سمعت أبا طيبة الكَلاَعى ،سمعت المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ،يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حَرَّمه الله ورسوله ،فهو حَرَام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال :« ما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»(١١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بَقِيَّة ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ : قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل فى رَحِمٍ لا يحل له » (١٢) .

---

(١) المسند (١/ ٣٨٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٨) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٣) فى ف : « فاغتنمت » . (٤) فى أ : « فقلت » . (٥) فى أ : « الذنب » . (٦) فى أ : « أى » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٣) (١٠) فى ف ، أ : « سعيد » .
(١١) المسند (٦/ ٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٦٨) : « رجاله ثقات » .
(١٢) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) : « وهو مرسل ، وفى إسناده بقية وهو مدلس وابن أبى مريم ضعيف » أ . هـ مستفاداً من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث (١) عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنَوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا (٢) كفارة ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ﴾ ، ونزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ](٣) ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى فَاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتلَ ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك » . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ : واد فى جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا رُوى عن سعيد بن جبير، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جنهم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره ، عن أبى أمامة الباهلى ـ موقوفا ومرفوعا ـ : أن « غيا » و« أثاما » بئران فى قعر جهنم (٥) . أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدى : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أى : حقيرا ذليلا .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلاً] (٦) صَالِحًا ﴾ أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ فى الدنيا إلى الله (٧) من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض (٨) بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه

---

(١) فى أ : « يحدثه » . (٢) فى أ : « أن لنا إن عملنا » . (٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٧٧) وعزاه لابن أبى حاتم . ووقع فيه : « عن أبى قتادة » ، فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لى الصواب منهما ، والله أعلم .

(٥) تفسير الطبرى (١٩/٢٩) .

(٦) زيادة من ف ، وهو الصواب .

(٧) فى ف : « إلى الله فى الدنيا » . (٨) فى أ : « ولا معارض » .

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب، لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال [الله](١) تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء :٤٨، ١١٦] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب، وقبل منه، وغير ذلك من الأحاديث.

وقوله: ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: فى معنى قوله: ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات.

وروى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية:

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفا (٢) وَبَعْدَ طُول النَّفَس الوَجِيفَا (٣)

يعنى: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها.

وقال عطاء بن أبى رباح: هذا فى الدنيا (٤)، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يبدله الله بها خيراً.

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم (٥) بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصرى: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصا، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما.

وهذا قول أبى العالية، وقتادة، وجماعة آخرين.

والقول الثانى: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى ـ وهذا سياق الحديث ـ قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يؤتى برجل فيقول: نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم ـ لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا ـ

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى أ: « صريفاً ».
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٣٠).
(٤) فى أ: « هذا يكون فى الدنيا ».
(٥) فى ف: « وبدلهم ».

فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا » . قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنى أبى ، حدثنى ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيْح بن عبيد (٢) ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطنى صحيفتك . فيعطيه إياها ، فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت ـ يعنى : ابن يزيد أبو زيد ـ حدثنا عاصم ، عن أبى عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته (٤) ، فإذا كاد (٥) يسوء ظنه نظر (٦) فى أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر فى أعلاها فإذا هى قد بدلت حسنات .

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهرى أبو داود ، حدثنا أبو العَنْبَس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس (٧) يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم ياأبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد ، حدثنا سَيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبى الضيف ـ وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات (٨) والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرؤوا سيئاتهم حرفا حرفا ـ قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابيه)، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال على بن الحسين زين العابدين : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : فى الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبى حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] (٩) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

---

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠) .

(٢) فى ف ، أ : « عبدة » .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (٣/ ٢٩٦) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٢١) : « فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » ، ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضا .

(٤) فى أ : « إساءته » . (٥) فى أ : « كان » . (٦) فى أ : « ينظر » . (٧) فى أ : « أناس » .

(٨) فى أ : « بالحسنات » . (٩) زيادة من ف ، أ .

حدثنا أبو [١] جابر ، أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط [٢] حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ،رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله [٣] ﷺ : «أسلمتَ؟» قال [٤] : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن [٥] محمداً عبده ورسوله. فقال النبي ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل[٦] سيئاتك حسنات » . فقال: يارسول الله، وغَدَرَاتي وفَجَرَاتي؟ فقال : « وغَدرَاتك وفَجَراتك » . فَوَلّى الرجل يهلل ويكبر[٧]. [٨].

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن عَمْرو [٩] ، عن عبد الرحمن بن جبير،عن أبي فَرْوَةَ ـ شَطْب ـ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمتَ ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها [١٠] الله لك خيرات كلها » . قال : وغَدَراتي وفَجَراتي ؟ قال: « نعم» . قال فما زال يكبّر حتى توارى [١١] .

ورواه الطبراني من طريق أبي فَروة الرهاوي ، عن ياسين الزيات ، عن أبي سلمة الحِمْصي ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً [١٢] .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيْح الشماس ، عن عبيد بن أبي عبيد [١٣] عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : جاءتني امرأة فقالت : هل لي من توبة ؟ إني زنيت وولدت وقتلته . فقلت [١٤]: لا ، ولا نَعمت العين ولا كرامة. فقامت وهي تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبي ﷺ الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ إلى قوله : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ فقرأتها عليها . فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

---

(١) في أ : « ابن » . (٢) في أ : « أسقطت » . (٣) في أ : « النبي » . (٤) في أ : « فقال » .
(٥) في أ : « وأشهد أن » . (٦) في أ : « ويبدل » . (٧) في ف ، أ : « يكبر ويهلل » .
(٨) وقد وصله الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٨٤) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الحداني عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً باختصار في أوله وآخره ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٢) : « رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدري أسمع منه أم لا » .
(٩) في أ : « عمر » . (١٠) في ف ، أ : « فيجعلهم » .
(١١) المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٣١٤) ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٣٥٢) من طريق أبي القاسم البغوي عن محمد بن هارون الحربي عن أبي المغيرة به . وقال أبو القاسم البغوي : « روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبي المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير : أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلاً شطب الممدود ، وأحسب أن محمداً بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره » .
(١٢) المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٥٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣١) : « في إسناده ياسين الزيات يروي الموضوعات » .
(١٣) في هـ ، ف ، أ : « عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه » والمثبت من الطبري .
(١٤) في أ : « فقال » .

حديث إبراهيم بن المنذر الحزَامى بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : ياحسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ ، تَطَلَّبها [١] فى جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله عزوجل [٢] .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده [٣] ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى: فإن الله يقبل [٤] توبته ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال :﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى: لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ .

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : [هو] [٥] اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هى أعياد المشركين [٦] .

وقال عمرو بن قيس : هى مجالس السوء والخنا .

وقال مالك ، عن الزهرى : [شرب الخمر] [٧] لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » [٨] .

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أى: شهادة الزور ،وهى الكذب متعمدا على غيره ،

---

(١) فى ف : « فطلبها » .

(٢) تفسير الطبرى (١٩/ ٢٧) ورواه ابن مردويه كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٧٩) وقال السيوطى : « إسناده ضعيف » .

(٣) فى أ : « لعباده » . (٤) فى أ : « يتقبل » . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ف : « للمشركين » . (٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس عن جابر به مرفوعاً ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه » ثم نقل كلام العلماء فى تضعيف ليث بن أبى سليم .

كما [ثبت][(١)] فى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال [(٢)] رسول الله ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثا، قلنا: بلى، يارسول الله، قال: « الشرك بالله، وعقوق الوالدين » . وكان متكئاً فجلس، فقال: « ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور [ألا وقول الزور وشهادة الزور] [(٣)] » . فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت [(٤)] .

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أى: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء [(٥)]؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو الحسين العجلى، عن محمد بن مسلم، أخبرنى إبراهيم بن مَيْسَرة، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً [(٦)]، فقال النبى ﷺ: « لقد أصبح ابن مسعود، وأمسى كريماً » .

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوى، حدثنا حبان، أنا عبد الله، أنا محمد بن مسلم، أخبرنى ابن ميسرة قال: بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ [(٧)]: « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » [(٨)]، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [(٩)] .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [و] [(١٠)] هذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] .

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أى: بخلاف الكافر الذى ذكر بآيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً.

وقال الحسن البصرى: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

---

(١) زيادة من ف، أ . (٢) فى ف، أ: « عن » . (٣) زيادة من ف، أ .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧) .
(٥) فى أ: « فيه شىء » . (٦) فى أ: « فلم يقف » . (٧) فى أ: « النبى » .
(٨) زيادة من ف، أ .
(٩) ورواه ابن عساكر كما فى المختصر لابن منظور (١٤/ ٥٥) من طريق إبراهيم بن ميسرة به .
(١٠) زيادة من أ .

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الله (١) وانتفعوا بما (٢) سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمْران ، حدثنا ابن عَوْن قال : سألت الشعبى قلت : الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يعنى : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة (٣) ،فلا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بيِّن .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: يعنى : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصرى ـ وسئل عن هذه الآية ـ فقال : أن يُرى الله العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جُرَيْج فى قوله : ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون (٤) عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يَعْمَر (٥) بن بشر (٦) ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجبُ ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَراً غَيَّبَه الله عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد (٧) كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفرقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

---

(١) فى أ : « الحق » . (٢) فى أ : « مما » . (٣) فى ف ، أ : « أمر السجدة » .
(٤) فى أ : « فيحسنون » . (٥) فى هـ ، ف ، أ : « معمر » والمثبت من المسند . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) فى ف ، أ : « وقد » .

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ . وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه [١] .

وقوله : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين [٢] [ودعاة] [٣] إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم [٤] ، وأن يكون هداهم متعدياً [٥] إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر [٦] ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية » [٧] .

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] [٨] الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال [٩] الجليلة [١٠] ـ قال بعد ذلك كله : ﴿أُوْلَئِكَ﴾أى : المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أى : يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهى الجنة.

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسُّدِّىّ : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى : على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أى : فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ أى : يُبْتَدَرُون [١١] فيها بالتحية والإكرام. ويلقون [فيها] [١٢] التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مَقِيلا ومنزلا .

---

(١) المسند (٦/ ٢) .
(٢) فى أ : « مهديين » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ذراريهم » .
(٥) فى أ : « متعد »
(٦) فى أ : « أكبر » .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف ، أ : « الأقوال والأفعال » .
(١٠) فى أ : « الجميلة » .
(١١) فى أ : « يبتدون » .
(١٢) زيادة من ف ، أ .

ثم قال (١) تعالى : ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أى : لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ يقول : ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه (٢) إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم(٣) لزاماً لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى :﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . والله أعلم.

---

(١) فى أ : « وقال » . (٢) فى ف : « حبب » . (٣) فى أ : « تكذيبهم » .

/ سورة الفرقان [١٨٩و]

مكيّة، وهي سبع وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ "البرَكة" النماء والزيادة، حسّيّةً كانت أو معنويّة، وكثرةُ الخير ودوامُه أيضًا، ونسبتها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل -وهو الأليق بالمقام- باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي مِن جملتها تنزيل **القرآن الكريم** المعجِز الناطق بعلوّ شأنه تعالى، وسموّ صفاته، وابتناءِ أفعاله على أساس الحِكَم والمصالح، وخلوّها عن شائبة الخَلل بالكلّيّة. وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذُكر، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه حقيقةً مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلّا باعتبار غاياتها.

وعلى المعنى الثاني باعتبار كَثرة ما يُفيض منه على مخلوقاته -لا سيّما على الإنسان- مِن فنون الخيرات التي مِن جملتها تنزيل **القرآن** المنطوي على جميع الخيرات الدينيّة والدنيويّة. والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايُدها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلَّقاتها. ولِاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وتحقّقها بالفعل، والإشعارِ بالتعجّب المناسب للإنشاء، والإنباءِ عن نهاية التعظيم؛ لم يجُز استعمالها في حقّ غيره تعالى، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تعالى.

و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر "فَرَق بين الشيئين"، أي: فصل بينهما، سمّي به **القرآن** لغاية فَرقه بين الحقّ والباطل بأحكامه، أو بين المُحِقّ والمُبطِل بإعجازه، أو لكونه مفصولًا بعضُه مِن بعض في نفسه، أو في إنزاله.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وإيرادُه عليه السلام بذلك العنوان لتشريفه، والإيذانِ بكونه عليه السلام في أقصى مراتب العبوديّة، والتنبيهِ على أنّ الرسول لا يكون إلّا عبدًا للمرسِل ردًّا على النصارى. ﴿لِيَكُونَ﴾ غايةٌ للتنزيل، أي: نزّله عليه ليكون هو عليه السلام أو الفرقانُ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِن الثقلَين ﴿نَذِيرًا﴾ أي: منذِرًا، أو إنذارًا مبالغةً، أو ليكون تنزيلُه إنذارًا. وعدم التعرّض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة. وتقديم "اللام" على عاملها لمراعاة الفواصل.

[١٨٩ظ] وإبرازُ تنزيل الفرقان في معرِض الصلة / التي حقُّها أن تكون معلومةَ الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مُجرى المعلوم المسلَّم تنبيهًا على كمال قوّة دلائله، وكونِه بحيث لا يكاد يجهله أحد، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة، ٢/٢].

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: له خاصّةً -دون غيره، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا- السلطانُ القاهر، والاستيلاءُ الباهر عليهما، المستلزمان للقدرة التامّة والتصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتة، وأمرًا ونهيًا، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ومحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، والجملةُ مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها، أو على أنّه نعت للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، وما بينهما ليس بأجنبيّ؛ لأنّه مِن تمام صلته، ومعلوميّةُ مضمونه للكفرة ممّا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٦-٨٧] ونظائرِه، أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب.

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما يزعم الذين يقولون في حقّ المسيح والملائكة ما يقولون، فسبحان الله عمّا يصفون. وهو معطوف على ما قبله مِن الجملة الظرفيّة، ونظمه في سِلك الصلة للإيذان بأنّ مضمونه مِن الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيّما بعد تقرير ما قبله.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: مُلكِ السماوات والأرض، وهو أيضًا عطفٌ على الصلة. وإفراده بالذكر مَع أنّ ما ذُكر مِن اختصاص ملكهما به تعالى مستلزِم له قطعًا للتصريح ببطلان زعم الثنويّة القائلين بتعدّد الآلهة والردِّ في نحورهم. وتوسيطُ نفي اتّخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالتِه، والاحترازِ عن توهّم كونه تتمّةً للأوّل.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أي: أحدث كلّ موجودٍ مِن الموجودات إحداثًا جاريًا على سَنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنيّة على الحِكَم البالغة بأن خلق كلًّا منها مِن موادَّ مخصوصةٍ على صور معيّنةٍ، / ورتّب فيه قوًى وخواصَّ مختلفةَ [١٩٠و] الآثار والأحكام، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هيّأه لِما أراد به مِن الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقۡدِيرٗا﴾ بديعًا لا يُقادَر قدره ولا يُبلَغ كنهُه، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبّر في أمور المعاد والمعاش، واستنباطِ الصنائع المتنوعة، ومزاولةِ الأعمال المختلفة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

وقيل: أريدَ بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازًا مِن غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يَخلُ عنه في نفس الأمر، فالمعنى: أوجد كلّ شيء فقدّره في ذلك الإيجاد تقديرًا. وأمّا ما قيل مِن أنّه سمّى إحداثه تعالى خلقًا لأنّه تعالى لا يُحدث شيئًا إلّا على وجه التقدير مِن غير تفاوتٍ، ففيه أنّ ارتكاب المجاز بحَمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير، فاعتبارُه فيه بوجهٍ مِن الوجوه مُخِلّ بالمرام قطعًا.

وقيل: المراد بالتقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمّى، وأيًا ما كان فالجملة جاريةٌ مَجرى التعليل لِما قبلها مِن الجمل المنتظِمة مِثلَها في سلك الصلة، فإنّ خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضي استقلالَه تعالى باتّصافه بصفات الألوهيّة يقتضي انتظام كلّ ما سواه كائنًا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذّ عنها شيء مِن ذلك قطعًا، وما كان كذلك كيف يُتوهَّم كونُه ولدًا له سبحانه، أو شريكًا في مُلكه.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ۝٣﴾

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بعد ما بيّن حقيقةُ الحقّ في مطلع السّورة الكريمة بذكرِ تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ووَصفِه تعالى بصفات الكمال، وتنزيهِه عمّا لا يليق بشأنه الجليل؛ عُقِّبَ ذلك بحكاية أباطيل المشركين في حقّ المُنزِل سبحانه والمُنزَلِ والمُنزَلِ عليه على الترتيب، وإظهارِ بطلانها.

[١٩٠ظ] والإضمار مِن غير جريانِ ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله مِن نفي / الشريك عليهم، أي: اتّخذوا لأنفسهم -متجاوزين الله الذي ذُكِر بعضُ شئونه العظيمة مِن اختصاص ملك السماوات والأرض به تعالى، وانتفاءِ الولد والشريك منه، وخلقِ جميع الأشياء وتقديرها أبدعَ تقدير- آلهةً ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يقدرون على خلق شيء مِن الأشياء أصلًا ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات. وقيل: لا يقدرون على أن يختلقوا شيئًا، وهم يُختلَقون حيث يختلقُهم عبَدتُهم بالنحت والتصوير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ لبيان ما لم يَدُلَّ عليه ما قبلَه مِن مراتب عجزِهم وضعفِهم، فإنّ بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربّما يملك دفع الضرّ وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدِرون على التصرّف في ضرٍّ ما ليدفعوه عن أنفسهم، ولا في نفعٍ ما حتّى يجلبوه إليهم، فكيف يملكون شيئًا منهما لغيرهم؟ وتقديم ذكر الضرّ لأنّ دفعه مع كونه أهمّ في نفسه أوّلُ مراتب النفع وأقدمُها.

والتنصيص على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ أي: لا يقدرون على التصرّف في شيء منها بإماتة الأحياء، وإحياء الموتى وَبَعْثِهم، بعد بيان عجزهم عمّا هو أهون مِن هذه الأمور مِن دفع الضرّ وجلب النفع؛ للتصريح بعجزهم عن كلّ واحدٍ ممّا ذكر على التفصيل، والتنبيهِ على أنّ الإله يجب أن يكون قادرًا على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم،

كأنّهم غير عارفين بانتفاء ما نُفِي عن آلِهَتهم مِن الأمور المذكورة، مفتقرون إلى التصريح بذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم المتعلّقة بالمُنزَل والمُنزَل عليه معًا وإبطالِها. والموصول إمّا عبارة عن غُلاتهم في الكفر والطغيان، وهم النضر بن الحارث، وعبد الله بن أميّة، ونوفل بن خويلد، ومَن ضامّهم. ورُوي عن الكلبي ومقاتل أنّ القائل هو النضر بن الحارث،[١] والجمعُ لمشايَعة الباقين له في ذلك. وإمّا عن كلّهم، / ووضعُ الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإيذانِ بأنّ ما تفوّهوا به كفر عظيم. [١٩١و]

وفي كلمة ﴿هَٰذَآ﴾ حطّ لرتبة المشار إليه، أي: ما هذا إلّا كذِب مصروف عن وجهه ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يريدون أنّه اختلقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: على اختلاقه ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون اليهودَ بأن يُلقوا إليه أخبارَ الأمم الدارجة، وهو يعبّر عنها بعبارته. وقيل: هما جَبر ويسار[٢] كانا يصنعان السيف بمكّة ويقرآن التوراة والإنجيل.[٣] وقيل: هو عابس،[٤] وقد مرّ تفصيله في سورة النحل.[٥]

﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾ منصوب بـ﴿جَآءُو﴾، فإنّ "جاء" و"أتى" يُستعملان في معنى "فعَلَ"، فيُعدَّيان تعديتَه، أو بنزع الخافض، أي: بظلم، قاله الزجّاج.[٦]

---

١ تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٢٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٨/١٤.

٢ قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: «كان لنا غلامان نصرانيّان مِن أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتابًا لهم، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمرّ بهما ويسمع قراءتَهما، وكان المشركون يقولون: يتعلّم منهما، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم». تفسير مجاهد، ص ٤٢٥؛ تفسير القرطبي، ١٧٨/١٠.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٨/٤.

٤ هو عابس غلام حُوَيطب بن عبد العزّى، وكان قد أسلم. انظر: تفسير السمرقندي، ٢٩١/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٤٥٩/٣.

٥ النحل، ١٠٣/١٦.

٦ معاني القرآن للزجّاج، ٥٨/٤.

والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا بما قالوا ظلمًا هائلًا عظيمًا لا يُقَادَرُ قَدرُه حيث جعلوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه إفكًا مفترًى مِن قِبل البشر، وهو مِن جهة نظمه الرائق وطَرزه الفائق بحيث لو اجتمعتِ الإنس والجنّ على مُباراتِه لعجِزوا عن الإتيان بمثل آيةٍ مِن آياته، ومِن جهة اشتماله على الحِكَم الخفيّة والأحكامِ المستتبِعة للسعادات الدينيّة والدنيويّة والأمورِ الغيبيّة بحيث لا يناله عقول البشر، ولا يَفي بفهمه القوى والقُدَر.

﴿وَزُورًا﴾ أي: كذبًا كبيرًا لا يُبلَغُ غايته، حيث نسبوا إليه عليه السلام ما هو بريء منه. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنّهما أمران متغايران حقيقةً يقع أحدهما عقيب الآخر، أو يحصل بسببه؛ بل على أنّ الثاني هو عين الأوّل حقيقةً، وإنّما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري. و﴿قَدْ﴾ لتحقيق ذلك المعنى، فإنّ ما جاءوه مِن الظلم والزور هو عين ما حُكي عنهم، لكنّه لمّا كان مغايرًا له في المفهوم وأظهرَ منه بطلانًا رُتّب عليه بـ"الفاء" ترتيبَ اللازم على المَلزوم تهويلًا لأمره.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحقّ الذي لا مَحيد عنه إفكًا مختلَقًا بإعانة البشر بيّنوا على زعمهم الفاسد كيفيّةَ الإعانة. و"الأساطير" جمع "أَسطار"، أو "أُسطورة" كـ"أُحدوثة"، وهي ما سطّرهُ المتقدّمون مِن الخُرافات ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ أي: كتبها لنفسه على الإسناد المجازي، أو استكتبها. وقُرئ على البناءِ للمفعول؛[1] لأنّه عليه السلام أُمّي. وأصله "اكْتَتَبَها له كاتبٌ"، فحُذف "اللام" وأُفضيَ الفعل إلى الضمير، فصار "اكْتَتَبَها إيّاه كاتبٌ"، ثمّ حُذف الفاعل لعدم تعلّق الغرض العلمي بخصوصه، وبُني الفعلُ للضمير المنفصل فاستتر فيه.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها لِيحفَظَها مِن أفواه / مَن يُمليها عليه مِن ذلك المكتتَب؛ لكونه أمّيًا لا يقدر على أن يتلقّاها [١٩١ظ]
منه بالقراءة، أو تُملَى على الكاتب، على أنّ معنى ﴿اكتتبها﴾ أرادَ اكتتابها،

---

١ أي: "اكْتُتِبَهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

أو استِكتابَها. ورَجعُ الضمير المجرور إليه عليه السلام كإسناد الكتابة في ضِمن الاكتتاب إليه عليه السلام.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: دائمًا، أو خُفيةً قبل انتشار الناس حين يأوون إلى مساكنهم. انظر إلى هذه الرتبة مِن الجَراءة العظيمة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم رَدًّا عليهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفُه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الجليّة والخفيّة للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرارٍ مطويّة عن عقول البشر مع ما فيه مِن التعريض بمُجازاتهم بجِناياتهم المَحكيّة التي هي مِن جملة معلوماته تعالى، أي: ليس ذلك ممّا يُفترَى ويُفتَعلُ بإعانة قومٍ وكتابةِ آخرين مِن الأحاديث الملفَّقة وأساطيرِ الأوّلين؛ بل هو أمر سماوي أنزلَه الله الذي لا يعزُب عن علمه شيءٌ مِن الأشياء، وأودعَ فيه فنونَ الحِكَم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبةً بفصاحته وبلاغته، وأخبرَكم بمغيَّباتٍ مستقبَلة وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدَى إليها ولا يُوقَف عليها إلّا بتوفيق العليم الخبير، وقد جعلتموه إفكًا مفترًى مِن قَبيل الأساطير، واستوجبتم بذلك أن يُصَبَّ عليكم سوطُ العذاب صبًّا.

فقوله تعالى:[١] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تعليل لِما هو المشاهَد مِن تأخير العقوبة، أي: إنّه تعالى أزَلًا وأبَدًا مستمرّ على المغفرة والرحمة المستَتبِعتين للتأخير، فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبتكم على ما تقولون في حقّه مع كمال استيجابه إيّاها وغايةِ قدرته تعالى عليها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ شروع في حكاية جناياتهم المتعلّقة بخصوصيّة المنزَل عليه. و﴿مَا﴾ استفهاميّة بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، مرفوعةٌ على الابتداء،

---

[١] س – فقوله تعالى.

خبرُها ما بعدها مِن الجارّ والمجرور. وفي هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام.[١] وتسميتُه عليه السلام رسولًا بطريق الاستهزاء به عليه السلام، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢٧].

وقوله تعالى: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حال مِن ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، والعامل فيها ما عَمِل في الجارّ مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ شيء وأيُّ سبب حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة حالَ كونه يأكل الطعام كما نأكل، ﴿وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، على توجيه الإنكار والنفيِ إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب الذي هو مضمون الجملة الحاليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الانشقاق، ٨٤/٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح، ٧١/١٣]، فكما أنّ كلًا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِرَ واستُبعِد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب نقيضه- كذلك كلٌّ مِن الأكل والمشي أمر محقَّق قد استُبعد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب عدمه- خلا أنّ استبعاد المسبَّب وإنكارَ السبب ونفيَه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق، وفي الأكل والمشي بطريق التهكّم والاستهزاء، فإنّهم لا يستبعدونهما، ولا ينكرون سببهما حقيقةً؛ بل هم معترِفون بوجودهما وتحقّق سببهما، وإنّما الذي يستبعدونه الرسالةُ المنافيةُ لهما على زعمهم، يعنون أنّه إن صحّ ما يدّعيه فما باله لم يخالف حالُه حالَنا، وهل هو إلّا لِعَمَهِهم وركَاكة عقولِهم وقُصور أنظارهم على المحسوسات، فإنّ تَميُّز الرسل عمّن عداهم ليس بأمور جسمانيّة، وإنّما هو بأمور نفسانيّة، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [فصلت، ٤١/٦].

[١٩٢و] ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ أي: على صورته وهيئته / ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ تنزّلٌ منهم عن اقتراح أن يكون ملَكًا مستغنيًا عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه مَلَك يصدّقه، ويكون رِدْءًا له في الإنذار، وهو يُعبّر عنه ويفسّر ما يقوله للعامّة.

[١] س: عليه السلام.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ تنزّلٌ مِن تلك المرتبة إلى اقتراح أن يُلقَى إليه مِن السماء كنزٌ يَستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلًا على صدقه. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونُ[1] لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تنزّلٌ مِن ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقربُ مِن الوقوع. وقُرئ: "نَأْكُلُ"[2] بنون الحكاية، وفيه مَزيد مكابرة، وفَرطُ تحكّم.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم القائلون الأوّلون، وإنّما وُضِع المُظهَر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوزِ الحدّ فيما قالوه، لكونه إضلالًا خارجًا عن حدّ الضلال، مع ما فيه مِن نسبته صلّى الله عليه وسلّم إلى المَسحوريّة، أي: قالوا للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قد سُحِر فغُلِبَ على عقله. وقيل: ذا سَحْرٍ، وهي الرِّئة، أي: بشرًا لا مَلَكًا، على أنّ الوصف لزيادة التقرير، والأوّل هو الأنسب بحالهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترءوا على التفوّه بها، وتعجيبٌ منها، أي: انظر كيف قالوا في حقّك تلك الأقاويلَ العجيبة الخارجة عن[3] العقول، الجاريةَ لغرابتها مَجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفاتِ والأحوالَ الشاذّة البعيدةَ مِن الوقوع، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن طريق المُحاجّة حيث لم يأتوا بشيءٍ يمكن صُدوره عمّن له أدنى عقل وتمييز، فبقُوا متحيّرين، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القَدْح في نبوّتك بأن يجدوا قولًا يستقِرّون عليه وإن كان باطلًا في نفسه، أو فضلّوا عن الحقّ ضلالًا مُبينًا فلا يجدون طريقًا موصلًا إليه، / فإنّ مَن اعتادَ [١٩٢ظ]
استعمالَ أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدّمات الحقّة.

---

[1] م ط س: يكون. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مروية عن طلحة بن مصرّف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

[3] س: مِن.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا ١٠﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ﴾ أي: تكاثرَ وتزايدَ خيرُ الذي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا عاجلًا شيئًا ﴿خَيۡرٗا﴾ لك ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي اقترحوه مِن أن يكون لك جنّة تأكل منها، بأن يُعجّل لك مثلَ ما وعدك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بدل مِن ﴿خَيۡرٗا﴾ ومحقّق لخيريّته ممّا قالوا؛ لأنّ ذلك كان مطلقًا عن قيد التعدّد وجريان الأنهار. ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا﴾ عطفٌ على محلّ الجزاء الذي هو ﴿جَعَلَ﴾. وقُرئ بالرفع[١] عطفًا على نفسه؛ لأنّ الشرط إذا كان ماضيًا جاز في جزائه الجزمُ والرفع،[٢] كما في قول القائل:

وإن أتــاه خـليـلٌ يــومَ مسـألـةٍ   يقـول: لا غـائـبٌ مالي ولا حَـرِمُ[٣]

ويجوز أن يكون استئنافًا بوعد ما يكون له في الآخرة. وقُرئ بالنصب[٤] على أنّه جواب بـ"الواو". وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأنّ عدم جعلها بمَشيئته[٥] المبنيّة على الحِكم والمصالح، وعدمُ التعرّض لجواب الاقتراحَين الأوّلين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائِهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعيّة، وإنّما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإنّه غير منافٍ للحكمة بالكلّيّة، فإنّ بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوّة مُلكًا عظيمًا.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقالٌ منه إلى توبيخهم بحكاية جنايتهم الأخرى، للتخلّص إلى بيان ما لهم في الآخرة

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

٢ ط س: الرفع والجزم.

٣ لزهير بن أبي سلمى، و"الخليل" مِن "الخَلّة": الفقير، و"الحَرِم": المنع. انظر: شرح شعر زهير لثعلب، ص ١٢٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن موسى وطلحة بن سليمان وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

٥ وفي هامش م: خبر "أنّ".

بسببها مِن فنون العذاب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾... إلخ، أي: أعتدنا لهم نارًا عظيمةً شديدةَ الاشتعال شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها على ما يُشعِر به وضع الموصول / موضعَ ضميرهم، أو لكلّ مَن [١٩٣و] كذّب بها كائنًا مَن كان، وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًا.

ووضع ﴿السَّاعَةِ﴾ موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع. ومدار إعْتادِ السعير لهم وإن لم يكن مجرّدَ تكذيبهم بالساعة؛ بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعةُ الشريفة، لكن الساعة لمّا كانت هي العلّةَ القريبة لدخولهم السعير أشيرَ إلى سببيّة تكذيبها لدخولها.

وقيل: هو عطفٌ على ﴿قَالُواْ مَالِ هَٰذَا﴾... إلخ،[١] على معنى: بل أتَوا بأعجبَ مِن ذلك حيث كذَّبوا بالساعة وأنكروها، والحال أنّا قد أعتدنا لكلّ مَن كذّب بها سعيرًا، فإنّ جُرأتَهم[٢] على التكذيب بها، وعدمَ خوفِهم ممّا أُعِدّ لمَن كذّب بها مِن أنواع العذاب أعجبُ مِن القَول السابق.

وقيل: هو متّصل بما قبله مِن الجواب المبنيّ على التحقيق المُنبئ عن الوعد بالجنّات في الآخرة، مَسوقٌ لِبيان أنّ ذلك لا يُجدي نفعًا ولا يحلَى بطائل،[٣] على طريقة قولِ مَن قال:

عوجُوا لِنُعْمٍ فَحَيُّوا دِمنةَ الدارِ   ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأحْجارِ[٤]

والمعنى: أنّهم لا يؤمنون بالساعة، فكيف يقتنعون بهذا الجواب؟ وكيف يصدّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرة؟

وقيل: المعنى: بل كذّبوا بها فقصُرت أنظارهم على الحظوظ الدنيويّة، وظنّوا أنّ الكرامة ليست إلّا بالمال، وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾... إلخ صفة للسعير، أي: إذا كانت منهم بمرأى

---

١ الفرقان، ٢٥/٧.

٢ ط س: جراءتهم.

٣ قولهم: "لم يَحلَ منه بطائلٍ"، أي: لم يستفد منه كبير فائدة. الصحاح للجوهري، «حلي».

٤ للنابغة في ديوانه، ص ٢٠٢، بلفظ:

عوجوا فحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمنةَ الدارِ

الناظر في البعد، كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»،[١] أي: لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمَرأى مِن الأخرى على المجاز، كأنّ بعضها يرى البعض. ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأنّ التغيّظ والزفير منها لهَيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إيّاهم حقيقةً أو تمثيلًا.

[١٩٣ظ] / وفي قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إشعار بأنّ بُعدَ ما بينها وبينهم مِن المسافة حين رَأَتهم خارج عن حدود البُعد المعتاد في المسافات المعهودة، وفيه مزيد تهويل لأمرها. قال الكلبي والسُّدّي: «مِن مسيرة عام».[٢] وقيل: مِن مسيرة مائة سنة.[٣]

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: صوتَ تَغيّظٍ على تشبيه صوت غليانها بصوت المُغتاظ وزفيره، وهو صوت يسمع مِن جوفه. هذا، وإنّ الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبنية أمكَن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيّظ وتزفر. وقيل: إنّ ذلك لزبانيّتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٣﴾

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا﴾ نصب على الظرفيّة، و﴿مِنْهَا﴾ حال منه؛ لأنّه في الأصل صفة له. ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لـ﴿مَكَانًا﴾ مفيدة لزيادة شدّةٍ، فإنّ الكَرب مع الضيق، كما أنّ الرَّوح مع السَّعة، وهو السرّ في وصف الجنّة بأنّ عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله تعالى[٤] عنهم: «تضيق جهنّمُ عليهم كما يضيق الزُّجُّ[٥] على الرُّمح».[٦] وسُئل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، فقال:

---

١ وفي هامش م: ونسبة عدم التراثي في الحديث الشريف إلى النار للإنباء عن غاية البعد؛ لأنّ النار مع كمال ظهورها وارتفاع لهَبها إذا لم تكن مرئيّة كانت في غاية البعد. «منه». | وتمام الحديث في سنن أبي داود، ٢٨١/٤ (٢٦٤٥)؛ وسنن الترمذي، ١٥٥/٤ (١٦٠٤)، عن جرير بن عبد الله، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أنا بريء مِن كلّ مسلم يُقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، ولِمَ؟ قال: «لا تَراءَى ناراهما».

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٧٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٥/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

٤ س – تعالى.

٥ الزُّجّ: الحديدة التي في أسفل الرمح. الصحاح للجوهري، «زجج».

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٢٤٠/٦.

«والذي نفسي بيده إنّهم يُستكرَهون في النار كما يُستكرَه الوتَد في الحائط».[١] قال الكلبيّ: «الأسفلون يرفعهم اللهبُ، والأعْلَون يَحطُّهم الداخلون، فيزدحمون فيها».[٢] وقُرئ: "ضَيْقًا" بسكون الياء.[٣]

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال مِن مفعول ﴿أُلقوا﴾ أي: إذا أُلقوا منها مكانًا ضيّقًا حالَ كونهم مقرّنين قد قُرِنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع. وقيل: مقرّنين مع الشياطين في السلاسل، كلّ كافر مع شيطان، وفي أرجلهم الأصفاد.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُورًا﴾ أي: يتمنّون هلاكًا، وينادونه: "يا ثُبوراه تعالَ، فهذا حِينك وأَوانُك".

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ / على تقدير قولٍ إمّا منصوبٍ على أنّه حال [١٩٤و] مِن فاعل ﴿دَعَوْا﴾، أي: دعَوه مَقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأن يخاطبهم الملائكةُ به لِتنبيههم على خلود عذابهم، وأنّهم لا يُجابون إلى ما يدعونه، ولا ينالون ما يتمنّونه مِن الهلاك المنجّي، أو تمثيلًا وتصويرًا لِحالهم بحال مَن يقال له ذلك مِن غير أن يكون هناك قول ولا خطاب، أي: دعَوه حالَ كونهم أحِقّاءَ بأن يقال لهم ذلك؛ وإمّا مُستأنَف وقع جوابًا عن سؤال ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك إقناطًا عمّا عَلّقوا به أطماعَهم مِن الهلاك، وتنبيهًا على أنّ عذابهم المُلجئَ لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرّة أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه، أي: لا تقتصِروا على دعاء ثبورٍ واحدٍ.

﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: بحسب كثرة الدعاء المتعلّق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنّ ما يدعونه ثبور واحد في حدّ ذاته، لكنّه كلّما تعلّق به دعاء مِن تلك الأدعية الكثيرة صار كأنّه ثبور مغايِر لِما تعلّق به دعاء آخر منها.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٥/٣.

[٢] تفسير الرازي، ٤٣٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١٤.

[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

وتحقيقه: لا تدعوه دعاءً واحدًا، وادعوه أدعيةً كثيرةً، فإنّ ما أنتم فيه مِن العذاب لغاية شدّته وطول مدّته مستوجب لتكرير الدعاء في كلّ آنٍ، وهذا أدلّ على فَظاعة العذاب وهَولِه مِن جَعلِ تعدّد الدعاء وتجدّده لِتعدّد العذاب بتعدّد أنواعه وألوانه، أو لتعدّده بتجدّد الجلود كما لا يخفى.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: إنّكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا، إنّما هو ثبور كثير، إمّا لأنّ العذاب أنواع وألوان، كلُّ نوع منها ثبور لشدّته وفظاعته، أو لأنّهم كلّما نضجت جلودهم بُدِّلوا غيرَها، فلا غايةَ لهلاكهم،[١] فلا يلائم المقام، كيف لا، وهم إنّما يدعون هلاكًا يُنهي عذابَهم وينجّيهم منه؟ فلا بدّ أن يكون الجواب إقناطًا لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءَه مِن العذاب الشديد. وتقييدُ النهي والأمر بـ"اليوم" لمَزيد التهويل والتفظيع، والتنبيهِ على أنّه ليس كسائر الأيّام المعهودة.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تقريعًا لهم وتهكّمًا بهم وتحسيرًا على ما فاتهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن السعير باعتبار اتّصافها بما فُصّل مِن الأحوال الهائلة. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية / القاصية مِن الهول والفظاعة، أي: [١٩٤ظ]
قل لهم: أذلك الذي ذُكر مِن السعير التي أُعتِدَت[٢] لِمَن كذّب بالساعة -وشأنُها كَيت وكَيت، وشأنُ أهلها ذَيت وذَيت- ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعِدها المتّقون. وإضافة "الجنّة" إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدح. وقيل: للتمييز عن جنّات الدنيا. والمراد بـ"المتّقين" المتّصفون بمطلق التقوى، لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنّة ﴿لَهُمْ﴾ في علم الله تعالى، أو في اللوح، أو لأنّ ما وعده الله تعالى فهو كائن لا محالةَ، فحُكي تحقّقه ووقوعه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم حسبما مرّ مِن الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٢٦٧.

٢ أعتَد الشيء: أعدّه، قال الله عز وجلّ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا﴾ [يوسف، ١٢/٣١]، أي: هيّأت وأعدّت. لسان العرب لابن منظور، «عتد».

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاءونه مِن فنون الملاذّ والمشتهَيات وأنواع النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت، ٣١/٤١]، ولعلّ كلَّ فريق منهم يقتنع بما أُتيح له مِن درجات النعيم، ولا يمتدّ أعناقُ هِمَمهم إلى ما فوق ذلك مِن المراتب العالية، فلا يلزم الحِرمان، ولا تساوي مراتب أهل الجِنان. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مِن الضمير المستكِنّ في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. وقيل: مِن فاعل ﴿يَشَآءُونَ﴾.

﴿كَانَ﴾ أي: ما يَشاءونه. وقيل: الوعدُ المدلولُ عليه بقوله تعالى: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1] ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: موعودًا حقيقًا بأن يُسأل ويُطلَب، لكونه ممّا يتنافس فيه المتنافسون، أو مسئولًا يسأله الناس في دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣]، أو الملائكةُ بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر، ٨/٤٠].

وما في ﴿عَلَىٰ﴾ مِن معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإنّ تعلّق الإرادة بالموعود متقدِّم على الوعد الموجِب للإنجاز. وفي التعرّض / لعنوان الربوبيّة مع الإُضافة إلى ضميره عليه [١٩٥و]
السلام مِن تشريفه والإشعارِ بأنّه عليه السلام هو الفائز آثِرَ ذِي أثيرٍ بمَغانم الوعد الكريم ما لا يخفى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصب على أنّه مفعول لمُضمَر مقدَّمٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾... إلخ،[2] أي: واذكُر لهم بعد التقريع والتحسير يومَ يحشرهم الله عزّ وجلّ. وتعليق التذكير باليوم مع أنّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه مِن الحَوادث الهائلة قد مرّ وجهه غيرَ مرّة، أو على أنّه ظرف لمُضمَر مؤخَّر

---

١ في الآية السابقة.

٢ الفرقان، ١٥/٢٥.

قد حُذِف للتنبيه على كمال هَوله وفظاعة ما فيه، والإيذانِ بقصورِ العبارة عن بيانه، أي: يوم يحشرهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه المقال. وقُرئ بنون العظمة[١] بطريق الالتفات مِن الغيبة إلى التكلّم، وبكسر الشين أيضًا.[٢]

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أريدَ به ما يعمّ العقلاءَ وغيرَهم، إمّا لأنّ كلمة ﴿مَا﴾ موضوعة للكلّ كما ينبئ عنه أنّك إذا رأيت شبَحًا مِن بعيد تقول: "ما هو؟" أو لأنّه أريدَ به الوصف لا الذات، كأنّه قيل: ومعبودِيهم، أوِ لتغليب الأصنام على غيرها تنبيهًا على أنّهم مثلُها في السقوط عن رتبة المعبوديّة، أو اعتبارًا لِغلبة عبَدَتِها، أو أريدَ به الملائكةُ والمسيحُ وعُزيرٌ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام يُنطقها الله تعالى، أو تُكلِّمُ بلسان الحال كما قيل: في شهادة الأيدي والأرجل.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للمعبودين إثرَ حشر الكلّ تقريعًا لِلعَبَدة وتبكيتًا لهم. وقُرئ بالنون[٣] كما عُطف عليه. وقُرئ هذا بالياء والأوّل بالنون[٤] على طريق الالتفات إلى الغيبة.

﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دَعوتموهم إلى عبادتكم كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥].

﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح، [١٩٥ظ] وإعراضِهم عن المُرشد، فحُذف الجارّ، وأُوصلَ / الفعلُ إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]، والأصل: إلى السبيل، أو للسبيل. وتقديم الضميرين على الفعلين لِما أنّ المقصود بالسؤال هو المتصدّي للفعل، لا نفسُه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجّبًا ممّا قيل لهم؛ لأنّهم إمّا ملائكة معصومون، أو جمادات لا قدرةَ لها على شيء، أو إشعارًا بأنّهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده، فكيف يتأتّى منهم إضلال عباده؟ أو تنزيهًا له تعالى عن الأنداد.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أي: متجاوزين إيّاك ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نعبدهم لِما بِنا مِن الحالة المنافية له، فأنّى يُتصوّر أن نحمِل غيرنا على أن يتّخذ وليًّا غيرَك، فضلًا أن يتّخذنا وليًّا؟ أو أن نتّخذ مِن دونك أولياء، أي: أتباعًا، فإنّ "الوليّ" كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع، كـ"المَولى" يطلق على الأعلى والأسفل، ومنه "أولياء الشيطان" أي: أتباعه.

وقُرئ على البناء للمفعول[١] مِن المتعدّي إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء، ١٢٥/٤]، ومفعوله الثاني ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ على أنّ ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي: أن نُتخَذ بعضَ أولياء، وهي على الأوّل مزيدة. وتنكير ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن حيث إنّهم أولياء مخصوصون، وهم الجنّ والأصنام.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ استدراك مسوق لبيان أنّهم هم الضالّون بعد بيان تنزّههم عن إضلالهم. وقد نُعِيَ عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابًا للضلالة، أي: ما أضللناهم، ولكنّك متّعتَهم / وآباءَهم بأنواع [١٩٦و] النِّعم ليعرفوا حقّها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمَكوا فيها ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: غفِلوا عن ذِكرك، أو عن التذكّر في آلائك، والتدبّرِ في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعةً إلى الغواية.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: في قضائك المبنيّ على علمك الأزلي المتعلِّق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم مِن الأعمال السيّئة ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هالكين، على أنّ ﴿بُورٗا﴾

---

١ أي: "نُتّخَذَ". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمعُ "بائر" كـ"عُوذ" في جمع "عائذ". والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبَدة بطريق تلوين الخطاب، وصرفِه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهِه إلى العبَدة مبالغةً في تقريعهم وتَبكيتهم على تقدير قولٍ مرتَّبٍ على الجواب، أي: فقال الله تعالى عند ذلك: فقد كذَّبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم: إنّهم آلِهَةٌ. وقيل: في قولكم: هؤلاء أضلّونا،[1] ويأباه أنّ تكذيبهم في هذا القول لا تعلّقَ له بما بعده مِن عدم استطاعتهم للصَّرف والنصر أصلًا، وإنّما الذي يستتبعه تكذيبُهم فِي زعمهم أنّهم آلهتهم وناصروهم. وأيًّا ما كان فـ"الباء" بمعنى "في"، أو هي صلة للتكذيب على أنّ الجارّ والمجرور بدل اشتمالٍ مِن الضمير المنصوب. وقُرئ بـ"الياء"،[2] أي: كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ الآية.[3]

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ما تَملكون ﴿صَرْفًا﴾ أي: دفعًا للعذاب عنكم بوجه مِن الوجوه كما يُعرِب عنه التنكير، أي: لا بالذّات ولا بالواسطة. وقيل: حيلةً، مِن قولهم: "إنّه لَيتصرّف في أموره"، أي: يَحتال فيها. وقيل: توبةً. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فردًا مِن أفراد النصر، لا مِن جهة أنفسكم، ولا مِن جهة غيركم. و"الفاء" لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها مِن التكذيب، لكن لا على معنى أنّه لولاه لَوُجِدت الاستطاعة حقيقةً؛ بل في زعمهم، حيث كانوا يزعمون أنّهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم، وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٠/٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.
٣ في الآية السابقة.

/ وقُرئ: "يَسْتَطِيعُونَ"[١] على صيغة الغيبة، أي: ما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا [١٩٦ظ] عنكم العذاب، أو يحتالوا لكم، ولا أن ينصروكم. وتَرتّبُ ما بعد "الفاء" على ما قبلها كما مرّ بيانه.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلّفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا متن المكابَرة والعِناد، واستمرّوا على ما هم عليه مِن الفساد، وتجاوزوا في اللَّجاج كلّ حدّ معتاد ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَر قدرُه، وهو عذابُ النار. وقُرئ: "يُذِقْهُ"[٢] على أنّ الضمير لله سبحانه. وقيل: لمصدر الفعل الواقع شرطًا. وتعميم الظلمِ لا يستلزم اشتراكَ الفاسق للكافر في إذاقة العذاب الكبير، فإنّ الشرط في اقتضاء الجزاء مقيّد بعدم المزاحِم وِفاقًا، وهو التوبة، والإحباطِ بالطاعة إجماعًا، وبالعفوِ عندنا.[٣]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ جواب عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.[٤] والجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ صفة لموصوف قد حُذف ثقةً بدلالة الجارّ والمجرور عليه، وأقيمت هي مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]. والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحدًا مِن المرسلين إلّا آكلين وماشين. وقيل: ﴿فِى﴾ حال، والتقدير: إلّا وإنّهم لَيأكلون... إلخ. وقُرئ: "يُمَشُّونَ"[٥] على البناء للمفعول، أي: يمَشّيهم حوائجهم أو الناس.

---

١ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨٤/٨.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤. قال الشهاب: «وقوله: "وِفاقًا" أي: منّا ومِن المعتزلة، والتوبةُ شاملة للكفر والفسق، وقوله: "عندنا" أي: معاشر أهل السنة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤١٣/٦.

٤ الفرقان، ٧/٢٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما وعبد الرحمن بن عبد الله. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩٤/٨.

[١٩٧و] / ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب، والمراد بهذا البعض كفّارُ الأمم، فإنّ اختصاصهم بالرسل وتبعيّتهم لهم مصحِّح لأن يُعَدُّوا بعضًا منهم، وبما في قوله تعالى: ﴿لِبَعْضٍ﴾ رسُلُهم، لكن لا على معنى: جعلنا مجموعَ البعض الأوّل ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً ومِحنةً لِمجموع البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا كلّ فرد مِن أفراد البعض الأوّل فتنةً لكلّ فرد مِن أفراد البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا بعضًا مبهمًا مِن الأوّلين فتنةً لبعض مبهم مِن الآخرين ضرورةَ أنّ مجموع الرسل مِن حيث هو مجموعٌ غيرُ مفتون بمجموع الأمم، ولا كلُّ فرد منهم بكلّ فرد مِن الأمم، ولا بعضٌ مبهم مِن الأوّلين ببعض مبهم مِن الآخرين؛ بل على معنى: جعلنا كلّ بعضٍ معيّن مِن الأمم فتنةً لبعضٍ معيّن مِن الرسل، كأنّه قيل: وجعلنا كلَّ أمّةٍ مخصوصةٍ مِن الأُمم الكافرة فتنةً لرسولها المعيّن المبعوث إليها، وإنّما لم يصرَّح بذلك تعويلًا على شهادة الحال.

هذا، وأمّا تعميم الخطاب لجميع المكلّفين، وإبقاءُ البعضَين على العموم والإبهام، على معنى: وجعلنا بعضكم أيّها الناس فتنةً لبَعض آخر منكم؛[١] فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فإنّه غاية للجعل المذكور، ومِن البيّن أن ليس ابتلاء كلِّ أحد مِن آحاد الناس مُغيًّا بالصبر؛ بل بما يناسب حاله، على أنّ الاقتصار على ذكره مِن غير تعرّض لِمُعادله ممّا يدلّ على أنّ اللائق بحال المفتونين والمتوقَّعَ صدورُه عنهم هو الصبر لا غير، فلا بدّ أن يكون المراد بهم الرسلَ فيحصل به تسليته عليه السلام، فالمعنى: جرَت سنّتنا بموجَب حِكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصَبتهم لهم العداوةَ، وإيذائِهم لهم، وأقاويلِهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبرَكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعد كريم للرسول عليه السلام بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه السلام بالالتفات إلى اسم الربّ مضافًا إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم.

---

١ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢١/٤.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾

/ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شروع في حكاية بعضٍ آخر مِن أقاويلهم [١٩٧ظ] الباطلة، وبيانِ بطلانها إثرَ إبطال أباطيلهم السابقة. والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾... إلخ.[١] ووضعُ الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ ما يُحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمّن يعتقد المصير إلى الله عزّ وجلّ.

ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته مِن غير أن يمنع مانع مِن إدراكه بوجهٍ مِن الوجوه. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث والحشر، أو لقاءُ حسابه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة، ٦٩/٢٠]، وبعدم رجائهم إيّاه عدمُ توقّعهم له أصلًا لإنكارهم البعثَ والحسابَ بالكلّيّة، لا عدمُ أملِهم حسنَ اللقاء، ولا عدمُ خوفِهم سوءَ اللقاء؛ لأنّ عدمهما غير مستلزم لِما هم عليه مِن العتوّ والاستكبار وإنكارِ البعث والحساب رأسًا، أي: وقال الذين لا يتوقّعون الرجوعَ إلينا أو حسابَنا المؤدّيَ إلى سوء العذاب الذي يستوجبه مقالتهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلّا أُنزِلوا علينا ليخبرونا بصدق محمّد عليه السلام.

وقيل: هلّا أُنزِلوا علينا بطريق الرسالة، وهو الأنسب لقولهم: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ مِن حيث إنّ كِلا القولَين ناشئ عن غاية غلوّهم في المكابرة والعتوّ حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: في شأنها حتّى اجترءوا على التفوّه بمثل هذه العظيمة الشنعاء، ﴿وَعَتَوۡ﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيانِ ﴿عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ بالغًا أقصى غاياته حيث أمّلوا نَيل مرتبة المفاوَضة الإلهيّة مِن غير توسّط الرسول والملَك، كما قالوا: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ٢/١١٨]، ولم يكتفوا بما عايَنوا مِن المعجزات القاهرة التي تخِرّ لها / صُمُّ الجبال، فذهبوا في الاقتراح [١٩٨و] كلَّ مذهب حتّى مَنّتهم أنفسُهم الخبيثةُ أمانيَّ لا تكاد تَرنُو إليها أحداقُ الأمم،

---

[١] الفرقان، ٢٥/٧.

ولا يمتدّ إليها أعناق الهِمم، ولا ينالها إلّا أولو العزائم الماضية مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: واللهِ لقد استكبروا... الآية. وفيه مِن الدلالة على غاية قُبح ما هم عليه والإشعارِ بالتعجّب مِن استكبارهم وعُتوّهم ما لا يخفى.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقَونه عند مشاهدتهم لِما اقترحوه مِن نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيانِ كونه في غاية ما يكون مِن الشناعة. وإنّما قيل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دون أن يقال: "يوم يُنَزَّلُ الملائكةُ" إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه؛ بل على وجهٍ آخر غيرِ معهود.

و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفيّة بما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنّه في معنى: لا يُبَشَّرُ يومئذ المجرمون. والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي "البشرى". وما قيل: مِن أنّه بمعنى: يُمنَعون البُشرى، أو يُعْدَمُونها؛[1] تهوينٌ للخَطب في مقام التهويل، فإنّ منع البُشرى وفقدانَها مُشعِران بأنّ هناك بُشرى يُمنَعونها أو يَفقِدونها، وأين هذا مِن نفيها بالكلّيّة؟ وحيث كان نفيها كنايةً عن إثبات ضدّها كما أنّ نفي المحبّة في مِثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ[2] ٱللَّهَ[3] لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران، ٣٢/٣] كنايةٌ عن البغض والمَقت دلّ على ثبوت النُّذْرَى لهم على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وقيل: منصوب بفعل مقدّر يؤكّده ﴿بُشْرَىٰ﴾ على أنّ ﴿لَا﴾ غير نافية للجنس. وقيل: منصوب على المفعوليّة بمُضمَر مقدَّم عليه، أي: اذكُر يوم رؤيتهم الملائكة. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على كلّ حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه مِن الإيذان

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤.

٢ م ط س - فإنّ.

٣ م ط س: والله. | وهو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران، ٥٧/٣].

بأنّ تقديم الظرف للاهتمام، لا لقصر نفي البُشرى على ذلك الوقت فقط، فإنّ ذلك مخِلّ بتفظيع حالهم.

و﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تَبيين على أنّه مُظهَر وُضع موضع الضمير تسجيلًا عليهم بالإجرام مع ما هم عليه مِن الكفر. وحملُه على العموم بحيث يتناول فسّاق المؤمنين، ثمّ الالتجاءُ في إخراجهم عن الحرمان الكلّي إلى أنّ / نفي البُشرى [١٩٨ظ] حينئذ لا يستلزم نفيه في جميع الأوقات، فيجوز أن يُبشَّروا بالعفو والشفاعة في وقت آخر؛[١] بمَعزِل مِن الحقّ بعيدٍ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على ما ذُكر مِن الفعل المنفيّ المُنبئ عن كمال فظاعة ما يَحيق بهم مِن الشرّ وغايةِ هَوْل مَطلَعه ببيان أنّهم يقولون عند مشاهدتهم له: ﴿حِجۡرًا مَّحۡجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلّمون بها عند لقاء عدوّ مَوتور، وهجومِ نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون مِن الله تعالى أن يمنع المكروهَ فلا يلحقهم، فكأنّ المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعًا ويَحجُره حَجْرًا. وكَسر "الحاءِ" تصرّفٌ فيه لاختصاصه بموضع واحدٍ، كما في "قِعْدَكَ" و"عَمْرَكَ".[٢] وقد قُرئ: "حُجْرًا" بالضمّ.[٣]

والمعنى: أنّهم يطلبون نزولَ الملائكة عليهم السلام ويقترحونه، وهم إذا رَأَوهم كرهوا لقاءَهم أشدَّ كراهة، وفزِعوا منهم فزعًا شديدًا، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خَطبٍ شَنيع، وحُلول بأسٍ فظيع.

و﴿مَّحۡجُورًا﴾ صفة لـ﴿حِجۡرًا﴾ وإرادة للتأكيد، كما قالوا: "ذَيلٌ ذائل"، و"لَيلٌ أَلْيَل". وقيل: يقولها الملائكة إقناطًا للكفرة، بمعنى: حرامًا محرّمًا عليكم الغفران أو الجنّة أو البشرى، أي: جعل الله تعالى ذلك حرامًا عليكم،[٤] وليس بواضح.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤.

٢ "قِعدَكَ اللهَ" بالكسر: استعطافٌ، لا قسَم، بدليل أنّه لم يجئ جوابُ القسم، وهو مصدرٌ واقع مَوقع الفعل بمنزلة "عَمرَك اللهَ"، أي: عَمَرتُكَ اللهَ، ومعناه: سألتُ اللهَ تَعميرك، وكذلك: "قِعدَكَ اللهَ"، تقديره: قَعدتُك اللهَ، أي: سألت الله حِفظك. القاموس المحيط للفيروزابادي، «قعد».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٤.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بيان لحال ما كانوا يعملونه في الدنيا مِن صلة رحِم، وإغاثةِ ملهوف، وقِرى ضيف، ومَنٍّ على أسير، وغير ذلك مِن مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَنالوا ثوابَها، بتمثيل حالهم وحالِ أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانَهم واستعصَوا عليه، فقدِم إلى أشيائهم، وقصَدَ إلى ما تحت أيديهم، فأنحى عليها بالإفساد والتحريق، ومزّقها كلّ تمزيق، بحيث لم يدع لها عينًا ولا أثرًا، أي: عمِدنا إليها وأبطلناها، أي: أظهرنا بطلانها بالكلّيّة مِن غير أن يكون هناك قدوم ولا شيء يُقصَدُ تشبيهُه به.

و"الهباء" شِبه غبارٍ يُرى في شعاع الشمس يطلع مِن الكُوّة، مِن "الهَبوة"، وهي الغبار، و﴿مَّنثُورًا﴾ صفته، شبّه به أعمالهم المُحبَطة في الحقارة وعدم الجَدوى، ثمّ بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه، أو مفعول ثالث مِن حيث إنّه كالخبر بعد الخبر، كما في قوله تعالى: / ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [١٩٩و]
[الأعراف، ١٦٦/٧].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾... إلخ.[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكون ما ذُكِر مِن عدم التبشير وقولِهم: "حِجرًا مَحجورًا"، وجَعْلِ أعمالهم هباءً منثورًا ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ "المستقَرّ" المكانُ الذي يُستَقَرّ فيه في أكثر الأوقات للتجالُس والتحادُث.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ "المَقيل" المكان الذي يُئوَى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتّع بمغازلتهنّ، سمّي بذلك لِما أنّ التمتّع به يكون وقت القيلولة غالبًا. وقيل: لأنّه يُفرَغُ مِن الحساب في منتصف ذلك اليوم فيَقِيل أهلُ الجنّة في الجنّة،

---
١ الفرقان، ١٥/٢٥.

وأهلُ النار في النار. وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيريّة بعطفه على "المستقرّ" رمزٌ إلى أنّه مزيّن بفنون الزِّيَنِ والزخارف.

والتفضيل المعتبَر فيهما إمّا لإرادة الزيادة على الإطلاق، أي: هم في أقصى ما يكون مِن خيريّة المستقَرّ وحُسنِ المَقيل، وإمّا بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعِّمين في الدنيا، أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكّم بهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الآيةَ.[1] هذا، وقد جُوّز أن يُراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارةً إلى أنّ مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيّل مِن الأمكنة والأزمنة.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ أي: تتفتّح، وأصله "تَتَشَقَّقُ"، فحُذفت إحدى التاءين كما في "تلظّى".[2] وقُرئ بإدغام التاء في الشين.[3] ﴿بِالْغَمَامِ﴾ بسبب طلوع الغَمام منها، وهو الغمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة، ٢/٢١٠]. قيل: هو غمام أبيض رقيق مثلُ الضبابة، ولم يكن إلّا لبني إسرائيل.

﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: تنزيلًا عجيبًا غيرَ معهود، قيل: تنشقّ سَماءٌ سَماءٌ، وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد. وقُرئ: "وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ"،[4] و"نُنْزِلُ"،[5] و"نُنَزِّلُ"[6] على صيغة المتكلّم مِن الإنزال والتنزيل، / و"نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ"،[7] و"نَزَلَ الْمَلَائِكَةُ"،[8] و"نُزِلَ الْمَلَائِكَةُ"[9] على حذف النون الذي هو فاء الفعل مِن "نُنَزِّلُ". [١٩٩ظ]

---

١ الفرقان، ٢٥/١٥.

٢ مِن قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل، ٩٢/١٤].

٣ أي: "تَشَّقَّقُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٦ قراءة شاذّة، نسبها أبو حيّان إلى بعض المصاحف. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ وخارجة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: السلطنة القاهرة والاستيلاءُ الكلّي العامّ، الثابتُ صورةً ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا، بحيث لا زوالَ له أصلًا؛ ثابتٌ للرحمن يومئذ. فـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفته، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ. وفائدة التقييد أنّ ثبوت المُلك المذكور له تعالى خاصّةً يومئذ، وأمّا فيما عداه مِن أيّام الدنيا فيكون لغيره أيضًا تصرّف صوري في الجملة.

وقيل: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أو بمحذوف على التبيين، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ٱلْحَقُّ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمول لـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. وقيل: الخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعت لـ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ على ما ذُكر. وأيًا ما كان، فالجملة بمعناها عاملة في الظرف، أي: ينفرد الله تعالى بالمُلك يوم تشقّقُ. وقيل: الظرف منصوب بما ذُكر، فالجملة حينئذ استئناف مَسوق لبيان أحواله وأهواله.

وإيراده تعالى بعنوان الرحمانيّة للإيذان بأنّ اتّصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهوّن الخطبَ على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٨٢/٦]، والمعنى أنّ المُلك الحقيقي يومئذ للرحمن.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم مع كون المُلك فيه لله المبالِغ في الرحمة لعباده ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا / لهم. وتقديم الجارّ والمجرور لمراعاة الفواصل.[١] [٢٠٠و]
وأمّا للمؤمنين فيكون يسيرًا بفضل الله تعالى. وقد جاء في الحديث: «أنّه يَهُون يومُ القيامة على المؤمن حتّى يكونُ أخفَّ عليه مِن صلاةٍ مكتوبةٍ صلّاها في الدنيا».[٢] والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

---

[١] وفي هامش م: لا للقصر؛ لأنّه معلوم على تقدير التأخير أيضًا. «منه».

[٢] مسند أحمد، ٢٤٦/١٨ (١١٧١٧)؛ صحيح ابن حبان، ٣٢٩/١٦ (٧٣٣٤). وتمامه: عن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يومًا كان مقداره خمسين ألف سنةٍ، ما أطولَ هذا اليوم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، إنّه لَيُخفّف على المؤمن، حتّى يكون أخفّ عليه مِن صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين والأنامل وأكلُ البَنان وحرقُ الأسنان ونحوُها كنايات مِن الغيظ والحسرة؛ لأنّها مِن روادفها.

والمراد بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ إمّا عُقبةُ بن أبي مُعَيط[1] على ما قيل مِن أنّه كان يكثر مجالسة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[2] فدعاه عليه السلام يومًا إلى ضيافته، فأبى عليه السلام أن يأكل مِن طعامه حتّى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان أُبيّ بن خلف صديقَه فعاتبه، وقال: «صَبأتَ»، فقال: «لا، ولكن آلَى أن لا يأكل مِن طعامي وهو في بيتي، فاستحيَيتُ منه، فشهِدتُ له»، فقال: «إنّي لا أرضى منك إلّا أن تأتيَه فتطأَ قفاه، وتبزقَ في وجهه»، فوجده ساجدًا في دار الندوة، ففعل ذلك، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجًا مِن مكّة إلّا علَوتُ رأسَك بالسيف»، فأُسِر يومَ بدر، فأمرَ عليًّا رضي الله عنه فقتله. وقيل: قتله عاصم بن ثابت الأنصاري.[3] وطعن عليه السلام أُبيًّا يوم أُحدٍ في المبارزة، فرجع إلى مكّة فمات.[4]

وإمّا جنس الظالم، وهو داخل فيه دخولًا أوّليًّا. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ﴾... إلخ حال مِن فاعل ﴿يَعَضُّ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾... إلخ محكيّ به، و"يا" إمّا لمجرّد التنبيه مِن غير قصدٍ إلى تعيين المنبَّه، أو المنادى محذوف، أي: يا هؤلاء ليتني ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا واحدًا منجيًا مِن هذه الوَرطات، / وهو طريق الحقّ، ولم تتشعّب بي طرق الضلالة، أو حصّلتُ في صحبته عليه السلام طريقًا، ولم أكن ضالًّا لا طريقَ لي قطّ. [٢٠٠ظ]

---

[1] عقبة بن أبي مُعيط قُتل يوم بدر كافرًا، واسم أبي مُعيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. **تهذيب الأسماء واللغات** للنووي، ٣٣٧/١.

[2] س: عليه السلام.

[3] هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي، أبو سليمان (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مِن السابقين الأوّلين مِن الأنصار. شهِد بدرًا وأحُدًا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واستشهد يوم الرجيع، ورثاه حسّان بن ثابت. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٦٠/٣؛ **والاعلام** للزركلي، ٢٤٨/٣.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٣٠/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٦/٣.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨﴾

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ بقَلبِ "ياء المتكلّم" ألِفًا، كما في "صحارَى" و"مَدارَى".[١] وقُرئ على الأصل: "يَا وَيۡلَتِيۡ"،[٢] أي: هَلَكَتي تَعالَي واحضُري فهذا أوانُكِ، ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ يريد مَن أضلّه في الدنيا، فإنّ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الأعلام، كما أنّ "الْهَنَ" كناية عن الأجناس.[٣] وقيل: "فُلان" كناية عن علَم ذكور مَن يعقل، و"فُلانة" عن علَم إناثهم. و"فُلٌ" كناية عن نكرة مَن يعقل مِن الذكور، و"فُلَة" عمّن يعقل مِن الإناث، و"الفُلان" و"الفُلانة" عن غير العاقل، ويختصّ "فُلٌ" بالنداء إلّا في ضرورة، كما في قوله:

في لَجّة[٤] أَمْسِكْ فلانًا عن فُلِ[٥]

وقولِه:

خذا حَدِّثاني عن فُلٍ وفُلانِ[٦]

وليس "فُل" مرخَمًا مِن "فُلان" خلافًا للفرّاء.[٧] واختلفوا في لام "فُلٍ" و"فُلان"، فقيل: "واو"، وقيل: "ياء".

هذا، فإن أُريدَ بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عُقبة فـ"فُلان" كناية عن أُبيّ، وإن أُريدَ به الجِنسُ فهو كناية عن عَلَم كلِّ مَن يُضلّه كائنًا مَن كان مِن شياطين الإنس والجنّ، وهذا التمنّي منه وإن كان مَسوقًا لإبراز الندَم والحسرة لكنّه متضمّن لنوع تعلّلٍ واعتذارٍ بِتَوريك[٨] جنايته إلى الغير.

---

١ وفي هامش م: جمع "مَدراء" تأنيث "أمدَر"، وهو ضخم النطق. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «مدر».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٣ انظر: المُغرب للمطرّزي، «هنو».

٤ وفي هامش م: "اللَّجّة" كثرة الأصوات. «منه». | الصحاح للجوهري، «لجج».

٥ صدره:

تَدافُعَ الشيبُ ولَم تَقتلِ

وهو لأبي النجم في الصحاح للجوهري، «فلل»؛ ولسان العرب لابن منظور، «فلل».

٦ وفي هامش م: تمامه:

لعلّي أرى باقٍ على الحدثانِ

وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

٧ انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٤٣٠/١.

٨ تَوريك الرجلِ ذنبَه غيرَه كأنّه يُلزمه إيّاه. ووَرَّكَ فلانٌ ذنبَه على غيره تَوريكًا إذا أضافه إليه وقَرَفه به. لسان العرب لابن منظور، «ورك».

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾

وقوله تعالى:[١] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ تعليل لتمنّيه المذكور وتوضيح لتعلّله. وتصديره بـ"اللام" القسَميّة للمبالغة في بيان خَطئه، وإظهارِ ندَمه وحسْرته، أي: واللهِ لقد أضلّني عن ذكر الله تعالى، أو عن القرآن، أو عن موعظة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو كلمة الشهادة، ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ وتمكّنت منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: مبالِغًا في الخذلان حيث يواليه حتّى يؤدّيه إلى الهلاك، ثمّ يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرّر لمَضمون ما قبله، / إمّا مِن جِهته تعالى، أو مِن تمام كلام الظالم، على أنّه سمّى خليله [٢٠١و] شيطانًا بعد وصفه بالإضلالِ الذي هو أخصّ الأوصاف الشيطانيّة، أو على أنّه أراد بـ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إبليس؛ لأنّه الذي حمله على مُخالّة المضلّين ومخالفةِ الرسول الهادي عليه السلام بوسوسته وإغوائه، فإنّ وصفه بالخِذلان يُشعر بأنّه كان يَعِدُه في الدنيا، ويُمَنّيه بأنّه ينفعه في الآخرة، وهو أوفق لحال إبليس.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾،[٢] وما بينهما اعتراض مَسوق لاستعظام ما قالوه، وبيانِ ما يَحيق بهم في الآخرة مِن الأهوال والخطوب. وإيرادُه عليه السلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحقّ والردّ على نحورهم حيث كان ما حُكِي عنهم قدحًا في رسالته عليه السلام، أي: قالوا: كَيت وكَيت، وقال الرسول إثرَ ما شاهد منهم غاية العتوّ ونهاية الطغيان بطريق البثّ إلى ربّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ يعني الذين حُكي عنهم ما حُكِي مِن الشنائع ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي مِن جملته هذه الآيات الناطقة بما يَحيق بهم في الآخرة مِن فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الإشارة.

﴿مَهْجُورًا﴾ أي: متروكًا بالكلّيّة، ولم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثّروا بوعيده، وفيه تلويح بأنّ مِن حقّ المؤمن أن يكون كثيرَ التعاهُد للقرآن،

---

[١] م - تعالى.

[٢] الفرقان، ٢٥/٢١.

كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم، فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن تعلّم القرآن وعلّق مصحفًا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلّقًا به يقول: يا ربّ العالمين عبدُك هذا اتّخذني مهجورًا، اقضِ بيني وبينه».[١]

[٢٠١ظ] وقيل: هو مِن "هَجَرَ" إذا هَذَا، أي: جعلوه مهجورًا فيه، / إمّا على زعمهم الباطل، وإمّا بأن هَجَروا فيه إذا سمعوه، كما يُحكَى عنهم مِن قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت، ٢٦/٤١].

وقد جُوّز أن يكون "المَهجور" بمعنى "الهَجْر" كالمَجلود والمعقول، فالمعنى: اتّخذوه هَجْرًا وهذيانًا. وفيه مِن التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإنّ الأنبياء إذا شكَوا إلى الله عزّ وعلا[٢] قومَهم عُجّل لهم العذاب، ولم يُنظَروا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وحَملٌ له على الاقتداء بمَن قبله مِن الأنبياء عليهم السلام، أي: كما جعلنا لك أعداءً مِن المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون مِن الأباطيل، جعلنا لكلّ نبيّ مِن الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوًّا مِن مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعدٌ كريم له عليه السلام بالهداية إلى كافّة مَطالبه، والنصرِ على أعدائه، أي: كفاك مالِكُ أمرِك ومبلّغك إلى الكمال هاديًا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي مِن جملتها تبليغ الكتاب أجلَه، وإجراءُ أحكامه في أكناف الدنيا إلى يوم القيامة، ونصيرًا لك على جميع مَن يعاديك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لاقتراحهم الخاصّ بالقرآن الكريم بعد حكاية

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٢/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٣.

٢ س: تعالى.

اقتراحهم في حقّه عليه السلام، والقائلون هم القائلون أوّلًا، وإيرادهم بعنوان الكفر لذمّهم به، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ "التنزيل" ههنا مجرّد عن معنى التدريج كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء، ١٥٣/٤]. ويجوز أن يُراد به الدلالة على كثرة المنزَّل في نفسه، أي: هلّا أُنزِل كلّه ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كالكتب الثلاثة.

وبطلان هذه الكلمة الحمقاءِ ممّا لا يكاد يخفى على أحد، فإنّ الكتب المتقدّمة لم يكن شاهدُ صحّتِها ودليلُ كونها مِن عند الله تعالى / إعجازَها، [٢٠٢و] وأمّا القرآن الكريم فبيّنةُ صحّتِه وآيةُ كونِه مِن عند الله عزّ وجلّ[١] نظمُه المعجِز الباقي على مرّ الدهور المتحقِّقُ في كلّ جزء مِن أجزائه المقدّرة بمقدار أقصر السوَر حسبما وقع به التحدّي، ولا ريب في أنّ ما يدور عليه فلَك الإعجاز هو المطابقة لِما يقتضيه الأحوال، ومِن ضرورة تغيّرها وتجدّدها تغيّرُ ما يطابقها حتمًا، على أنّ فيه فوائدَ جمّة قد أشيرَ إلى بعضٍ منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فإنّه استئناف وارد مِن جهته تعالى لردّ مقالتهم الباطلة، وبيانِ الحكمة في التنزيل التدريجي.

ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمُضمَر معلَّل بما بعده، وذلك إشارة إلى ما يُفهم مِن كلامهم، أي: مثلَ ذلك التنزيل المفرَّقِ الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافَه نزّلناه، لا تنزيلًا مغايرًا له؛ لنُقوّي بذلك التنزيل المفرَّق فؤادَك، فإنّ فيه تيسيرًا لحِفظ النظم، وفهمِ المعاني، وضبطِ الأحكام، والوقوفِ على تفاصيل ما رُوعي فيها مِن الحِكَم والمصالح المبنيّة على المناسبة، على أنّها مَنوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداءً أو تبديلًا بالنسخ مِن أحوال المكلّفين. وكذلك عامّة ما ورد في القرآن المجيد مِن الأخبار وغيرها، متعلّقةٌ بأمور حادثة مِن الأقاويل والأفاعيل، ومِن قضيّة تجدّدها تجدّدُ ما يتعلّق بها، كالاقتراحات الواقعة مِن الكفرة الداعيةِ إلى حكايتها وإبطالها،

---

١ س: تعالى.

وبيانِ ما يئول إليه حالهم في الآخرة، على أنّهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حَتفه بظِلْفه، حيث أُمِروا بالإتيان بمِثل نوبةٍ مِن نُوَبِ التنزيل، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف لو تُحدُّوا بكلّه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ عطفٌ على ذلك المُضمَر. وتنكير ﴿تَرۡتِيلٗا﴾ للتفخيم، أي: كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلًا / بديعًا لا يُقادَر قدرُه، ومعنى "ترتيله" تفريقُه آيةً بعد آية، قاله النخعي والحسَن وقتادة رحمهم الله.[١] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بيّنّاه بيانًا فيه ترتيل وتثبيت».[٢] وقال السدّي: «فصّلناه تفصيلًا».[٣] وقال مجاهد: «جعلنا بعضه في إثر بعض».[٤] [٢٠٢ظ]

وقيل: هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل، ٤/٧٣]. وقيل: قرأناه عليك بلسان جبريل شيئًا فشيئًا في عشرين أو في ثلاثٍ وعشرين سنةً على تُؤَدة وتَمهّل.

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ مِن الأمثال التي مِن جملتها ما حُكِي مِن اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجاريةِ لذلك مَجرى الأمثال، أي: لا يأتونك بكلام عجيب هو مَثَل في البطلان يريدون به القَدْح في حقّك وحقِّ القرآن ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ﴾ في مقابلته ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالجواب الحقّ الثابت الذي يُنحِي عليه بالإبطال، ويحسِم مادّة القيل والقال، كما مرّ مِن الأجوبة الحَقّة القالعة لعروق أَسْوِلتِهم[٥] الشنيعة الدامغة لها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، أي: جئناك بأحسنَ تفسيرًا، أو على محلّ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: آتيناك الحقّ وأحسنَ تفسيرًا، أي: بيانًا[٦]

---

١ س – رحمهم الله.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٩/١٤.
٥ "أسوِلة" لغة في "أسئلة"، مفردها سوال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سول».
٦ م: معنًى ["صح" في الهامش].

وتفصيلًا،[١] على معنى أنّه في غاية ما يكون مِن الحُسن في حدّ ذاته، لا أنّ ما يأتون به له حُسن في الجملة وهذا أحسنُ منه كما مرّ.

والاستثناء مفرّغ محلّه النصب على الحاليّة، أي: لا يأتونك بمَثَلٍ إلّا حالَ إيتائنا إيّاك الحقَّ الذي لا مَحيد عنه. وفيه مِن الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أَتَوا به وتثبيتِ فؤاده عليه السلام ما لا يخفى.

وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأَسْوِلة، وبصحّة جميع الأجوبة، وبإشارته مُنبِئٌ عن بطلان السؤال الأخير وصحّة جوابه، إذ لولا أنّ تنزيل القرآن على التدريج لَما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة، ولَما حصل تثبيتُ فؤادِه عليه السلام / مِن تلك الحيثيّة. [٢٠٣و]

هذا، وقد جوّز أن يكون "المَثَل" عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه السلام عليها، مِن مقارنة الملَك، والاستغناءِ عن الأكل والشرب، وحيازةِ الكنز والجنّة، ونزولِ القرآن عليه جملةً واحدة، على معنى: لا يأتونك بحالة عجيبة يقترحون اتّصافك بها قائلين: هلّا كان على هذه الحالة، إلّا أعطيناك نحن مِن الأحوال الممكنة ما يحقّ لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ تكشيفًا لِما بُعثتَ عليه، ودلالةً على صحّته، وهو الذي أنت عليه في الذات والصفات.[٢]

ويأباه الاستثناء المذكور، فإنّ المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى مِن الحقّ مترتّبًا على ما أتَوا به مِن الأباطيل دامغًا لها، ولا ريب في أنّ ما آتاه الله تعالى مِن المَلَكات السنيّة اللائقة بالرسالة قد آتاه مِن أوّل الأمر، لا بمقابلة ما حُكي عنهم مِن الاقتراحات لأجل دَمغِها وإبطالِها.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُحشرون كائنين على وجوههم، يُسحبون عليها ويُجرّون إلى جهنّم. وقيل: مقلوبين وجوههم على قفاهم

---

[١] م: ومؤدّى ["صح" في الهامش].

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٧٩/٣.

وأرجلهم إلى فوق. رُوي عنه عليه السلام: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاثٍ؛ ثلُث على الدوابّ، وثلُث على وجوههم، وثلُث على أقدامهم ينسلون نسلًا».[١]

وأمّا ما قيل: متعلّقة قلوبُهم بالسفليّات متوجّهة وجوههم إليها،[٢] فبعيد؛ لأنّ هَول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلّق بالسفليّات، أو توجّه إليها في الجملة.

ومحلّ الموصول إمّا النصب، أو الرفع على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل منه، أو بيان له، وقوله تعالى:[٣] ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ خبر له، أو اسم الإشارة مبتدأ ثانٍ، و﴿شَرٌّ﴾ خبره، / والجملة خبر للموصول. ووصف "السبيل" بالضلال مِن باب الإسناد المجازي للمبالغة، والمفضّلُ عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم[٤] بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، ٦٠/٥]، كأنّه قيل: إنّ حامِلَهم على هذه الاقتراحات تحقيرُ مكانِه عليه السلام بتضليل سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنّهم شرّ مكانًا وأضلّ سبيلًا. وقيل: هو متّصل بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ[٥] خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.[٦] [٢٠٣ظ]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لتأكيد ما مرّ مِن التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٧] بحكاية ما جرى بين مَن ذُكر مِن الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكايةً إجماليّةً كافيةً فيما هو المقصود.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٩/٣. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٣٠٥/٥.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٣ م - تعالى.

٤ م ط س: قل أأنبئكم.

٥ م ط س - يومئذٍ.

٦ الفرقان، ٢٤/٢٥.

٧ الفرقان، ٣١/٢٥.

و"اللام" جواب لقسم محذوف، أي: وبالله لقد آتينا موسى التوراة، أي: أنزلناها عليه بالآخرة، ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ﴾ الظرف متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول أوّل له، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿أَخَاهُ﴾، أو عطف بيانٍ له على عكس ما وقع في سورة طه،[1] وقوله تعالى: ﴿وَزِيرًا﴾ مفعول ثان له، وقد مرّ ثمّة معنى "الوزير"، أي: جعلناه في أوّل الأمر وزيرًا له.

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما حينئذٍ: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هم فرعونُ وقومه. و"الآيات" هي المعجزات التسع المفصَّلات الظاهرة على يدَي موسى عليه السلام. ولم يُوصَف القومُ لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورةَ تأخّر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخّر عن ذهابهما المتأخّر عن الأمر به؛ بل إنّما وُصِفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيانًا لِعلّة استحقاقهم لِما يُحكى بعده مِن التدمير، أي: فذهبا / إليهم فأَرَياهم آياتِنا كلَّها فكذّبوها تكذيبًا [٢٠٤و] مستمِرًّا، ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ إثر ذلك التكذيب المستمرّ ﴿تَدْمِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا لا يُقادَرُ قَدرُه ولا يُدرَك كُنهُه، فاقتُصر على حاشيتَي القصّة اكتفاءً بما هو المقصود.

وحملُ قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ على معنى: فحكمنا بتدميرهم[2] -مع كونه تعسّفًا ظاهرًا- ممّا لا وجه له، إذ لا فائدةَ يُعتدّ بها في حكاية الحُكم بتدمير قد وقع وانقضى.

والتعرّض في مطلع القصّة لإيتاء الكتاب مع أنّه كان بعد مَهلِك القوم، ولم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات، للإيذان مِن أوّل الأمر ببلوغِه عليه السلام غايةَ الكمال ونيلهِ نهايةَ الآمال التي هي إنجاءُ بني إسرائيل مِن مَلَكة فرعونَ، وإرشادُهم إلى طريق الحقّ بما في التوراة مِن الأحكام، إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي مرّ بيانه.

---

١ في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠].

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

وقُرئ: "فَدَمَّرْتُهُمْ"،[١] و"فَدَمِّرَاهُمْ"،[٢] و"فَدَمِّرَانِّهِمْ"[٣] على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٤] أي: ودمّرنا قومَ نوح. وقيل: عطفٌ على مفعول ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٥] وليس مِن ضرورة ترتّبِ تدميرهم على ما قبله ترتّبُ تدميرِ هؤلاء عليه، لا سيّما وقد بُيّن سببُه بقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نوحًا ومَن قَبله مِن الرسل، أو نوحًا وحده؛ لأنّ تكذيبه تكذيب للكلّ؛ لاتّفاقهم على التوحيد والإسلام.

وقيل: هو منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنّما يتسنّى ذلك على تقدير كون كلمة ﴿لَّمَّا﴾ ظرف زمان، وأمّا على تقدير كونها حرفَ وجودٍ لِوجودٍ فلا؛ لأنّه حينئذ جواب لها، وجوابُ ﴿لَّمَّا﴾ لا يفسّر ما قبله، مع أنّه مخِلّ بعطف المنصوبات الآتية على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾، لِما أنّ إهلاكهم ليس بالإغراق، فالوجه ما تقدّم. وقوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة تدميرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا إغراقهم أو قصّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آية عظيمة يَعتبر بها كلّ مَن شاهدها أو سمعها، وهي مفعول ثانٍ لـ"جَعَلنا"، و﴿لِلنَّاسِ﴾ ظرف لَغوٌ له، أو متعلّق بمحذوف وقع حالًا / مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخّر عنها لكان صفةً لها. [٢٠٤ظ]

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لهم. والإظهار في موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحدّ في الكفر والتكذيب. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب الآخرة، إذ لا فائدة في الإخبار بإعتاد العذاب الذي قد أُخبرَ بوقوعه مِن قبل، أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يَعتبروا بما جرى عليهم مِن العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولًا أوّليًا، ويحتمل العذابَ الدنيوي والأخروي.

---

[١] قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إلى عليّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٨٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٢٢.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾

﴿وَعَادًا﴾ عطفٌ على ﴿قَوۡمَ نُوحٖ﴾.[1] وقيل: على المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾.[2] وقيل: على محلّ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾،[3] إذ هو في معنى: وعدنا الظالمين،[4] وكلاهما بعيد. ﴿وَثَمُودَاْ﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله. وقُرئ: "وَثَمُودًا"[5] على تأويل الحيّ، أو على أنّه اسم الأب الأقصى.

﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام، فكذّبوه، فبينما هم حَول الرسّ -وهي البئر التي لم تُطْوَ بعدُ- إذ انهارَت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل: ﴿ٱلرَّسِّ﴾ قرية بفلج اليمامة[6] كان فيها بقايا ثمود، فبُعث إليهم نبيّ فقتلوه، فهلكوا. وقيل: هو الأُخدود. وقيل: بئر بأنطاكيّة قتلوا فيها حبيبًا النجّار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبيّ عليه السلام، ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيم، كان فيها مِن كلّ لَون، وسمَّوها عنقاء لطول عُنقها، وكانت تسكن جبَلهم الذي يقال له: فَتْخٌ أو دَمخ، فتنقضّ على صبيانهم فتختَطِفهم[7] إن أعوَزها الصيد، ولذلك سمّيت مُغربًا،[8] فدعا عليها حنظلة عليه السلام، فأصابتها الصاعقة، ثمّ إنّهم قتلوه عليه السلام فأُهلِكوا. وقيل: / قوم كذّبوا رسولَهم، [٢٠٥و]
فرَسُّوه -أي: دَسُّوه- في بئر.

﴿وَقُرُونَۢا﴾ أي: أهلَ قُرونٍ. قيل: القَرن أربعون سنةً. وقيل: سبعون. وقيل: مائة. وقيل: مائة وعشرون. ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور مِن الطوائف والأمم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة. | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٦ الفَلج: الماء الجاري مِن العين. وفَلج: مدينة بأرض اليمامة لبَني جَعدة وقُشير وكعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. معجم البلدان للحموي، ٢٧١/٤.

٧ س: فتخطفهم.

٨ م ط س: "مُغربا". | والصواب بالباء الموحدة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٤/٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٤، وقال الثعلبي: «فسمّيت عنقاءَ "مُغرب" لأنّها تَغرُب بما تأخذه وتذهب به».

وقد يذكر الذاكر أشياءَ مختلفة ثمّ يشير إليها بـ"ذلك"، ويحسُب الحاسب أعدادًا متكاثرة ثمّ يقول: "فذلك كيت وكيت" على ذلك المذكور وذلك المحسوب.

﴿كَثِيرًا﴾ لا يَعلم مقدارَها إلّا العليم الخبير. ولعلّ الاكتفاءَ في شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لِما أنّ كلّ قَرْن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصّة بمثابة الأمم المذكورة.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه ما بعده، فإنّ ضرب المَثَل في معنى التذكير والتحذير. والمحذوف الذي عُوِّض عنه التنوين عبارةٌ إمّا عن الأمم التي لم يُذكر أسباب إهلاكهم، وإمّا عن الكلّ، فإنّ ما حُكي عن قوم نوح وقوم فرعونَ تكذيبُهم للآيات والرسل، لا عدمُ التأثّر مِن الأمثال المضروبة، أي: ذكّرْنا وأنذرْنا كلَّ واحد مِن المذكورين. ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: بيّنّا له القَصص العجيبة الزاجِرة عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي بواسطة الرسل.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ منهم، لا بعضَهم دون بعضٍ[1] ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا، لِما أنّهم لم يتأثّروا بذلك، ولم يرفعوا له رأسًا، وتمادَوا على ما هم عليه مِن الكفر والعدوان. وأصل "التَتبِير" التفتيت. قال الزجّاج: «كلّ شيء كسَّرتَه وفَتّتّه فقد تبّرتَه، ومنه "التِبْر" لفُتاتِ الذهب والفضّة».[2]

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

[٢٠٥ظ] ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ / جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة وعدم اتّعاظهم بها. وتصديرها بالقسَم لمزيد تقرير مضمونها، أي: وباللهِ لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ﴾ أي: أُهلِكت بالحجارة. وهي قرى قوم لوط، وكانت خمسَ قرى ما نجَت منها إلّا واحدةٌ

---

[1] س - بعضٍ.

[2] معاني القرآن للزجّاج، ٤/١٦٨.

كان أهلُها لا يعملون العمل الخبيث، وأمّا البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارة، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، وانتصابُه إمّا على أنّه مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، كما قيل في "أنبتَه الله نباتًا حسنًا"،[١] أي: إمطارَ السَّوء، أو على أنّه مفعول ثانٍ، إذ المعنى: أُعطِيَت، أو أُولِيَت مطرَ السَّوء.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكّرَ عند مشاهدة ما يوجبه. و"الهمزة" لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها، وتقريرِ استمرارها حسبَ استمرار ما يوجبها مِن إتيانهم عليها، لا لإنكار استمرار نفي رؤيتِهم وتقريرِ رؤيتهم لها في الجملة. و"الفاء" لعطف مدخولها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أَلَم يكونوا ينظرون إليها فلَم يكونوا يرونها، أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مِرار مرورهم ليتّعظوا بما كانوا يشاهدونها مِن آثار العذاب. فالمُنكَر في الأوّل ترك النظر وعدمُ الرؤية معًا، وفي الثاني عدمُ الرؤية مع تحقّق النظر الموجِب لها.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمّا إضراب عمّا قبله مِن عدم رؤيتهم لآثارِ ما جرى على أهل القرى مِن العقوبة، وبيانٌ لكون عدم اتّعاظهم بسبب إنكارهم، لكون ذلك عقوبةً لمعاصيهم، لا لعدم رؤيتهم لآثارها، خلا أنّه اكتُفِي عن التصريح بإنكارهم ذلك بذِكر ما يستلزمه مِن إنكارهم للجزاء الأخروي الذي هو الغاية مِن خلق العالَم. وقد كُنِي عن ذلك بعدم رجاء النشور، أي: / عدمِ توقّعه، كأنّه قيل: بل كانوا يُنكرون النشور المستتبع للجزاء [٢٠٦و] الأخروي، ولا يرون لنفسٍ مِن النفوس نشورًا أصلًا مع تحقّقه حتمًا وشموله للناس عمومًا، واطّراده وقوعًا، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حقّ طائفة خاصّة مع عدم الاطّراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتّى يتذكّروا ويتّعظوا بما شاهدوه مِن آثار الهلاك، وإنّما يحملونه على الاتّفاق؟

وإمّا انتقال[٢] مِن التوبيخ بما ذُكر مِن ترك التذكّر إلى التوبيخِ بما هو أعظم منه مِن عدم توقّع النشور.

---

١ قال تعالى في شأن مريم: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

٢ السياق: إمّا إضراب... وإمّا انتقال...

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[1] أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوءًا به، على معنى قَصر معاملتهم معه عليه السلام على اتّخاذهم[2] إيّاه عليه السلام هزؤًا، لا على معنى قَصر اتّخاذهم على كونه هزؤًا كما هو المتبادر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما يفعلون بك إلّا اتّخاذك هزؤًا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مِن سورة الأنعام [الأنعام، ٥٠/٦].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ محكيّ بعد قول مُضمَر هو حال مِن فاعل ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾، أي: يستهزئون بك قائلين: أهذا الذي... إلخ. والإشارة للاستحقار. وإبراز بَعث الله رسولًا في مَعرض التسليم بجعله صلة للموصول الذي هو صفته عليه السلام مع كونهم في غاية النكير لبعثه عليه السلام بطريق التهكّم والاستهزاء، وإلّا لقالوا: أَبَعث الله هذا رسولًا؟ أو أهذا يزعم أنّه بعثه الله رسولًا؟

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾

﴿إِن كَادَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ". وضمير الشأن محذوف، أي: إنّه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لَيصرِفُنا عن عبادتها صرفًا كلّيًا بحيث يُبَعِّدُنا عنها، لا عن عبادتها فقط. والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادّعاء أنّ عبادتها طريق سَوِيّ.

[٢٠٦ظ] ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبَتْنا عليها واستَمسكنا بعبادتها. و"لولا" / في أمثال هذا الكلام يجري مَجرى التقييد للحكم المطلق مِن حيث المعنى، كما أشيرَ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾... إلخ [يوسف، ٢٤/١٢]. وهذا اعتراف منهم بأنّه صلّى الله عليه وسلّم قد بلغ مِن الاجتهاد في الدعوة إلى الحقّ

---

[1] م ط س: هُزُؤًا. | وقرأ بالهمز جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

[2] س: اتّخادهم.

وإظهارِ المعجزات وإقامةِ الحُجج والبيّنات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرطُ لَجاجهم وغايةُ عنادهم. يروى أنّه مِن قول أبي جَهل.[١]

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى لآخر كلامهم، وردٌّ لِما يُنبئ عنه مِن نسبته عليه السلام إلى الضلال في ضمن الإضلال، أي: سوف يعلمون البتّة وإن تراخى ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرُهم وعِنادهم ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وفيه ما لا يخفى مِن الوعيد والتنبيه على أنّه تعالى لا يُهملهم وإن أمهلهم.

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم مِن الأقوال والأفعال، وبيانِ ما لهم مِن المصير والمآل، وتنبيهٌ على أنّ ذلك مِن الغرابة بحيث يجب أن يُرى ويُتعجّب منه.

و﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ قُدّم على الأوّل للاعتناء به؛ لأنّه الذي يدور عليه أمر التعجيب. ومَن توهّم أنّهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد زلّ عنه أنّ المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبّس بالحالة الثانية،[٢] أي: أرأيت مَن جعل هواه إلهًا لنفسه مِن غير أن يلاحظه، وبنى عليه أمرَ دينه مُعرِضًا عن استماع الحجّة الباهرة والبرهان النيّرِ بالكلّيّة، على معنى: انظر إليه وتعجّب منه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ إنكار واستبعاد لكونه عليه السلام حفيظًا عليه يَزجره عمّا هو عليه مِن الضلال، ويُرشده إلى الحقّ طوعًا أو كرهًا. و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله مِن الحالة الموجِبة له، كأنّه قيل: أبَعدَ ما / شاهدتَ غلوّه في طاعة الهوى وعُتُوّه عن اتّباع الهدى تقسُره على الإيمان [٢٠٧و]
شاء أو أبى؟

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٧؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٧/١٤.

[٢] م ط س: الحادثة [صُحّح في هامش م].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حِسبانه عليه السلام لهم ممّن يسمعُ أو يعقل حسبما يُنبئ عنه جِدُّه عليه السلام في الدعوة واهتمامُه بالإرشاد والتذكير، لكن لا على أنّه لا يقع كالأوّل؛ بل على أنّه لا ينبغي أن يقع، أي: بل أتَحسب أنّ أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم مِن الآيات حقّ السماع، أو يعقلون ما في تضاعيفها مِن المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن، فتعتني بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ وضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ﴿مَن﴾،[1] وجمعُه باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار لفظها. وضمير الفعلين للأكثر، لا لِما أضيفَ هو إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾... إلخ جملة مستأنَفة مَسوقة لتقرير النكير وتأكيده، وحَسمِ مادّة الحِسبان بالمرّة، أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم مِن قوارع الآيات وانتفاءِ التدبّر فيما يشاهدونه مِن الدلائل والمعجزات إلّا كالبهائم التي هي مثَلٌ في الغفلة، وعَلَمٌ في الضلالة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا﴾ لِما أنّها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعهّدها، وتعرف مَن يُحسن إليها ممّن يُسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرّها، وتهتدي لمَراعيها ومشاربها، وتأوي إلى مَعاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لربّهم وخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم / مِن إساءة الشيطان الذي [٢٠٧ظ] هو أعدى عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشرع الهنيّ، والمَورد العذب الرويّ.

ولأنّها إن لم تعتقد حقًّا مستتبعًا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلًا مستوجبًا لاقتراف الشرّ، بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرّعوا عليها أحكام الشرور، ولأنّ أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدّى إلى أحد، وجهالةُ هؤلاء مؤدّية إلى ثَوران الفتنة والفساد، وصَدِّ الناس عن سَنن السداد،

[1] في الآية السابقة.

وهَيجان الهرجِ والمرجِ فيما بين العباد، ولأنّها غير معطّلة لِقوّةٍ مِن القوى المودَعة؛ بل صارفة لها إلى ما خُلِقَت هي له، فلا تقصيرَ مِن قِبَلها في طلب الكمال. وأمّا هؤلاء فهم مُعَطِّلون لِقواهم العقليّة، مضيِّعون للفطرة الأصليّة التي فُطر الناس عليها، مستحقّون بذلك أعظم العقاب وأشدّ النّكال.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد إثرَ بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الهمزة" للتقرير. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، وللإيذانِ بأنّ ما يعقبه مِن آثار ربوبيّته تعالى ورحمته تعالى، أي: ألَم تنظر إلى بديع صنعه تعالى ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: كيف أَنْشأ ظِلّ أيّ مُظلٍّ كان مِن جبل أو بناءٍ أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدًّا؟ لا أنّه تعالى مَدَّه بعد أن لم يكن كذلك، كما بعد نصف النهار إلى غروبها، فإنّ ذلك مع خلوّه عن التصريح بكونِ نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وأنّه أطيب الأوقات، فإنّ / الظُّلمة الخالصة تَنفِر عنها الطباع، وشعاع الشمس [٢٠٨و] يسخّن الجوّ ويُبهر البصر، ولذلك وُصف به الجنّة في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة، ٣٠/٥٦][1] فغير سديد، إذ لا ريب في أنّ المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ وبالِغ حكمته فيما يشاهدونه.

فلا بدّ أن يراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما يتعارفونه مِن حالةٍ مخصوصة يشاهدونها في موضع يَحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفةٍ لِما في جوانبه مِن مواقع ضِحّ الشمس،[2] وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلًّا للأفق الشرقيّ لكنّهم لا يعدّونه ظلًّا،

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٤.

٢ ضِحّ الشمس: ضوءها. وقيل: هو ضوءها إذا استمكن مِن الأرض. وقيل: هو قرنها يصيبك. وقيل: كلّ ما أصابته الشمس ضِحّ. لسان العرب لابن منظور، «ضحح».

ولا يصفونه بأوصافه المعهودة، ولعلّ توجيهَ الرؤية إليه سبحانه مع أنّ المراد تقرير رؤيته عليه السلام لكيفيّةِ مدّ الظلّ للتنبيه على أنّ نظره عليه السلام غير مقصور على ما يطالعه مِن الآثار والصنائع؛ بل مَطمح أنظاره معرفة شُئون الصانع المجيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه لا مدخل فيما ذكر مِن المدّ للأسباب العاديّة، وإنّما المؤثّر فيه المشيئة والقدرة. ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرّة مِن وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، أي: ولو شاء سكونه لَجَعلَه ساكنًا، أي: ثابتًا على حاله مِن الطول والامتداد. وإنّما عُبّر عن ذلك بالسكون لِما أنّ مقابلَه الذي هو تغيّر حاله حَسْبَ تغيّرِ الأوضاع بين المُظِلّ وبين الشمسِ يُرى رأيَ العين حركةً وانتقالًا، وحاصله أنّه لا يعتريه اختلافُ حالٍ بأن لا ينسخه الشمس.

وأمّا التعليل بأن يُجعل الشمس مقيمةً على وضع واحد[1] فمدارُه الغفول عمّا سِيق له النظم الكريم ونطق به صريحًا مِن بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات، وإسقاطِ الأسباب العاديّة عن رتبة السببيّة والتأثير بالكلّيّة، وقَصرِها على مجرّد الدلالة على وجود المسبّبات، لا بذِكر قدرته تعالى على بعض الخوارق، كإقامة الشمس في مقامٍ واحد على أنّها أعظم مِن إبقاء الظلّ على حاله في الدلالة على ما ذُكر مِن كمال القدرة والحكمة لكونه مِن فروعها ومستتبعاتها، فهي أولى وأحقّ بالإيراد في معرض البيان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه، أي: جعلناها علامة يُستدَلّ بأحوالها المتغيّرة على أحواله مِن غير أن يكون بينهما سببيّة وتأثير قطعًا حسبما نطَق به الشرطيّة المعترضة. والالتفات إلى نون العظمة لِما في الجعل المذكور العاري عن التأثير / مع ما يشاهَدُ بين [٢٠٨ظ]
الشمس والظلّ مِن الدوران المطّرد المُنبئ عن السببيّة مِن مَزيد دلالةٍ على عِظم القدرة ودِقّة الحكمة، وهو السرّ في إيراد كلمة التراخي.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢٦.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، لِما أنّ في بيان كَون القبض والمدّ مرتَّبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيدَ دلالةٍ على الحكمة الربّانيّة. ويجوز أن يكون للتراخي الرتْبي، أي: أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدًّا، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعَه مِن غير أن يكون له تأثير في ذلك أصلًا. وإنّما عُبّر عنه بالقبض المُنبئ عن جمع المنبسط وطَيِّه لِما أنّه قد عُبّر عن إحداثه بالمدّ الذي هو البسط طولًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتنصيص على كَون مرجعه إليه تعالى، كما أنّ حدوثه منه عزّ وجلّ. ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: على مَهَل قليلًا قليلًا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معيّنة مطَّرِدة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها.

وقيل: إنّ الله تعالى حين بنى السماء كالقبّة المَضروبة ودحا الأرض تحتها ألقَت القُبّةُ ظِلّها على الأرض لعدم النيّر، وذلك مَدُّه تعالى إيّاه، ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًّا على تلك الحالة، ثمّ خلق الشمس وجعلها على ذلك الظلّ، أي: سلّطها عليه ونصبها دليلًا متبوعًا له كما يُتّبَعُ الدليل في الطريق، فهو يزيد بها وينقص، ويمتدّ ويقلص، ثمّ نسخه بها فقَبَضه قَبْضًا سهلًا يسيرًا غيرَ عسير، أو قَبْضًا سهلًا عند قيام الساعة بقَبْض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظِلّ، فيكون قد ذُكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاؤه بإنشائها. ووَصفُه باليُسرِ على طريقة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق، ٥٠/٤٤]، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

/ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى [٢٠٩و]
وحكمته وروائع أحكام رحمته ونِعمته الفائضة على الخلق. وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقَّه. و"اللام" متعلّقة بـ﴿جَعَلَ﴾، وتقديمها على مفعولَيه

للاعتناء ببيان كون ما يعقُبه مِن منافعهم. وفي تعقيب بيان أحوال الظلّ ببيان أحكام الليل الذي هو ظلّ الأرض مِن لطف المسلك ما لا مزيدَ عليه، أي: هو الذي جعل لكم الليل كاللباس يَستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: وجعلَ النومَ الذي يقع في الليل غالبًا قطعًا عن الأفاعيل المختصّة بحال اليقظة، عُبّر عنه بالسُّبات الذي هو الموت لِما بينهما مِن المشابهة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦/٦٠]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٣٩/٤٢].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: زمانَ بعثٍ مِن ذلك السُّبات كبعث الموتى، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، أو نفسَ البعث على طريق المبالغة. وفيه إشارة إلى أنّ النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام: «يا بُنيّ كما تنام فتوقَظُ، كذلك تَموت وتُنشر».[١]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقُرئ بالتوحيد[٢] على أنّ المراد هو الجنس. ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف "بُشُرٍ" جمع "بَشُور"، أي: مُبشِّرين. وقُرئ: "بُشْرَى".[٣] وقُرئ: "نُشُرًا" بالنون،[٤] جمع "نَشور"، أي: ناشراتٍ للسحاب. وقُرئ بالتخفيف،[٥] وبفتح النون[٦] أيضًا على أنّه مصدر وُصف به مبالغة.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعارة بديعة، أي: قدّامَ المطر. والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لإبراز كمال العناية

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢٦.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع وابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٥ أي: "نُشْرًا" بضمّ النون وإسكان الشين. قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٦ أي: "نَشْرًا". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

بالإنزال؛ لأنّه نتيجة ما ذُكر مِن إرسال الرياح، أي: أنزلنا بعظمتنا بما رتّبنا مِن إرسال الرياح مِن جهة الفوق ماءً بليغًا في الطهارة.

وما قيل: إنّه ما يكون طاهرًا / في نفسه ومطهّرًا لغيره[١] فهو شرح لبلاغته في الطهارة كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال، ١١/٨]، فإنّ "الطَّهور" في العربيّة إمّا صفة كما تقول: "ماء طَهور"، أو اسم، كما في قوله عليه السلام: «التراب طَهور المؤمن».[٢] وقد جاء بمعنى الطهارة، كما في قولك: "تطهّرت طَهورًا حسنًا"، كقولك: "وَضوءًا حسنًا"، ومنه قوله عليه السلام: «لا صلاةَ إلّا بطَهور».[٣] ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده، فإنّ الماء الطَّهور أهنأ وأنفع ممّا خالطه ما يُزيل طَهوريّته، وتنبيه على أنّ ظواهرهم لَمّا كانت ممّا ينبغي أن يطهّروها فبواطنهم أحقّ بذلك وأولى. [٢٠٩ظ]

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ٤٩﴾

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بما أنزلنا مِن الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بإنبات النبات. والتذكير لأنّ "البلدة" بمعنى "البلد"، ولأنّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغة، فأجريَ مُجرى الجامد، والمراد به القطعة مِن الأرض عامرة كانت أو غامرة.

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: ذلك الماء الطهور عند جريانه في الأودية أو اجتماعِه في الحِياض والمناقع أو الآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: أهل البوادي الذي يعيشون بالحَيا،[٤] ولذلك نكّر "الأنعام" و"الأناسيّ". وتخصيصهم بالذكر

---

١ نقله الزمخشري عن أحمد بن يحيى. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣.

٢ لم أجده بهذا اللفظ. وأخرج أبو داود في السنن، ٢٤٨/١ (٣٣٣)؛ والترمذي في السنن، ٢١١/١ (١٢٤)، عن أبي ذرّ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الصعيد الطيّب طَهورُ المسلم وإن لم يجِد الماء عشر سنينَ».

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣. وقال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ. وأخرج الترمذي في السنن، ٥/١ (١)، عن ابن عمر، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

٤ الحيا: الخِصب. **الصحاح** للجوهري، «حيا».

لأنّ أهل القرى والأمصار يُقيمون بقُرب الأنهار والمنابع، فَبِهم وبما لهم مِن الأنعام غُنية عن سُقيا السماء. وسائرُ الحيوانات تُبعِد في طلب الماء، فلا يُعْوِزها الشرب غالبًا مع أنّ مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ حيث كانت قُنيةً للإنسان، وعامّةُ منافعهم ومعايشهم مَنوطةً بها، قُدِّم سَقيها على سَقيهم، كما قُدِّم عليها إحياءُ الأرض، فإنّه سبب لحياتها وتعيّشها.

وقُرئ: "نَسْقِيَهُ"،[١] و"أَسقى" و"سَقى" لغتان. وقيل: "أَسْقاه" جعل له سُقيا. و﴿أَنَاسِيَّ﴾ جمع "إنسيّ"، أو "إنسان"، كـ"ظَرَابيّ" في "ظِربان"[٢] على أنّ أصله "أَنَاسِينُ"، فقُلبت نونه ياءً. / وقُرئ: "أَنَاسِيْ"[٣] بالتخفيف[٤] بحذف ياء "أفاعيل"، [٢١٠و] كـ"أناعِم" في "أناعيم".

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: وباللهِ لقد كرّرنا هذا القول الذي هو ذكرُ إنشاء السحاب وإنزالِ القَطر لِما مرّ مِن الغايات الجميلة في القرآن وغيره مِن الكتب السماويّة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس مِن المتقدّمين والمتأخّرين ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتفكّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قدرته تعالى وواسعَ رحمته في ذلك، ويقوموا بشكر نعمته حقَّ قيام.

وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم إنزالُه في بعض البلاد دون غيرها، أو في بعض الأوقات دون بعضٍ، أو جعلُه تارةً وَابِلًا،[٥] وأخرى طَلًّا،[٦] وحينًا دِيمةً،[٧] ووقتًا رَهْمةً،[٨] والأوّل هو الأظهر.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن البرجمي والمفضّل عن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[٢] وفي هامش م: وهي دُوَيبّة كالهرّة. «منه».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن الحارث. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[٤] س: بالتحفيف.

[٥] الوابل: المطر الشديدُ. **الصحاح** للجوهري، «وبل».

[٦] الطلّ: أضعفُ المطر. **الصحاح** للجوهري، «طلل».

[٧] الديمَةُ: المطر الذي ليس فيه رعدٌ ولا برق. **الصحاح** للجوهري، «ديم».

[٨] الرِّهْمة، بالكسر: المطرُ الضعيفُ الدائم. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «رهم».

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممّن سلَف وخلَف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: لم يفعل إلّا كُفران النعمة، وقلّةَ الاكتراث لها، أو إلّا جحودَها بأن يقولوا: "مُطِرنا بنوءِ كذا"،[١] ولا يذكروا صُنع الله تعالى ورحمته. ومَن لا يرى الأمطار إلّا مِن الأنواء فهو كافر، بخلاف مَن يَرى أنّ الكلّ بخلق الله تعالى، والأنواءَ أمارات بجَعله تعالى.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ نبيًّا يُنذر أهلَها، فيخفّ عليك أعباءُ النبوّة، لكن لم نشأ ذلك فلم نفعَلْه؛ بل قَصرنا الأمر عليك حِسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ١/٢٥] إجلالًا لك وتعظيمًا وتفضيلًا لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحقّ والتشدّد معهم. كأنّه نهي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم / عن المداراة [٢١٠ظ] معهم والتلطّف في الدعوة، لِما أنّه عليه السلام كان يودّ أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهدُ في ذلك بتأليف قلوبهم أشدَّ الاجتهاد.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، بتلاوة ما في تضاعيفه مِن القوارع الزواجر والمواعظ، وتذكيرِ أحوال الأمم المكذِّبة ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فإنّ دعوة كلّ العالمين على الوجه المذكور جهادٌ كبير لا يقادَر قدرُه كمًّا وكيفًا.

وقيل: الضمير المجرور لترك الطاعة المفهومِ مِن النهي عن الطاعة. وأنت خبير بأنّ مجرّد ترك الطاعة يتحقّق بلا دعوة أصلًا، وليس فيه شائبة الجهاد فضلًا عن الجهاد الكبير، اللّهمّ إلّا أن يُجعل "الباء" للملابسة، ليكون المعنى:

---

١ عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثرِ السماء كانت مِن الليل، فلمّا انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربّكم؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «قال: أصبح مِن عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا مَن قال: "مُطِرنا بفضل الله ورحمته" فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا مَن قال: "مُطِرنا بنَوء كذا وكذا" فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب». صحيح مسلم، ٨٣/١ (٧١).

وجاهدهم بما ذُكر مِن أحكام القرآن الكريم ملابسًا بترك طاعتهم، كأنّه قيل: فجاهدهم بالشدّة والعنف، لا بالملاءمة والمداراة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم، ٩/٦٦].

وقد جُعل الضمير لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[١] مِن كونه عليه السلام نذيرَ كافّة القرى؛ لأنّه لو بُعث في كلّ قرية نذيرًا لَوجبت على كلّ نذير مجاهدةُ قريته، فاجتمعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلك المجاهدات كلّها، فكَبُر مِن أجل ذلك جهادُه وعَظُم، فقيل له عليه السلام: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافّة القرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلّ مجاهدة. وأنت خبير بأنّ بيان سبب كِبَرِ المجاهدة بحسب الكمّيّة ليس فيه مزيدُ فائدة، فإنّه بيّن بنفسه، وإنّما اللائق بالمقام بيان سبب كِبَرها وعِظَمها في الكيفيّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلّاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان، مِن "مَرَج دابّته" إذا خلّاها. ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عُذوبته ﴿وَهَٰذَا / مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ المُلوحة. وقُرئ: "مَلِحٌ"،[٢] فلعلّه تخفيف مالح [٢١١و]
كَبَرِد في بارِدٍ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزًا غير مرئيّ مِن قدرته، كما في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد، ٢/١٣].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافرًا مُفرِطًا، كأنّ كلًّا منهما يتعوّذ مِن الآخر بتلك المقالة. وقيل: حدًّا مَحدودًا، وذلك كدِجلة تدخل البحر وتشقّه وتجري في خلاله فَراسخ لا يتغيّر طعمُها. وقيل: المراد بـ"البحر العذب" النهرُ العظيم، وبـ"المالح" البحرُ الكبير، وبـ"البرزخ" ما بينهما مِن الأرض، فيكون أثر القدرة في الفصل واختلاف الصفة، مع أنّ مقتضى طبيعة كلّ عنصر التضامُّ والتلاصق والتشابه في الكيفيّة.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ هو الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام، أو جعله جزءًا مِن مادّة البشر ليجتمع ويسلَس ويستعدّ لقَبول الأشكال والهيئات بسهولة، أو هو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: قسَمه قسمين ذوي نسب، أي: ذكورًا يُنتَسَب إليهم وذوات صِهر، أي: إناثًا يصاهَرُ بهنّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ[1] مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة، ٣٩/٧٥].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مبالِغًا في القدرة، حيث قدَر على أن يخلق مِن مادّة واحدة بشرًا ذا أعضاءٍ مختلفة، وطِباع متباعدة، وجعلَه قسمين متقابلين، وربّما يخلق مِن نطفة واحدة توأمَين ذكرًا وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي شأنه ما ذُكر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنِه النفع والضرّ أصلًا، وهو الأصنام / أو كلُّ ما يُعبَد مِن دونه [٢١١ظ] تعالى، إذ ما مِن مخلوق يستقلّ بالنفع والضرّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذُكِرت آثارُ ربوبيّته ﴿ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك. والمراد بـ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ الجنس أو أبو جَهل. وقيل: هَيِّنًا مَهِينًا لا اعتدادَ به عنده تعالى مِن قولهم: "ظَهَرتُ به" إذا نبذتَه خلفَ ظهرِك، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران، ٧٧/٣].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة الذي يُنبئ عنه الإرسال ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: إلّا فعلَ

---

[1] م ط س: وجعل.

مَن يريد أن يتقرّب إليه تعالى، ويطلبَ الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة حسبما أدعوهم إليهما، فصُوِّرَ ذلك بصورة الأجر مِن حيث إنّه مقصود الإتيان به، واستُثنِي منه قلعًا كلّيًا لشائبة الطمع، وإظهارًا لغاية الشفقة عليهم، حيث جُعل ذلك مع كون نفعه عائدًا إليهم عائدًا إليه عليه السلام. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن مَن شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلًا فليفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنّه الحقيق بأن يُتوكَّل عليه دون الأحياء الذين مِن شأنهم الموت، فإنّهم إذا ماتوا ضاع مَن توكّل عليهم. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزِّهْهُ عن صفات النقصان مُثنِيًا عليه بنعوت الكمال، طالبًا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه.

[٢١٢و] ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهَر منها وما بطَن ﴿خَبِيرًا﴾ أي: / مطّلعًا عليها بحيث لا يَخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافيًا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد سلَف تفسيره. ومحلّ الموصول الجرّ على أنّه صفة أخرى لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾، وُصِف بالصفة الفعليّة بعد وصفه بالأبديّة التي هي مِن الصفات الذاتيّة. والإشارة إلى اتّصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكّل عليه تعالى وتأكيدِه، فإنّ مَن أنشأَ هذه الأجرامَ العِظام، على هذا النمط الفائق، والنسَق الرائق، بتدبيرٍ متين، وترتيبٍ رصين، في أوقات معيّنة مع كمال قدرته على إبداعها دفعةً، لحِكَمٍ جليلة، وغاياتٍ جميلة، لا يقف على تفاصيلها العقول؛ أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأولى مَن يُفوَّض الأمرُ إليه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي: هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف آخر لـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، كما قُرئ بالجرّ،[١] مفيدٌ لزيادة تأكيد ما ذُكر مِن وجوب التوكّل عليه تعالى، وإن لم يتبعه في الإعراب، لِما تقرَّر مِن أنّ المنصوب والمرفوع مدحًا وإن خرَجا عن التبعيّة لِما قبلهما صورةً حيث لم يتبعاه في الإعراب، وبذلك سُمِّيا قَطْعًا، لكنّهما تابعان له حقيقةً، ألا يُرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع رَوْمًا لتصوير كلٍّ منهما بصورة متعلِّقٍ مِن متعلّقاتِ ما قبله، وتنبيهًا على شدّة الاتّصال بينهما. وقد مرّ تمامُ التحقيق في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية [البقرة، ٣/٢].

وقيل: الموصول مبتدأ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبره. وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بدل مِن المستكِنّ في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ﴾ أي: بتفاصيل ما ذُكر إجمالًا مِن الخلق والاستواء، لا بنفسهما فقط، إذ بعد بيانهما لا يبقى إلى السؤال حاجة، ولا في تعديته بـ"الباء" فائدة، فإنّها مبنيّة على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسئول أمرًا خطيرًا مهتمًّا بشأنه غيرَ حاصلٍ للسائل. وظاهرٌ أنّ نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك.

وما قيل مِن أنّ التقدير: إن شككتَ فيه فاسأل به خَبيرًا، على أنّ الخطاب له عليه السلام والمرادُ غيرُه؛[٢] بمَعزِل مِن السداد؛ بل التقدير: إن شئت تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر فاسأل معتنيًا به ﴿خَبِيرٗا﴾ عظيمَ الشأن، محيطًا بظواهر الأمور وبواطنها، وهو الله سبحانه، يُطلِعْك / على جليّة الأمر. [٢١٢ظ]

وقيل: فاسأل به مَن وجده في الكتب المتقدّمة ليصدّقك فيه، فلا حاجة حينئذٍ إلى ما ذكرنا.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، والمعنى: إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرك مِن أهل الكتاب ليعرفوا مَجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ، وما بعده خبرًا. وقُرئ: "فَسَلْ".[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

٢ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٤/٣.

٣ قرأ بها ابن كثير والكسائي وخلف، وكذا حمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٤١٤/١.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قالوه لِما أنّهم ما كانوا يُطلقونه على الله تعالى، أو لأنّهم ظنّوا أنّ المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرنا بسجوده، أو لأمرك إيّانا مِن غير أن نعرف أنّ المسجود ماذا. وقيل: لأنّه كان مُعرَّبًا لم يسمعوه. وقُرئ: "يَأْمُرُنَا" بياء الغيبة[1] على أنّه قولُ بعضِهم لبعض.

﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي: الأمرُ بسجود الرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الإثنى عشر، سُمّيت به، وهي القصور العالية؛ لأنّها للكواكب السيّارة، كالمنازل الرفيعة لسكّانها. واشتقاقه مِن "البُرج" لظهوره.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ هي الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح، ١٦/٧١]. وقُرئ: "سُرُجًا"،[2] وهي الشمس والكواكب الكبار. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئًا بالليل. وقُرئ: "قُمْرًا"،[3] أي: ذا قُمْرٍ، وهي جمعُ "قَمْراء"، ولِما أنّ الليالي بالقَمَر تكون قُمْرًا أضيفَ إليها ثمّ حُذِفَ وَأُجري حكمه على المضاف إليه القائمِ مَقامه، كما في قول حسّان رضي الله عنه:

بَـــرَدَى يُصـفَّـقُ بـالـرحيـقِ الـسَّـلـسَـلِ[4]

أي: ماءَ بَرَدَى، ويحتمل أن يكون بمعنى "القَمَر"، كـ"الرُّشْد" و"الرَّشَد"، و"العُرْب" و"العَرَب".

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: ذَوَي خِلفةٍ، يخلف كلّ منهما الآخر،

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/١.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

[4] صدره:

يَسقُون مَن ورَدَ البَريصَ عليهمِ

ديوان حسّان بن ثابت، ٧٤/١.

بأن يقوم مقامَه فيما ينبغي أن يُعملَ فيه، أو بأن يَعتَقِبا، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]. وهي اسم للحالة مِن "خَلَفَ"، كـ"الرِّكْبَة" و"الجِلْسَة" مِن "رَكِبَ" و"جَلَسَ".

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكّر آلاء الله عزّ وعلا،[١] ويتفكّر في بدائع صنعه، فيعلم أنّه لا بدّ لها مِن صانعٍ حكيم، واجبِ الذات، رحيمٍ للعباد. / ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [٢١٣و]
أي: أن يشكر الله تعالى على ما فيهما مِن النعم، أو ليكونا وقتين للذاكرين، مَن فاتَه وِردُه في أحدهما تداركه في الآخَر. وقُرِئ: "أَنْ يَذْكُرَ"[٢] مِن "ذَكَرَ" بمعنى "تَذَكَّرَ".

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أوصاف خُلّص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيويّة والأخرويّة بعد بيان حال المنافرين عن عبادته والسجودِ له. والإضافة للتشريف. وهو مبتدأ خبره ما بعده مِن الموصول وما عُطف عليه. وقيل: هو ما في آخر السورة الكريمة مِن الجملة المصدَّرة باسم الإشارة.[٣] وقُرِئ: "عُبَّادُ الرَّحْمَنِ"،[٤] أي: عباده المقبولون.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينةٍ وتواضع. و﴿هَوْنًا﴾ مصدر وُصف به. ونصبه إمّا على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَمْشُونَ﴾، أو على أنّه نعت لمصدره، أي: يمشون هيّنين لَيّنِي الجانب مِن غير فَظاظة، أو مَشيًا هَيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء، كما في قول مَن قال:

أَلا لا يَجهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهَلَ فوقَ جَهلِ الجاهِلِينا[٥]

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثرَ بيان حالهم في أنفسهم، أي: إذا خاطبوهم بالسوء قالوا: تسلّمًا منكم ومتاركةً، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرّ.

---

١ س: عزّ وجلّ.

٢ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

٣ هو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الفرقان، ٧٥/٢٥].

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٥ لعمرو بن كلثوم في لسان العرب لابن منظور، «رشد». وفيه: «أي: إنّما نُكافئهم على جَهلهم».

وقيل: سَدادًا مِن القول يَسلمون به مِن الأذيّة والإثم. وليس فيه تعرّض لمعاملتهم مع الكفرة حتّى يقال: نَسخَتْها آية القتال،[١] كما نُقل عن أبي العالية.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربّهم، أي: يكونون ساجدين لربّهم وقائمين، أي: يُحيُون الليلَ كلًّا أو بعضًا بالصلاة. وقيل: مَن قرأ شيئًا مِن القرآن في صلاةٍ وإن قَلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا.[٣] وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء.[٤] وتقديمُ السجود على القيام لرعاية الفواصل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: في أعقاب صلواتهم، أو في عامّة أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: شرًّا دائمًا، وهلاكًا لازمًا. وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنّهم مع حسن معاملتهم مع الخَلق، واجتهادِهم في عبادة الحقّ؛ يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم غيرَ محتفِلين بأعمالهم، / كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٠/٢٣]. [٢١٣ظ]

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوءِ حالِها في نفسها إثرَ تعليله بسوء حال عذابها. وقد جُوّز أن يكون تعليلًا للأُولى وليس بذاك. و﴿سَآءَتْ﴾ في حكم "بِئسَت"، وفيها ضمير مبهَم يفسّره ﴿مُسْتَقَرًّا﴾،

---

١ آية القتال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة، ٥/٩].

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٥/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٩١/٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٧/٨.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٦/٧، عن الكلبي بلفظ: "وأربع بعد العشاء الآخرة".

والمخصوصُ بالذمّ محذوف، معناه: ساءَت مستقرًّا ومُقامًا هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم "إنّ"، وجعلها خبرًا لها.

قيل: ويجوز أن يكون ﴿سَآءَتْ﴾ بمعنى "أَحزَنَت"، وفيها ضمير اسم "إنّ"، و﴿مُسْتَقَرًّا﴾ حال أو تمييزٌ،[1] وهو بعيدٌ خالٍ عمّا في الأوّل مِن المبالغة في بيان سوء حالها، وكذا جعلُ التعليلين مِن جهته تعالى.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ لم يجاوزوا حدّ الكرَم، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ ولم يضيّقوا تضييقَ الشحيح. وقيل: "الإسراف" هو الإنفاق في المعاصي، و"القَتْر" منع الواجبات والقُرَب. وقُرئ بكسر التاء مع فتح الياء،[3] وبكسرها مخفّفةً[4] ومشدّدةً[5] مع ضمّ "الياء".

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ما ذُكر مِن الإسراف والقَتْر ﴿قَوَامًا﴾ وَسَطًا وعدلًا، سمّي به لاستقامة الطرفين، كما سمّي به "سَواء" لاستوائهما. وقُرئ بالكسر،[6] وهو ما يُقام به الحاجة، لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو خبر ثانٍ، أو حال مؤكِّدةٌ، أو هو الخبر، و﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ لغو، وقد جُوّز أن يكون اسمَ ﴿كَانَ﴾ على أنّه مبنيّ لإضافته إلى غير متمكّن،[7] ولا يخفى ضعفه، فإنّه بمعنى "القَوام"، فيكون كالإخبار بشيءٍ عن نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان إتيانهم بالطاعات. وذِكرُ نفي الإسراف والقَتْر لتحقيق معنى الاقتصاد.

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٠/٤.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٠/٤.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيابة واليزيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١؛ اللباب لابن عادل، ٥٦٦/١٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن حسان بن عبد الرحمن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[7] أجازه الفرّاء. انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٧٣/٢.

[٢١٤و] / والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويلِ أمرِ القتل والزنا بنظمهما في سِلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة مِن قريش وغيرهم، أي: لا يعبدون معه تعالى إلهًا آخر.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرّمها بمعنى حَرّم قتلها، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه مبالغةً في التحريم. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يقتلونها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ المزيلِ لحُرمتها وعِصمتها، أو لا يقتلون قتلًا ما إلّا قتلًا ملتبسًا بالحقّ، أو لا يقتلونها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ملتبسين بالحقّ.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: الذين لا يفعلون شيئًا مِن هذه العظائم القبيحة التي جمعهنّ الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرّمة -التي مِن جملتها المَوءودة- مكبّين على الزنا، لا يَرعَوون عنه أصلًا.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿يَلْقَ﴾ في الآخرة. وقُرئ:[١] "يَلْقَى"، وقُرئ: "يُلَقَّ" بالتشديد مجزومًا.[٢] ﴿أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم، كـ"الوَبال" و"النَّكال" وزنًا ومعنًى. وقيل: هو الإثم، أي: يلقَ جزاءَ الإثم، والتنوين على التقديرين للتفخيم. وقُرئ: "أيّامًا"،[٣] أي: شدائدَ، يقال: "يوم ذو أيّام" لليوم العَصيب.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدل مِن ﴿يَلْقَ﴾[٤] لاتّحادهما في المعنى، كقوله:

متى تأتِنا تُلمِمْ بِنا في ديارنا تَجِدْ حطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا[٥]

---

[١] وفي هامش م: عبد الله وأبو رجاء. | قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي رجاء. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٣٠.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] لعبيد الله بن الحرّ الجُعفي في شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ٢/٧٧.

وقُرئ بالرفع[١] على الاستئناف، أو على الحاليّة، وكذا ما عُطِف عليه. وقُرئ: "يُضَعَّف"،[٢] و"نُضَعِّف لَهُ العَذَابَ"[٣] بالنون ونصب ﴿ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿وَيَخْلُدْ / فِيهِۦ﴾ أي: في ذلك العذاب المضاعَف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلًا مستحقَرًا [٢١٤ظ] جامعًا للعذاب الجسماني والروحاني. وقُرئ: "يُخْلَدْ"،[٤] و"يُخَلَّدْ"[٥] مبنيًّا للمفعول، مِن "الإخلاد" و"التخليد". وقُرئ: "تَخْلُدْ"[٦] بالتاء على الالتفات المُنبئ عن شدّة الغضب. ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وذكرُ الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مَجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحو سوابقَ معاصيهم بالتوبة، ويُثبت مكانَها لواحقَ طاعاتهم،[٧] أو يُبدّل بمَلَكةِ المعصية ودواعِيها في النفس مَلَكةَ الطاعة، بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية. وقيل: بأن يوفّقه لأضداد ما سلَف منه، أو بأن يُثبِت له بدلَ كلّ عقاب ثوابًا. وقيل: يبدّلهم بالشرك إيمانًا، وبقتلِ المسلمين قتلَ المشركين، وبالزنا عِفّةً وإحصانًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن المَحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: عن المعاصي بتركها بالكلّيّة والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتلافى به ما فرَط منه، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ﴾

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، إلّا أنّ ابن عامر يقرأ بالرفع في الفاء والباقون بالجزم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨؛ ٣٣٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٧ ط س: طاعتهم.

بما فعلَ ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يرجع إليه تعالى ﴿مَتَابًا﴾ أي: مَتابًا عظيمَ الشأن، مرضيًا عنده تعالى، ماحيًا للعقاب، محصّلًا للثواب، أو يتوب مَتابًا إلى الله تعالى[١] / الذي يحبّ التوّابين ويُحسن إليهم، أو فإنّه يرجع إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعًا حسنًا، وهذا تعميم بعد تخصيص. [٢١٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادةَ الكاذبة، أو لا يَحضرون محاضِر الكذب، فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ على طريقِ الاتّفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي: ما يجب أن يُلغَى ويُطّرح ممّا لا خير فيه ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومِن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش، والصفحُ عن الذنوب، والكنايةُ عمّا يُستهجن التصريح به.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطويةِ على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبّوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، مُجتَلِين لها بعيون راعية. وإنّما عُبّر عن ذلك بنفي الضدّ تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون. وقيل: الضمير للمعاصي المدلول عليها بـ﴿ٱللَّغْوِ﴾.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإنّ المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله عزّ وجلّ وشاركوه فيها يُسَرُّ بهم قلبه، وتَقَرُّ بهم عَينُه، لِما يشاهده مِن مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقّعِ لحوقهم به في الجنّة، حسبما وعد بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة أو بيانيّة. وقُرِئ: "وَذُرِّيَّتِنَا".[٣] وتنكير "الأعين"

---

١ م - تعالى.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٥.

لإرادة تنكير "القُرّة" تعظيمًا، وتقليلُها لأنّ المراد أعينُ المتّقين، ولا ريب في قلّتها نظرًا إلى غيرها.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل. وتوحيدُه / لدلالته[1] على الجنس، وعدمِ [٢١٥ظ] الالتباس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا﴾ [غافر، ٦٧/٤٠]، أو لأنّ المراد: واجعلْ كلّ واحد منّا إمامًا، أو لأنّهم كنفس واحدة لاتّحاد طريقتهم واتّفاق كلمتهم، كذا قالوا.

وأنت خبير بأنّ مدار الكلّ صدورُ هذا الدعاء إمّا عن الكلّ بطريق المعيّة، وأنّه محال لاستحالة اجتماعهم في عصر واحد، فما ظنّك باجتماعهم في مجلس واحد، واتّفاقِهم على كلمة واحدة، وإمّا عن كلّ واحد منهم بطريق تشريك غيره في استدعاء الإمامة، وأنّه ليس بثابت جزمًا؛ بل الظاهر صدورُه عنهم بطريق الانفراد، وأنّ عبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عند الدعاء: "واجعلني للمتّقين إمامًا"، خلا أنّه حُكِيَت عباراتُ الكلّ بصيغة المتكلّم مع الغير للقصد إلى الإيجاز، على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وأُبقِيَ ﴿إِمَامًا﴾ على حاله. وقيل: "الإمام" جمعُ "آمٍّ" بمعنى "قاصد"، كـ"صيام" جمعِ "صائم"، ومعناه: قاصدين لهم مقتدين بهم.

وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذِكر الصِّلات بطريق العطف على صلة الموصول الأوّل للإيذان بأنّ كلّ واحد ممّا ذُكر في حيّز صِلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليلٌ على حيالِه، له شأن خطير حقيقٌ بأن يُفرَد له موصوف مستقِلّ، ولا يُجعَلَ شيء مِن ذلك تتمّةً لغيره. وتَوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلةَ الاختلاف الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام وليثِ الكتائبِ في المزدحَم[2]

---

[1] ط س: للدلالة.

[2] بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١. و"القَرم" بفتح القاف: السيّد. و"الهُمام": الملك العظيم الهِمّة، والسيّد الشجاع السخي. و"الكتيبة": الجيش. و"المُزدَحم": محل الازدحام، وأراد به المعركة. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٤٥٢/١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّصفين بما فُصِّل في حيّز صلة الموصولات الثمانية مِن حيث اتّصافُهم به. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك أكملَ تميّز، منتظَمون بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، مبيّنةٌ لِما لهم في الآخرة مِن السعادة الأبديّة إثرَ بيان ما لهم في الدنيا مِن الأعمال السنيّة.

و﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الدرجة العالية مِن المنازل، وكلُّ بناءٍ مرتفع عالٍ، أي: يُثابون أعلى منازل الجنّة، وهي اسم جنس أريدَ به الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ، ٣٧/٣٤]. وقيل: هي مِن أسماء الجنّة.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاقّ مِن مَضَض الطاعات، ورفضِ الشهوات، وتحمّلِ المجاهدات.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ مِن جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُحَيّيهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات، أو يُعطَون التبقِيةَ والتَّخليدَ مع السلامة مِن كلّ آفة. وقيل: يحيّي بعضُهم بعضًا ويسلّم عليه. وقُرِئ: "يَلْقَوْنَ"[1] مِن لَقِي.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾

[٢١٦و] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ / الكلام فيه كالذي مرّ في مقابله.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾

﴿قُلْ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يبيّن للناس أنّ الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنّما نالوها بما عُدِّدَ مِن محاسنهم، ولولاها لـم يُعتَدّ بهم أصلًا، أي: قل لهم كافّةً مشافِهًا لهم بما صدر عن جنسهم

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٥/٢.

مِن خيرٍ وشرّ: ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: أيُّ عِبْءٍ يَعبأ بكم، وأيُّ اعتدادٍ يَعتدّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرّ تفصيله، فإنّ ما خُلِق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته، وإلّا فهو وسائر البهائم سواء.

وقال الزجّاج: «معناه: أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده».[١] وقيل: معناه: ما يصنع بكم ربّي لولا دعاؤُه إيّاكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤُكم معه آلهةً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيان لِحال الكفرة مِن المخاطَبين، كما أنّ ما قبله بيانٌ لِحال المؤمنين منهم، أي: فقد كذّبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيّها الكفرة، ولم تعملوا عملَ أولئك المذكورين. وقيل: فقد قصّرتم في العبادة، مِن قولهم: "كذّب القتال" إذا لم يبالِغ فيه. وقُرئ: "فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ"،[٢] أي: الكافرون منكم؛ لعموم الخطاب للفريقين. وفائدته الإيذان بأنّ مَناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتّحاد الجنسي المصحِّح للاشتراك في الفَوز ليس إلّا اختلافهما في الأعمال.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون جزاءُ التكذيب أو أثرُه لازمًا يَحيق بكم لا محالةَ حتّى يَكُبَّكم في النار، كما يُعرِب عنه "الفاء" الدالّة على لزوم ما بعدها لِما قبلها، وإنّما أُضمر مِن غير ذِكرٍ للإيذان بغاية ظهوره، وتهويلِ أمره، وللتنبيه على أنّه ممّا لا يَكتنهه البيان. وقيل: يكون العذاب لِزامًا. وعن مجاهد رحمه الله تعالى:[٣] «هو القتل يوم بدر، وأنّه لُوزم بين القتلى».[٤] / وقرئ: "لَزَامًا"[٥] بالفتح بمعنى اللزوم، كـ"الثَّبات" و"الثُّبوت". [٢١٦ظ]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفرقان لَقي الله تعالى وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية، وأُدخِلَ الجنّةَ بغير نَصَب».[٦]

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ٤/٧٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

٣ س – تعالى.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٣٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٢٢؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٣٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

أَطْلَقَ الجمهورُ القولَ بمكِّيتها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادةَ: هي مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآيات:٦٨-٧٠]، وقال الضحاك: هي مدنيةٌ إلا أوَّلَها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ [الآية:٣] فهو مكيٌّ.

وعددُ آياتها سبع وسبعون آية بلا خلافٍ، كما ذكره الطبرسيُّ[1] والداني في كتاب «العدد»[2].

ولـمَّا ذَكَر جلَّ وعلا في آخر السورة السابقة وجوبَ متابعةِ المؤمنين للرسول ﷺ، ومَدَح المتابعين وحذَّر المخالفين، افتتح سبحانه هذه السورةَ بما يدلُّ على تعاليه جلَّ شأنُه عمَّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، أو على كثرة خيره تعالى ودوامِه، وأنه نزَّلَ[3] الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، إطماعاً في خيره وتحذيراً من عقابه جلَّ شأنُه، وفي هذه السورة أيضاً من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها، فقال تبارك وتعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ أي: تعالى جلَّ شأنُه في ذاته وصفاته وأفعاله على أتمِّ وجهٍ وأبلغِه، كما يُشْعِرُ به إسنادُ صيغةِ التفاعُلِ إليه تعالى، وهذا الفعلُ لا يُسنَدُ في الأغلب إلى غيره تعالى، ومثله: «تعالى»، ولا يتصرَّفُ، فلا يجيءُ منه مضارعٌ ولا أمرٌ ولا ولا في الأغلب أيضاً،

---

(١) في مجمع البيان ١٨/ ٨٣.

(٢) البيان في عَدِّ آي القرآن ص ١٩٤.

(٣) في (م): أنزل.

وإلا فقد قرأ أبيٌّ كما سيأتي إن شاء الله تعالى: «تباركتِ الأرضُ ومَن حولها»[١]، وجاء كما في «الكشف»: تباركتِ النخلةُ: أي: تعالت. وحكى الأصمعيُّ أن أعرابيّاً صعد رابيةً فقال لأصحابه: تبارَكْتُ عليكم، وقال الشاعر:

إلى الجذع جذعِ النخلة المتبارك[٢]

وقال الخليل[٣]: معنى تبارك: تمجّد. وقال الضحَّاك: تعظَّم. وهو قريبٌ من قريبٍ.

وعن الحسن والنخعيِّ أن المعنى: تَزايَدَ خيرُه وعطاؤه وتكاثَرَ. وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثانيتُهما أن المعنى: لم يزل، ولا يزال.

وتحقيقُ ذلك أنَّ «تَبارَكَ» من البركة، وهي في الأصل مأخوذةٌ من بَرْكِ البعير وهو صدرهُ، ومنه بَرَكَ البعير: إذا أَلْقَى بَرْكَه على الأرض، واعتُبر فيه معنى اللزومِ فقيل: بَرَاكاءُ الحرب وبَرُوْكاؤُها[٤] للمكان الذي يلزمُه الأبطال، وسمِّي مَحْبِسُ الماء بِرْكَةً كسِدْرةٍ، ثم أُطْلقتْ على ثبوتِ الخير الإلهيِّ في الشيء ثبوتَ الماء في البِرْكَةِ، وقيل لِمَا فيه ذلك الخيرُ: مبارَك، ولمَّا كان الخيرُ الإلهيُّ يَصْدُرُ من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصَى ولا يُحْصَرُ، قيل لكلِّ ما يشاهَدُ منه زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مبارَكٌ، و: فيه بَرَكة.

فَمَن اعتَبَر معنى اللزومِ كابن عباس بناءً على الرواية الثانية عنه، قال: المعنى: لم يَزَلْ ولا يَزَالُ، أو نحو ذلك. ومَن اعتبر معنى التزايُدِ انقسم إلى طائفتين، فطائفةٌ جعلوه باعتبارِ كمالِ الذات في نفسها ونقصانِ ما سواها، ففسَّروا ذلك بالتعالي ونحوِه، وطائفةٌ جعلوه باعتبارِ كمالِ الفعل، ففسَّروه بتزايُدِ الخير وتكاثُرِه، ولا اعتبارَ للتغيُّر المبنيِّ على اعتبارِ معنى اللزومِ؛ لقلَّة فائدةِ الكلام عليه، وعدمِ مناسبةِ ذلك المعنى لِمَا بَعْدُ، ومن هنا ردَّد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أوَّلاً وما رُوِيَ عن الحسن ومَن معه.

---

(١) ستأتي عند تفسير الآية (٨) من سورة النمل.
(٢) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث١/ ١٦، والشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٥.
(٣) كما في البحر ٦/ ٤٨٠.
(٤) كجَلُولاء. التاج (برك).

وترتيبُ وَصْفِه تعالى بقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ﴾ بالمعنى الأوَّلِ على إنزاله جلَّ شأنُه الفرقانَ لِمَا أنه ناطقٌ بعلوِّ شأنه سبحانه وسموِّ صفاتِه، وابتناءِ أفعاله على أساس الحِكَمِ والمصالح، وخلوِّها عن شائبة الخللِ بالكلِّية.

وترتيبُ ذلك بالمعنى الثاني عليه لِمَا فيه من الخير الكثير؛ لأنه هدايةٌ ورحمةٌ للعالَمين، وفيه ما ينتظمُ به أمر المعاشِ والمعادِ.

وكِلَا المعنيين مناسبٌ للمقام، ورجِّح الأولُ بأنه أنسبُ به لمكان قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فقد قال الطيبيُّ: في اختصاصِ النذير دون البشير سلوكُ طريقةِ براعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السورةَ مشتملةٌ على ذكر المعاندين المتَّخذين لله تعالى ولداً وشريكاً، الطاعنين في كتبه ورسله واليومِ الآخِر، وهذا المعنى يؤيِّدُ تأويلَ «تبارك» بـ: تَزَايَدَ عن كلِّ شيءٍ، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جلَّ وعلا؛ لإفادته صفةَ الجلال والهيبةِ، وإيذانه من أول الأمر بتَعَاليه سبحانه عمَّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وهو من الحُسْنِ بمكان.

و«الفرقان» مصدرُ فَرَقَ الشيءَ من الشيء وعنه: إذا فَصَلَه، ويقال أيضاً كما ذكره الراغب[1]: فَرَقْتُ بين الشيئين: إذا فَصَلْتَ بينهما، سواءٌ كان ذلك بفَصْلٍ يدركُه البصرُ أو بفَصْلٍ تدركُه البصيرة. والتفريقُ بمعناه إلَّا أنه يدلُّ على التكثير دونه. وقيل: إنَّ الفَرْقَ في المعاني، والتفريقَ في الأجسام.

والمرادُ به القرآنُ، وإطلاقُه عليه لفَصْلِه بين الحقِّ والباطل بما فيه من البيان، أو بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ لِمَا فيه من الإعجاز، أو لكونه مفصولاً بعضُه عن بعضٍ في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعةً كسائر الكتب ـ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يقولُه الصوفيةُ في ذلك ـ فهو مصدرٌ بمعنى الفاعل أو بمعنى المفعول، ويجوزُ أن يكون ذلك من بابِ:

. . . . هـــي إقبـــالٌ وإدبـــار[2]

فلا تغفل.

والمراد بـ «عبده»: نبيُّنا محمدٌ ﷺ، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بذلك العنوانِ

---

(١) في مفرداته (فرق).

(٢) طرف بيت للخنساء، وسلف ١١/ ٤٨٣.

لتشريفه، والإيذانِ بكونه صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه في أقصى مراتبِ العبودية، والتنبيهِ على أنَّ الرسول لا يكون إلَّا عبداً للمرسِل ردّاً على النصارى.

وقيل: المرادُ بالفرقان: جميعُ الكتب السماوية؛ لأنَّها كلَّها فَرَقَتْ بين الحقِّ والباطل، وبعبده: الجنسُ الشاملُ لجميعِ مَن نزلت عليهم، وأُيِّد بقراءةِ ابنِ الزبير: «على عباده»(١)، ولا يَخفَى ما في ذلك من البُعْدِ.

والمرادُ بالعباد في قراءة ابن الزبير: الرسولُ عليه الصلاة والسلام وأمتُه، والإنزالُ كما يضاف إلى الرسول ﷺ يضافُ إلى أمته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [النور: ٣٤] لأنه واصلٌ إليهم، ونزولُه لأجْلِهم، فكأنه مُنزلٌ عليهم وإن كان إنزالُه حقيقةً عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المرادُ بالجمع هو ﷺ، وعبّر عنه به تعظيماً.

وضميرُ «يكون» عائدٌ على «عبده». وقيل: على «الفرقان» وإسنادُ الإنذار إليه مجازٌ. وقيل: على الموصول الذي هو عبارةٌ عنه تعالى، ورجِّح بأنه العمدةُ المسنَدُ إليه الفعلُ، والإنذارُ من صفاته عزَّ وجل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. وقيل: على التنزيل المفهوم من «نزَّل». والمتبادرُ إلى الفهم هو الأول، وهو الذي يقتضيه ما بعدُ.

والنذيرُ صفةٌ مشبَّهةٌ بمعنى مُنْذِر، وجوِّز أن يكون مصدراً بمعنى إنذار، كالنكير بمعنى إنكار، وحكمُ الإخبار بالمصدر شهيرٌ. والإنذارُ إخبارٌ فيه تخويفٌ ويقابله التبشير، ولم يتعرَّض له لِمَا مرَّ آنفاً.

والمرادُ بالعالَمين عند جَمْعٍ من العالِمين: الإنسُ والجنُّ ممن عاصَرَه ﷺ إلى يوم القيامة. ويؤيِّدهُ قراءةُ ابنِ الزبير: «للعالمين للجنِّ والإنس»(٢). وإرسالُه ﷺ إليهم معلومٌ من الدِّين بالضرورة فيكفَّرُ مُنْكِرُه، وكذا الملائكةُ عليهم السلام كما رجَّحه جمعٌ محقِّقون كالسُّبكيِّ ومَن تَبِعه، وردَّ على مَن خالَفَ ذلك. وادَّعى بعضُهم دلالةَ الآيةِ عليه؛ لأنَّ العالَمَ ما سوى اللهِ تعالى وصفاتِه العُلَى، فيشملُ الملائكة عليهم السلام، وصيغةُ جمع العقلاء للتغليب، أو جُمع بعد تخصيصِه بالعقلاء.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٨٠.

(٢) البحر ٦/ ٤٨٠.

ومَن قال كالبارزي: إنه عليه الصلاة والسلام أُرْسِلَ حتى إلى الجمادات بعد جَعْلِها مُدْرِكةً لظاهرِ خبرِ مسلم: «وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافةً»[1] لم يخصِّص واكتفى بالتغليب.

وفائدةُ الإرسالِ للمعصوم وغير المكلَّفِ طَلَبُ إذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام، ودخولِهما تحت دعوته وأتباعه تشريفاً على سائرِ المرسلين عليهم السلام.

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على متعلَّقه للتشويق ومراعاةِ الفواصل، وللحَصْرِ أيضاً على القول الأول في «العالمين».

وإبرازُ تنزيل الفرقان في مَعْرِضِ الصِّلةِ التي حقُّها أن تكون معلومَة الثبوتِ للموصول عند السامع مع إنكار الكَفَرةِ له؛ لإجرائه مجرى المعلوم المسلَّمِ تنبيهاً على قوَّةِ دلائله، وكونِه بحيث لا يكادُ يجهلُه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وكذا يقال في نظائره من الصِّلات التي ينكرُها الكَفَرةُ.

وقال بعضهم: لا حاجةَ لِمَا ذُكر؛ إذ يكفي في الصِّلة أن تكون معلومةً للسامع المخاطَبِ بها، ولا يلزم أن تكون معلومةً لكلِّ سامع، والمخاطبُ بها هنا هو رسول الله ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام عالمٌ بثبوتها للموصول. وفي «شرح التسهيل»: أنه لا يلزم فيها أن تكون معلومةً، وأنَّ تعريفَ الموصول كتعريفِ «أل»؛ يكون للعهد والجنسِ، وأنه قد تكون صلتُه مُبْهَمةً للتعظيم كما في قوله:

فإنْ أستَطِعْ أَغْلِبْ وإنْ يَغْلِبِ الهوى   فمثلُ الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُه[2]

وما ذُكر أوَّلاً من تنزيلها منزلةَ المعلوم أبلغُ؛ لكونه كنايةً عمَّا ذُكِرَ مناسِبةً للردِّ على مَن أنكر النبوَّةَ وتوحيدَ الله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٩٣٣٧)، والبارزي هو قاضي حماة، شرف الدين، هبة الله بن عبد الرحيم الجهني، له: شرح الحاوي، والتميز، والوفا في سرائر المصطفى، توفي سنة(٧٣٨هـ). طبقات الشافعية ١٠/ ٣٨٧. وقد سلف كلامه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

(٢) البيت لابن ميادة كما في أمالي القالي ١/ ١٦٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٣٤، ومعجم الأدباء ١١/ ١٤٨.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه خاصةً دون غيره ـ لا استقلالاً ولا اشتراكاً ـ السلطانُ القاهرُ والاستيلاءُ الباهرُ عليهما، المستلزِمُ للقدرة التامَّة والتصرُّفِ الكلِّيِّ فيهما وفيما فيهما، إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وأمراً ونهياً، حَسْبَما تقتضيه مشيئتُه المبنيَّةُ على الحِكَم والمصالح.

ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والجملةُ مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلها أو على أنه نعتٌ للموصول الأول، أو بيانٌ له، أو بدلٌ منه، وما بينهما ليس بأجنبيٍّ لأنه من تمام الصلة ومتعلِّقٌ بها، فلا يضرُّ الفصلُ به بين التابع والمتبوع كما في «البحر»(١). أو محلُّه الرفعُ أو النصبُ على المدح، بتقدير: هو، أو: أَمْدَحُ.

واختار الطيبيُّ أنَّ محلَّه الرفعُ على الإبدال، وعلَّله بقوله: لأنَّ من حقِّ الصلةِ أن تكون معلومةً عند المخاطب، وتلك الصلةُ لم تكن معلومةً عند المعانِدين، فأبدل «الذي له» إلخ بياناً وتفسيراً. وهو بعيدٌ مِن مِثْلِه، وسبحان مَن لا يعابُ عليه شيءٌ.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم يُنْزِلْ أحداً منزلةَ الولد. وقيل: أي: لم يكن له ولدٌ كما يزعم الذين يقولون في حقِّ المسيح وعُزَيرٍ والملائكةِ عليهم السلام ما يقولون، فسبحان اللهِ عما يصفون.

والجملةُ معطوفةٌ على ما قَبْلَها من الجملة الظرفية، وكذا قولهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: ملكِ السماوات والأرض، وأُفرد بالذكر مع أنَّ ما ذُكر من اختصاصِ ملكهما به تعالى مستلزمٌ له قطعاً؛ للتصريح ببطلان زَعْمِ الثنويةِ القائلين بتعدُّدِ الآلهة، والردِّ في نحورهم. وتوسيطُ نفي اتخاذِ الولد بينهما؛ للتنبيه على استقلاله وأصالته، والاحترازِ عن توهُّم كونِه تتمةً للأول.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أَحْدَثَه إحداثاً جارياً على سَنَنِ التقدير والتسوية حَسْبَما اقتضته إرادتُه المبنيَّةُ على الحِكَم البالغةِ، كخلقهِ الإنسان من موادَّ مخصوصةٍ، وصورٍ وأشكالٍ معيَّنةٍ.

---

(١) ٦/ ٤٨٠.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هيَّأه لِمَا أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقْدِيرًا ۝٢﴾ بديعاً لايقادَرُ قَدْرُه، ولا يُبْلَغُ كنهُه، كتهيئةِ الإنسان للفَهْمِ والإدراك، والنظرِ والتدبُّرِ في أمور المعادِ والمعاشِ، واستنباطِ الصنائع المتنوِّعةِ، ومُزاولةِ الأعمال المختلفةِ، إلى غير ذلك، فلا تكرارَ في الآية؛ لِمَا ظهر من أنَّ التقدير الدالَّ عليه الخَلْقُ بمعنى التسويةِ، والمعبَّرَ عنه بلَفْظِه بمعنى التهيئة، وهما غيران، والخَلْقُ على هذا على حقيقته.

ويجوزُ أن يكون الخَلْقُ مجازاً، بل منقولاً عرفياً في معنى الإحداث والإيجاد غير ملاحظ فيه التقديرُ وإن لم يَخْلُ عنه، ولهذا صحَّ التجوُّز، ويكون التصريحُ بالتقدير دلالةً على أنَّ كلَّ واحدٍ مقصودٌ بالذات، فكأنه قيل: وأَوْجَدَ كلَّ شيءٍ فقدَّره في إيجاده لم يُوْجِدْه متفاوتاً بل أَوْجَدَه مُتناصِفاً مُتناسِباً.

وقيل: التقدير الثاني هو التقديرُ للبقاء إلى الأَجَلِ المسمَّى، فكأنه قيل: وأَوْجَدَ كلَّ شيءٍ على سَنَنِ التقدير، فأدامه إلى الأجل المسمَّى.

والقولُ الأول مختارُ الزَّجَّاج(١)، وهو كما في «الكشف» أظهرُ، والفاءُ عليه للتعقيب مع الترتيب.

وزَعَم بعضُهم أنَّ في الكلام قلباً، وهو على ما فيه لا يَدْفَعُ لزومَ التكرار بدون أحدِ الأوجُهِ المذكورة كما لا يخفى.

وجملةُ «خَلَق» إلخ عطفٌ على ما تقدَّم، وفيها ردٌّ على الثَّنوية القائلين بأن خالقَ الشرِّ غيرُ خالقِ الخير، ولا يضرُّ كونهُ معلوماً مما تقدَّم؛ لأنها تفيدُ فائدةً جديدةً لِمَا فيها من الزيادة.

وقيل: هي ردٌّ على مَن يعتقد اعتقادَ المعتزلة في أفعال الحيوانات الاختيارية.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنها جاريةٌ مجرى التعليل لِمَا قبلها من الجمل المنتظمةِ [مثلها] في سلك الصلة؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجميع الأشياء على النَّمَطِ البديع ـ كما يقتضي استقلالُه تعالى باتِّصافه بصفاتِ الألوهية ـ يقتضي انتظامَ كلِّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/٥٧، وحاشية الشهاب ٦/٤٠٦-٤٠٧.

ما سواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهر، بحيث لا يشذُّ من ذلك شيءٌ، ومَن كان كذلك كيف يتوهَّم كونُه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه عزَّ وجل[1].

وذكر الطيبيُّ أنَّ قولَه تعالى: (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) توطئةٌ وتمهيدٌ لقوله سبحانه: (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ) وأردف بقوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ) لِمَا أنَّ كونه سبحانه بديعَ السماواتِ والأرضِ وفاطرَهما ومالكَهما منافٍ لاتِّخاذ الولدِ والشريك؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٠١].

وقد يقال: إنَّ هذه الجملةَ تصريحٌ بما عُلِمَ قبلُ؛ ليكون التشنيع على المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أظهرَ.

وضميرُ «اتَّخذوا» للمشركين المفهوم من قوله تعالى: (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ)، أو من المقام وقولِه سبحانه: (نَذِيرًا). وقال الكرمانيُّ: للكفار[2]، وهم مندرجون في قوله تعالى: (لِلْعَٰلَمِينَ).

والمرادُ حكايةُ أباطيلِهم في أمر التوحيد والنبوَّةِ وإظهارُ بطلانها، بعد أن بيَّن سبحانه حقيقةَ الحقِّ في مطلع السورة الكريمة، أي: اتَّخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذي ذكر بعض شؤونه العظيمةِ آلهةً لا يقدرون على خَلْقِ شيءٍ من الأشياء، وهم مخلوقون لله تعالى، أو هم يَخْتِلِقُهم عَبَدَتُهم بالنحت والتصوير.

ورُجِّح المعنى الأولُ بأنَّ الكلام عليه أشملُ، ولا يختصُّ بالأصنام، بخلافه على الثاني، ويكونُ التعبيرُ بالمضارع عليه في «يُخْلَقون» المبنيِّ للمفعول لمشاكلةِ «يَخلقون» المبنيِّ للفاعل، مع استحضارِ الحال الماضية.

ورجِّح المعنى الثاني بأنه أنسبُ بالمقام؛ لأنَّ الذين أنذرهم نبيُّنا ﷺ شفاهاً عَبَدةُ الأصنام، وأنَّ الأحكام الآتية أوفقُ بها، نعم فيه تفسيرُ الخَلْقِ بالافتعال كما في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] لأنه الذي يصحُّ نسبتُه لغيره عز وجل، وكذا الخلقُ بمعنى التقدير كما في قول زهير:

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠١، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) يعني ضمير «اتخذوا»، وكلام الكرماني في البحر ٦/ ٤٨١، وعنه نقل المصنف.

ولأنتَ تَفري ما خَلَقتَ وبعـ ضُ القومِ يَخلُقُ ثم لا يَفرِي[١]

والمتبادرُ منه إيجادُ الشيءِ مقدَّراً بمقدارٍ كما هو المرادُ من سابقه، وتفسيرُه بذلك أيضاً كما فعل الزمخشريُّ[٢] بعيدٌ. كذا قيل، وتعقِّب بأنه يجوز أن يراد منه هذا المتبادِرُ، والأصنامُ بذواتها وصورِها وأشكالِها مخلوقةٌ لله تعالى عند أهل الحقِّ؛ لأنَّ أفعالَ العباد وما يترتَّب عليها وينشأ منها من الآثار مخلوقةٌ له عزَّ وجلَّ عندهم كما حقِّق في موضعه[٣]. بل لو قيل بتعيُّنِ هذه الإرادةِ على ذلك الوجه لم يَبْعُدْ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لبيان حالهم بعد خَلْقِهم ووجودهم، والمرادُ: لا يَقْدِرون على التصرُّف في ضرٍّ ما ليدفعوه عن أنفسهم، ولا في نفعٍ ما حتى يجلبوه إليهم. ولمَّا كان دفعُ الضرِّ أهمَّ أُفيد أوَّلاً عجزُهم عنه، وقيل: «لأنفسهم» ليدلَّ على غايةِ عجزهم؛ لأنَّ مَن لا يقدِرُ على ذلك في حقِّ نفسه فلأَنْ لا يقدِرَ عليه في حقِّ غيره من باب أَوْلَى.

ومَن خصَّ الأحكام في الأصنام قال: إنَّ هذا لبيان ما لم يدلَّ عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضَعْفِهم، فإنَّ بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دَفْعَ الضرِّ وجَلْبَ النفع في الجملة كالحيوان.

وقد يقال: التصرُّفُ في الضرِّ والنفع بالدفع والجَلْبِ على الإطلاق ليس على الحقيقة إلَّا لله عز وجل، كما يُنْبِئُ عنه قولُه سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: لا يقدرون على التصرُّفِ في شيء منها بإماتةِ الأحياء وإحياءِ الموتى في الدنيا وبَعْثِهم في الأخرى؛ للتصريح بعَجْزِهم عن كلِّ واحدٍ مما ذُكر على التفصيل، والتنبيهِ على أنَّ الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك. وتقديمُ الموت لمناسبةِ الضرِّ المقدَّم.

---

(١) ديوان زهير ص٩٤، وسلف ٢/ ١٢ وص٣٧ من هذا الجزء.

(٢) في الكشاف ٣/ ٨١.

(٣) قوله: في موضعه، ليس في (م)، وينظر ما سلف ١/ ٣٩٥ وما بعد و٦/ ١٦٦-١٦٧ و٣/ ١٠١.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ القائلون ـ كما أخرجه جمعٌ عن قتادةَ ـ هم مشركو العرب لا جميعُ الكفار، بقرينةِ ادِّعاء إعانةٍ بعض أهل الكتاب له ﷺ، وقد سمِّي منهم في بعض الروايات: النضرُ بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفلُ بن خويلد. ويجوز أن يراد غُلاتهُم كهؤلاء ومَن ضامَّهم، وروي عن ابن عباس ما يؤيِّده.

وروي عن الكلبيِّ ومقاتلٍ: أنَّ القائل هو النضرُ، والجمعُ لمشايعة الباقين له في ذلك.

ومَن خصَّ ضمير «اتخذوا» بمشركي العرب، وجَعَل الموصول هنا عبارةً عنهم كلِّهم، جَعَل وَضْعَ الموصول موضعَ ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، والإيذانِ بأنَّ ما تفوَّهوا به كفرٌ عظيم.

وفي كلمةِ «هذا» حطٌّ لرتبة المشارِ إليه، أي: قالوا: ما هذا إلا كذبٌ مصروفٌ عن وجهه ﴿افْتَرَاهُ﴾ يريدون أنه اخترعه رسولُ الله ﷺ ولم ينزل عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على افترائه واختراعِهِ، أو: على الإفك ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعنون اليهودَ، بأنْ يُلْقوا إليه ﷺ أخبارَ الأمم الدَّارِجة، وهو عليه الصلاة والسلام يعبِّر عنها بعبارته.

وقيل: هم عدَّاس ـ وقيل: عابس[1] ـ مولى حويطب بنِ عبد العُزَّى، ويسار مولى العلاء بن الحضرميِّ، وجبر مولى عامر، وكانوا كتابيِّينَ يقرؤون التوراةَ أسلموا وكان الرسول ﷺ يتعهَّدهم، فقيل ما قيل.

وقال المبرِّد: عَنَوا بقوم آخرين: المؤمنين؛ لأنَّ آخَرَ لا يكونُ إلَّا من جنس الأول. وفيه أنَّ الاشتراك في الوصف غيرُ لازمٍ، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾[2] [آل عمران: ١٣].

---

(١) في الأصل و(م): عائش، والمثبت من الإصابة ٥/ ٢٦٦، وتجريد أسماء الصحابة للذهبي ص٢٨٠، وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ٤٣٠. والذي ذكر أنه عداس هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٨١.

(٢) أي: إن الفئتان اشتركتا في مطلق الفئة واختلفتا في الوصف. البحر ٦/ ٤٨١، وعنه نقل المصنف قول المبرد وما بعده.

﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ أي: الذين كفروا كما هو الظاهر ﴿ظُلْمًا﴾ منصوبٌ بـ «جاؤوا» فإنَّ جاء وأتى يُستعملان في معنى فَعَلَ فيتعدَّيان تَعْدِيتَه كما قال الكسائيُّ، واختار هذا الوجهَ الطبرسيُّ وأنشد قولَ طرفة:

نَشَدْتُ فلم أُغفِلْ حَمولةَ مَعْبَدِ ... على غيرِ ذنبٍ جئتهُ غيرَ أنني[1]

وقال الزجَّاج: منصوبٌ بنزع الخافض[2]، فهو من باب الحذف والإيصال. وجوَّز أبو البقاء كونَه حالاً، أي: ظالمين[3]. والأول أولى.

والتنوينُ فيه للتفخيم، أي: جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً لا يقادَرُ قَدْرُه، حيث جعلوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه إفكاً مفترًى من قِبَلِ البشر، وهو من جهة نَظْمِه الرائقِ وطرازِه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثلِ آيةٍ من آياته، ومن جهة اشتماله على الحِكَمِ الخفيَّةِ والأحكامِ المستتبعةِ للسعادات الدينية والدنيوية والأمورِ الغيبيةِ، بحيث لا تنالُه عقولُ البشر، ولا تحيطُ بفَهْمِه القُوَى والقُدَر.

وكذا التنوينُ في ﴿وَزُورًا ۝٤﴾ أي: وكذباً عظيماً لا يبلغ غايته، حيث قالوا ما لا احتمالَ فيه للصدق أصلاً. وسمِّي الكذبُ زوراً لازْوِراره، أي: ميله عن جهة الحقِّ.

والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكنْ لا على أنَّهما أمران متغايران حقيقةً يقعُ أحدُهما عقيبَ الآخر أو يحصلُ بسببه، بل على أنَّ الثاني عينُ الأول حقيقةً، وإنما الترتيبُ بحسب التغايُرِ الاعتباريِّ، و«قد» لتحقيق ذلك المعنى، فإنَّ ما جاؤوه من الظلم والزور هو عينُ ما حُكي عنهم، لكنَّه لمَّا كان مغايراً له في المفهوم وأَظْهَرَ

---

(١) مجمع البيان ١٨/ ٨٦، والبيت في الديوان ص٣٥، وفيه: على غير ذنب قلتُه...، ومثله في شرح المعلقات للنحاس ١/ ٨٥، وللتبريزي ص١١٠، وفيه: معبد أخوه، والحمولة: الإبل التي تَحمل، والحمولة: الأحمال. وقوله: فلم أغفل، أراد: نشدت حمولة معبد فلم أغفل ذلك.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٨.

(٣) الإملاء ٤/ ٩١.

منه بطلاناً، رتَّب عليه بالفاء ترتيبَ اللازِم على الملزوم؛ تهويلاً لأمره كما قال شيخ الإسلام(١).

وقيل: ضميرُ «جاؤوا» عائدٌ على «قوم آخرين»، والجملةُ من مقولِ الكفار، وأرادوا أنَّ أولئك المعيَّنين جاؤوا ظلماً بإعانتهم وزُوراً بما أعانوا به، وهو كما ترى.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحقَّ الذي لا مَحِيدَ عنه إفكاً مُخْتَلَقاً بإعانة البشر، بيَّنوا على زَعْمِهم الفاسدِ كيفيةَ الإعانة، وتقدَّم الكلامُ في الأساطير(٢)، وهي خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذه، أو: هو، أو: هي أساطيرُ. وقولُه تعالى: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ خبرٌ ثان. وقيل: حالٌ بتقدير «قد». وتعقِّب بأنَّ عامل الحال إذا كان معنوياً لا يجوزُ حَذْفُه كما في «المغني»(٣). وفيه أنه غيرُ مسلَّم كما في شَرْحِه. وجوِّز أن يكون «أساطير» مبتدأً، وجملةُ «اكتتبها» الخبرَ.

ومرادُهم: كتبها لنفسه، والإسنادُ(٤) مجازيٌّ كما في: بَنَى الأميرُ المدينة، والمراد: أَمَر بكتابتها. أو يقالُ: حقيقةُ اكتتب: أَمَرَ بالكتابة، فقد شاع افْتَعَلَ بهذا المعنى، كاحْتَجَمَ وافْتَصَد: إذا أَمَرَ بالحجامة والفَصْدِ.

وقيل: قالوا ذلك لظنِّهم أنه عليه الصلاة والسلام يَكتُبُ حقيقةً، أو لمحضِ الافتراء عليه ﷺ، بناءً على عِلْمِهم أنه(٥) لم يكن يكتبُ ﷺ.

وقيل: مرادُهم: جَمَعَها، مِن كَتَبَ الشيء: جَمَعَه. والجمهورُ على الأول.

وقرأ طلحة: «اكتُتِبَها» مبنياً للمفعول(٦)، والأصلُ: اكتَتَبَها له كاتبٌ، فحذف اللامُ وأَفْضَى الفعلُ إلى الضمير، فصار: اكتَتَبها إياه كاتبٌ، ثم حُذف الفاعل لعَدَمِ تعلُّق الغرض العلميِّ بخصوصه، فبُنِيَ الفعلُ للمفعول وأسند للضمير، فانقلب

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٣.

(٢) في (م): أساطير. وينظر ما سلف ١٠/ ٩٤ و١٨/ ١٢٨.

(٣) ص٤٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٧.

(٤) في الأصل: على أن الإسناد.

(٥) في الأصل: بأنه.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٨٢.

مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً، وهذا مبنيٌّ على جوازِ إقامة المفعول الغيرِ الصريح مقامَ الفاعل مع وجودِ الصريح وهو هنا ضميرُ الأساطير، وهو الذي ارتضاه الرضيُّ وغيرُه. وجمهورُ البصريين على عَدَمِ الجوازِ وتعيُّنِ المفعول الصريح للإقامة، فيقال عندهم: اكتُتِبَتْه، وعليه قول الفرزدق:

ومنَّا الذي اختيرَ الرجالَ سماحةً　　وجوداً إذا هبَّ الرياحُ الزَّعازعُ[1]

بنَصْبِ الرجال، وعلى الأوَّلِ كان حقُّ التركيب: اخْتِيرَه الرجالُ بالرفع؛ فإنَّ الأصل: اختاره من الرجال مختارٌ، وظاهرٌ أنه إذا عَمِلَ فيه ما تقدَّم يصير إلى ما ذكر.

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلْقَى تلك الأساطيرُ عليه بعد اكتتابها لِيَحْفَظَها من أفواه مَن يُمْليها عليه من ذلك المكتَتَب؛ لكونه أمِّيّاً لا يقدرُ على أن يتلقَّاها منه بالقراءة، فالإملاء: الإلقاء للحفظ بعد الكتابة استعارة، لا الإلقاءُ للكتابة كما هو المعروفُ، حتى يقال: إنَّ الظاهر العكسُ بأن يقال: أُمْلِيتْ عليه فهو يكتتبها.

أو المعنى: أراد اكتتابَها أو طلَبَ كتابتَها فأُمْلِيَتْ عليه، أي: عليه نفسِه أو على كاتبه، فالإملاءُ حينئذٍ باقٍ على ظاهره.

وقرأ طلحةُ وعيسى: «تُتْلَى» بالتاء بدل الميم[2].

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ أي: دائماً، أو: قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم، وعَنَوا بذلك أنها تُملَى عليه خفيةً لئلَّا يقف الناسُ على حقيقةِ الحال، وهذه جراءةٌ عظيمةٌ منهم قَاتَلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

وعن الحسن: أنَّ «اكتتبها» إلخ من قول الله عز وجل يكذِّبهم به، وإنما يستقيم أن لو فتحت[3] الهمزة في «اكتتبها» للاستفهام الذي هو في معنى الإنكار، ووجهُه أن يكون نحوَ قول حَضْرميّ بن عامر وقد خرج يتحدَّثُ في مجلس قومٍ وهو في حلَّتين له، فقال جَزْء بنُ سنان بن مَوَلَة: والله إنَّ حضرمياً لجذلٌ بموتِ أخيه أن وَرِثه:

---

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ٤١٨، والبحر ٦/ ٤٨٢، وجاء في الديوان: وخيراً، بدل: وجوداً.
(٢) البحر ٦/ ٤٨٢.
(٣) في الأصل و(م): افتتحت، والمثبت من الكشاف٣/ ٨٢، والبحر ٦/ ٤٨٢.

أَفْــرحُ أنْ أُرْزَأَ الــكِــرامَ وأنْ أُورَثَ ذَوْداً شَــصَــائِــصــاً نَــبَــلَا[1]

من أبياتٍ، وحقَّ للحسن على ما في «الكشاف»[2] أن يقف على «الأوَّلينَ».

﴿قُلْ﴾ لهم ردّاً عليهم وتحقيقاً للحقِّ: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَصَفَه تعالى بإحاطة عِلْمِه بجميع المعلومات الخفيَّةِ والجليَّةِ المعلومةِ من بابِ أَوْلَى، للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عقول البشر، مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكيةِ التي هي من جملة معلوماته تعالى، أي: ليس ذلك كما تزعُمون بل هو أمرٌ سماويٌّ أنزله الله تعالى الذي لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه شيءٌ من الأشياء، وأَوْدَعَ فيه فنونَ الحِكَم والأسرار على وجهٍ بديع لا تحومُ حوله الأفهامُ، حيث أعجزكم قاطبةً بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بمغيَّباتٍ مستقبلةٍ وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدَى إليها ولا يُوقَف[3] إلَّا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها، وإذا أرادوا بـ «بكرةً وأصيلاً»: خفيةً عن الناس، ازداد موقعُ السرِّ حُسْناً.

وأما التذييلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ فهو للتنبيه على أنهم استَوْجَبوا العذابَ على ما هم عليه من الجنايات المحكيَّة، لكن أخَّر عنهم لِمَا أنه سبحانه أزلاً وأبداً مستمرٌّ على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير، فكأنه قيل: إنه جلَّ وعلا متَّصفٌ بالمغفرة والرحمة على الاستمرار، فلذلك لا يعجِّلُ عقوبتكم على ما أنتم عليه، مع كمال استيجابه إياها، وغايةِ قدرته سبحانه عليها، ولولا ذلك لصَبَّ عليكم العذاب صَبّاً.

وذكر الطيبيُّ أنَّ فيه على هذا الوجه معنى التعجُّبِ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) أمالي القالي ١/٦٧، وجمهرة الأمثال ١/٣٧٦، والخزانة ٣/٤٢٩، والكشاف ٣/٨٢، والبحر ٦/٤٨٢. وجاء في هامش الأصل و(م): الشصائص جمع شَصُوص، وهي القليلةُ اللبن، والنَّبَلا جمع نبيل ـ ككَرَم في كريم ـ: الصِّغَار وتطلق على الكبار. اهـ منه. وحضرمي بن عامر بن مَوَلَة ـ بفتحات ـ الأسديُّ يكنى أبا كدم، وفد على النبي ﷺ مع قومه بني أسد بن خزيمة، فأسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً. الإصابة ٢/٢٦٤. وجاء في المصادر: جزء بن مالك، بدل: جزء بن سنان.

(٢) ٣/٨٢، وفيه: وحقُّ الحسن...

(٣) في الأصل: يوفق، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/٢٠٣، والكلام منه.

وجوّز أن يكون الكلامُ كنايةً عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم؛ لأنه لا يوصفُ بالمغفرة والرحمة إلا القادرُ على العقوبة، وفي إيثارها تعييرٌ لهم، ونعيٌ على فِعْلِهم، يعني: أنكم فيما أنتم عليه بحيث يتصدّى لعذابكم مَن صفتُه المغفرةُ والرحمةُ. وليس بذاك.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يقال: ذكر المغفرةَ والرحمةَ بعد ذلك لأَجْلِ أن يعرفوا أنَّ هذه الذنوبَ العظيمةَ المتجاوِزةَ عن الحدِّ مغفورةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رحمته واصلةٌ إليهم بعدها، وأن لا ييأسوا من رحمته تعالى بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصَمَةِ الشديدة. وهو كما ترى.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ إلخ نزلت في جماعةٍ من كفار قريش؛ أخرج ابن إسحاق[1] وابن جريرٍ وابنُ المنذر عن ابن عباس ﷺ: أنَّ عتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وأبا سفيان بنَ حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختريِّ، والأسودَ بن المطَّلب، وزمعةَ بن الأسود، والوليدَ بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بنَ أبي أمية، وأمية بنَ خلف، والعاصي بن وائل، ونبيه بن الحجَّاج، ومنبِّه بن الحجَّاج، اجتمعوا، فقال بعضُهم لبعضٍ: ابعثوا إلى محمدٍ وكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَروا منه، فبعثوا إليه: إنَّ أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك. فجاءهم عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا محمد، إنَّا بَعَثْنا إليك لنُعْذَرَ منك، فإنْ كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جَمَعْنا لك من أموالنا، وإن كنتَ تطلبُ الشرفَ فنحن نسوِّدُكَ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملَّكناك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتُكم بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله تعالى بَعَثَني إليكم رسولاً، وأَنْزَلَ عليَّ كتاباً، وأَمَرني أنْ أكونَ لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالةَ ربِّي ونَصَحْتُ لكم، فإنْ تَقْبَلوا منِّي ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأمْرِ اللهِ تعالى حتَّى يَحْكُمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بيني وبينكم» قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضنا عليك فسَلْ لنفسك، سَلْ ربَّكَ أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقُكَ بما تقول ويراجعُنا عنك، وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهبٍ وفضةٍ تُغنيكَ عمَّا تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق

(١) في الأصل و(م): ابن أبي إسحاق، وهو خطأ.

وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمسُه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إنْ كنتَ رسولاً كما تزعُم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكنَّ الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً» فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلخ(١).

وقد سيقَ هنا لحكاية جنايتهم المتعلِّقةِ بخصوص المُنْزَلِ عليه الفرقانُ بعد حكايةِ جنايتهم التي تتعلَّق بالمُنْزَلِ، و«ما» استفهاميةٌ بمعنى إنكارِ الوقوع ونفيه في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والجارُّ والمجرورُ بعدها متعلِّقٌ بمحذوف خبر لها، وقد وقعت اللَّامُ مفصولةً عن هذا المجرور بها في خطِّ الإمام وهي سنَّةٌ متَّبعة. وعَنَوا بالإشارة والتعبيرِ بالرسول الاستهانةَ والتهكُّم.

وجملةُ ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حالٌ من «الرسول»، والعاملُ فيها ما عَمِلَ في الجارِّ من معنى الاستقرارِ، وجوَّز أن يكون الجارَّ والمجرورَ، أي: أيُّ شيء وأيُّ سببٍ حَصَلَ لهذا الزاعِمِ أنه رسولٌ حالَ كونِه يأكلُ الطعامَ كما نأكلُ ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعلهُ، على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقُّق المسبَّب الذي هو مضمونُ الجملة الحالية. ومن الناس مَن جوَّز جَعْلَ الجملة استئنافيةً. والأَوْلَى ما ذَكَرْنا.

ومرادُهم استبعادُ الرسالةِ المنافيةِ لأَكْلِ الطعام وطَلَبِ المعاش على زَعْمِهم، فكأنهم قالوا: إنْ صحَّ ما يدَّعيه فما بالُه لم يخالِفْ حالُه حالَنا، وليس هذا إلَّا لَعَمَهِهم(٢) وركاكةِ عقولهم، وقصورِ أبصارهم على المحسوسات، فإنَّ تميُّز الرسل عليهم السلام عمَّا عَدَاهم ليس بأمورٍ جسمانيةٍ، وإنما هو بأمورٍ نفسانيةٍ، أعني: ما جَبَلَهم اللهُ تعالى عليه من الكمال كما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

واستُدِلَّ بالآية على إباحةِ دخولِ الأسواق للعلماء وأهلِ الدِّين والصلاح، خلافاً لمن كَرِهَه لهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥-٢٩٨، وتفسير الطبري ١٥/ ٨٧-٩٠ و١٧/ ٤٠٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) العمه في البصيرة كالعمى في البصر. حاشية الشهاب ٦/ ٤٠٨.

﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تَنزُّلٌ عمَّا تقدَّم، كأنهم قالوا: إن لم تُوجد المخالفةُ بيننا وبينه في الأكل والتعيُّش، فهلَّا يكون معه مَن يخالفُ فيهما يكون رِدْءاً له في الإنذار، فإن لم توجد فهلَّا يخالفنا في أحدهما وهو طلبُ المعاشِ بأن يُلْقَى إليه من السماء كنزٌ يَسْتظهرُ به، ويَرْتَفِعُ احتياجُه إلى التعيُّش بالكلِّية، فإنْ لم يوجد فلا أقلّ من رَفْعِ الاحتياج في الجملة بإتيانِ بستانٍ يتعيَّش بريعه كما للدَّهَاقين[1] والمَيَاسيرِ من الناس.

والزمخشريُّ[2] ذكر أنهم عَنَوا بقولهم: «ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق» أنه كان يجب أن يكون مَلَكاً، ثم نزلوا عن مَلَكِيته إلى صحبةِ مَلَكٍ له يُعينُه، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنزٍ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستانٌ يأكلُ منه ويرتزقُ.

وقيل: الجملةُ الأخيرة فقط تنزُّلٌ منهم، وما قبلُ استئنافٌ جواباً عمَّا يقال: كيف يخالفُ حالُه ﷺ حالَكم، وبأيِّ شيءٍ يحصل ذلك ويتميَّزُ عنكم؟ ولا يخفى ما فيه.

ونصب «يكونَ» على جواب التحضيض، وقرئ: «فيكونُ» بالرفع حكاه أبو معاذ[3]، وخرِّج على أن يكون معطوفاً[4] على «أُنزل»؛ لأنه لو وَقَعَ موقعَه المضارعُ لكان مرفوعاً؛ لأنك تقول ابتداءً: لولا يَنْزِلُ بالرفع، وقد عُطِفَ عليه «يُلْقَى» و«تكونُ» وهما مرفوعان. أو هو جوابُ التحضيض على إضمارِ «هو»، أي: فهو يكون.

ولا يجوزُ في مثل هذا التركيب نصبُ «يُلْقَى» و«تكونُ» بالعطف على «يكونَ» المنصوبِ؛ لأنهما في حُكْمِ المطلوب بالتحضيض، لا في حكم الجواب.

---

(١) جمع دهقان، وهو صاحب الصنعة والزراعة، وهو معرب: ده جان، أي: رئيس القرية. حاشية الشهاب ٦/ ٤٠٨.
(٢) في الكشاف ٣/ ٨٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٣.
(٤) في الأصل و(م): معطوف، والصواب ما أثبتناه.

ولعل التعبير أولاً بالماضي مع أنَّ الأصل في «لولا» التي للتحضيض أو العَرْضِ دخولُها على المضارع؛ لأنَّ إنزال المَلَكِ مع قَطْعِ النظر عن أن يكون معه عليه الصلاة والسلام نذيراً أمرٌ متحقِّقٌ لم يَزَلْ مدَّعياً له ﷺ فأخرجوا(١) الكلام حَسْبَما يدَّعيه عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن مسلَّماً عندهم، وفيه نوعُ تهكُّمٍ منهم قَاتلَهم الله تعالى، بخلافِ الإلقاء وحصولِ الجنة، ولعل في التعبير بالمضارع فيهما - وإن كان هو الأصل - إشارةٌ إلى الاستمرار التجدُّديِّ، كأنهم طلبوا شيئاً لا يَنْفُد.

وذكر ابن هشام في «المغني» عن الهرويِّ أنه قال بمجيءِ «لولا» للاستفهام، ومثَّلَ له بمثالين أحدُهما قولُه تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وتعقَّب ذلك بأنه معنًى لم يذكره أكثر النحويين، والظاهرُ أنها في المثال المذكورِ مثلُها في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣]، وذكَر أنها في ذلك للتوبيخ والتنديم، وهي حينئذٍ تختصُّ بالماضي(٢).

ولا يخفى أنه إن عَنَى بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ما وقع هنا فأمرُ كونها فيه للتوبيخ والتنديم في غاية الخفاء، فتدبَّر.

وقرأ قتادة والأعمش: «أو يكون» بالياء آخرِ الحروف(٣). وقرأ زيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ وابنُ وثاب وطلحةُ والأعمش: «نأكل» بالنون(٤) إسناداً للفعل إلى ضمير الكفرة القائلين ما ذكر.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم القائلون الأوَّلون، وإنما وُضِعَ المُظْهَرُ موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه، لكونه إضلالاً خارجاً عن حدِّ الضلال، مع ما فيه

---

(١) في (م): فما أخرجوا، وهو خطأ.

(٢) المغني ص٣٦١-٣٦٢، وفيه بدل «لولا أنزل إليه ملك»: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]. والهروي هو علي بن محمد أبو الحسن صاحب الأزهية في الحروف، والذخائر في النحو. وكلامه في الأزهية ص١٦٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٣.

(٤) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٣.

من نسبته ﷺ إلى ما يَشهد العقلُ والنقلُ ببراءته منه، أو إلى ما لا يصلح أن يكون متمسَّكاً لِمَا يزعمون من نفي الرسالة.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد: وقال الكاملون في الظلم منهم.

وأيًّا ما كان فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتَّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ سُحِرَ فغُلِبَ على عقله، فالمراد بالسحر ما به اختلالُ العقل.

وقيل: أصيب سَحْرُه ـ أي: رئتُه ـ فاختلَّ حالُه، كما يقال: مرؤوس، أي: أصيب رأسُه.

وقيل: يُسحَر بالطعام وبالشراب، أي: يغذَّى. أو: ذا سَحْرٍ ـ أي: رئةٍ ـ على أنَّ «مفعول» للنسب، وأرادوا أنه عليه الصلاة والسلام بشرٌ مثلهم.

وقيل: أي: ذا سِحْرٍ، بكسر السين، وعَنَوا قاتلهم الله تعالى: ساحراً. والأظهر على ما في «البحر» التفسيرُ الأول[1]. وذُكر أنه الأنسبُ بحالهم.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ استعظامٌ للأباطيل التي اجترؤوا على التفوُّه بها، وتعجيبٌ منها، أي: انظر كيف قالوا في حقِّك الأقاويلَ العجيبةَ الخارجةَ عن العقول، الجاريةَ لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفاتِ والأحوالَ الشاذَّةَ البعيدةَ من الوقوع.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ فبقُوا متحيِّرين ضُلَّالاً لا يجدون في القَدْح في نبوَّتك قولاً يستقرُّون عليه وإن كان باطلاً في نفسه، فالفاء الأولى سببيةٌ، ومتعلّق «ضلُّوا» غيرُ مَنْوِيٍّ، والفاءُ الثانية تفسيريةٌ.

أو: فضلُّوا عن طريق الحقِّ فلا يجدون طريقاً موصلاً إليه، فإنَّ مَن اعتاد استعمالَ هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدِّمات الحقَّةِ، فالفاءُ في الموضعين سببيةٌ، ومتعلّقُ «ضلُّوا» منويٌّ. ولعل الأوَّل أَوْلَى.

والمراد نفيُ أن يكون ما أَتَوا به قادحاً في نبوَّته ﷺ، ونفيُ أن يكون عندهم ما يصلحُ للقَدْحِ قطعاً على أبلغ وجهٍ، فإنَّ القدح فيها إنما يكون في القدح

(١) البحر ٦/ ٤٨٣.

بالمعجزات الدالَّة عليها، وما أتوا به لا يفيدُ ذلك أصلاً، وأنَّى لهم بما يفيده.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ أي: تَكاثَر خيرُ الذي إن شاء وَهَبَ لك في الدنيا شيئاً خيراً لك مما اقترحوه، وهو أن يَجْعَلَ لك مثلَ ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، كذا في «الكشاف»[(١)].

وعن مجاهد: إنْ شاء جَعَلَ لك جناتٍ في الآخرة وقصوراً في الدنيا. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: المراد: إن شاء جَعَلَ ذلك في الآخرة، ودخلتْ «إنْ» على فِعْلِ المشيئة تنبيهاً على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته تعالى، وأنه معلَّقٌ على مَحْضِ مشيئته سبحانه، وليس لأحدٍ من العِبَاد والعُبَّادِ على الله عز وجل حقٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة. والأول أبلغ في تبكيت الكفار والردِّ عليهم، ولا يردُّه[(٢)] كما زعم ابنُ عطيةَ قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾[(٣)] كما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

والظاهرُ أنَّ الإشارةَ إلى ما اقترحوه من الكنز والجنةِ، وخيريةُ ما ذكر من الجنة، لِمَا فيه من تعدُّدِ الجنةِ، وجريان الأنهارِ، والمساكنِ الرفيعة في تلك الجنان بأن يكون في كلٍّ منها مسكنٌ أو في كلٍّ مساكنُ. ومن الكنز لِمَا أنه مطلوبٌ لذاته بالنسبة إليه، وهو إنَّما يُطلب لتحصيل مثلِ ذلك، وهو أيضاً أظهرُ في الأُبَّهة وأملأُ لعيون الناس من الكنز، وعدمُ التعرُّضِ لجواب الاقتراح الأول لظهور منافاته للحكمة التشريعية، وربما يُعلم من كثيرٍ من الآيات، كذا قيل.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّ الإشارة إلى ما اقترحوه، من أن يكون له ﷺ جنةٌ يأكل منها، «وجناتٍ» بدلٌ من «خيراً» محقِّقٌ لخيريَّته مما قالوا؛ لأنَّ ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدُّدِ وجريانِ الأنهار. وتعليقُ ذلك بمشيئتِهِ تعالى للإيذان بأنَّ عَدَمَ الجَعْلِ لعَدَمِ المشيئةِ المبنيَّةِ على الحِكَمِ والمصالح. وعَدَمُ التعرُّضِ لجواب

---

(١) ٣/ ٨٣.

(٢) في (م): يرد، والمثبت من الأصل والبحر ٦/ ٤٨٤، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠١.

الاقتراحين الأوَّلين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب؛ لظهور بطلانِهما ومُنافاتِهما للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجهٌ في الجملة هو الاقتراحُ الأخير؛ فإنه غيرُ مُنافٍ للحكمة بالكلِّية، فإنَّ بعض الأنبياء عليهم السلام قد أُوتوا في الدنيا مع النبوَّة ملكاً عظيماً[١]. انتهى.

وهذا الذي ذكره في الإشارة جَعَله الإمام الرازيُّ قولَ ابنِ عباس رضي الله عنهما[٢]، وما ذُكر أوَّلاً استَظْهَرَه أبو حيان وحَكاه عن مجاهد، وحَكَى عن ابن عباس أنها إشارةٌ إلى ما عيَّروا به من أكل الطعام والمشي في الأسواق، وقال: إنه بعيدٌ[٣]. وحكاه الإمام عن عكرمة[٤]. وكأنِّي بك تختارُ ما اختاره صاحب «الإرشاد».

والظاهرُ أنَّ «يجعلْ» مجزومٌ، فيكون معطوفاً على محلِّ الجزاء الذي هو «جَعَلَ»، وهو جزاءٌ أيضاً، وقد جيء به جملةً استقباليةً على الأصل في الجزاء، فقد ذكر أهلُ المعاني أنَّ الأصل في جملتي «إنْ» الشرطيةِ أن تكونا فعليَّتين استقباليَّتين لفظاً كما أنهما مستقبلتان معنًى، والعدولُ عن ذلك في اللفظ لا يكونُ إلا لنكتةٍ، وكأنَّ التعبير على هذا بالجملتين الماضويَّتين لفظاً في «إنْ شاءَ جَعَلَ» إلخ لزيادةِ تبكيت الكفارِ فيما اقترحوا من جنسه، ولمَّا لم يقترحوا ما هو من جنسِ جَعْلِ القصور لم يُسْلَكْ فيه ذلك المسلك، فتدبَّر.

وقيل: كان الظاهرُ بعد التعبير أوَّلاً في الجزاء بالماضي أن يعبَّر به هنا أيضاً، لكنه عَدَلَ إلى المضارع لأنَّ جَعْلَ القصور في الجنان مستقبلٌ بالنسبة إلى جَعْلِ الجنان.

ثم إنَّ هذا العطف يقتضي عدمَ دخولِ القصور في الخير المُبْدَلِ منه قولُه سبحانه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وكأنَّ ما تقدَّم عن «الكشاف» بيانٌ لحاصل المعنى بمعونة السياق.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٥٣.
(٣) البحر ٦/ ٤٨٤.
(٤) يعني عن عكرمة عن ابن عباس كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٥٣.

وجوَّز أنْ يكون مرفوعاً أُدْغِمتْ لامُه في لام «لك»، لكنَّ إدغام المثلين إذا تحرَّك أولُهما إنَّما هو مذهبُ أبي عمرو[١]، والذي قرأ بالتسكين من السبعة هو وحمزةُ والكسائيُّ ونافعٌ[٢].

وفي روايةِ محبوبٍ عنه أنه قرأ بالرفع بلا إدغام، وهي قراءةُ ابن عامر وابن كثير ومجاهد وحميد وأبي بكر[٣]، والعطفُ على هذه القراءة واحتمالُ الإدغام عند ابن عطية على المعنى في «جَعَلَ»؛ لأنَّ جواب الشرط موضعُ استئنافٍ، أَلَا يُرى أنَّ الجملة من المبتدأ والخبر قد تقعُ موقعَ جواب الشرط[٤]؟

وقال الزمخشريُّ: هو معطوفٌ على «جَعَلَ» لأنَّ الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزمُ والرفعُ، كقول زهيرٍ في مَدْحِ هرم بن سنان:

وإنْ أتاه خليلٌ[٥] يومَ مَسْغَبةٍ يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[٦]

ومذهبُ سيبويه أنَّ الجواب في مثل ذلك محذوفٌ، وأنَّ المضارع المرفوعَ على نيةِ التقديم[٧]. وذهب الكوفيون والمبرِّدُ[٨] إلى أنه هو الجواب، وأنه على حذفِ الفاء.

والتركيبُ عند الجمهور فصيحٌ سائغٌ في النثر كالشعر، وحكى أبو حيَّان عن بعض أصحابه أنه لا يجوز إلَّا في الضرورة؛ إذ لم يَجِئْ إلا في الشعر[٩]. وتمامُ الكلام في تحقيق المذاهب في محلِّه.

---

(١) التيسير ص٢٠.
(٢) وعاصمٌ في رواية حفص. التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف من العشرة.
(٣) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن ابن عامر وابن كثير وأبي بكر، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٤.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠١.
(٥) جاء في هامش الأصل و(م): من الخَلَّة بالفتح، وهو الفقر.
(٦) الكشاف ٣/ ٨٣، والبيت في ديوان زهير ص١٥٣، والكتاب ٣/ ٦٦، والبحر ٦/ ٤٨٤.
(٧) الكتاب ٣/ ٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٤.
(٨) في المقتضب ٢/ ٦٩، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٤.
(٩) البحر ٦/ ٤٨٤.

وقال الحوفيُّ وأبو البقاء: الرفعُ على الاستئناف[١]، قيل: وهو استئنافٌ نحويٌّ، والكلامُ وعدٌ له ﷺ بجَعْلِ تلك القصور في الآخرة، ولذا عَدَلَ عن الماضي إلى المضارع الدالِّ على الاستقبال.

وقيل: هو استئنافٌ بيانيٌّ، كأن قائلاً يقول: كيف الحال في الآخرة؟ فقيل: يجعل لك فيها قصوراً.

وجَعَلَ بعضُهم على الاستئناف هذا الجَعْلَ في الدنيا أيضاً، على معنى: إن شاء جَعَلَ لك في الدنيا جناتٍ، ويجعلُ لك في تلك الجنات قصوراً إن تحقَّقت الشرطية، وهو كما ترى.

وقيل: الرفعُ بالعطف على «تجري» صفة بتقدير: ويَجْعَلُ فيها، أي: الجنات. وليس بشيءٍ.

وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان: «ويجعلَ» بالنصب[٢] على إضمار «أنْ»، ووجهُه على ما نُقِلَ عن السيرافيِّ أنَّ الشرط لمَّا كان غيرَ مجزومٍ أَشْبهَ الاستفهامَ. وقيل: لمَّا كان غيرَ واقعٍ حال المشارطة أشبه النفي، وقد ذكر النصبَ بعده سيبويه، وقال: إنه ضعيف.

وقيل: الفعلُ مرفوعٌ وفتح لامه إتباعاً لِلَام «لك»، نظير ما قيل في قوله:

لم يمنع الشربَ منها غيرَ أن نَطَقتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقَالِ[٣]

من أنه فتح راء «غير» إتْباعاً لهمزةِ «أنْ» وهو أحدُ وجهين في البيت.

ونظيرُ الآية في هذه القراءات قولُ النابغة:

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابوس يَهْلِكْ ربيعُ الناس والشَّهرُ الحرامُ

(١) الإملاء ٤/ ٩٢، ونقله المصنف عنه وعن الحوفي بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٤.
(٢) المحتسب ٢/ ١١٨، والبحر ٦/ ٤٨٤.
(٣) الكتاب ٢/ ٣٢٩، والأصول في النحو ١/ ٢٧٦، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٧، والإنصاف ١/ ٢٨٧ و٢٩٠، والمغني ١/ ٦٧١، والخزانة ٣/ ٤٠٦، وفيه: نطقت: صوَّتت وصدحت. وذاتِ: صفةٌ لغصون. والأوقال: جمع وَقْل. والبيت سلف ١٢/ ٦٩.

ونأخذ بعده بذناب عيش أجبِّ الظهر ليس له سنامُ[1]

فإنه يُروى في «نأخذ» الجزمُ والرفعُ والنصبُ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ انتقالٌ إلى حكايةِ نوعٍ آخَرَ من أباطيلهم متعلِّقٍ بأمرِ المَعاد، وما قبلُ كان متعلِّقاً بأمر التوحيد وأمرِ النبوة، ولا يضرُّ في ذلك العودُ إلى ما يتعلَّق بالكلام السابق، واختلافُ أساليبِ الحكاية لاختلاف المحكيِّ، وما ألطفَ تصديرَ حكايةِ ما يتعلَّقُ بالآخرة بـ «بل» الانتقالية.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ إلخ لبيانِ ما لهم في الآخرة بسببه، أي: هيَّأنا لهم ناراً عظيمةً شديدةَ الاشتعال شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها، على ما يُشْعِرُ به وضعُ الموصولِ موضعَ ضميرهم، أو لكلِّ مَن كذَّب بها كائناً مَن كان، وهم داخلون في ذلك دخولاً أوَّليّاً. ووضعُ الساعةِ موضعَ ضميرِها للمبالغة في التشنيع.

وهذا الإعتاد[2] وإن كان ليس بسببِ تكذيبهم بها خاصَّةً بل يشاركُه في السببية له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمر التوحيد وأمرِ النبوة، إلَّا أنه لمَّا كانت الساعةُ نفسُها هي العلةَ القريبةَ لدخولهم السعيرَ، أُشير بما ذُكر إلى سببيةِ التكذيب بها لدخولها، ولم يتعرَّض للإشارة إلى سببيةِ شيءٍ آخَرَ.

وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعة صار كالاسم لأولئك المشركين والمكذِّبين برسول الله ﷺ والمكذِّبين بالساعة، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيب بها أخصُّ صفاتِهم القبيحةِ، وأكثرُ دوراناً على ألسنتهم، إذ من الكفار مَن يشركُ ويكذِّبُ برسول الله عليه الصلاة والسلام ولا يكذِّبُ بالساعة. فالمرادُ ممَّن[3] يكذِّب بالساعة أولئك الصنفُ من الكفرة. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ

(١) ديوان النابغة ص١١٠. وأبو قابوس هو النعمان بن المنذر. وقوله: الظهر، يجوز فيه ثلاثة وجوه: الرفع والنصب والجر، وينظر تفصيل ذلك في الخزانة ٩/ ٣٦٤.
(٢) في الأصل و(م): الاعتداد، والصواب ما أثبتناه، وينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٥.
(٣) في (م): من.

﴿هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلخ وإضرابٌ عنه إلى ما هو أعجبُ منه، على معنى: أنَّ ذلك تكذيبٌ للرسول ﷺ وهذا تكذيبٌ لله سبحانه وتعالى؛ ففي «صحيح البخاريِّ» عن النبيِّ ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك ـ إلى قوله تعالى ـ فأما تكذيبُه إيَّايَ فزَعَم أنِّي لا أقدرُ أن أعيدَه كما كان»[1]، وظاهرُه أنَّ أعجبية التكذيب بالساعة لأنه تكذيبٌ لله عزَّ وجلَّ.

وقال بعضُهم: إنَّ الأعجبية لأنهم أنكروا قدرةَ الله تعالى على الإعادة مع ما شاهدوه في الأنفُسِ والآفاق، وما ارْتكَزَ في أوهامهم من أنَّ الإعادةَ أهونُ من الإبداء، وليس ذلك لأنه تكذيبُ الله عزَّ وجل فإنهم لم يسمعوا أمرَ الساعةِ إلَّا من النبيِّ ﷺ، فهو تكذيبٌ له عليه الصلاة والسلام فيه. وأنت تعلم أنَّ في الحديث إشارةً إلى ما ارتضاه.

وقيل: إضرابٌ عن ذاك، على معنى: أَتَوا بأَعْجَبَ منه، حيث كذَّبوا بالساعة وأنكروها والحالُ أنَّا قد أعْتَدْنا لمن كذَّب بها سعيراً، فإنَّ جراءتهم على التكذيب بها، وعَدَمَ خوفهم مما أعدَّ لمن كذَّب بها من أنواع العذاب، أعجبُ من القول السابق.

وتعقِّب بأنه لا نُسلِّم كونَ الجراءةِ على التكذيب بالساعة أعجبَ من الجراءة على القول السابق بعد ظهورِ المعجزة، ولا نسلِّم أنَّ انضمامَ عَدَمِ الخوف مما يترتَّبُ عليه إذا كان ذلك الترتُّبُ في الساعة المكذَّب بها يفيد شيئاً. وفيه تأمل.

وقيل: هو إضراب عن ذاك على معنى: أتوا بأعجب منه حيث كذبوا بالساعة التي أَخْبَرَ بها جميعُ الأنبياء عليهم السلام، فالجراءةُ على التكذيب بها جراءةٌ على التكذيب بهم، والجراءة على التكذيب بهم أعجبُ من الجراءة على القول السابق.

وتعقِّب بأنَّ مرادهم من القول السابق نَفْيُ نبوَّتِه عليه الصلاة والسلام وتكذيبُهُ ـ وحاشاه ثم حاشاه من الكذب في دعواه إياها ـ لعَدَم مخالفة حاله ﷺ حالَهم، واتِّصافِه بما زعموا منافاتَه للرسالة، وذلك موجودٌ ومتحقِّقٌ في جميع الأنبياء عليهم السلام، فتكذيبُه ﷺ لذلك تكذيبٌ لهم أيضاً، فلا يكون التكذيبُ

(١) صحيح البخاري(٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بالساعة على ما ذكر أعجبَ من تكذيب النبيِّ ﷺ، لاشتراك التكذيبين في كونهما في حكم تكذيب الكلِّ.

وقيل: هو متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ إلخ الواقع جواباً لهم، والمُنْبِئِ عن الوعد بالجنَّات والقصور في الآخرة، مسوقٌ لبيان أنَّ ذلك لا يُجدي نفعاً، على طريقةِ قولِ مَن قال:

عُوجُوا لنُعْمٍ فحيُّوا دِمْنَةَ الدارِ ماذا تحيُّون من نُؤْيٍ وأحجارِ[1]

والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة، فكيف يقتنعون بهذا الجواب؟ وكيف يصدِّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرة؟

وقيل: إضرابٌ عن الجواب إلى بيانِ العلَّة الداعيةِ لهم إلى التكذيب، والمعنى: بل كذَّبوا بالساعة فقصرتْ أنظارُهم على الحظوظ الدنيوية، وظنُّوا أنَّ الكرامة ليست إلَّا بالمال، وجعلوا خُلُوَّ يدِكَ عنه ذريعةً إلى تكذيبك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ إلى آخره صفةٌ للسعير، والتأنيثُ باعتبارِ النار. وقيل: لأنه عَلَمٌ لجهنمَ كما روي عن الحسن. وفيه أنه لو كان كذلك لامْتَنعَ دخولُ «أل» عليه، ولَمُنِعَ من الصَّرْفِ للتأنيثِ والعَلَميَّة.

وأجيب بأنَّ دخول «أل» لِلَمْحِ الصفة، وهي تدخل الأعلام لذلك كالحسن والعباس، وبأنه صُرِفَ للتناسُبِ ورعايةِ الفاصلة، أو لتأويله بالمكان، وتأنيثُه هنا للتفنُّن.

وإسنادُ الرؤية إليها حقيقةٌ على ما هو الظاهر، وكذا نسبةُ التغيُّظِ والزفير فيما بعدُ؛ إذ لا امْتناعَ في أنْ يخلقَ الله تعالى النارَ حيةً مغتاظةً زافرةً على الكفار، فلا حاجةَ إلى تأويل الظواهر الدالَّةِ على أنَّ لها إدراكاً، كهذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقولِه ﷺ كما في «صحيح البخاريِّ»: «شَكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالت: ربِّ أكلَ بعضي بعضاً. فأذِنَ لها بنَفَسين: نَفَسٍ في الشتاء، ونَفَسٍ في الصيف»[2] إلى غير ذلك.

---

(١) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٤٨ برواية: عوجوا فحيوا لنُعم...، وسلف ١٧/ ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٢٤٧)، ومسلم (٦١٧).

وإذا صحَّ ما أخرجه الطبرانيُّ وابنُ مردويه من طريق مكحولٍ عن أبي أمامةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من بين عيني جهنَّم» قالوا: يا رسول الله، هل لجهنم من عين؟ قال: «نعم، أمَا سمعتُم الله تعالى يقول: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) فهل تراهم إلَّا بعينين»[1] كان ما قلناه هو الصحيحَ.

وإسنادُها إليها لا إليهم للإيذان بأنَّ التغيُّظَ والزفيرَ منها لهيجان غَضَبِها عليهم عند رؤيتها إياهم.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكنُ أن يُرى منه، ورُوي أنه هنا مسيرةُ خمسِ مئةِ عام. وأخرج آدم بنُ أبي إياس[2] في تفسيره عن ابن عباس أنه مسيرةُ مئةِ عامٍ. وحكي[3] ذلك عن السديِّ والكلبيِّ. ورُوي أيضاً عن كعب.

وقيل: مسيرة سنةٍ، وحكاه الطبرسيُّ عن الإمام أبي عبد الله رضي الله عنه[4]، ونسبه في «إرشاد العقل السليم» إلى السديِّ والكلبيِّ[5].

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ أي: صوتَ تغيُّظٍ ليصِحَّ تعلُّق السماع به. وفي «مفردات» الراغب: الغيظ أشدُّ الغضب، والتغيُّظ هو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوتٍ مسموعٍ كما في الآية[6].

---

(١) المعجم الكبير (٧٥٩٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٦٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٤٨: فيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان، ورواه عن الأحوص محمد بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف.
وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٧ من طريق خالد بن دريك عن رجل من أصحاب محمد عن النبي ﷺ. وخالد بن دريك قال عنه ابن حجر في التقريب: ثقة يرسل.
ومن المتواتر قوله ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ينظر فتح الباري ١/ ٢٠٣، والأزهار المتناثرة (٢).

(٢) أبو الحسن الخراساني المرُّوذي، ثم البغدادي، ثم العسقلاني، محدث عسقلان، واسم أبيه: ناهية بن شعيب، وقيل: عبد الرحمن. توفي سنة (٢٢٠هـ). السير ١٠/ ٣٣٥. ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الدر ٥/ ٦٤.

(٣) جاء في هامش (م): حكاه الطبرسي في مجمع البيان. اهـ منه. وهو في مجمع البيان ١٨/ ٩٣.

(٤) مجمع البيان ١٨/ ٩٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٦.

(٦) مفردات الراغب (غيظ).

وقيل: أريدَ بالسماع مطلقُ الإدراك، كأنه قيل: أدركوا لها تغيُّظاً.

﴿وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ هو إخراجُ النَّفس بعد مدِّه، على ما في «القاموس»[(١)]. وقال الراغب: هو ترديدُ النَّفَسِ حتى تنتفخَ الضلوعُ منه[(٢)]. وشاع استعمالُه في نَفْسِ صوتِ ذلك النَّفَس، ولا شبهةَ في أنه مما يتعلَّق به السماعُ، ولذا استَشْكَلوا تعلُّقَ السماع بالتغيُّظ دون الزفير، فأوَّلوا لذلك بما سمعتَ.

وقال بعضهم: إنَّ ما ذُكر من قبيل قوله:

ورأيـــتُ زوجـــكِ قـــد غـــدا ... مـتـقـلِّـداً سـيـفـاً ورمـحـاً[(٣)]

وهو بتقديرِ: سمعوا لها وأَدْرَكوا تغيُّظاً وزفيراً، ويعاد كلٌّ إلى ما يناسبه.

ومن الناس مَن قال: الكلامُ خارجٌ مخرجَ المبالغة بجَعْلِ التغيُّظِ مع أنه ليس من المسموعات مسموعاً.

والتنوينُ فيه وفي «زفيراً» للتفخيم، وقد جاء في الآثار ما يدلُّ على شدة زفيرها أعاذنا الله تعالى منها، ففي خبرٍ أخرجه ابن جريرٍ وابن أبي حاتم بسندٍ صحيح عن ابن عباس: أنَّها تَزْفرُ زَفْرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف[(٤)].

وأخرج ابن المنذر وابن جريرٍ وغيرُهما عن عبيد بن عمير أنه قال في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ إلخ: إنَّ جهنم لَتَزْفرُ زَفْرةً لا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ إلا تَرْعُدُ فرائصُه، حتى إن ابراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: يا ربِّ، لا أسألك اليومَ إلا نفسي[(٥)].

---

(١) مادة (زفر).

(٢) مفردات الراغب (زفر).

(٣) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في ديوانه ص٣٢، والكامل ١/ ٤٣٢ و٤٧٧، ومجاز القرآن ٢/ ٦٨، والخصائص ٢/ ٤٣١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٤٧، والبحر ٦/ ٤٨٥. وصدر البيت في هذه المصادر: يا ليت زوجك قد غدا.
قال أبو حيان: وهذا مخرَّجٌ على تخريجين، أحدهما: الحذف، أي: ومعتقلاً رمحاً. والثاني: تضمين متقلداً معنى متسلحاً، فكذلك الآية، أي: سمعوا لها ورأوا تغيظاً وزفيراً، وعاد كل واحد إلى ما يناسبه، أو ضمن «سمعوا» معنى أدركوا، فيشمل التغيظ والزفير.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٤٠٩-٤١٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٤، وأخرجه أيضاً

وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يومُ القيامة جَمَعَ الله تعالى الأوَّلين والآخِرين في صعيدٍ واحدٍ، فنزلت الملائكةُ صفوفاً، فيقول الله تعالى لجبريل عليه السلام: ائتِ بجهنَّم، فيأتي بها تُقاد بسبعين ألفَ زمامٍ، حتى إذا كانت من الخلائق على قَدْرِ مئة عام زَفَرتْ زَفْرةً طارت لها أفئدةُ الخلائق، ثم زَفَرتْ ثانيةً فلا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ إلا جثا لركبتيه، ثم تزفرُ الثالثةَ فتبلغُ القلوبُ الحناجر، وتذهلُ العقولُ، فيَفْزَعُ كلُّ امرئ إلى عمله حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: بخلَّتي لا أسألكَ إلَّا نفسي. ويقول موسى عليه السلام: بمناجاتي لا أسألك إلَّا نفسي. ويقول عيسى عليه السلام: بما أَكْرَمْتَني لا أسألكَ إلَّا نفسي، لا أسألُكَ مريمَ التي وَلَدَتْني. ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمتي، لا أسألك اليومَ نفسي. فيجيبُه الجليلُ جلَّ جلالُه: إنَّ أوليائي من أمتك لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فَوَعِزَّتي لأُقِرَّنَّ عينَك. ثم تقفُ الملائكةُ عليهم السلام بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمَرون(١). وهذه الأخبار ظاهرةٌ في أنَّ النار هي التي تزفرُ، وأنَّ الزفير على حقيقته.

وزعم بعضهم أنَّ زفيرها صوتُ لهيبها واشتعالها.

وقيل: إنَّ كلًّا من الرؤية والتغيُّظِ والزفيرِ لزبانيتها، ونسبتهُ إليها على حذف المضاف، ونُقل ذلك عن الجبائيِّ.

وقيل: إنَّ قولَه تعالى: (رَأَتْهُم) من قوله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ والكافر لا تتراءى ناراهما»(٢)، وقولِهم: دورُهم تتراءى وتتناظَرُ، كأنَّ بعضَها يَرَى بعضاً، على سبيل

= عبد الرزاق ٢/ ٦٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨.

(١) الحلية ٥/ ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله ﷺ، عن النبي ﷺ. وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، والنسائي ٨/ ٣٦ من طريق إسماعيل عن قيس عن النبي ﷺ. قال الترمذي: ولم يذكر فيه: عن جرير، وهذا أصح. وقال في العلل ٢/ ٦٨٦: سألت محمداً (يعني البخاري) عن هذا الحديث فقال: الصحيح عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. اهـ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٥٥: وصله معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير، وأرسله غيره من أصحاب إسماعيل، وتابعه حجاج بن أرطاة عن إسماعيل. وحجاج ضعيف، ورجح البخاري وغيره =

الاستعارة بالكناية أو المجاز[1] المرسل، وجوِّز أن يكون من باب التمثيل، وأيًّا ما كان فالمراد: إذا كانت بمرأى منهم. وقولُه سبحانه: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ على تشبيه صوتِ غليانها بصوتِ المغتاظ وزفيرِه، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ أو مكنيةٌ، وجوِّز أن تكون تمثيليةً، وقد ذكر هذا التأويل الزمخشريُّ مقدِّماً له[2]. وذَكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ هذا مذهبُ المعتزلة؛ لأنهم جعلوا البنيةَ شرطاً في الحياة.

وفي «الكشف»: الأشبهُ أنَّ ذلك ليس لأنَّ البنيةَ شرطٌ، ومن أين العلم بأنَّ بنيةَ نارِ الآخرة بحيث لا تستعدُّ للحياة؟ بل لأنه لا بدَّ من ارتكاب خلافِ الظاهر، مِن جَعْلِ الشيء المعروفِ جماديتُه حيّاً ناطقاً، فكان خبراً على خلاف المعتاد، أو الحملِ على المجاز التمثيليِّ الشائع في كلامهم، لا سيما في كلام الله تعالى ورُسُلِه عليهم السلام، وإذ لاح الوجهُ فكن الحاكمَ في تَرْكِ الظاهر إلى هذا أو ذاك، وفتحُ هذا البابِ لا يجرُّ إلى مذهبِ الفلاسفة، كما توهَّم صاحب «الانتصاف»[3]، ولا يخالف تعبُّدَنا بالظواهر، فإنَّ ما يدَّعونه أيضاً ليس بظاهرٍ. انتهى.

وأنت تعلم بعد الإغماض عن المناقشة فيما ذكر أنَّ الحمل على الحقيقة هنا أبلغُ في التهويل، ولعله يهوِّنُ أمرَ الخبر على خلاف المعتاد؛ وهذا إن لم يصحَّ الخبرُ السابق، أما إذا صحَّ فلا ينبغي العدولُ عما يقتضيه، وليس لأحدٍ قولٌ مع قوله ﷺ، فإنه الأعلم بظاهر الكتاب وخافيه.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا﴾ أي: في مكانٍ، فهو منصوبٌ على الظرفية، و«منها» حالٌ منه لأنه في الأصل صفة، وجوِّز تعلُّقه بـ «أُلقوا».

وقوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا﴾ صفةٌ لـ «مكاناً» مقيِّدةٌ لزيادة شدَّة الكرب مع الضيق كما أنَّ الرَّوْحَ[4] مع السعة، وهو السرُّ في وصف الجنة بأنَّ عَرْضَها السماواتُ

= المرسل، وخالف الجميعَ حفصُ بن غياث فرواه عن إسماعيل عن قيس عن خالد بن الوليد، أخرجه الطبراني. اهـ. وحديث خالد في المعجم الكبير (٣٨٣٦).

(١) في (م): والمجاز.

(٢) الكشاف ٣/ ٨٣-٨٤.

(٣) ٣/ ٨٣، قال: ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوَّح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيزِ إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبَّدون بالظاهر ما لم يمنع مانع.

(٤) الرَّوح بالفتح: الراحة. حاشية الشهاب ٦/ ٤١٠.

والأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن [أبي] أسيد أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: (وَإِذَآ أُلْقُوا۟) إلخ فقال: «والذي نفسي بيده إنهم لَيُسْتَكْرَهون في النار كما يُسْتكرهُ الوتدُ في الحائط»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها تضيقُ عليهم كما يضيق الزُّجُّ(٢) في الرمح.

وقال(٣) الكلبيُّ: الأسفلون يرفعُهم اللَّهبُ، والأَعْلَوْن يحطُّهم الداخلون، فيزدحمون.

وقرأ ابن كثير: «ضَيْقاً» بسكون الياء(٤).

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالٌ من ضميرِ «أُلقوا»، أي: إذا ألقوا منها مكاناً ضيِّقاً حالَ كونهم مقرَّنين قد قُرِنَتْ أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع.

وقيل: مقرَّنين مع الشياطين في السلاسل، كلُّ كافرٍ مع شيطانه وفي أرجلهم الأصفاد. وحكي عن الجبائيِّ.

وقرأ أبو شيبة صاحبُ معاذ بن جبل: «مقرَّنون» بالرفع(٥)، ونسبها ابن خالويه إلى معاذ(٦)، ووجهُها على ما في «البحر»: كونُه بدلاً من ضمير «أُلقوا» بدلَ نكرةٍ من معرفةٍ(٧).

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل ﴿ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي: هلاكاً كما قال

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨، وذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر ٥/ ٦٤، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) الزج: الحديدة في أسفل الرمح. القاموس (زجج).

(٣) في الأصل و(م): وقرأ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٦، والكلام منه.

(٤) التيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٢، والبحر ٦/ ٤٨٥، والكلام منه، وأبو شيبة هو المهري كما ذكر ابن عطية، وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٩٠: سئل أبو زرعة عن أبي شيبة المهري فقال: هو من التابعين ولا يعرف اسمه.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٤، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٥.

(٧) البحر ٦/ ٤٨٥.

الضحاك وقتادة، وهو مفعولُ «دَعَوا» أي: نادوا ذلك فقالوا: يا ثُبُوراه، على معنى: احضُرْ فهذا وقتُكَ.

وجَعَلَ غير واحدٍ النداءَ بمعنى التمنّي، فيتمنَّوْنَ الهلاك ليَسْلَموا ممَّا هو أشدُّ منه، كما قيل: أشدُّ من الموت ما يُتَمنَّى معه الموتُ.

وجوَّز أبو البقاء نصبَ «ثبوراً» على المصدرية لـ «دَعَوا» على معنى: دَعَوْا دعاءً[1].

وقيل: على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ، ومفعولُ «دَعَوا» مقدَّرٌ، أي: دَعَوا مَن لا يُجيبهم قائلين: ثَبَرْنا ثبوراً.

وكِلَا القولين كما ترى.

ولا اختصاصَ لدعاء الثبور بكَفَرةِ الإنس فإنه يكون للشيطان أيضاً؛ أخرج أحمد وابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد والبزَّارُ وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «البعث»، بسندٍ صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّلَ مَن يُكْسَى حلَّةً من النار إبليسُ، فيضعُها على حاجبيه ويسحبُها من خَلْفِه ذرِّيتُه من بعده، وهو ينادي: يا ثُبوراه، ويقولون: يا ثُبورهم، حتى يقف على النار فيقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم» الحديث[2]. وفي بعض الروايات أنَّ أولَ من يقول ذلك إبليسُ، ثم يتبعُه أتباعه[3].

وظاهرُه شمولُ الأتْباع كفرةَ الإنس والجنِّ، ولا يتوهَّم اختصاصُ ذلك ببعض كفرةِ الإنس بناءً على ما قيل: إنَّ الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه؛ لما لايخفى.

وقولُه تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تقديرِ قولٍ إمَّا منصوب على أنه

---

(١) الإملاء ٤/ ٩٤.

(٢) مسند أحمد (١٢٥٣٦)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٨و١٤/ ١٠٩، وكشف الأستار (٣٤٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٩، والبعث والنشور (٦٤٧)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٤ - ٦٥، وعنه نقل المصنف، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

(٣) ذكرها القرطبي في تفسيره ١٥/ ٣٧٥.

حالٌ من فاعلِ «دعوا»، أي: دَعَوا مقولاً لهم ذلك حقيقةً كما هو الظاهر ـ بأنْ تخاطبهم الملائكةُ لتنبيههم على خلودِ عذابهم وأنَّهم لا يجابون إلى ما يَدْعونه، أوْ لا ينالون ما يتمنَّونه من الهلاك المنجي ـ أو تمثيلاً لهم، وتصويراً لحالهم بحالِ مَن يقالُ له ذلك من غير أن يكون هناك قولٌ وخطابٌ كما قيل، أي: دَعَوه حالَ كونهم أحقَّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

وإمَّا لا محلَّ له من الإعراب على أنه معطوفٌ على ما قبله، أي: إذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً دَعَوْا ثبوراً، فيقال لهم: لا تَدْعوا . . إلخ. أو على أنه مستأنفٌ وقع جواباً عن سؤالٍ مقدَّر ينسحبُ عليه الكلام، كأنه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك، والمرادُ به إقناطُهم عما علَّقوا به أطماعهم من الهلاك، وتنبيههم على أنَّ عذابهم الملجئَ لهم إلى ذلك أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه، على أبلغ وجه، حيث أشار إلى أن المخلِّص ممَّا هم فيه من العذاب عادةً غيرُ مخلِّصٍ، وما يخلِّص غيرُ ممكنٍ، فكأنه قيل: لا تدعوا اليومَ هلاكاً واحداً فإنه لا يخلِّصكم ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا﴾ وهلاكاً ﴿كَثِيرًا﴾ لا غايةَ لكثرته لتَخلَّصوا به، وأنَّى بالهلاك الكثير:

ومَن لم يَمُتْ بالسيفِ مات بغيره ... تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ[1]

وهذا معنًى دقيقٌ لم أعلم أنَّ أحداً ذكره.

وقيل: وُصِفَ الثبورُ بالكثرة باعتبارِ كثرةِ الألفاظ المُشْعِرةِ به، فكأنه قيل: لا تقولوا: يا ثبوراه فقط، وقولوا: يا ثبوراه يا هلاكاه يا ويلاه يا لهفاه، إلى غير ذلك. وهو كما ترى.

وقال شيخ الإسلام: وَصَفَه بذلك بحَسَبِ كثرة الدعاء المتعلِّق به، لا بحَسَبِ كثرتِه في نفسه، فإنَّ ما يَدْعونه ثبورٌ واحدٌ في حدِّ ذاته، لكنه كلما تعلَّق به دعاءٌ من تلك الأدعية الكثيرةِ صار كأنه ثبورٌ مغايرٌ لِمَا تَعلَّق به دعاءٌ آخر، وتحقيقُه: لا تدعوه دعاءً واحداً وادْعُوه أَدْعيةً كثيرةً، فإنَّ ما أنتم فيه من العذاب لغايةِ شدَّتِه وطولِ مُدَّتِه مستوجبٌ لتكرير الدعاء في كلِّ آن.

---

(١) البيت لابن نباتة السعدي عبد العزيز بن عمر بن محمد، كما في وفيات الأعيان ٣/ ١٩٣، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٣٤.

ثم قال: وهذا أَدَلُّ على فظاعة العذابِ وهَوْلِه مِن جَعْلِ تعدُّدِ الدعاء وتجدُّدِه لتعدُّد العذاب بتعدُّدِ أنواعه وألوانه، أو لتعدُّدِه بتجدُّدِ الجلود، كما لا يخفى.

وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى: إنكم وقعتُم فيما ليس ثبورُكم فيه واحداً، إنما هو ثبورٌ كثيرٌ: إما لأنَّ العذاب أنواعٌ وألوانٌ كلُّ نوعٍ منها ثبورٌ لشدَّته وفظاعته، أو لأنَّهم كلما نَضِجَتْ جلودُهم بدِّلوا جلوداً غيرها، فلا غايةَ لهلاكهم = فلا يلائم المقام، كيف وهم إنما يَدْعُون هلاكاً يُنْهي عذابَهم وينجيهم منه، فلا بد أن يكون الجوابُ إقناطاً لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوامِ ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد[١]. انتهى.

وتعقِّب القولُ بأنَّ وصف الثبور بالكثرة بحسَبِ كثرة الدعاء بأنه لا يناسبُ النَّظْمَ، وكذا كونُه بحَسَبِ كثرة الألفاظ المُشْعِرةِ بالثبور؛ لأنه كان الظاهرُ أن يقال: دعاءً كثيراً. وأمَّا قولُه: وأما ما قيل.. إلخ، فهو لا يخلو عن بحثٍ، فتأمل.

وحَكَى علي بن عيسى[٢]: ما ثَبرَكَ عن هذا الأمر، أي: ما صَرَفَكَ عنه. وجوِّز أن يكون الثبورُ في الآية من ذلك، كأنهم ندموا على ما فعلوا فقالوا: واصرفاه عن طاعةِ الله تعالى، كما يقال: واندَماه، فأُجيبوا بما أُجيبوا.

وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع، والتنبيهِ على أنه ليس كسائر الأيام المعهودةِ التي يخلِّصُ من عذابها ثبورٌ واحد، ويجوز أن يكون ذلك لتذكيرهم بالساعة التي أصابهم ما أصابهم بسببِ التكذيب بها، ففيه زيادةُ إيلامٍ لهم.

وقرأ عمر بن محمد: «ثَبوراً» بفتح الثاء في ثلاثتها[٣]، وفَعولٌ بفتح الفاء في المصادر قليلٌ، نحو: القَفول.

﴿قُلْ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم وتحسيراً على ما فاتهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من السعير باعتبارِ اتِّصافها بما فصِّل من الأحوال الهائلةِ، فإنها التي كثيراً ما تقابَلُ بالجنة، وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٧.

(٢) كما في البحر ٦/ ٤٨٥، وعنه نقل المصنف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٥.

وقيل: إشارةٌ إلى ما ذكر من الجنة والكنز في قولهم: «أو يُلْقَى إليه كنزٌ» إلخ. وقيل: إلى الجنة والقصور المجعولةِ في الدنيا على تقدير المشيئة. وكِلا القولين لا يعوَّل عليهما، لا سيما الأخير.

أي: أذلك الذي ذُكر من السعير التي أُعتِدتْ لمن كذَّب بالساعة، وشأنُها كيتَ وكيتَ، وشأنُ أهلها ذيت ذيت ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعِدَها المتقون؛ لأنَّ «وَعَدَ» تتعدَّى لمفعولين، وهذا المحذوفُ هو العائدُ على الموصول. وإضافة الجنة إلى الخلد إن كانت نسبةُ الإضافةِ معلومةً للمدح؛ فإنَّ المدح يكون بما هو معلومٌ، وإن لم تكن معلومةً فلإفادة خلودِ الجنة، ولا يخدشُه قولُه تعالى: (خَٰلِدِينَ) بعدُ؛ لأنه للدلالة على خلودِ أهلها لا خلودِها في نفسها وإنْ تَلازَما، أو أنَّ ذلك للتمييز عن جنات الدنيا.

وقيل: إنَّ جنة الخلدِ عَلَمٌ كجنةِ عَدْنٍ.

والمرادُ بالمتقين: المتَّصفون بمطلق التَّقوى، لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط، ويدلُّ عليه مقابلتُهم بالكافرين في النظم الكريم.

وقيل: يجوز أن يراد: الكاملون في التقوى، ووَعْدها إياهم وعد دخولها ابتداءً دون سَبْقِ عذابٍ، وهو مختصٌّ بهم. وليس بذاك.

والترديدُ والتفضيلُ في «خير» مع أنه لا شكَّ في أنه لا خيريةَ في السعير؛ للتهكُّم والتقريع كما أشرنا إليه.

وقال ابن عطية: حيث كان الكلامُ استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظةِ التفضيل بين الجنة والسعير في الخير، لأنَّ المُوْقِفَ جائزٌ له أن يُوْقِفَ مُحاوِرَه على ما شاء ليرى هل يجيبُه بالصواب أو بالخطأ، وإنما مَنَع سيبويه وغيرُه من التفضيل [بين شيئين لا اشتراكَ بينهما في المعنى الذي فيه تفضيلٌ] إذا كان الكلامُ خبراً؛ لأن فيه مخالفة الواقع، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغٌ(١).

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣، وما بين حاصرتين منه، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٦.

وقال أبو حيان: إنَّ «خير» هنا ليس للدلالة على الأفضلية، بل هو ما جَرَتْ به عادةُ العرب في بيانِ فَضْلِ الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابِله كقولِ حسان:

فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ[١]

وقولِهم: الشقاءُ أحبُّ إليك أم السعادة، والعسلُ أحلى من الخل، وقولِه تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣] ولا اختصاصَ لذلك في استفهامٍ أو خبر.

وما ذكر من أمثلة الخبر يردُّ على ابن عطية، إلَّا أنْ يقيِّد الخبر الذي ادَّعى مَنْعَ سيبويه فيه بما لم يكن الحكم فيه واضحاً، أما إذا كان الحكمُ فيه واضحاً للسامع بحيث لا يختلجُ في ذهنه ولا يتردَّد في الأفضل، فإنَّ التفضيل يجوزُ فيه[٢].

وقد تقدَّم تحقيقُ الكلام في هذا المقام، وما أشرنا إليه هنا أَوْلَى بالاعتبار مما أشار ابنُ عطية وأبو حيان إليه.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنةُ ﴿لَهُمْ﴾ أي: في عِلْمِ الله تعالى أو في اللوح، أو المرادُ: تكون، على أنه وعدٌ مِن أكرم الأكرمينَ عبَّر عنه بالماضي على طريق الاستعارة لتحقُّق وقوعِه؛ فإنه سبحانه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

وجوِّز أن يكون هذا باعتبارِ تقدُّم وَعْدِه تعالى - في كُتُبِه وعلى لسان رُسُلِه عليهم الصلاة والسلام - إياهم بها.

﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم بمقتضى الوعد، لا بالإيجاب ﴿وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ ينقلبون إليه. ولم يكتفِ بقوله تعالى: (كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً) لعَدَمِ استلزامِه ذلك، فقد يُثيب الملِكُ في الدنيا إنساناً ببستانٍ مثلاً ولا يراه، فضلاً عن أن يسكُنَ فيه.

وجملةُ «كانت لهم» إلخ - على ما ذكره الطبرسيُّ[٣] - في موضع الحال من الضمير المحذوفِ العائدِ على الموصول في «وُعِدَ المتقون» بتقدير «قد» أو بدونه.

---

(١) وصدره: أتهجُوه ولستَ له بكُفْءٍ، وهو في الديوان ص٦٤، وسلف ص٢٥٤ من هذا الجزء.
(٢) البحر٦/ ٤٨٦.
(٣) في مجمع البيان ١٨/ ٩٢.

وجوّز أن تكون بدلاً من «وُعد المتَّقون» وتفسيراً له، وأن تكون استئنافاً في موضع التعليل.

وذَكَر الزمخشريُّ ما يُشْعِرُ بأنَّ هذه الجملة تذييلٌ لتذكيرِ النعمةِ بما خوَّلهم الله تعالى وطَيَّبَ عيشَهم في ذلك المكان الرافع على وجهٍ يتضمَّن ضدَّ ذلك لأضدادهم، فكأنه قيل: كانت لهم جزاءً موفوراً لا يدخل تحت الوصف، ومصيراً أي: مصيراً لا يقادَرُ قَدْرُه، وليس كمصير الكفرة المشارِ إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾[1]. ويُعلَم منه فائدةُ ذِكْرِ المصير مع ذِكْرِ الجزاء، فتأمل.

وقولُه سبحانه: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ قيل: استئنافٌ وقع جواباً لسؤالٍ نشأ مما قبله، حيث أفاد أنَّ الجنة مسكنٌ لهم، والساكنُ في دارٍ يحتاجُ إلى أشياءَ كثيرةٍ لتطيب[2] نفسُه بسكناها، فكأنَّ سائلاً يقول: ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوا فيها؟ فقيل: لهم فيها ما يشاؤون.

وقال الطبرسيُّ: الجملةُ في موضع الحال من قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3].

و«ما» موصولةٌ مبتدأ والعائدُ محذوفٌ، و«لهم» خبرُه، و«فيها» متعلِّقٌ بما تعلَّق به، أي: كائنٌ لهم فيها الذي يشاؤونه من فنون الملاذِّ والمُشْتَهيات، وأنواعِ النعيم الروحانيِّ والجسمانيِّ.

ولعل كلَّ فريقٍ منهم يقتنعُ بما أُبيح له من درجاتِ النعيم، ويرى ما هو فيه ألذَّ الأشياء، ولا تمتدُّ أعناقُ هِمَمِهم إلى ما فوقَ ذلك من المراتب العالية، ولا يخطر بباله ما يُحْظَرُ طلبُه ولا يتأتَّى له، فلا يشاءُ آحادُ المؤمنين رتبةَ الأنبياء عليهم السلام، ولا يتعرَّضون للشفاعة لمن كُتب عليه الخلودُ في النار مثلاً، فلا يلزم

(١) الكشاف ٣/ ٨٤، وكلام الزمخشري فيه: فإن قلت: ما معنى قوله: «كانت لهم جزاءً ومصيراً»؟ قلت: هو كقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فمدح الثواب ومكانه، كما قال: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فذمَّ العقاب ومكانه، لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بِطِيب المكان وسعته، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضِيقه وظُلمته، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء.

(٢) في الأصل: لتطييب.

(٣) مجمع البيان ١٨/ ٩٢.

الحرمانُ ولا تَسَاوي مراتبِ أهلِ الجنان، وعلى ضدِّ هؤلاء فيما ذُكر أهلُ النار، فقد قال سبحانه فيهم: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ حالٌ من أحدِ ضمائرهم على ما قيل، وظاهرُه عَدَمُ الترجيح، وقال بعض الأفاضل: جَعْلُه حالاً من الأول يقتضي كونَها حالاً مقدَّرةً ومن الثالث يُوْهِمُ تقييدَ المشيئة بها، فخيرُ الأمور أَوْسَطُها.

ورجَّح بعضهم الثالثَ لقُرْبِه، والتقييدُ غيرُ مخلٍّ بل مهمٌّ. وجوّز كونُها حالاً من المتقين، ولا يخفى حالُه.

ولبعض الأجلَّةِ ها هنا كلامٌ فيه بحثٌ ذكره الحمصيُّ في «حواشي التصريح»[1]، فليُراجَعْ.

﴿كَانَ﴾ أي: الوعدُ بما ذكر، أو الموعودُ المفهومُ من الكلام، فيشملُ الوعدَ بالجنة وبحصولِ ما يشاؤون لهم فيها وبالخلود على الأول، والجنةَ وحصولَ المراداتِ والخلودَ الموعودَ بها على الثاني.

وقال بعضهم: الضميرُ للخلود. وآخَرُ: لحصولِ ما يشاؤون لهم فيها، أوْ له ولكون الجنةِ جزاءً ومصيراً، والإفرادُ باعتبارِ ما ذكر، ويغني عنه ما سمعتَ.

والأكثرون على أنَّه لـ «ما يشاؤون»، وهو اسمُ «كان»، وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ متعلِّقٌ بها، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من قوله سبحانه: ﴿وَعۡدٗا﴾ وهو خبرُها. ولم يجوِّز تعلُّق الجارِّ به سواءٌ كان باقياً على مصدريته أو مؤوَّلاً باسم المفعول ـ أي: موعوداً ـ لِمَا عملتَ من الخلاف في مرجع الضمير، بناءً على منع تقديم معمول المصدر عليه وإن كان مؤوَّلاً بغيره أو كان المقدَّمُ ظرفاً، وفيه خلافٌ.

وجوّز أن يكون «على ربك» متعلِّقاً بمحذوفٍ هو الخبر، و«وعداً» مصدراً مؤكِّداً. والأظهرُ أنْ يُجعلَ هو الخبر، أي: كان ذلك وعداً أو موعوداً.

---

(١) التصريح بمضمون التوضيح في النحو لخالد بن عبد الله الأزهري النحوي، والتوضيح هو شرح ابن هشام لألفية ابن مالك المسمى: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، والحمصي هو ياسين بن زين الدين الشافعي الشهير بالعليمي، نزيل مصر، المتوفى سنة (١٠٦١هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١، وكشف الظنون ١/ ١٥٤.

﴿مَسْئُولًا ١٦﴾ أي: حقيقاً أن يُسألَ ويُطْلبَ؛ لكونه مما يتنافسُ فيه المتنافسون، أو سبباً لحصول ذلك، فمسؤوليته كنايةٌ عن كونه أمراً عظيماً، ويجوزُ أن يراد كونُ الموعودِ مسؤولاً حقيقةً بمعنى: يسألهُ الناس في دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقال سعيد بن أبي هلال[١]: سمعتُ أبا حازمٍ ﷺ يقول: إذا كان يومُ القيامة يقول المؤمنون: ربَّنا عَمِلْنا لك بما أَمَرْتَنا فأنْجِزْ لنَا ما وَعَدْتَنا، فذلك قوله تعالى: (وَعْدًا مَسْئُولًا).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيدٍ هذا عن محمد بن كعبٍ القرظيِّ أنه قال في الآية: إنَّ الملائكة عليهم السلام لَتسألُ ذلك في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨][٢].

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ، والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائزُ بمغانم الوعد الكريم.

واستشكلت الآية على مذهب الأشاعرة؛ لأنها تدلُّ على الوجوب على الله تعالى لمكان «على»، وعندهم لا يجب عليه سبحانه شيءٌ؛ لاستلزام ذلك سَلْبَ الاختيار وعدمَ استحقاقِ الحمد.

وأجيب بأنَّ الوجوب الذي تدلُّ عليه الآيةُ وجوبٌ بمقتضى الوعد، والممتنعُ إيجابُ الإلجاء والقَسْرِ من خارجٍ؛ لأنه السالبُ للاختيار الموجِب للمَفْسَدةِ، دون إيجابِه تعالى على نفسه شيئاً بمقتضى وَعْدِه وكَرَمِه، فإنه مسبوقٌ بالإرادة، والوجوبُ الناشئُ من الإرادة لا ينافي الاختيار. وهذا ظاهرٌ إذا كان الوعدُ حادثاً، وأمَّا إذا كان قديماً فالسابقيةُ والمسبوقيةُ بحسب الذات، وذلك لا يستلزمُ الحدوثَ، أو يقال: الحادثُ بالإرادة تعلُّقُه بالموعود به. فافهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصبٌ على أنه مفعولٌ لمضمَرٍ مقدَّمٍ معطوفٍ على قوله

---

(١) الحافظ الفقيه، أبو العلاء الليثي مولاهم، المصري، روى عن نافع وابن شهاب وقتادة وغيرهم، وأرسل عن جابر وغيره، توفي سنة(١٣٥هـ)، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٠٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١.

تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ إلخ، أي: قل لهم ذلك واذكُر لهم بعد التقريع والتحسير يومَ يحشرهم الله عزَّ وجل، والمرادُ تذكيرُهم بما فيه من الحوادث الهائلةِ، على ما سمعتَ في نظائره. أو على أنه ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف للتنبيه على كمالِ هَوْلِه وفظاعةِ ما فيه، والإيذان بأن العبارة لا تحيطُ ببيانه، أي: ويومَ يحشرهم يكون من الأحوال والأهوالِ ما لا يفي ببيانه المقال.

وقرأ الحسنُ وطلحةُ وابنُ عامرٍ وكثيرٌ من السبعة: «نحشُرُهم» بنون العظمة[1]، بطريقِ الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم.

وقرأ الأعرج: «يحشِرهم» بكسر الشين[2]؛ قال صاحب «اللوامح»: في كلِّ القرآن، وهو القياسُ في الأفعال المتعدِّيةِ الثلاثية؛ لأنَّ يَفْعُلُ بضمِّ العين قد يكونُ من اللازِم الذي هو فَعُلَ بضمِّها في الماضي.

وقال ابن عطية[3]: وهي قليلةٌ في الاستعمال قويةٌ في القياس؛ لأنَّ يَفْعِلُ بكسر العين في المتعدِّي أَقْيَسُ مِن يَفْعُلُ بضمِّ العين. وفيه كلام ذكره أبو حيان في «البحر»[4].

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على مفعولِ «يحشرهم»، وليست الواو للمعية، وجوَّز ذلك أبو البقاء[5].

والمراد بالموصول عند الضحَّاك وعكرمةَ والكلبيِّ: الأصنامُ، بناءً أنَّ السياق فيها، ويُنْطِقُها الله تعالى الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ. وقيل: تتكلَّم بلسان الحال، وليس بذاك.

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد به الملائكةُ وعيسى وعزير، وأضرابُهم من

---

(١) قرأ من السبعة بالإضافة إلى ابن عامر: أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية شعبة، وهي قراءة خلف من العشرة. التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣. وذكرها عن الحسن وطلحة أبو حيان في البحر ٦/ ٤٨٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣، والبحر ٦/ ٤٨٧، وما سيأتي منه.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣.

(٤) ٦/ ٤٨٨.

(٥) في الإملاء ٤/ ٩٤.

العقلاء الذين عُبِدوا من دون الله سبحانه وتعالى. وهو قولُ الجمهور على ما في «البحر»[(١)]؛ لأنَّ السؤال والجوابَ يقتضيانه؛ لاِخْتِصاصهما بالعقلاء عادةً، وإنْ كان الجماد ينطق يومئذٍ. وجاء فيما يُشْبِهُ الاستفهامَ الآتيَ النصُّ عليهم نحو قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقولِه سبحانه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. والظاهُر أنَّ المراد بـ «ما» على هذا القولِ العقلاءُ المعبودون الذين ليس منهم إضلالٌ، كالملائكةِ والأنبياءِ عليهم السلام، لا ما يَشْمَلُهم والشياطينَ مثلاً، فإنَّ الجواب يأبى ذلك بظاهرِه، كما لا يخفى.

وأُطْلِقَتْ «ما» على العقلاء إمَّا على أنها تُطْلَقُ عليهم حقيقةً أو مجازاً، أو باعتبارِ الوصف، كأنه قيل: ومعبوديهم[(٢)].

وقال بعضُ الأجلَّة: المرادُ ما يعمُّ العقلاء وغيرَهم، إما لأنَّ كلمة «ما» موضوعةٌ للكلِّ كما يُنْبِئُ عنه أنك إذا رأيتَ شبحاً من بعيدٍ تقول: ما هو؟ أو لأنه أريد بها الوصفُ فلا تختصُّ حينئذٍ بغير العقلاء كما إذا أريد بها الذاتُ، أو لتغليب الأصنامِ على غيرها، تنبيهاً على بُعْدِهم عن استحقاقِ العبادة وتَنْزيلِهم في ذلك منزلةَ مَن لا عِلْمَ له ولا قدرةَ، أو اعتباراً لغلبة عَبَدتِها وكَثْرتِهم.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ للمعبودين من دونه، إثر حَشْرِ الكلِّ، تقريعاً للعَبَدةِ وتبكيتاً لهم. وقرأ الحسن وطلحةُ وابنُ عامر: «فنقولُ» بنون العظمة أيضاً[(٣)]. ومَن قرأ ممن عَدَاهم هناك بالنون وهنا بالياء كان على قراءته هنا التفاتٌ[(٤)] من التكلُّم إلى الغيبة، وفي نون العظمة هناك إشارةٌ إلى أنَّ الحشر أمرٌ عظيم.

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأنْ دَعَوْتُموهم إلى عبادتكم، وإضافةُ «عبادي»

---

(١) ٦/ ٤٨٨.

(٢) في الأصل و(م): أو معبوديهم، والمثبت من الكشاف ٣/ ٨٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١١، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٨.

(٣) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن ابن عامر، وذكرها عن الحسن وطلحة أبو حيان في البحر ٦/ ٤٨٧.

(٤) في الأصل و(م): التفاتاً.

قيل: للترحُّم، أو لتعظيمِ جُرْمِهم لعبادة غيرِ خالقِهم، أو لتعظيم أمر إضلالهم بدعوتهم إلى عبادتهم مع كونهم عباداً لله عز وجل، و«هؤلاء» بدلٌ منه، وجوِّز أن يكون نعتاً له.

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشِدِ من كتابٍ أو رسولٍ، فحُذِفَ الجارُّ وأُوْصِلَ الفعلُ إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] والأصلُ: إلى السبيل، أو: للسبيل.

وذكر بعض الأجلَّةِ أنه لم يقل: عن السبيل للمبالغة؛ فإنَّ «ضلَّه» بمعنى «فَقَده»، وضلَّ عنه بمعنى: خرج عنه. والأولُ أبلغُ لأنه يُوْهِم أنه لا وجودَ له رأساً.

وتقديمُ الضميرين على الفعلين لِمَا أنَّ المراد بالسؤال التقريعيِّ هو المتصدِّي للفعل لا نفسِه.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ السؤال، كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

وكان الظاهرُ أن يعبَّر بالمضارع لمكانِ «يقول» أوَّلاً، وكأنَّ العدول إلى الماضي للدلالة على تحقُّق التنزيه والتبرئةِ، وأنه حالُهم في الدنيا. وقيل: للتنبيه على أنَّ إجابتهم بهذا القولِ هو محلُّ الاهتمام، فإنَّ بها التبكيتُ والإلزامُ، فدلَّ بالصيغة على تحقُّق وقوعِها.

و«سبحان» إمَّا للتعجُّبِ مما قيل لهم إمَّا لأنهم جماداتٌ لا قدرةَ لها على شيءٍ، أو لأنهم ملائكةٌ، أو أنبياءُ معصومون، أو أولياءُ عن مثلِ ذلك محفوظون، وإمَّا هو كنايةٌ عن كونهم موسومين بتسبيحِه تعالى وتوحيدِه، فكيف يتأتَّى منهم إضلالُ عباده، وإمَّا هو على ظاهرِه من التنزيه، والمرادُ تنزيهُه تعالى عن الأضداد. وهو على سائر الأوجُهِ جوابٌ إجماليٌّ إلا أنَّ في كونه كذلك على الأخير نوعَ خفاءٍ بالنسبة إلى الأوَّلَيْنِ، وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَآ﴾ إلخ كالتأكيد لذلك والتفصيلِ له.

وجَعَل الطيبيُّ قولَهم: «سبحانك» توطئةً وتمهيداً للجواب لقولهم: «ما كان» إلخ، أي: ما صحَّ وما استقام لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أولياءَ، على أنَّ

«مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، ويَحسُنُ زيادتُها بعد النفي، والمنفيُّ وإن كان «كان»، لكنَّ هذا معمولُ معمولِها فينسحبُ النفي عليه.

والمرادُ نفيُ أن يكونوا هم مضلِّيهم على أبلغ وجهٍ، كأنهم قالوا: ما صحَّ وما استقام لنا أنْ نتَّخِذَ متجاوزينَ إياك أولياءَ نَعبدُهم، لِمَا بنا من الحالةِ المنافيةِ له، فأنَّى يتصوَّر أنْ نَحْمِلَ غيرَنا على أن يتَّخِذَ وليّاً غيرك فضلاً أن يتخذنا وليّاً.

وجوَّز أن يكون المعنى: ما كان ينبغي لنا أن نتَّخِذَ من دونك أتباعاً، فإنَّ الوليَّ كما يُطْلَقُ على المتبوع يُطْلَقُ على التابع، ومنه أولياء الشيطان، أي: أتباعُه.

وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ: «يُنْبَغَى» بالبناء للمفعول، وقال ابن خالويه: زَعَم سيبويه أنَّ ذلك لغة[1].

وقرأ أبو الدرداء، وزيد بنُ ثابت، وأبو رجاء، ونصر بنُ علقمة، وزيد بن عليٍّ وأخوه الباقرُ رضي الله عنهما، ومكحولٌ، والحسن، وأبو جعفر، وحفص بنُ عبيد، والنخعيُّ، والسُّلميُّ، وشيبةُ، وأبو بشر، والزعفراني: «نُتَّخَذَ» مبنيّاً للمفعول[2].

وخرَّج ذلك الزمخشريُّ على أنه مِن اتَّخذ المتعدِّي إلى مفعولين، والمفعولُ الأولُ ضميرُ المتكلِّم القائمُ مقامَ الفاعل، والثاني «من أولياء»، و«من» تبعضيةٌ لا زائدةٌ، أي: أن يتَّخذونا بعضَ الأولياء[3].

ولم يجوِّز زيادتَها بناءً على ما ذهب إليه الزجَّاجُ من أنها لا تُزاد في المفعول الثاني[4]، وعلَّله في «الكشف» بأنه محمولٌ على الأول يَشِيعُ بشيوعه ويُخصُّ كذلك، ومرادُه أنه إذا كان محمولاً لا يُرادُ صِدْقُه على غيره فيشيع ويخصُّ كذلك في الإرادة، فلا يَرِدُ: زيد حيوان، فإنَّ المحمول باقٍ على عمومه مع خصوصِ الموضوع. وقيل: مرادُه أنَّ الاختلافَ لا يناسبُ مع إمكان الاتِّحاد، والمثالُ ليس كذلك. والزمخشريُّ لمَّا بنى كلامَه على ذلك المذهبِ والتزمَ التبعيض، جاء

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤.
(٢) النشر ٢/ ٣٣٣، والبحر ٦/ ٤٨٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٨٦.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٠، وسيأتي كلامه في هذه المسألة قريباً.

الإشكالُ في تنكيرِ «أولياء»، فأجاب بأنه للدلالة على الخصوص[1] وامتيازهم بما امتازوا وهو للتنويع على الحقيقة.

وقال السَّجَاونديُّ: المعنى: ما ينبغي لنا أن نُحْسَبَ مِن بعض ما يقعُ عليه اسمُ الولاية فضلاً عن الكلِّ، فإنَّ الوليَّ قد يكون معبوداً ومالكاً وناصراً ومخدوماً.

والزجَّاج[2] خَفي عليه أمرُ هذه القراءة على مذهبه فقال: هذه القراءةُ خطأ؛ لأنك تقول: ما اتَّخذْتُ من أحدٍ وليّاً، ولا يجوز: ما اتَّخذتُ أحداً من وليٍّ؛ لأنَّ «مِن» إنما دخلت لأنها تنفي واحداً في معنى جميع، ويقال: ما من أحدٍ قائماً، وما من رجلٍ محبّاً لِمَا يضرُّه، ولا يقال: ما قائمٌ من أحدٍ، وما رجلٌ من محبٌّ لِمَا يضرَّه، ولا وجهَ عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]: ما منكم أحدٌ عنه من حاجزين. وأجاز الفرَّاءُ هذه القراءةَ على ضعفٍ[3] وزَعَم أنَّ «من أولياء» هو الاسم، وما في «يتخذ» هو الخبر، كأنه يجعله على القلب. انتهى.

ونقل صاحب «المطلع» عن صاحب «النظم» أنه قال: الذي يوجبُ سقوطَ هذه القراءة أنَّ «مِن» لا تدخل إلا على مفعولٍ لا مفعولَ دونه، نحو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، فإذا كان قبل المفعول مفعولٌ سواه لم يَحْسُنْ دخولُها كما في الآية على هذه القراءة.

ولا يخفى عليك أنَّ في الإقدام على القول بأنَّها خطأٌ أو ساقطةٌ مع روايتها عمَّن سمعتَ من الأجلَّة خطراً عظيماً، ومنشأُ ذلك الجهلُ، ومفاسدُه لا تُحصى.

وذهب ابن جنِّي إلى جواز زيادة «مِن» في المفعول الثاني، فيقال: ما اتَّخذْتُ زيداً من وكيل، على معنى: ما اتَّخذتُه وكيلاً أيَّ وكيلٍ كان من أصناف الوكلاء. ومعنى الآيةِ على هذا المنوال: ما ينبغي لنا أن يتَّخذونا من دونك أولياءَ أيَّ أولياء، أي: ما يقع عليه اسمُ الولاية.

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٦، وفيه: وتنكير «أولياء» من حيث إنهم أولياء مخصوصون، وهم الجن والأصنام.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٦٠.

(٣) في (م): عن ضعف، والمثبت من الأصل ومعاني القرآن للزجاج، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٤.

وجوّز أن يكون «نتخذ» على هذه القراءة مما له مفعولٌ واحد، و«من دونك» صلة، و«من أولياء» حال، و«من» زائدة، وعزا هذا في «البحر» إلى ابن جنِّي[١].

وجوَّز بعضهم كونَ «نَتَّخِذَ» في القراءة المشهورة مِن اتَّخذ المتعدِّي لمفعولين، وجعل أبو البقاء على هذا «من أولياء» المفعولَ الأول بزيادةِ «مِن»، و«من دونك» المفعولَ الثاني[٢]. وعلى كونه من المتعدِّي لواحدٍ يكون هذا حالاً.

وقرأ الحجَّاج: «أن نتَّخذ من دونك أولياءَ» فبلغ عاصماً فقال: مُقِتَ المُخْدَج، أَوَ ما عَلِمَ أنَّ فيها «مِن»[٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ إلخ استدراكٌ مسوقٌ لبيانِ أنهم هم الضالُّون بعد بيانِ تنزُّهِهم عن إضلالهم على أبلغ وجهٍ كما سمعتَ، وقد نَعَى عليهم سوءَ صنيعهم حيث جعلوا أسبابَ الهداية أسباباً للضلالة، أي: ما أَضْلَلْناهم ولكن متَّعتَهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقَّها ويَشْكُروها فاستَغْرَقوا في الشهوات وانهمكوا فيها.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: غفلوا عن ذكرك والإيمانِ بك، أو عن توحيدك، أو عن التذكُّر لنعمك وآياتِ ألوهيَّتِكَ ووحدتِكَ.

وفي «البحر»: الذكرُ ما ذُكِّر به الناسُ على ألسنةِ الأنبياء عليهم السلام، أو الكتبِ المنزلة، أو القرآن[٤].

ولا يَخْفَى ما في الأخير إذا قيل بعموم الكفار المخبرِ[٥] عنهم في الآية، وشمولِهم كفارَ هذه الأمةِ وغيرهم.

---

(١) البحر ٦/ ٤٨٩، وهذا القول هو الذي ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢٠، مع إجازته زيادة «من» في المفعول الثاني، فذكر أن «من أولياء» في موضع الحال، أي: ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخذ من دونك أولياء، ودخلت «من» زائدة لمكان النفي، ومثله: ما أعطيته من درهم، وقال: وهذا في المفعول.

(٢) الإملاء ٤/ ٩٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٩. والمُخْدَج: الناقص.

(٤) البحر ٦/ ٤٨٩.

(٥) في (م): والمخبر.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: في عِلْمِك الأزليِّ المتعلِّق بالأشياء على ما هي عليه في أنفسها، أو بما سيَصْدُرُ عنهم فيما لا يزال باختيارهم وسوءِ استعدادهم من الأعمال السيئة.

﴿قَوْمًا بُورًا ⑱﴾ هالكين، على أنَّ «بوراً» مصدرٌ وُصِفَ به الفاعلُ مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحدُ والجمعُ، وأنشدوا:

فلا تكفروا ما قد صَنَعْنا إليكُمُ وكافُوا به فالكفرُ بورٌ لصانعه[١]

وقول ابن الزِّبَعْرَى:

يا رسول المليك إنَّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورُ[٢]

أو جمعُ بائرٍ، كعُوذٍ في عائذ[٣]. وتفسيرُه بهالكين رواه ابن جرير وغيرُه عن مجاهد[٤].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن ذلك، فقال: هُلْكَى بلغةِ عُمَان، وهم من اليمن[٥].

وقيل «بوراً»: فاسدين في لغة الأَزْدِ، ويقولون: أمرٌ بائر، أي: فاسد، وبارَتِ البضاعةُ: إذا فَسَدَتْ.

وقال الحسن: «بوراً»: لا خيرَ فيهم، من قولهم: أرضٌ بورٌ، أي: متعطِّلةٌ لا نباتَ فيها. وقيل: «بوراً»: عُمياً عن الحقِّ.

والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، على ما قال أبو السعود[٦].

---

(١) أنشده ابن عباس رضي الله عنهما لنافع بن الأزرق عندما سأله عن معنى «بوراً»، كما أخرج الطستي، وسيأتي الخبر قريباً دون ذكر البيت.

(٢) ديوان ابن الزبعرى ص٣٦.

(٣) جاء في حاشية (م): وهي الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل. اهـ منه. وهو في حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٧، وأخرجه أيضاً عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٣/ ٦٥.

(٦) في تفسيره ٦/ ٢٠٩.

وقال الخفاجيُّ: هي حالٌ بتقديرِ «قد»، أو معطوفةٌ على مقدرٍ أي: كفروا وكانوا، أو على ما قبلَها[(١)].

وقد شنَّع الزمخشريُّ[(٢)] بما ذُكر من السؤال والجواب على أهل السنة، فقال: فيه كسرٌ بيِّنٌ لقولِ مَن يزعم أنَّ الله تعالى يُضِلُّ عباده على الحقيقة، حيث يقول سبحانه للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتم أم هم ضلُّوا بأنفسهم، فيتبرَّؤون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلِّين، ويقولون: بل أنت تفضَّلْتَ من غير سابقةٍ على هؤلاء وآبائهم تفضُّلَ جوادٍ كريم، فجعلوا النعمة التي حقُّها أن تكون سببَ الشكرِ سببَ الكفرِ ونسيانِ الذكر، وكان ذلك سببَ هلاكهم. فإذا برَّأتِ الملائكةُ والرسلُ عليهم السلام أنفسَهم من نسبة الإضلال - الذي هو عملُ الشياطين - إليهم، واستعاذوا منه، فهم لربِّهم الغنيِّ العَدْلِ أشدُّ تَبْرِئةً وتنزيهاً منه. ولقد نزَّهوه تعالى حين أضافوا إليه سبحانه التفضُّلَ بالنعمة والتمتيعَ بها، وأسندوا نسيانَ الذكر والتسبُّبَ به للبوار إلى الكفرة، فشرحوا الإضلال المجازيَّ الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:٢٧]، ولو كان سبحانه هو المضلَّ على الحقيقة لكان الجوابُ العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم. انتهى.

وأجاب صاحب «الفرائد» عن قوله: فيتبرؤون من إضلالهم.. إلخ. بأنهم إنَّما تبرؤوا لأنهم يستحقُّون العذابَ بإضلالهم، ولم يكن منهم، فوجب عليهم أن يقولوا ذلك ليندفع عنهم ما يستحقُّون به من العذاب، وذلك أنهم مسؤولون عمَّا يفعلون، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُسأل عمَّا يفعل، فيَلْحَقُ بهم النقصانُ إنْ ثَبتَ عليهم، ولا يمكن لحوقُه به تعالى لأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويَحْكُم ما يريد.

وعن قوله: ولقد نزَّهوه حيث أضافوا.. إلخ. بأنَّ قولهم: ولكن متَّعتهم.. إلخ، لا ينافي نسبةَ الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة، وأيضاً ما يؤدِّي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلوماً له عز وجل أنهم يَضِلُّون به، كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة، فوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣.

(٢) في الكشاف ٣/ ٨٥-٨٦.

وعن قوله: ولو كان تعالى هو المضلَّ على الحقيقة لكان الجوابُ العتيد: أنتَ أَضْلَلْتَهم. بأنَّ هذا غيرُ مستقيم، لأنه تعالى ما سألهم إلَّا عن أحد الأمرين، وما ذُكِر لا يَصْلُحُ جواباً له، بل هو جوابٌ لمن قال: مَن أضلَّهم. انتهى.

وذكر في «الكشف» جواباً عن الأخير، أنه ليس السؤالُ عن تعيين مَن أضلَّ؛ لأنه تعالى عالمٌ به، وإنما هو سؤالُ تقريعٍ، على نحو: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] فلو قالوا: أنت أَضْلَلْتهم، لم يطابق، وإنما الجوابُ ما أجابوا به كما أجاب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ [المائدة:١١٦] إلخ. وقد اقتدى بالإمام في ذلك[١].

وذكر أيضاً قبل هذا الجواب أنه لو قيل: إنَّ في «متَّعتَهم وآباءهم» ما يدلُّ على أنه تعالى الفاعلُ الحقيقيُّ للإضلال، وأنه لا يُنْسَبُ إليه سبحانه أدباً، لكان وجهاً، ولا ينبغي أن يكون ذلك بعد التسليم المقصود من الجواب بمتَّعتَهم.. إلخ بأن يكون المرادُ الجوابَ بـ: أنت أضللتهم، لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل أدباً؛ لأنَّ الجواب بذلك مما لا يقتضيه السياقُ كما لا يخفى.

وقال ابن المنير: إنَّ جواب المسؤولينَ بما ذكر يدلُّ على معتقدِهم الموافق لِمَا عليه أهلُ الحقِّ؛ لأنَّ أهلَ الحقِّ يعتقدون أنَّ الله تعالى وإنْ خَلَقَ الضلالَ إلَّا أنَّ للعباد اختياراً فيه، وعندهم أنَّ كلَّ فعلٍ اختياريٌّ له نسبتان: إن نُظِرَ إلى كونه مخلوقاً فهو منسوبٌ إلى الله تعالى، وإن نُظِرَ إلى كونه مختاراً للعبد فهو منسوبٌ للعبد، وهؤلاء المجيبون نَسَبوا النسيانَ - أي: الانهماكَ في الشهوات الذي ينشأ عنه النسيانُ - إلى الكفرة، لأنهم اختاروه لأنفسهم فصَدَقَتْ نسبتُه إليهم، ونَسبوا السببَ الذي اقتضى نسيانهم وانهماكَهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجُهم ببَسْطِ النعم عليهم وصبِّها صبّاً، فلا تَنَافيَ بين معتقدِ أهلِ الحقِّ ومضمونِ ما قالوا في الجواب، بل هما متواطئان على أمرٍ واحدٍ[٢]. انتهى.

ولا يَخْفَى ما في بيانِ التوافُقِ من النظر. وقد يقال: حيث كان المرادُ من

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٢.
(٢) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ٨٥.

الاستفهام تقريعَ المشركين، وعِلْمُ المستفهَمين بذلك مما لا ينبغي أن يُنْكَر، لاسيما إذا كانوا الملائكةَ والأنبياءَ عليهم السلام، جيءَ بالجواب متضمِّناً ذلك على أتمِّ وجهٍ، مشتمِلاً على تحقُّق[1] الأمر في منشأ ضلالهم، كلُّ ذلك للاعتناء بمراده تعالى من تقريعهم وتبكيتهم، ولذا لم يكتفوا في الجواب بـ: هم ضلُّوا، بل افتتحوا بالتسبيح، ثم نَفَوا عن أنفسهم الإضلالَ على وجهٍ من المبالغة ليس وراءه وراء، ثم أفادوا أنهم ضلُّوا بعد تحقُّق ما ينبغي أن يكون ذريعةً لهم إلى الاهتداء من تمتيعهم بأنواع النعم، وذلك من أقبح الضلال، ونبَّهوا على زيادةِ قُبْحِه فوق ما ذُكر بالتعبير عنه بنسيان الذكر، ثم ذكروا منشأ ضلالِهم والأصلَ الأصيلَ فيه بقولهم: «وكانوا قوماً بوراً» إمَّا على معنًى: كانوا في نفس الأمر قوماً فاسدين ـ وإن شئتَ قلت: هالكين، ونحوَه مما تقدم ـ فظهروا على حَسَبِ ما كانوا لأنَّ ما في نفس الأمر لا يتغيَّر، أو على معنى: كانوا في العلم التابع للمعلوم في نفسه كذلك، فظهروا على حَسَب ذلك لئلَّا يلزم الانقلابُ المُحالُ.

وحاصله: أنَّ منشأ ضلالِهم فسادُ استعدادهم في نفسه من غيرِ مَدْخليةٍ للغير في التأثير فيه، وهذا شأنُ جميع ماهيات الأشياء في أنفسها، فإنَّ مَدْخليةَ الغير إنما هي في نحو وجودها الخارجيِّ لا غير.

وإلى هذا ذهب جمعٌ من الفلاسفة والصوفية، وشيَّد أركانه الشيخ إبراهيم الكورانيُّ عليه الرحمةُ في أكثرِ كتبه، فإنْ كان مقبولاً فلا بأس في تخريج الآية الكريمة عليه فتدبَّره.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حكايةٌ لاحتجاجه تعالى على العَبَدةِ بطريقِ تلوينِ الخطاب، وصَرْفِه عن المعبودين عند تمام جوابهم، وتوجيهِه إلى العَبَدةِ مبالغةً في تقريعهم وتبكيتهم، على تقديرِ قولٍ مرتَّبٍ على الجواب، أي: فقال الله تعالى عند ذلك: قد كذَّبكم المعبودون أيُّها الكَفَرةُ. وقال بعضُ الأجلَّةِ: الفاء فصيحةٌ، مثلها في قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يرادُ بنا ... ثم القُفولُ فقد جئنا خراسانا[2]

---

(١) في الأصل: تحقيق.

(٢) سلف ١/ ٢٧٠. والتقدير: فقلنا قد جئنا. البحر ٦/ ٤٨٩.

والتقدير هنا: قلنا، أو قال تعالى: إن قلتُم إنهم آلهةٌ فقد كذَّبوكم ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم، على أن الباء بمعنى «في»، و«ما» مصدريةٌ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بالفعل، والقولُ بمعنى المقول. ويجوز أن تكون «ما» موصولةً والعائدُ محذوف، أي: في الذي تقولونه. وجوِّز أن تكون الباءُ صلةً، والمجرورُ بدل اشتمالٍ من الضمير المنصوب في «كذَّبوكم».

والمراد بقولهم: إنهم آلهةٌ، أو: هؤلاء أضلُّونا؛ وتعقِّب بأنَّ تكذيبهم في هذا القول لا تعلُّق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصَّرف والنصر أصلاً، وإنما الذي يستتبعه تكذيبُهم في زَعْمِهم أنهم آلهتُهم وناصِروهم. وفيه نظرٌ كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله تعالى.

وقيل: الخطابُ للمعبودينَ، أي: فقد كذَّبكم العابدون أيُّها المعبودون في قولكم: «سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخِذَ من دونك من أولياء» حيث زعموا أنكم آلهةٌ، والمراد الحكم على أولئك المكذِّبين بالكفر على وجهٍ فيه استزادةُ غيظ المعبودين عليهم، وجَعْلُه مفرَّعاً عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى، والفاء أيضاً فصيحةٌ، والجملةُ جزاءٌ باعتبارِ الإخبار.

وقيل: هو خطابٌ للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذَّبكم أيُّها المؤمنون الكفرةُ في الدنيا فيما تقولونه من التوحيد، وجيء بالكلام ليفرَّع عليه ما بعدُ. وكلا القولين كما ترى، والثاني أبعدُهما.

وقرأ أبو حيوة: «يقولون» بالياء آخِرِ الحروف[(١)]، وهي روايةٌ عن ابن كثير وقنبل[(٢)]، والخطاب في «كذبوكم» للعابدين، وضمير الجمع فيه وفي «يقولون» للمعبودين، أي: فقد كذبكم أيُّها العَبَدةُ المعبودون بزَعْمِكم بقولهم: سبحانك.. إلخ، والباء للملابسة أو الاستعانة. وفيه أيضاً القولان السابقان، أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٩.

(٢) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٣٤: اختلف عن قنبل في «كذبوكم بما تقولون» فروى عنه ابن شنبوذ بالغيب، وهي قراءة ابن أبي حيوة، ونصَّ عليها ابن مجاهد عن البزي سماعاً من قنبل، وروى عنه ابن مجاهد بالخطاب، وبذلك قرأ الباقون.

فقد كذَّبكم أيُّها المعبودون العَبَدةُ بقولهم: إنكم آلهةٌ، أو فقد كذبكم أيُّها المؤمنون الكفارُ في التوحيد بقولهم: إنَّ هؤلاء المحكيَّ عنهم آلهةٌ.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: فما تملكون أيُّها العَبَدةُ ﴿صَرْفًا﴾ أي: دفعاً للعذاب عن أنفسكم بوجهٍ من الوجوه، كما يُعْرِبُ عنه التنكير، أي: لا بالذات ولا بالواسطة. وقيل: حيلةً، من قولهم: إنه ليتصرَّف[1] في أموره، أي: يحتال فيها. وقيل: توبةً. وقيل: فديةً. والأولُ أَظْهرُ؛ فإنَّ أصل الصَّرف ردُّ الشيءِ من حالةٍ إلى أخرى، وإطلاقُه على الحيلة أو التوبة أو الفدية مجازٌ.

والمراد: فما تملكون دفعاً للعذاب قبل حلوله ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فرداً من أفراد النصر، أي: العون، لا من جهةِ أنفسكم ولا من جهةِ غيركم بعد حلوله.

وقيل: «نصراً» جمعُ ناصرٍ، كصَحْبٍ جمع صاحبٍ، وليس بشيء.

والفاءُ لترتيبِ عدمِ الاستطاعةِ على ما قبلها من التكذيب، لكنْ لا على معنى أنه لولاه لوُجِدَتِ الاستطاعةُ حقيقةً، بل في زَعْمِهم، حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذابَ وينصرونَهم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم.

والمرادُ من التكذيب المرتَّبِ عليه ما ذُكر تكذيبُهم بقولهم: إنهم آلهةٌ، ويجوز أن يُراد به تكذيبُهم بقولهم: هؤلاء أضلُّونا، وهو متضمِّنٌ نفيَ كونِهم آلهةً، وبذلك يتمُّ أمرُ الترتيب.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأكثرُ السبعة: «يستطيعون» بالياء التحتية[2]، أي: فما يستطيعُ آلهتُكم دَفْعاً للعذاب عنكم، وقيل: حيلةً لدَفْعِه، وقيل: فديةً عنكم ولا نصراً لكم.

وقيل في معنى الآيةِ على تقدير كونِ الخطاب السابق للمؤمنين: إنه سبحانه أراد أنَّ هؤلاء الكفرةَ شديدو الشكيمةِ في التكذيب الموجبِ للتعذيب، فما تستطيعون أنتم صَرْفَهم عنه، «ولا نصراً» لكم فيما يُصيبهم مما يستوجبه من العذاب. هذا على قراءة حفص «تستطيعون» بالتاء الفوقية.

---

(١) في (م): ليصرف، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ٨٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٩، والكلام منه.

(٢) قرأ حفص بالتاء، وباقي السبعة بالياء. التيسير ص١٦٣.

وأما على قراءة الجماعة «يستطيعون» بالياء، فالمعنى: ما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عمَّا هم عليه، ولا نصراً لها فيما استوجبوه بتكذيبهم من العذاب، أو: فما يستطيعون صَرْفَكم عن الحقِّ الذي أنتم عليه، ولا نَصْراً لأنفسهم من العذاب. انتهى، وهو كما ترى.

﴿وَمَن يَظْلِم﴾ أي: يَكفُرْ ﴿مِّنكُمْ﴾ أيُّها المكلَّفون، ويَعْبُدْ من دون الله تعالى إلهاً آخَرَ كهؤلاء الكفرة ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه، وهو عذابُ النار.

وقرئ: «يُذِقْه» على أنَّ الضمير لله عز وجل[1]، وقيل: لمصدرِ «يظلم» أي: يُذِقْه الظلم، والإسناد مجازيٌّ.

وتفسيرُ الظلم بالكفر هو المرويُّ عن ابن عباس والحسن وابن جريج، وأُيِّد بأن المقام يقتضيه، فإنَّ الكلام في الكفر[2] ووعيدِه من مفتتح السورة.

وجوِّز أن يرادَ به ما يعمُّ الشركَ وسائرَ المعاصي، والوعيدُ بالعذاب لا ينافي العفوَ بالنسبة إلى غير المشرك لِمَا حقِّق في موضعه.

واختار الطيبيُّ التفسير الأول، وجَعَلَ الخطابَ للكفار أيضاً؛ لأن الكلام فيهم من أول، وقد سبق «فقد كذَّبوكم»، وهذه الآيةُ لِمَا يجري عليهم من الأهوال والنكال من لَدُنْ قولِه تعالى: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)، ومعنى «ومَن يظلم» حينئذ: ومَن يَدُمْ على الظلم.

وفي «الكشف»: الوجهُ أنَّ الخطابَ عامٌّ، والظلم الكفر، و«مَن يظلم» مُظْهَرٌ أقيمَ مقام المضمَرِ تنبيهاً على توغُّلهم في الكفر وتجاوُزِهم حدَّ الإنصاف والعدلِ إلى مَحْضِ الاعتسافِ والجَدَلِ فيما رَمَوا به رسولَ الله ﷺ، وكان الأصلُ: فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً ونُذيقُهم عذاباً كبيراً، أو نذيقُكم، على اختلافِ القراءتين، والحملُ على: مَن يَدُمْ على الظلم منكم، ليختصَّ الخطابُ بالكفار صحيحٌ أيضاً، ولكنْ

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٠.
(٢) في الأصل: الكافر.

تفوتُه النكتة التي ذكرناها. انتهى. ولا يخفى أنَّ كونَه من إقامة المظهَرِ مقامَ المضمَرِ خلافُ الظاهر، فتأمَّل.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قيل: هو تسليةٌ له ﷺ عن قولهم: ما لهذا الرسولِ يأكُلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق، بأنَّ لك في سائر الرسل عليهم السلام أسوةً حسنةً، فإنهم كانوا كذلك.

وقال الزجَّاج[1]: احتجاجٌ عليهم في قولهم ذلك، كأنه قيل: كذلك كان مَن خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فكيف يكون محمدٌ ﷺ بِدْعاً من الرسل عليهم السلام.

وردَّه الطيبيُّ بأنه لا يساعدُ عليه النَّظمُ الجليلُ؛ لأنه قد أُجيب عن تعنُّتهم بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨].

وتعقبه في «الكشف» بقوله: ولقائلٍ أن يقول: هذا جوابٌ آخَرُ كما أجيب هنالك من أَوْجُهٍ على ما نُقِلَ عن الإمام[2]، وجَعَلَ قولَه تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا۟) جواباً ثالثاً، وعقَّبه بقوله تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ) لمكانِ المناسبةِ، وتمَّ الوعيدُ، ثم أجابهم سبحانه جواباً آخرَ يتضمَّنُ التسلية أيضاً، وهذا يساعدُ عليه النَّظْمُ الجليل.

والجملةُ التي بعد «إلا» قيل: صفةٌ ثانيةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ قَبْلَ «من المرسلين»، والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلَّا آكلين وماشين.

وتعقِّب بأنَّ فيه الفَصْلَ بين الموصوفِ والصفة بـ «إلا»، وقد ردَّه أكثر النحاة كما في «المغني»[3]. ومن هنا جعلها بعضُهم صفةً لموصوفٍ مقدَّر بعد «إلا» وذلك بدلٌ مما حُذِفَ قبلُ وأُقيمتْ صفتُه مقامه، والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلَّا رجالاً أو رسلاً إنهم.. إلخ، وفيه الفَصْلُ بين البدل والمُبْدَل منه، وهو جائزٌ عندهم.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٦٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٥٢ و٦٥.
(٣) ص٤٧٨.

وقدَّر الفرَّاء بعد «إلا» «مَن»[١]، وهي تحتملُ أن تكون موصولةً وأن تكون نكرةً موصوفةً.

وجَعَلَ بعضُهم الجملةَ في محلِّ نصبٍ بقولٍ محذوفٍ، وجملةُ القول صفةٌ، أي: إلا رجالاً أو رسلاً قيل إنهم.. إلخ، وهو كما ترى.

وقال ابن الأنباريِّ: الجملةُ حاليةٌ، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال، والتقدير: إلَّا وإنهم. قال أبو حيان: وهو المختار[٢]، وقدَّر الواوَ بناءً على أنَّ الاكتفاء في مثل هذه الجملة الحالية بالضمير غيرُ فصيح، وربما يُختارُ عدمُ التقديرِ ويُمنعُ دَعْوَى عدمِ الفصاحة، أو يُحملُ ذلك على غير المقترن بـ «إلا» لأنه في الحقيقة بدل.

ووجهُ كَسْرِ «إنَّ» وقوعُها في الابتداء ووقوعُ اللّام بعدها أيضاً، وقرئ: «أنهم» بالفتح[٣] على زيادة اللام بعدها وتقديرِ جارٍّ قبلها، أي: لأنهم يأكلون.. إلخ، والمراد: ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلَهم.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عبد الله: «يُمَشَّوْنَ» بتشديد الشين المفتوحة مع ضمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعول[٤]، أي: يُمشِّيهم حوائجُهم أو الناس، والتضعيفُ للتكثير كما في قول الهُذَليِّ:

يـمـشِّـي بـيـنـنـا حـانـوتُ خـمـرٍ[٥]

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ كما في «البحر»: «يُمَشُّون» بضم الياء والشين مع التشديد مبنيًّا للفاعل[٦]، وهو مبالغةُ يمشي المخفَّفِ، فهي مُطابِقةٌ للقراءة

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٤.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٠.

(٣) البحر ٦/ ٤٩٠، والدر المصون ٨/ ٤٦٩.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٠، والبحر ٦/ ٤٩٠.

(٥) وعجزه: من الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القطاط، والبيت للمتنخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٢١. قال الشارح: يقول: يمشي بيننا صاحبُ حانوت خمر، وقوله: من الخرس الصراصرة، يريد أعجم من نبط الشام. القطاط: الجِعاد، والواحد قطط، وهو أشد الجعودة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥، والبحر ٦/ ٤٩٠.

المشهورة، ولا يحتاجُ إلى تقديرِ يُمشِّيهم حوائجُهم ونحوه، وأنشدوا قوله:

ومشَّى بأعطان المَبَاءةِ وابْتَغى قلائصَ منها صعبةٌ وذلولُ[1]

وقوله[2]:

فقد تَركتْ خُزَيبةُ كلَّ وغدٍ يُمشِّي بين خاتامٍ وطاقِ[3]

وفي بعض نسخ «الكشاف» ما يدلُّ على أنه لم يَظْفَر بهذه القراءة[4].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قيل: تسليةٌ له ﷺ أيضاً، لكنْ عن قولهم: «أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ»، أي: وجعلنا أغنياءكم أيُّها الناس ابتلاءً لفقرائكم لننظر هل يصبرون.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ أي: عالماً بالصواب فيما يبتلي به وغيره فلا يضيقَنَّ صدرُك، ولا تستخفنَّك أقاويلُهم. وقيل: تصبيرٌ له عليه الصلاة والسلام على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومَشْيِه في الأسواق، بعد الاحتجاجِ عليهم بسائر الرسل.

والكلامُ من تلوين الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب، على ما اختاره بعضهم. والمراد بالبعض الأول كفارُ الأمم، واختصاصُهم بالرسل مصحِّحٌ لِأَنْ يُعدُّوا بعضاً منهم، وبالبعض الثاني رسلُهم، على معنى: جعلنا كلَّ بعضٍ معيَّنٍ من الأمم فتنةً لبعضٍ معيَّنٍ من الرسل، كأنه قيل: وجعلنا كلَّ أمةٍ

---

(١) البيت للعلاء بن حذيفة الغنوي كما في أمالي القالي ١/ ٢٨، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥، والبحر ٦/ ٤٩٠. ووقع في الأصل و(م): بأغصان، وهو تصحيف. ورواية الأمالي والمحرر: أمشِّي بأعطان المياه وأبتغي. وجاء في جميع المصادر: وركوب، بدل: وذلول.

(٢) جاء في حاشية (م): أنشده الأزهري، قال أبو عمرو: والعرب تسمي معدن الذهب خُزَيبة. وأراد بالخاتام الخاتم، وبالطاق الطيلسان. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) تهذيب اللغة ٧/ ٢١٢، و٩/ ٢٤٤، واللسان والتاج (خزب) و(طوق). وقال في معجم البلدان ٢/ ٣٧٠: وأنشد الفراء في أماليه، فذكره برواية: لقد نزلت خزيبة كل وغد. . .

(٤) الكشاف ٣/ ٨٧، وفيه: وقرئ «يُمشَّون» على المبني للمفعول. . . ، ولو قرئ «يُمشُّون» لكان أوجه لولا الرواية.

مخصوصةٍ من الأمم الكافرة فتنةً لرسولها المعيَّن. وإنما لم يصرِّح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، وحاصلُه: جَرَتْ سنَّتُنا بموجِب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم، وبمناصبتهم لهم العداوةَ، وإطلاقِ ألسنتهم فيهم بالأقاويل الخارجة عن حدِّ الإنصاف، وسلوكِهم في أذاهم كلَّ مسلكٍ لنَعْلَم صبرهم.

أو هو خطابٌ للناس كافةً ـ على ما قيل ـ وهو الظاهر، والبعضُ الأول أعمُّ من الكفار والأغنياء والأصحَّاء وغيرِهم ممن يصلُح أن يكون فتنةً، والبعضُ الثاني أعمُّ من الرسل والفقراء(١) والمرضى وغيرهم ممن يصلح أن يُفْتَن. والكلامُ عليه مفيدٌ لتصبُّره ﷺ على ماقالوه وزيادة.

وقيل: المراد بالبعض الأول مَن لا مالَ له من المرسَلين، وبالبعض الثاني أممهم، ويدخل في ذلك نبيُّنا ﷺ وأمتُه دخولاً أوَّليًا، فكأنه قيل: جعلناك فتنةً لأمَّتك لأنك لو كنتَ صاحبَ كنوزٍ وجنَّاتٍ لكان ميلُهم إليك وطاعتُهم لك للدنيا، أو ممزوجةً بالدنيا، وإنما بعثناك لا مالَ لك ليكون طاعةُ من يُطيعك منهم خالصةً لوجه الله تعالى من غير طمع دنيويٍّ، وكذا حالُ سائرِ مَن لا مالَ له من المرسلين مع أممهم.

والأظهر عمومُ الخطاب والبَعْضَيْنِ، وهو الذي تقتضيه الآثار، وإليه ذهب ابنُ عطيةَ، فقال: ذلك عامٌّ للمؤمن والكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والرسولُ المخصوصُ بكرامةِ النبوَّةِ فتنةٌ لأشراف الناس الكفارِ في عصره، وكذلك العلماءُ وحكامُ العدل، وقد تلا ابنُ القاسم هذه الآيةَ حين رأى أشهب(٢). انتهى.

واختار ذلك أبو حيان(٣)، ولا يَضرُّ فيه خصوصُ سبب النزول، فقد روي عن الكلبيِّ أنها نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل، ومَن في طبقتهم، قالوا: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمارٌ وصهيبٌ وبلالٌ وفلانٌ وفلانٌ، ترفَّعوا علينا إدلالاً بالسابقة.

---

(١) في (م): والقراء، وهو تصحيف.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥. وتنظر قصة أشهب مع ابن القاسم في ترتيب المدارك ٢/ ٤٥٢.
(٣) البحر ٦/ ٤٩٠.

والاستفهام إمَّا في حيِّز التعليل للجَعْلِ، ومُعادِلُه محذوفٌ كما حُذف فيما لا يُحصى من الأمثلة، والتقدير: لنعلم أتصبرون أم لا، أي: ليظهر ما في علمنا، وقرينةُ تقديرِ العلم تضمُّنُ الفتنةِ إياه.

وإما أن لا يكون في حيِّز التعليل وليس هناك معادلٌ محذوف، بأنْ يكونَ للترغيب والتحريض، والمراد: اصبروا فإنِّي ابتَلَيتُ بعضَكم ببعض.

ويجوزُ أن لا يقدر معادلٌ على تقديرِ اعتبارِ التعليل أيضاً، بأنْ يكونَ الخطابُ للرسل عليهم السلام على ما سمعتَ.

وجعل ابن عطية الخطابَ فيما سبق عامًّا، وفي «أتصبرون» خاصّاً بالمؤمنين الذين جُعل إمهالُ الكفار فتنةً لهم في ضمن العموم السابق، وقدَّر معادلاً فقال: كأنه جَعَلَ إمهالَ الكفار فتنةً للمؤمنين، ثم وَقَفَهم: أتصبرون أم لا. وجَعَل قولَه تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعداً للصابرين ووعيداً للعاصين[1].

وجَعَله بعضُهم وعداً للرسول ﷺ بالأجر الجزيل لصَبْرِه الجميل، مع مزيدِ تشريفٍ له عليه الصلاة والسلام بالالتفات إلى اسم الربِّ مضافاً إلى ضميره ﷺ.

وجوِّز أن يكون وعيداً لأولئك المعاندين له عليه الصلاة والسلام جيء به إتماماً للتسلية أو التصبُّر، وليس بذاك.

واستُدِلَّ بالآية على القضاء والقدر، فإنها أفادت أنَّ أفعال العباد، كعداوةِ الكفار وإيذائهم، بجَعْلِ الله تعالى وإرادته، والفتنةُ بمعنى الابتلاء وإن لم تكن من أفعال العباد إلا أنها مُفْضيةٌ ومستلزمةٌ لما هو منها. وفيه من الخفاء ما فيه.

والحمد لله

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ إلخ شروعٌ في حكايةِ بعضٍ آخَرَ من أقاويلهم الباطلةِ وبيان بطلانها إثر حكايةِ إبطالِ أباطيلهم السابقةِ وذكر ما يتعلق بذلك. والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخره [الفرقان: ٧]، ووُضِعَ الموصولُ موضعَ الضمير للتنبيه بما في حيِّز الصلة على أنَّ ما يُحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يَصْدُر عمَّن يرجو لقاء الله عزَّ وجلَّ.

والرجاءُ في المشهور: الأمل، وقد فسَّر أحدَهما بالآخرِ أكثرُ اللغويِّين، وفي «فروق» أبي هلال[1]: الأملُ: رجاءٌ يستمرُّ، ولذا قيل للنظر في الشيء إذا استمرَّ وطال: تأمُّل.

وقيل: الأمل يكون في الممكن والمستحيل، والرجاءُ يَخُصُّ الممكن.

وفي «المصباح»: الأملُ ضدُّ اليأس، وأكثرُ ما يُستَعْمَلُ فيما يَبْعُدُ حصولُه، والطمعُ يكون فيما قَرُبَ حصولُه، والرجاء بين الأمل والطمع؛ فإنَّ الراجيَ يخاف أن لا يَحصُلَ مأمولُه، ولذا استُعمل بمعنى الطمع[2]. انتهى.

وفسَّره أبو عبيدة[3] وقومٌ بالخوف. وقال الفرَّاءُ: هذه الكلمةُ تهاميَّةٌ، وهي

---

(١) في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٥ (والكلام منه): ابن هلال، والصواب ما أثبتناه، وأبو هلال هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري، كما في معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨، والكلام في كتابه: الفروق في اللغة ص٤٣٣.

(٢) المصباح المنير (أمل)، وفيه: . . . فإن الراجي قد يخاف أن لا يحصل مأموله، ولهذا يُستعمل بمعنى الخوف، فإذا قوي الخوف استُعمل استعمال الأمل، وإلا استُعمل بمعنى الطمع. وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤١٥.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٧٣.

أيضاً من لغة هذيل، إذا كان مع الرجاء جَحْدٌ ذهبوا به إلى معنى الخوف، فيقولون: فلانٌ لا يرجو ربَّه سبحانه، يريدون: لا يخاف ربَّه سبحانه، ومن ذلك: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي: لا تخافون لله تعالى عظمةً. وإذا قالوا: فلانٌ يرجو ربَّه فهذا على معنى الرجاءِ لا على معنى الخوف، وقال الشاعر:

إذا لَسَعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالَفَها في بيتِ نوبٍ عَوَاسِلِ[(١)]

وقال آخر:

لا يرتجي حين يلاقي الذَّائدا أسبعةً لاقتْ له أو واحدا[(٢)]

انتهى.

وذُكر أنَّ استعمال الرجاء في معنى الخوف مجازٌ؛ لأنَّ الراجي لأمرٍ يخافُ فواتَه.

وأصلُ اللقاء: مُقابَلةُ الشيء ومصادفتُه، وهو مرادُ مَن قال: الوصولُ إلى الشيء لا المماسَّةُ، ويُطْلَقُ على الرؤية لأنها وصولٌ إلى المرئيِّ، ولقاؤه تعالى هنا كنايةٌ عن لقاء جزائه يومَ القيامة، أو المراد ذلك بتقديرِ مضافٍ، والمعنى على التفسير المشهور للرجاء: وقال الذين لا يَأْمَلون لقاءَ جزائِنا بالخير والثوابِ على الطاعة لتكذيبهم بالبعث، وعلى التفسير الآخر: وقال الذين لا يخافون لقاءَ جزائنا بالشرِّ والعقابِ على المعصية لتكذيبهم بالبعث، كذا قيل.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٨٦، و٢/ ٢٦٥، والبحر ٦/ ٤٩١، وعنه نقل المصنف، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٣، ومجاز القرآن ٢/ ٧٣، والخزانة ٥/ ٤٩١. وجاء في معاني القرآن والبحر ومجاز القرآن والخزانة: عوامل، بدل: عواسل، قال البغدادي ٥/ ٤٩٩: يقول: إذا لسعت النحل هذا المشتار لم يخف لسعها، ولازمها في بيتها حتى قضى وطره من معسّلها. وقوله: وخالفها، يريد: جاء إلى عسلها من ورائها لما سرحت في المراعي. ويروى: وحالفها، أي: صار حليفها في بيتها. والنوب: النحل، سميت بذلك لسوادها، أو لأنها تختلف وتجيء وتذهب، أي: تنتاب المراعي ثم تعود. وعوامل، أي: تعمل العسل.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٨٦ و٢/ ٢٦٥، والبحر ٦/ ٤٩١، وتفسير الطبري ٧/ ٤٥٦، والأضداد لابن الأنباري ص١١، وتهذيب اللغة ١١/ ١٨٢، وأساس البلاغة (رجو)، واللسان (رجا)، وروايته في جميع المصادر: لا ترتجي حين تلاقي... لاقت معاً أم واحداً.

وقيل: المراد به رؤيتُه تعالى في الآخرة، والرجاءُ عليه بمعنى الأمل دون الخوف، إذ لا معنى لكونِ الرؤيةِ مَخوفةً. وهو خلافُ الظاهر وإنْ لم يَأْبَهُ ما بَعْدُ؛ إذ يكون المعنى عليه: إنَّ الذين لا يرجون رؤيتنا في الآخرة التي هي مَظِنَّةُ الرؤية لكثيرٍ من الناس اقترحوا رؤيتنا في الدنيا التي ليست مَظِنَّةً لذلك.

وقد يقال: نَفْيُ رجاءِ لقائه تعالى كنايةٌ عن إنكار البعث والحشر، ولعله أَوْلى مما تقدَّم، أي: وقال الذين ينكرون البعثَ والحشر: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلَّا أُنْزِلوا علينا فيخبرونا بصِدْقِ محمد ﷺ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرَنا بذلك، كما روي عن ابن جُرَيْجٍ وغيرِه.

وفي طلبِ إنزالِ ملائكةٍ للتصديق دون إنزالِ مَلَكٍ إشارةٌ إلى أنهم بلغوا في التكذيب مَبْلَغاً لا ينفعُ معه تصديقُ ملكٍ واحدٍ، وإذا اعتُبِرتْ «أل» في الملائكة للاستغراق الحقيقيِّ، كانت الإشارةُ إلى قوةِ تكذيبهم أقوى، وتزدادُ القوةُ إذا اعتُبِرَ في «علينا» معنى: كلّ واحدٍ منَّا، ولم يُعتَبَرْ توزيعٌ.

ويشيرُ أيضاً إلى قوَّةِ ذلك تعبيرُهم بالمضارع الدالِّ على الاستمرار التجدُّديِّ في «أو نرى ربنا»، كأنهم لم يَكْتَفُوا برؤيته تعالى وإخبارِه سبحانه بِصِدْقِ رسولِه ﷺ حتى يَرَوْه سبحانه ويخبرهم مراراً بذلك. ولا يأبَى قَصْدَ الاستمرارِ من المضارع كونُ الأصلِ في «لولا» التي للتحضيض أو العَرْضِ أن تدخُلَ على المضارع، وما لم يكن مضارعاً يؤوَّلُ به. ولعل عُدُولَهم إلى الماضي في جانب إنزال الملائكة المعطوف عليه ـ وإن كان في تأويل المضارع ـ على نحو ما قدَّمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الآية: ٧] فتذكَّر فما في العَهْدِ من قِدَمٍ.

وقيل: المعنى: لولا أنزل علينا الملائكةُ فيبلِّغون أَمْرَ اللهِ تعالى ونَهْيَه بَدَلَ محمدٍ ﷺ، أو نرى ربَّنا فيُخْبِرَنا بذلك من غير توسيطِ[1] أحدٍ.

ورجِّح الأولُ بأنَّ السياق لتكذيبه ﷺ، وحاشاه ثم حاشاه من الكذب، والتعنُّتُ في طلبِ مصدِّقٍ له عليه الصلاة والسلام، لا لطَلَبِ مَن يُفيدُهم الأمرَ والنهيَ سواه ﷺ، ولا نسلِّم أنَّ «لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ» يتكرَّر عليه مع «لولا أُنزل إليه

(١) في الأصل: توسط.

مَلكٌ» السابقِ؛ لظهورِ الفَرقِ بين المطلوبَيْنِ فيهما، ولو فُرِضَ لزومُ التكرارِ بينهما فهو لا يَضُرُّ كما لا يخفى.

وانتُصِرَ للأخير بأنَّ المقام ليس إلَّا لذِكْرِ المكذِّبين وحكايةِ أباطيلهم الناشئةِ عن تكذيبهم، وقد عَدَّ فيما سبق بعضاً منها متضمِّناً تعنُّتَهم في طلبِ مصدِّقٍ له ﷺ، فالأَوْلَى أن يكون ما هنا حكايةَ نوعٍ آخَرَ منها؛ ليكونَ أَبْعدَ عن التكرارِ، وأدلَّ على العنادِ والاستكبار.

ولعل قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أنسبُ بما ذُكر، ومعنى «استكبروا في أنفسهم»: أوقَعوا الاستكبارَ في شأنها، وعدُّوها كبيرةَ الشأن، وفيه تنزيلُ الفعلِ المتعدِّي مَنْزِلةَ اللازم، كما في قوله:

يـجـرحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[1]

والعتوُّ: تَجاوزُ الحدِّ في الظلم، وهو المصدرُ الشائعُ لـ : عَتَا. واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، أي: واللهِ لقد استكبروا في شأن أنفُسِهم، وتَجاوَزوا الحدَّ في الظلم والطغيان تَجاوُزاً كبيراً بالغاً أقصى غايتِهِ، حيث كذَّبوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام، ولم يَنْقادوا لبشرٍ مِثْلِهم يُوْحَى إليه في أمرهم ونَهْيِهم، ولم يكترثوا بمعجزاته القاهرةِ وآياته الباهرةِ، فطلبوا ما لا يكاد تَرْنو إليه أحداقُ الأمم، وراموا ما لا يَحْظَى به إلَّا بعضُ أولي العزم من الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم.

وقد فسِّر «استكبروا في أنفسهم» بـ : أضْمَروا الاستكبارَ ـ وهو الكفرُ والعنادُ ـ في قلوبهم، وهو أَظْهَرُ مما تقدَّم، وما تقدَّم أبلغُ وأَوْفَقُ لما انتصر له.

وكذا فسِّر العتوُّ بالنُّبوِّ عن الطاعة، وما تقدَّم أبلغُ وأوفقُ بذلك أيضاً.

وفي تعقيبِ حكايةِ باطلِ أولئك الكَفَرَةِ بالجملة القَسَميةِ إيذانٌ بغايةِ قُبْحِ ما هم عليه، وإشعارٌ بالتعجُّبِ من استكبارهم وعتوِّهم، وهو من الفَحْوى في الحقيقة، وَمِثْلُ ذلك شائعٌ في الكلام؛ تقول لمن جَنَى جنايةً: فعلتَ كذا وكذا، استعظاماً

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ١٦١، وتمامه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها   على الضيف يَجْرحْ في عراقيبها نَصْلي

وتعجُّباً منه، ويُستَعْمَلُ في سائر الألسنة، وجَعَلَ الزمخشريّ من ذلك قولَ مهلهلٍ:

وجـارةُ جسَّـاسٍ أَبَـأْنـا بِـنَـابِـهـا كُلَيباً غَلَتْ نابٌ كُلِيبٌ بَوَاؤُها[1]

والطيبيُّ قولَه تعالى[2]: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥]. وتُعقِّبَ بأنَّ ذلك ليس من هذا القبيل؛ لأنَّ الثلاثيَّ المحوَّلَ إلى فَعُل لَفْظاً أو تقديراً موضوعٌ للتعجُّبِ كما صرَّح به النُّحاة[3].

وذكر الإمامُ مختاراً القولَ الأولَ في تفسير «لولا أنزل» إلخ، أنَّ هذه الجملةَ جوابٌ لقولهم: «لولا أُنزل» إلخ من عدَّة أوجُهٍ:

أحدها: أنَّ القرآن لمَّا ظهر كونُه مُعْجِزاً فقد ثبتَتْ نبوَّتُه ﷺ، فبعد ذلك لا يكونُ اقتراحُ هذه الآيات إلَّا مَحْضَ استكبارٍ.

وثانيها: أنَّ نزولَ الملائكةِ عليهم السلام لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات، ولا يدلُّ على الصدق لخصوص كونه نزولَ الملك، بل لعموم كونه مُعْجِزاً، فيكون قبولُ ذلك وردُّ الآخرِ ترجيحاً لأحد المِثْلَيْنِ من غيرِ مرجحٍ.

وثالثها: أنهم بتقدير رؤية الربِّ سبحانه وتصديقِه لرسوله ﷺ لا يستفيدون علماً أَزْيَدَ من تصديق المُعْجِز؛ إذ لا فَرْقَ بين أن يقول النبيُّ: اللهمَّ إن كنتُ صادقاً فأَحْيِ هذا الميتَ، فيُحْييه عزَّ وجلَّ، وبين أن يقول: إن كنتُ صادقاً فصدِّقني، فيصدِّقه، فتعيينُ أحدِ الطريقين محضُ العناد.

ورابعها: أنَّ العبد ليس له أن يعترض على مولاه؛ إمَّا بحكم المالكية عند الاشعريِّ، أو بحكم المصلحة عند المعتزليِّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٨، والبحر ٦/ ٤٩٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١٦. ولم ينسب في هذه المصادر، وأخذ المصنف نسبته من الشهاب، وقال الشهاب: جساس: لقب مرة بن ذهل الشيباني، وجارته هي البسوس بنت منقذ التميمية، وهي خالة جساس. والناب: الناقة المُسِنَّة. وأبأت القاتل بالقتيل: إذا قتلته به قصاصاً، من البواء وهو التساوي. وقوله: غلت، أي: ما أغلاها إذ قتل فيها كليب، فهو محل الاستشهاد.

(٢) أي: وجعل الطيبي من ذلك قولَه تعالى. . . .

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٥) من سورة الكهف.

وخامسها: أنَّ السائل المُلِحَّ المعانِدَ الذي لا يرضى بما يُنْعَمُ عليه مذمومٌ، وإظهارُ المعجز من جملة الأيادي الجسيمة، فردُّ إحداهما واقتراحُ الأخرى ليس من الأدب في شيء.

وسادسها: لعل المراد: أنِّي لو علمتُ أنهم ليسوا مستكبرين وعاتينَ لأعطيتهم مطلوبَهم، لكنِّي علمتُ أنهم إنما سألوا لأجْلِ المكابَرةِ والعناد، فلا جَرَمَ لا أعطيهم.

وسابعها: لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أنَّ الله تعالى لا يُرَى في الدنيا، وأنه لا يُنْزِلُ الملائكةَ عليهم السلام على عوامِّ الخَلْقِ، ثم إنهم عَلَّقوا إيمانهم على ذلك، فهم مستكبرون ساخرون(١). انتهى، وفيه ما لا يخلو عن بحث.

واستدلَّتِ الأشاعرةُ بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ على أنَّ رؤيةَ الله تعالى ممكنةٌ. واستدلَّت المعتزلةُ بقوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ﴿وَعَتَوْ﴾ على أنها ممتنعةٌ، ولا يَخْفَى ضَعْفُ الاستدلالين.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يَلْقَوْنه عند مشاهدةِ الملائكة عليهم السلام بعد استعظام طلبهم إنزالَهم عليهم، وبيانِ كونه في غاية الشناعة. وإنما قيل: «يومَ يرون» دون أن يقال: يومَ تنزلُ الملائكة، إيذاناً من أول الأمر بأنَّ رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما طلبوه، بل على وجهٍ آخرَ لم يمرَّ ببالهم.

و«يومَ» منصوبٌ على الظرفية بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه في معنى: لا يبَشَّرُ يومئذٍ المجرمون، والعدولُ إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى، فكأنه قيل: لا يبشَّرون يومَ يَرونَ الملائكةَ. وقدَّر بعضهم: يُمنعون البشرى، أو يفقدونها. والأولُ أبعدُ من احتمال توهُّم تهوين الخَطْبِ(٢).

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٨-٦٩ بنحوه.

(٢) لأن منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها، وأين هذا من نفيها بالكلية؟ تفسير أبي السعود ٦/ ٢١١.

وقدَّر بعضُهم: لا بشرى، قبل«يوم»، وجَعَلَه ظرفاً لذلك. وجَوَّز أبو البقاء تعلُّقَه بـ «يعذَّبون» مقدَّراً؛ لِدلالة «لا بشرى» إلخ عليه، وكونَه معمولاً لـ «اذكُر» مقدَّراً(١)، قال أبو حيان: وهو أقرب(٢).

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يكون منصوباً بـ «يُنْزِل» مضمَراً؛ لقولهم: «لولا أُنزل علينا الملائكة»، كأنه قيل: ينزل الملائكة يومَ يرونهم، ولا يقال: كيف يكون وقتُ الرؤيةِ وقتاً للإنزال؟ لأنَّا نقول: الظرفُ يحتمل ذلك لسعته. واستحسنه الطيبيُّ فقال: هو قولٌ لا مزيدَ عليه؛ لأنه إذا انْتَصَبَ بـ «ينزل» يلتئم الكلامان؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ إلخ نشرٌ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ إلخ، وقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ نشرٌ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

ولم يجوِّز الأكثرون تعلُّقه بـ «بشرى» المذكورِ؛ لكونه مصدراً وهو لا يعملُ متأخِّراً، وكونِه منفيًّا بـ «لا» ولا يعملُ ما بعدها فيما قبلها.

و «يومئذ» تأكيدٌ للأول، أو بدلٌ منه، أو خبرٌ. و«للمجرمين» تبيينٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ كما في: سقياً له، أو خبرٌ ثانٍ، أو هو ظرفٌ لِمَا يتعلَّق به اللامُ، أو لـ «بشرى» إن قدِّرتْ منونةً غيرَ مبنيةٍ مع «لا»، فإنها(٣) لا تعمل، إذ لو عَمِلَ اسمُ «لا» طال وأشبهَ المضافَ فينتصب.

وفي «البحر»(٤): احْتَمَلَ «بشرى» أن يكون مبنيًّا مع «لا»، واحْتَمَلَ أنْ يكونَ في نيةِ التنوين منصوبَ اللفظ ومُنِعَ من الصَّرف للتأنيث اللَّازم، فإنْ كان مبنيًّا مع «لا» احْتَمَلَ أن يكون الخبرُ «يومئذ»، و«للمجرمين» خبرٌ بعد خبرٍ، أو نعتٌ لـ «بشرى»، أو متعلِّقٌ بما تعلَّق به الخبر، وأن يكون «يومئذ» صفةً لـ «بشرى» والخبرُ «للمجرمين»، ويجيءُ خلافُ سيبويه والأخفشِ: هل الخبر لنفس «لا»، أو للمبتدأ الذي هو مجموعُ «لا» وما بُني معها؟ وإن كان في نية التنوين وهو معربٌ، جاز أن يكون «يومئذ» معمولاً لـ «بشرى» وأن يكون صفةً والخبرُ «للمجرمين»، وجاز أن

(١) الإملاء ٤/ ٩٥.
(٢) البحر ٦/ ٤٩٢.
(٣) أي: «لا» المبني معها اسمها. حاشية الشهاب ٦/ ٤١٦.
(٤) ٦/ ٤٩٢.

يكون «يومئذ» خبراً و«للمجرمين» صفة، وجاز أن يكون «يومئذ» خبراً و«للمجرمين» خبراً بعد خبر، والخبرُ إذا كان الاسم ليس مبنيًّا لـ «لا» نفسِها بالإجماع.

وقال الزمخشريُّ: «يومئذ» تكرير[1]. ولا يجوز ذلك سواءٌ أُريدَ بالتكرير التوكيدُ اللفظيُّ أم أُريدَ به البدل؛ لأنَّ «يوم» منصوبٌ بما تقدَّم ذِكْرُه من «اذكر» أو من «يفقدون»[2]، وما بعدَ «لا» العاملةِ في الاسم لا يعملُ فيه ما قبلها، وعلى تقديره يكون العاملُ فيه ما قبلها. انتهى.

ولا يخفى عليك ما في الاحتمالاتِ التي ذكرها، وأمَّا ما اعْتَرَضَ به على الزمخشريِّ، فتعقِّبَ بأنَّ الجملةَ المنفيةَ معمولةٌ لقولٍ مُضْمَرٍ وقع حالاً من «الملائكة» التي هي معمولٌ لـ «يرون»، و«يرون» معمولٌ لـ «يوم»، فـ «لا» وما في حيِّزها من تتمة الظَّرْفِ الأول من حيث إنه معمولٌ[3] لبعض ما في حيِّزه، ومثلُه لا يُعدُّ محذوراً. مع أنَّ كونَ «لا» لها الصَّدْرُ مطلقاً أو إذا بُني معها اسمُها ليس بمسلَّمٍ عند جميع النُّحاة؛ لأنها لكثرة دورها خرجت عن الصَّدارة فتأمَّل.

هذا ما وَقَفْنا عليه للمتقدِّمين في إعراب الآية، وما فيه من الجرح والتعديل.

وقال بعض العصريِّين: يجوزُ تعلُّقُ «يوم» بـ «كبيراً»، وتقييدُ كبره بذلك اليوم ليس لنفي كبره في نفسه بل لظهورِ موجبه في ذلك اليوم، ونظيرُه: لزيدٍ عِلْمٌ عظيمٌ يومَ يُباحِثُ الخصومَ، وتكون جملةُ «لا بُشْرَى يومَئذٍ للمجرمين» استئنافاً لبيان ذلك، وهو كما ترى.

وأيًّا ما كان فالمرادُ بذلك اليوم ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ يومُ الموت. وقال أبو حيان: الظاهرُ أنه يومُ القيامة؛ لقوله تعالى بعدُ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ إلخ[4]. وفيه نظر.

ونَفْيُ البشرى كنايةٌ عن إثباتِ ضدِّها، كما أنَّ نفي المحبةِ في مثل قوله تعالى:

(١) الكشاف ٣/ ٨٨، والكلام من البحر ٦/ ٤٩٢.
(٢) في البحر: أو من يعدمون البشرى، وينظر ما سلف قريباً عند إعراب كلمة «يوم».
(٣) في (م): معمولاً، وهو تصحيف.
(٤) البحر ٦/ ٤٩٢.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البغضِ والمَقْتِ، فيدل على ثبوت النُّذْرَى لهم على أبلغ وجه.

والمراد بالمجرمين أولئك الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ووُضِعَ المظهَرُ موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر والعناد، وإيذاناً بعلّة الحكم. ومَن اعْتَبَر المفهومَ في مثله ادَّعى إفادةَ الآيةِ عَدَمَ تحقُّقِ الحكم في غيرهم، وقد دلَّ قولُه تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ﴾ إلخ [فصلت: ٣٠] على حصول البشرى لهم.

وقيل: المراد بهم ما يعمُّ العصاة والكفارَ الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ويفيدُ الكلام سَلْبَ البُشْرَى عن الكفار على أتمِّ وجهٍ لدلالته على أنَّ المانع من حصول البشرى هو الإجرام، ولا إجرامَ أعظمُ من إجرام الذين لا يرجون لقاءه عزَّ وجلَّ ويقولون ما يقولون، فهم أَوْلَى به. ولا يتم استدلالُ المعتزلة بالآيةِ عليه في نفي العَفْوِ والشفاعةِ للعصاة؛ لأنها لا تفيدُ النفيَ في جميع الأوقات، فيجوز أن يبشَّر العصاةُ بما ذُكر في وقتٍ آخر.

وتعقِّب بأنَّ الجملةَ قبل النفي لكونها اسميةً تفيدُ الاستمرارَ، فبعد دخول النفي إرادةُ نفي استمرارِ البشرى للمجرمين بمعنى أنَّ البشرى تكونُ لهم لكنْ لا تستمرُّ، مما لا يُظَنُّ أنَّ أحداً يذهب إليه، فيتعيَّن إرادةُ استمرارِ النفي، كما في قوله تعالى في حقِّ أضدادهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فحينئذٍ لا يتسنَّى قولُه: إنها لا تُفيد النفيَ في جميع الأوقات. فالأَوْلَى أن يراد بالمجرمين مَن سمعتَ حديثهم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على: لا يُبَشَّرون، أو: يُمنعون البشرى، أو نحوِه المقدَّرِ قبل «يوم».

وجوِّز أن يكون عطفاً على ما قبله باعتبارِ ما يُفْهَمُ منه، كأنه قيل: يشاهِدون أهوالَ القيامة ويقولون، وأنْ يكون عطفاً على «يَرَوْنَ» وجملةُ «لا بشرى» حالٌ بتقدير القول، فلا يضرُّ الفصلُ به.

وضميرُ الجمع ـ على ما استَظْهَره أبو حيان لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، وحكاه

الطبرسيُّ عن مجاهدٍ وابن جريج ـ للذين لا يرجون[1]، أي: ويقول أولئك الكفرةُ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ وهي كلمةٌ تقولُها العرب عند لقاء عدوٍّ مَوْتُورٍ[2] وهجومِ نازلةٍ هائلةٍ، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقَهم، فكأن المعنى: نسألُ الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً ويَحْجرَه حَجْراً.

وقال الخليل: كان الرجل يرى الرجلَ الذي يخاف منه القتلَ في الجاهلية في الأشهُرِ الحُرُم فيقول: حِجْراً محجوراً ـ أي: حرامٌ عليك التعرُّضُ لي في هذا الشهر ـ فلا يبدؤه بشرٍّ.

وقال أبو عبيدة[3]: هي عوذةٌ للعرب يقولُها مَن يخاف آخَرَ في الحَرَم أو في شَهْرٍ حرام إذا لقيه وبينهما تِرَةٌ.

وقال أبو عليٍّ الفارسيٍّ[4]: مما كانت العربُ تستعملُه ثم تُرِكَ قولُهم: حِجْراً محجوراً، وهذا كان عندهم لمعنيين:

أحدهما: أن يقال عند الحرمان؛ إذا سئل الإنسانُ فقال ذلك عَلم السائلُ أنه يريد أن يحرمه، ومنه قول المتلمِّس:

حنَّتْ إلى النخلة القُصْوَى فقلتُ لها   حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَا تلك الدَّهارِيسُ[5]

والمعنى الآخر: الاستعاذة، كان الإنسان إذا سافر فرأى ما يخافُ قال: حِجْراً محجوراً، أي: حرامٌ عليك التعرُّضُ لي. انتهى.

وذكر سيبويه «حِجْراً» من المصادر المنصوبةِ غيرِ المتصرِّفةِ، وأنه واجبٌ إضمارُ ناصِبِها، وقال: ويقول الرجلُ للرجل: أتفعلُ كذا؟ فيقول: حِجْراً[6]. وهي من

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٩٢.
(٢) المَوْتور: من قُتلَ له قتيل فلم يُدرِك بدمِه. القاموس (وتر).
(٣) كما في البحر ٦/ ٤٩٢.
(٤) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤١٧.
(٥) جاء في هامش الأصل و(م): أي الدواهي. اهـ منه. والبيت في الفاضل للمبرد ص٧٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٧٣، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦، ومختارات ابن الشجري ١/ ٣٢، واللسان (دهرس)، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٧. ورواية الفاضل والمختارات: بَسْلٌ، بدل: حجر. والبَسْل: الحلال والحرام، من الأضداد.
(٦) الكتاب ١/ ٣٢٦، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٢.

حَجَره: إذا مَنَعه؛ لأنَّ المستعيذ طالبٌ من الله تعالى أن يمنع المكروهَ من أن يلحقه.

والأصلُ فيه فتحُ الحاء، وقرئ به كما قال أبو البقاء[1]، لكنْ لمَّا خَصُّوا استعمالَه بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول، فلمَّا تغيَّر معناه تغيَّر لَفْظُه عمَّا هو أصلُه ـ وهو الفتحُ ـ إلى الكسر، وقد جاء فيه الضمُّ أيضاً، وهي قراءةُ أبي رجاءٍ والحسن والضحَّاك[2]. ويقال فيه: حجرى بألف التأنيث أيضاً. ومثلُه في التغيير عن أصله: قَعْدَكَ الله[3] تعالى بسكون العين وفتح القاف ـ وحُكي كَسْرُها عن المازنيِّ وأنكره الأزهريُّ[4] ـ وَقَعِيدَكَ، وهو منصوبٌ على المصدرية، والمراد: رقيبك وحفيظك الله تعالى، ثم نقل إلى القسم، فقيل: قَعْدَكَ أو قَعِيدَكَ اللهَ تعالى لا تفعل، وأصلُه: بإقعاد اللهِ تعالى، أي: إدامته سبحانه لك، وكذا: عمرَكَ الله، بفتح الراء وفتح العين وضمِّها، وهو منصوبٌ على المصدرية ثم اختصَّ بالقسم، وأصلُه: بتعميرك اللهَ تعالى، أي: بإقرارك له بالبقاء.

وما ذُكِرَ من أنه لازمُ النصب على المصدرية بفعلٍ واجبِ الإضمار اعْتَرَضَ عليه في «الدر المصون» بما أنشده الزمخشريُّ:

قالت وفيها حَيْدةٌ وذُعْرُ ... عوذٌ بربِّي منكمُ وحجرُ[5]

فإنه وقع فيه مرفوعاً.

ووصفُه بـ «محجوراً» للتأكيد كـ: شِعْرٌ شاعرٌ، وموتٌ مائتٌ، وليلٌ أَلْيلُ. وذُكر أنَّ مفعولاً هنا للنسب، أي: ذو حِجْرٍ، وهو كفاعل يأتي لذلك. وقيل: إنه على الإسناد المجازيِّ، وليس بذاك.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٩٦.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٢-٤٩٣.
(٣) قال الشهاب: بنصب الاسم الشريف لا غير.
(٤) في تهذيب اللغة ١/ ٢٠١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤١٧.
(٥) الكشاف ٣/ ٨٨، والدر المصون ٨/ ٤٧٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٨، والكلام منه. والرجز أنشده الحطيئة وهو على فراش الموت، كما في الخزانة ٢/ ٤١٣، وذكره دون نسبة ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٩٣، والبطليوسي في الحلل ص١١٢. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٣٠: الحيدة فعلة، من حاد عن الشيء: إذا تنحى.

والمعنى: أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام، وهم إذا رَأَوْهم كرهوا لقاءهم أشدَّ كراهةٍ، وفزعوا منهم فَزَعاً شديداً، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلولِ بأسٍ فظيع.

وقيل: ضمير «يقولون» للملائكة، وروي ذلك عن أبي سعيد الخدريِّ والضحَّاك وقتادةَ وعطيةَ ومجاهدٍ، على ما في «الدر المنثور»[(١)]، قالوا: إنَّ الملائكة يقولون للكفار: حِجْراً محجوراً، أي: حراماً محرَّماً عليكم البُشْرى، أي: جَعَلَها الله تعالى حراماً عليكم.

وفي بعض الروايات: أنهم يطلبون البشرى من الملائكة عليهم السلام، فيقولون ذلك لهم.

وقال بعضُهم: يعنون حراماً محرَّماً عليكم الجنة، وحكاه في «مجمع البيان» عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]. وقيل: الغفران.

وفي جَعْلِ «حجراً» نصباً على المفعولية لـ «جَعَلَ» مقدَّراً ـ كما أُشيرَ إليه ـ بحثٌ.

والظاهرُ ـ على ما ذُكر ـ أنَّ إيراد هذه الكلمة للحرمان، وهو المعنى الأولُ من المعنيين اللذين ذكرهما الفارسيُّ، و«يقولون» على هذا القولِ، قيل: معطوفٌ على ما عُطِفَ عليه على القول بأن ضميره للكفرة. وقيل: معطوفٌ على جملةٍ يقولون المقدَّرةِ قبل «لا بشرى» الواقعةِ حالاً.

وقال الطيبيُّ: هو حالٌ من «الملائكة» بتقدير: وهم يقولون، نظير قولهم: قمتُ وأصكُّ وَجْهَه، وعلى الأول هو عطفٌ على «يرون».

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: عَمَدْنا وقَصَدْنا، كما روي عن ابن عباس، وأخرجه ابنُ أبي شيبةَ، وعبد بنُ حميدٍ، وابن جَريرٍ، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عن مجاهد[(٣)].

---

(١) ٥/ ٦٦.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣١، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٦.

﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ فخيمٍ كصلة رَحِمٍ، وإغاثةِ ملهوفٍ، وقري ضيفٍ[1]، ومنٍّ على أسيرٍ، وغيرِ ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها. والجارُّ والمجرور بيانٌ لـ «ما»، وصحةُ البيان باعتبارِ التنكير كصحةِ الاستثناء في﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] لكنَّ التنكير هاهنا للتفخيم كما أشرنا إليه.

وجوِّز أن يكون للتعميم ودفعِ ما يتوهَّمُ من العهد في الموصول، أي: عَمَدْنا إلى كلِّ عملٍ عَمِلُوه خالٍ عن الإيمان، ولعل الأولَ أنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً﴾ مثلَ هباءٍ في الحقارة وعَدَمِ الجدوى، وهو على ما أخرج عبد الرزاق والفريابيُّ وابنُ أبي حاتم عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: وَهْجُ الغبارِ يَسْطَعُ ثم يذهب[2].

وأخرج ابن أبي حاتم[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه الشَّررُ الذي يطيرُ من النار إذا اضْطَرَمَتْ. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنه الماءُ المهراق[4]. وعن يعلى بن عبيد: أنه الرماد[5].

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ والحسن وعكرمةَ وأبي مالك وعامرٍ أنه شعاعُ الشمس في الكوَّة[6]. وكأنَّهم أرادوا ما يُرى فيه من الغبار كما هو المشهور عند اللغويين، قال الرَّاغب: الهباء: دقاقُ التراب وما انْبَثَّ في الهواء، فلا يبدو إلَّا في أثناء ضوء الشمس في الكوَّة، ويقال: هَبَا الغبارُ يهبو: إذا ثار وسَطَع[7].

ووُصِفَ بقوله تعالى: ﴿مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ مبالغةً في إلغاء أعمالهم، فإنَّ الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حرَّكَتْه الريحُ تَناثَرَ وذهب كلَّ مذهبٍ، فلمْ يَكْفِ أن شبَّه

---

(١) في (م): ضعيف.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٦٦، وفيه: ريح، بدل: وهج، والذي في المصادر: رهج. ينظر تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٩، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٨٥، وتفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٤٧. وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٦٦.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٧٩.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٨٠.

(٦) الدر المنثور ٥/ ٦٧ وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٣١-٤٣٢ عن عكرمة والحسن ومجاهد.

(٧) مفردات الرَّاغب (هبا).

أعمالهم بالهباء حتى جُعِلَ متناثراً لا يمكنُ جَمْعُه والانتفاع به أصلاً، ومثلُ هذا الإرداف يسمَّى في البديع بالتتميم والإيغال[١]، ومنه قولُ الخنساء:

أغــرُّ أبــلــجُ تــأتــمُّ الــهــداةُ بــه   كــأنــه عَــلَــمٌ فــي رأســه نــارُ[٢]

حيث لم يَكْفِها أنْ جَعَلَتْه عَلَماً في الهداية، حتى جَعَلَتْه في رأسه نارٌ.

وقيل: وُصِفَ بالمنثور، أي: المتفرِّقِ؛ لِمَا أنَّ أغراضهم في أعمالهم متفرِّقةٌ، فيكون جَعْلُ أعمالهم هباءً متفرِّقاً جزاءً من جنس العمل.

وجوِّز أن يكون مفعولاً بعد مفعولٍ لـ «جعل»، وهو مرادُ مَن قال[٣]: مفعولاً ثالثاً لها، على معنى: جَعَلْناه جامعاً لحقارةِ الهباء والتناثُر، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] أي: جامعينَ للمَسْخِ والخَسْءِ. وفيه خلافُ ابن درستويه[٤]، حيث لم يجوِّز أن يكون لـ «كان» خبران، وقياسُ قوله أن يُمنع أن يكون لـ «جَعَل» مفعولٌ ثالث. ومع هذا الظاهرُ الوصفيةُ.

وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ حيث مُثِّلتْ حالُ هؤلاء الكفرةِ وحالُ أعمالِهم التي عملوها في كفرهم بحالِ قومٍ خالفوا سلطانَهم واستَعْصَوْا عليه فقَدِمَ إلى أشيائهم، وقَصَدَ إلى ما تحت أيديهم، فأفسدها وجَعَلَها شَذَرَ مَذَرَ، ولم يترك لها من عينٍ ولا أثر، واللفظُ المستعارُ وقع فيه استعمالُ «قَدِمَ» بمعنى عَمَدَ وقَصَدَ؛ لاشتهاره فيه وإن كان مجازاً كما يشير إليه كلامُ «الأساس»[٥]. ويُسمَّى القَصْدُ المُوْصِلُ إلى المقصدِ قدوماً لأنه مقدِّمتُه، وتَضمَّنَ التمثيلُ تشبيهَ أعمالهم المُحْبَطةِ

---

(١) الإيغال: هوختم الكلام بما يفيد نكتةً يتم المعنى بدونها. والتتميم: هو أن يؤتَى في كلام لا يوهم غير المراد بفضلة تفيد نكتةً. مثال الأول قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. ومثال الثاني: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: اشتهائه، فإن الإطعام حينئذ أبلغ وأكثر أجراً. الإتقان ٢/ ٨٦٩ و٨٧١.

(٢) ديوان الخنساء ص٤٩ برواية: وإن صخراً لتأتمُّ الهداة...

(٣) هو الزمخشريّ في الكشاف ٣/ ٨٩.

(٤) كما في البحر ٦/ ٤٩٣، وعنه نقل المصنف.

(٥) ينظر أساس البلاغة (قدم)، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٨.

بالهباء المنثور بدون استعارةٍ، فلا إشكالَ على ما قيل، والكلامُ في ذلك طويلٌ فليُطْلَبْ من محلِّه.

وجَعَلَ بعضُهم القدوم في حقه عزَّ وجلَّ عبارةً عن حُكْمِه.

وقيل: الكلام على حذفِ مضافٍ، أي: قَدِمَ ملائكتُنا، وأسندَ ذلك إليه عزَّ وجلَّ لأنَّه عن أَمْرِه سبحانه.

ونُقِلَ عن بعض السَّلَفِ أنه لا يؤوِّلُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] على ما هو عادتُهم في الصفات المتشابهة، وقياسُ ذلك عدمُ التأويل في الآية، ولعله من هنا قيل: إنَّ تأويلَ الزمخشريِّ[1] لها بناء على مُعْتَقَدِه من إنكار الصِّفات، والقلبُ إلى التأويل فيها أَمْيَلُ.

وأنت إنْ لم تؤوِّل القدومَ فلا بدَّ لك أن تؤوِّلَ جَعْلَها هباءً منثوراً بإظهار بطلانها بالكلِّية، وإلغائها عن درجة الاعتبار بوجهٍ من الوجوه، ولا يأبى ذلك السَّلَفُ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشارُ إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكونُ ما ذُكِرَ من القُدوم إلى أعمالهم وجَعْلِها هباءً منثوراً، أو من هذا وعدمِ التبشير وقولِهم: حجراً محجوراً.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقرُّ: المكانُ الذي يُسْتَقَرُّ فيه في أكثر الأوقات للتجالُس والتحادُث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ المقيلُ: المكانُ الذي يُؤْوَى إليه للاسْتِرْواحِ إلى الأزواج والتمتُّعِ بمغازلتهنَّ، سمِّي بذلك لأنَّ التمتُّع به يكون وقتَ القيلولة غالباً.

وقيل: هو في الأصل مكانُ القيلولة ـ وهي النومُ نصفَ النهار ـ ونُقِلَ من ذلك إلى مكان التمتُّع بالأزواج لأنه يُشْبِهه في كون كلٍّ منهما محلَّ خلوةٍ واستراحةٍ، فهو استعارةٌ.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٨٨.

وقيل: أُريدَ به مكانُ الاسْتِرْواحِ مطلقاً، استعمالاً للمقيَّد في المُطْلَق، فهو مجازٌ مُرْسَل، وإنَّما لم يَبْقَ على الأصل لِمَا أنه لا نومَ في الجنة أصلاً.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» وعبد بنُ حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: لا ينتصفُ النهارُ من يوم القيامة حتى يَقِيلَ هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ: «إنَّ مَقيلَهم لإلى الجحيم»[1]. وأَخَذَ منه بعضُهم أنَّ المراد بالمستقَرِّ: موضعُ الحساب، وبالمقيل: محلُّ الاستراحة بعد الفراغ منه، ومعنى «يقيل هؤلاء» يعني أصحابَ الجنة يُنقلون إليها وقتَ القيلولة.

وقيل: المستقرُّ والمقيلُ في المحشر قبل دخول الجنة، أو المستقرُّ فيها والمقيل فيه؛ فقد أخرج ابنُ جريرٍ عن سعيدٍ الصَّوَّافِ قال: بلغني أنَّ يوم القيامة يَقْصُرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليَقيلون في رياض حتى يَفْرَغَ الناسُ من الحساب، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[2].

وفي وَصْفِه بزيادة الحُسْنِ مع حصولِ الخيرية بعَطْفِه على المستقرِّ رمزٌ إلى أنَّ لهم ما يُتزيَّنُ به من حُسْنِ الصُّوَرِ وغيرِه من التحاسين، فإنَّ حُسْنَ المنزل إن لم يكن باعتبار ما يرجع لصاحبه لم تتمَّ المَسرَّةُ به.

والتفضيلُ المعتبرُ فيهما[3]: إمَّا لإرادة الزيادةِ على الإطلاق، أي: هم في أقْصَى ما يكونُ من خيرية المستقرِّ وحُسْنِ المَقيل. وإمَّا بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعِّمين في الدنيا، أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكُّم بهم.

---

(١) الزهد (١٣١٣)، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٠، والمستدرك ٢/ ٤٠٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٧، وعنه نقل المصنف. وأخرجه الطبري أيضاً ١٩/ ٥٥٦، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وجاء فيه: «ثم إن منقلبهم».

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٥.

(٣) بعدها في (م): المسرة، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢١٢، والكلام منه.

هذا وتفسيرُ المستقرِّ والمقيل بالمكانين حَسْبما سمعتَ هو المشهورُ؛ وهو أحدُ احتمالاتٍ تسعة. وذلك أنهم جوَّزوا أن يكون كلاهما اسمَ مكانٍ، أو اسمَ زمانٍ، أو مصدراً، وأن يكون الأولُ اسمَ مكانٍ والثاني اسمَ زمانٍ أو مصدراً، وأن يكون الأول اسمَ زمان والثاني اسمَ مكانٍ أو مصدراً، وأن يكون الأول مصدراً والثاني اسمَ مكانٍ أو اسمَ زمانٍ. وما شئتَ تخيَّل في خيرية زمانِ أصحاب الجنة وأَحْسَنِيَّتِه، وكذا في خيريةِ استقرارِهم وأحسنيةِ استراحتهم يومئذٍ.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ العاملُ في «يوم» إمَّا «اذْكُر»، أو: ينفردُ اللهُ تعالى بالملك، الدالُّ عليه قولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾. وقيل: العاملُ ذاك بمعناه المذكور[1].

وقيل: إنه معطوفٌ على «يومئذ» أو «يوم يرون».

و «تشقَّقُ»: تتفتَّحُ، والتعبيرُ به دونه للتهويل، وأصله: تَتَشقَّقُ، فحُذِفَت إحدى التاءين كما في «تَلَظَّى». وقرأ الحِرْمِيَّان وابنُ عامرٍ بإدغام التاء في الشين[2] لِما بينهما من المقارَبة.

والظاهرُ أنَّ المراد بالسماء: المُظِلَّةُ لنا، وبالغمام: السحابُ المعروفُ، والباءُ الداخلةُ عليهِ باءُ السبب، أي: تشقَّقُ السماءُ بسبب طلوع الغمام منها. ولا مانعَ من أنْ تَشَقَّقَ به كما يُشَقُّ السنامُ بالشفرة، والله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير، وحديثُ امتناعِ الخَرْقِ على السماء حديثُ خُرافةٍ.

وقيل: باءُ الحال، وهي باءُ المُلابَسَة، واستَظْهَرَه بعضُهم، أي: تَشَقَّقُ متغيِّمةً.

وقيل: بمعنى «عن»، وإليه ذهب الفرَّاء[3]، والفرقُ بين قولك: انشقَّتِ الأرضُ بالنبات، و: انْشَقَّتْ عنه، أنَّ معنى الأولِ: أنَّ الله تعالى شقَّها بطلوعه فانشقَّتْ به. ومعنى الثاني: أنَّ التربةَ ارتفعتْ عنه عند طلوعِه.

---

(١) أي: قوله: «الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن» عاملٌ في «يوم» بالمعنى الذي ذكر آنفاً، أي: ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقَّق. تفسير أبي السعود ٦/ ٢١٣.

(٢) التيسير ص١٦٣-١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٦٧.

وقيل: المراد بالغمام غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثل الضَّبابة، ولم يكن إلَّا لبني إسرائيل في تِيْهِهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أنه الغمامُ الذي يأتي الله تعالى فيه يومَ القيامة، المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[1] [البقرة: ٢١٠]. قال ابن جريج: وهو غمامٌ زعموا أنه في الجنة.

وعن مقاتل: أنَّ المراد بالسماء ما يعمُّ السماواتِ كلَّها، وتَشقَّقُ سماءً سماءً. وروي ذلك عن ابن عباس؛ فقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «الأهوال» وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ - أي: تنزيلاً عجيباً غير معهود - فقال: يَجْمَعُ الله تعالى الخَلْقَ يومَ القيامةِ في صَعيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنسَ والبهائمَ والسِّباعَ والطيرَ وجميعَ الخَلْقِ، فتنشقُّ السماءُ الدُّنيا فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ ممن في الأرضِ من الجنِّ والإنسِ وجميعِ الخَلْقِ، فيُحيطونَ بجميعهم، فتقول أهلُ الأرض: أفيكم ربُّنا؟ فيقولون: لا. ثم تنشقُّ السماءُ الثانيةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ من أهل السماء الدنيا ومن الجنِّ والإنسِ وجميعِ الخَلْقِ، فيُحيطونَ بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجنِّ والإنس وجميعِ الخَلْقِ، ثم تنشقُّ السماء الثالثةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ من أهل السماء الثانيةِ والدنيا وجميعِ الخَلْقِ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجنِّ والإنس وجميعِ الخَلْقِ، ثم ينزل أهل السماء الرابعة، وهم أكثرُ من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهلِ الأرض، ثم ينزلُ أهل السماء الخامسةِ، وهم أكثرُ ممن تقدَّم، ثم أهلُ السماءِ السادسة كذلك، ثم أهلُ السماءِ السابعةِ، وهم أكثر من أهلِ السماوات وأهلِ الأرض، ثم ينزلُ ربُّنا في ظللٍ من الغمام وحولَه الكَرُوبيون، وهم أكثرُ من أهل السماوات السَّبع والإنس والجنِّ وجميعِ الخَلْقِ، لهم قرونٌ ككعوبِ القَنَا، وهم تحت العرش لهم زجلٌ بالتسبيح والتهليلِ والتقديس لله تعالى، ما بين أخمصِ [قدم] أحدِهم إلى كَعْبِه مسيرةُ خمسِ مئة عامٍ، ومن فخذه إلى تَرْقُوَتِه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢، وزاد: ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل. وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٣٧ مع ما سيأتي من كلام ابن جريج.

مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومن تَرْقُوَتِه إلى موضع القُرْط مسيرةُ خمسِ مئة عام، وما فوقَ ذلك خمس مئة عام[(١)].

ونزولُ الربِّ جلَّ وعلا من المتشابِهِ، وكذا قولهُ: وحولَه الكروبيون، وأهلُ التأويل يقولون: المرادُ بذلك نزولُ الحُكْمِ والقضاء، فكأنه قيل: ثم ينزل حكمُ الربِّ وحولَه الكروبيون، أي: معه.

وأمَّا نزولُ الملائكة مع كثرتهم وعظمِ أجسامهم فلا يَمْنَعُ عنه ما يُشاهَدُ من صِغَرِ الأرض؛ لأنَّ الأرض يومئذٍ تمتدُّ بحيث تسعُ أهلَها وأهلَ السماواتِ أجمعين، وسبحان مَن لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم الخبرُ ظاهرٌ في أنَّ الملائكة عليهم السلام لا ينزلون في الغمام، وذكر بعضهم في الآية أنَّ السماء تنفتحُ بغمامٍ يخرج منها، وفي الغمام الملائكةُ، ينزلون وفي أيديهم صحائفُ الأعمال.

وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء: «ونَزَّلَ» ماضياً مبنيًّا للفاعل مشدَّداً. وعنه أيضاً: «وأنزل» مبنيًّا للفاعل[(٢)]، وجاء مصدرُه «تنزيلاً»، وقياسُه: إنزالاً، إلَّا أنه لمَّا كان معنى أَنْزَلَ ونزَّل واحداً جاء مصدرُ أحدِهما للآخر كما قال الشاعر:

حتى تَطَوَّيتُ انْطِواءَ الحِضْبِ[(٣)]

كأنه قال: حتى انْطَوَيْتُ.

وقرأ الأعمش وعبد الله في نَقْلِ ابن عطية: «وأُنْزِلَ» ماضياً رباعيًّا مبنيًّا للمفعول[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٧، وما سلف بين حاصرتين من المصادر. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: مداره على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة. قوله: الكروبيون أي: المقرَّبون. النهاية (كرب).

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤، والكلام منه.

(٣) البحر ٦/ ٤٩٤، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٦، وتفسير القرطبي ٥/ ١٠٥، وفيهما: وقد تطويت. . .، والحضب: الأفعى، وتصحفت في الأصل و(م) ومطبوع البحر إلى: الخصب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٨، والبحر ٦/ ٤٩٤، وعنه نقل المصنف.

وقرأ جناح بنُ حبيشٍ والخفافُ عن أبي عمرو: «ونَزَلَ» ثلاثيًّا مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل(١).

وقرأ أبو معاذ وخارجةُ عن أبي عمرو: «ونُزِّلَ» بضمِّ النون وشدِّ الزاي وكَسْرِها ونَصْبِ «الملائكةَ»(٢). وخرَّجها ابنُ جنِّي بعد أن نسبها إلى ابن كثير وأهلِ مكَّةَ على أنَّ الأصل «نُنزِّلُ» ـ كما وُجِدَ في بعض المصاحف ـ فحذفت النونُ التي هي فاءُ الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين(٣).

وقرأ أبيٌّ: «ونُزِّلَت» ماضياً مشدَّداً مبنيًّا للمفعول بتاء التأنيث(٤).

وقال صاحب «اللَّوامح» عن الخفاف عن أبي عمرو: «ونُزِلَ» مخفَّفاً مبنيًّا للمفعول، و«الملائكةُ» بالرفع، فإن صحَّتِ القراءةُ فإنه حُذِفَ منها المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامَه، والتقدير: ونُزِلَ نزولُ الملائكةِ، فحذف النزولُ ونُقِلَ إعرابه إلى «الملائكة»، بمعنى: نُزِلَ نازِلُ الملائكة؛ لأن المصدر يكون بمعنى الاسم(٥). اهـ.

وقال الطيبيُّ: قال ابن جنِّي: «نُزِلَ» بالبناء للمفعول غيرُ معروفٍ؛ لأنَّ «نَزَلَ» لا يتعدَّى إلى مفعولٍ به، ولا يُقاس بجُنَّ ـ حيث إنه مما لا يتعدَّى إلى المفعول، فلا يقال: جنَّه الله تعالى، بل: أَجَنَّه الله تعالى، وقد بُني للمفعول ـ لأنه شاذٌّ والقياسُ عليه مرودٌ، فإمَّا أن يكون ذلك لغةً نادرةً، وإمَّا أن يكون من حَذْفِ المضاف، أي: نُزِلَ نُزولُ الملائكةِ، فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامَه قال العجاج:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤. وهي في المحتسب ٢/ ١٢٠ عن ابن كثير وأهل مكة كما سيرد.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٠، وليس فيه: كما وجد في بعض المصاحف، وهذا ذكره أبو حيان في البحر ٦/ ٤٩٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤.

(٥) البحر ٦/ ٤٩٤، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢١ عن عبد الوهاب عن أبي عمرو.

حتى إذا اصْطَفُّوا له حِذاراً[1]

فحذاراً منصوبٌ مصدراً لا مفعولاً به، يريد: اصْطَفُّوا له اصْطِفافاً حذاراً[2]، و: نُزِلَ نزولُ الملائكة، على حدِّ قولك: هذا نزولٌ منزولٌ، وصعودٌ مصعودٌ، وضربٌ مضروبٌ، وقريبٌ منه: وقد قيل قولٌ، وقد خِيفَ منه خوفٌ، فاعْرِفْ ذلك فإنه أمْثَلُ ما يُحتَجُّ به لهذه القراءة. اهـ. وهو أحسنُ من كلام صاحب «اللوامح».

وعن أبي عمرو أيضاً أنه قرأ: «وتَنزَّلَتِ الملائكةُ»[3].

فهذه مع قراءةِ الجمهورِ وما في بعض المصاحف عشرة قراءاتٍ، وما كان منها بصيغة المضارع وجهُه ظاهر، وأمَّا ما كان بصيغة الماضي فوجهُه على ـ ما قيل ـ الإشارةُ إلى سرعة الفعل.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: السلطنةُ القاهرةُ، والاستيلاءُ الكلِّيُّ العامُّ الثابتُ صورةً ومعنًى، ظاهراً وباطناً، بحيث لا زوالَ له، ثابتٌ للرحمن يومَ إذ تَشقَّقُ السماءُ وتنزلُ الملائكةُ، فـ «الملكُ» مبتدأ، و«الحقُّ» صفتُه، و«للرحمن» خبرُه، و«يومئذ» ظرفٌ لثبوتِ الخبر للمبتدأ، وفائدةُ التقييد أنَّ ثبوتَ الملكِ له تعالى خاصةً يومئذٍ، وأمَّا فيما عَدَاه من أيام الدنيا فيكونُ لغيره عزَّ وجلَّ أيضاً تصرُّفٌ صُوْرِيٌّ في الجملة، واختار هذا بعضُ المحقِّقين. ولعل أَمْرَ الفَصْلِ بين الصفة والموصوف بالظرف المذكور سهلٌ.

وقيل: «الملك» مبتدأ، و«يومئذٍ» متعلِّقٌ به، وهو بمعنى المالكية، و«الحقُّ» خبرُه، و«للرحمن» متعلِّقٌ بـ «الحق».

وتعقِّب بأنه لا يَظْهَرُ حينئذٍ نكتةُ إيرادِ المسند معرَّفاً، فإنَّ الظاهر عليه أن يقال: الملكُ يومئذ حقٌّ للرحمن.

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٦٩، والمحتسب ٢/ ١٢١، وفيهما: حتى إذا صفُّوا له جداراً، قال الأصمعي شارح الديوان: أي: صاروا صفًّا مثل الجدار.

(٢) في المحتسب: فجداراً منصوب... اصطفافَ جدارٍ.

(٣) لم نقف عليها عن أبي عمرو، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٨، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٩٤، والسمين في الدر المصون ٨/ ٤٧٧ عن أبيٍّ ﷺ.

وأجيب بأنَّ في تعلُّقه بما ذُكر تأكيداً لِمَا يفيده تعريفُ الطرفين.

وقيل: هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ على التبيين كما في: سقياً لك، والمبيَّن مَن له الملكُ.

وقيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «الحق». وهو كما ترى.

وقيل: «يومئذ» هو الخبرُ، و«الحقُّ» نعتٌ لـ «المُلْك»، و«للرحمن» متعلِّقٌ به. وفيه الفصلُ بين الصفة والموصوف بالخبر، فلا تغفل.

ومنعوا تعلُّقَ «يومئذ» فيما إذا لم يكن خبراً بـ : «الحقِّ»، وعلَّلوا ذلك بأنه مصدرٌ والمصدرُ لا تتقدَّمُ عليه صِلَتُهُ ولو ظرفاً، وفيه بحث.

والجملة على أكثر الاحتمالات السابقة في عاملِ «يوم» استئنافٌ مسوقٌ لبيان أحوالِ ذلك اليوم وأهوالِه، وإيرادُه تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأنَّ اتِّصافه عزَّ وجلَّ بغاية الرحمة لا يهوِّنُ الخطبَ على الكَفَرَةِ، المشارَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ أي: وكان ذلك اليومُ مع كون المُلْكِ فيه لله تعالى المبالِغ في الرحمة بعباده شديداً على الكافرين، والمرادُ شدَّةُ ما فيه من الأهوال. وفسَّر الرَّاغب العسيرَ بما لا يتيسَّر فيه أمرٌ[1].

والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، وفيها إشارةٌ إلى كون ذلك اليوم يسيراً للمؤمنين، وفي الحديث: «إنه يهوَّنُ على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ صلَّاها في الدنيا»[2].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال الطبرسيُّ: العاملُ في «يومَ»: اذكُر، محذوفاً، ويجوزُ أن يكون معطوفاً على ماقبله[3].

والظاهرُ أنَّ «أل» في «الظالم» للجنس، فيعمُّ كلَّ ظالم، وحكى ذلك أبو حيَّان عن مجاهد وأبي رجاء، وذكر أنَّ المراد بـ «فلان» فيما بعدُ الشيطان[4].

---

(١) مفردات الرَّاغب (عسر) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١١٧١٧) من حديث أبي سعيد ﷺ، وقال ابن حجر في الفتح ١١/٤٤٨: سنده حسن.

(٣) مجمع البيان ١٩/٩٨.

(٤) البحر ٦/٤٩٥.

وقيل: لتعريفِ العهد، والمراد بـ «الظالم» عقبةُ بنُ أبي معيط لعنَه الله تعالى، وبـ «فلان» أبيّ بنُ خلف، فقد روي أنه كان عقبةُ بن أبي معيط لا يَقْدَمُ من سفرٍ إلَّا صَنَعَ طعاماً فدعا عليه أهل مكةَ كلَّهم، وكان يُكْثِرُ مجالسة النبيِّ ﷺ ويعجبُه حديثُه، وغَلَبَ عليه الشقاءُ فَقَدِمَ ذاتَ يومٍ من سفرٍ فصنع طعاماً ثم دعا رسولَ الله ﷺ إلى طعامه، فقال: «ما أنا بالذي آكُلُ من طعامك حتى تَشْهَدَ أنْ لا إله إلَّا الله وأني رسولُ الله» فقال: اطْعَمْ يا ابن أخي. فقال ﷺ: «ما أنا بالذي أفعلُ حتى تقولَ» فشَهِدَ بذلك وطَعمَ عليه الصلاة والسلام من طعامه، فبلغ ذلك أبيّ بنَ خلف، فأتاه فقال: أَصَبَوْتَ يا عقبةُ؟! وكان خليلَه. فقال: والله ما صبوتُ ولكنْ دخل عليَّ رجلٌ فأبى أن يَطْعَمَ من طعامي إلَّا أنْ أشهدَ له، فاستَحْيَيْتُ أن يخرجَ من بيتي قبل أن يَطْعَمَ، فشهدتُ له فطَعِمَ. فقال: ما أنا بالذي أَرْضَى عنك حتى تأتيه فتفعلَ كذا. وذَكَر فعلاً لا يليقُ إلَّا بوجهِ القائل اللعين، ففعل عقبةُ[(١)]، فقال له رسول الله ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من[(٢)] مكةَ إلَّا عَلَوْتُ رأسكَ بالسيف» وفي رواية: «إنْ وجدتُكَ خارجاً من جبالِ مكةَ أضرب عنقَكَ صبراً».

فلما كان يومُ بدرٍ وخرج أصحابُه أَبَى أن يخرج، فقال له أصحابه: اخرج معنا. قال: قد وعدني هذا الرجلُ إنْ وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضربَ عنقي صبراً. فقالوا: لك جملٌ أحمرُ لا يُدْرَكُ، فلو كانت الهزيمةُ طِرْتَ عليه. فخرج معهم فلمَّا هَزَمَ الله تعالى المشركين رَحَلَ به جملُه في جُدَدٍ من الأرض، فأُخِذَ أسيراً في سبعين من قريش، وقدِّم إلى رسول الله ﷺ، فأمر عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه - وفي روايةٍ: [عاصم بن] ثابت بن أبي الأقلح - بأن يضرب عنقه[(٣)]، فقال:

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قال الضحاك: لما بزق عقبة رجع بصاقه على وجهه لعنه الله، ولم يصل حيث أراد، فأحرق خديه وبقي أثر ذلك فيهما حتى ذهب إلى النار. اهـ منه. قلنا. وجاء في رواية ابن عباس عند عبد الرزاق (٩٧٣): فلم يسلطه الله على ذلك.

(٢) في (م): عن.

(٣) أخرج الرواية الأولى عبد الرزاق في المصنف (٩٣٩٤) و(٩٧٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وذكرها ابن هشام في السيرة ١/ ٦٤٤ عن الزهري وغيره، وأخرج الثانية البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٦٤-٦٥ من حديث سهل بن أبي حثمة و٦/ ٣٢٣ عن ابن إسحاق، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٤ عن ابن إسحاق عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وما بين =

أتقتُلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم. قال: بِمَ؟ قال: بكُفْرِكَ وفُجورِكَ وعُتوِّك على الله تعالى ورسولِه عليه الصلاة والسلام. وفي روايةٍ: أنه ﷺ صرَّح له بما فَعَل معه، ثم ضُرِبتْ عنقُه.

وأمَّا أبيّ بنُ خلف فمع فِعْلِه ذلك قال: والله لأقتلنَّ محمداً - ﷺ - فبلغ ذلك رسولَ الله عليه الصلاة والسلام فقال: «بل أقتلُه إن شاء الله تعالى» فأَفْزَعَه ذلك وقال لمن أخبره: أنشدكَ بالله تعالى أسمعتَه يقول ذلك؟ قال: نعم. فوقعت في نفسه لِمَا علموا أنَّ رسول الله ﷺ ما قال قولاً إلا كان حقًّا. فلمَّا كان يومُ أُحدٍ خرج مع المشركين، فجعل يلتمسُ غَفْلَةَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه، فيَحُولُ رجلٌ من المسلمين بين النبيِّ عليه الصلاة والسلام وبينه، فلمَّا رأى ذلك رسولُ الله ﷺ قال لأصحابه: «خلُّوا عنه» فأخذ الحربةَ فرماه بها فوقعت في تَرقُوَته، فلم يخرج منه دمٌ كثيرٌ، واحتقن الدمُ في جوفه، فخرَّ يخورُ كما يخورُ الثورُ، فأتى أصحابُه حتى احْتَمَلوه وهو يخورُ فقالوا: ما هذا؟ فواللهِ ما بك إلَّا خدشٌ. فقال: واللهِ لو لم يُصِبْني إلا بِريقه لقتلني، أليس قد قال: أنا أقتلُه؟ واللهِ لو كان[١] الذي بي بأهل ذي المجاز[٢] لقَتَلَهم. فما لبث إلا يوماً أو نحوَ ذلك حتى ذهب إلى النار، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروي هذا القولُ عن ابن عباس وجماعة، وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ «الظالم» أبيّ بنُ خلف، و«فلان» عُقبة[٣].

وعضُّ اليدين إمَّا على ظاهره، وروي ذلك عن الضحاك وجماعةٍ، قالوا: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبتُ، ولا يزالُ كذلك كلَّما أكلها نبتت، وإما كناية عن فَرْطِ الحسرة والندامة، وكذا عضُّ الأناملِ، والسقوطُ في اليد، وحرقُ الأسنان والأدم

= حاصرتين من هذه المصادر. وقيل: إن الذي قتل عقبة هو عامر بن ثابت بن أبي الأقلح أخو عاصم، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ٥/ ٢٨٥. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢١.

(١) في (م): لو أن.

(٢) ذو المجاز: سوق بعرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان (المجاز).

(٣) ينظر ما ورد من روايات عن ابن عباس ﷺ وغيره في هذه القصة في مصنف عبد الرزاق (٩٧٣١)، وفي تفسيره ٢/ ٦٨-٦٩، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٤٠-٤٤١، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٤-٢٦٨٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٤٠١) و(٤١٥).

ونحوها؛ لأنها لازمةٌ لذلك في العادة والعُرْفِ، وفي المَثَلِ: يأكلُ يديه ندماً، ويسيلُ دمعُه دماً، وقال الشاعر:

أَبَى الضيمَ والنعمانُ يحرقُ نابَه ... عليه فأفضى والسيوفُ مَعَاقلُه[1]

والفعلُ «عضَّ» على وزنِ فَعِلَ مكسور العين، وحكى الكسائيُّ[2]: عَضَضْتُ بفتح العين.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ الجملةُ في[3] موضع الحال من «الظالم»، أو جملةٌ مستأنفةٌ أو مبيِّنةٌ لِمَا قبلها. و«ياليتني» إلخ مَقُولُ القول، و«يا» إمَّا لمجرَّد التنبيه من غير قصدٍ إلى تعيين المنبَّه، أو المنادى محذوفٌ: ياقومي ليتني.

و «أل» في «الرسول» إمَّا للجنس فيعمُّ كلَّ رسولٍ، وإما للعهد فالمرادُ به رسولُ هذه الأمة محمدٌ ﷺ، والأولُ إذا كانت «أل» في «الظالم» للجنس، والثاني إذا كانت للعهد.

وتنكيرُ «سبيلاً» إمَّا للشُّيوع، أو للوحدة، وعدمُ تعريفه لادِّعاء تعيُّنه. أي: ياليتني اتَّخذتُ طريقاً إلى النجاة أيَّ طريقٍ كان، أو طريقاً واحداً وهو طريقُ الحقِّ، ولم تتشعَّبْ بي طرقُ الضلالة.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ بقَلْبِ ياءِ المتكلِّم ألفاً كما في صحارى، وقرأ الحسن وابن قطيب: «يا ويلتي» بكسر التاء والياء على الأصل[4]، وقرأت فرقةٌ بالإمالة[5]. قال أبو عليٍّ: وتركُ الإمالة أحسنُ؛ لأنَّ الأصل في هذه اللفظة الياءُ، فأُبدِلَتِ الكسرةُ فتحةً والياءُ ألفاً فراراً من الياء، فَمَن أمال رجع إلى الذي عنه فرَّ أولاً[6].

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص١٤٣، قوله: فأفضى...، قال الشارح: أي: صار في فضاء، وصار يمتنع بالسيوف.
(٢) كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨.
(٣) في (م): مع.
(٤) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٥.
(٥) قرأ بالإمالة من السبعة حمزة والكسائي. التيسير ص٤٨.
(٦) الحجة ٥/ ٣٤٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٥.

وأيًّا ما كان فالمعنى: يا هَلَكتي تَعالَيْ واحضُري فهذا أَوَانُكِ.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أراد بـ «فلان» الشيطان، أو مَن أضلَّه في الدنيا كائناً مَن كان، أو أُبيًّا إن كان «الظالمُ» عقبةَ، أو عقبةُ إن كان «الظالم» أبيًّا، وهو كنايةٌ عن عَلَمِ مذكَّر، وفلانة عن عَلَمِ مؤنَّثٍ، واشترط ابن الحاجب في فلان أن يكون محكيًّا بالقول كما هنا، وردَّه في «شرح التسهيل» بأنه سُمع خلافُه كثيراً كقوله:

وإذا فلانٌ مات عن أكرومةٍ دفعوا معاوِزَ فَقْرِه بفلان[1]

وتقديرُ القول فيه غيرُ ظاهرٍ.

والفلانُ والفلانةُ كنايةٌ عن غير العاقل من الحيوانات كما قال الرَّاغب[2]. وفُلُ وفُلَةٌ كنايةٌ عن نكرةِ مَن يَعْقِلُ، فالأول بمعنى رجل والثاني بمعنى امرأة. ووهم ابنُ عصفورٍ وابنُ مالكٍ وصاحبُ «البسيط» كما في «البحر»[3] في قولهم: فُلُ كنايةٌ عن العَلَمِ كفلان.

ويختصُّ بالنداء إلَّا ضرورةً كما في قوله:

في لَجَّةٍ أَمْسِكْ فلاناً عن فُلِ[4]

وليسَ مرخَّمَ فلان، خلافاً للفرَّاء[5].

واختلفوا في لام «فُلُ» و«فلان»؛ فقيل: واو، وقيل: ياء. وكنوا بهَنٍ بفتح الهاء وتخفيفِ النون عن أسماء الأجناس كثيراً، وقد كُني به عن الأعلام كما في قوله:

---

(١) البيت للمرَّار الفقعسي كما في أمالي القالي ١/ ٦٦، ودون نسبة في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف ورواية الأمالي: رقعوا معاوز...

(٢) في مفرداته (فلن).

(٣) ٦/ ٤٩٦، وصاحب البسيط هو ابن العلج، ضياء الدين، محمد بن علي الإشبيلي. ينظر البحر ٨/ ٤٨.

(٤) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص١٩٩، والخزانة ٢/ ٣٨٩، ووقع في (م): فلان. قال البغدادي: اللَّجَّة بفتح اللام وتشديد الجيم: اختلاط الأصوات في الحرب. وقوله: أمسك فلاناً...، هو على إضمار القول، أي: في لجة يقال فيها: أمسك فلاناً عن فلان، أي: احجز بينهما.

(٥) كما في البحر ٦/ ٤٩٦.

واللهِ أعطاك فضلاً عن عطيَّته ... على هَنٍ وهَنٍ فيما مضى وَهَنِ[1]

فإنه على ما قال الخفاجيُّ أراد عبد الله وإبراهيم وحَسَناً[2].

والخليل من الخُلَّةِ بضمِّ الخاء بمعنى المودَّة، أُطلق عليها ذلك إمَّا لأنها تتخلَّلُ النفسَ، أي: تتوسَّطُها، وأنشد:

قد تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الروح منِّي ... وبه سمِّي الخليلُ خليلاً[3]

وإمَّا لأنَّها تخلُّها فتؤثِّرُ فيها تأثيرَ السهم في الرميَّة، وإما لفَرْطِ الحاجة إليها.

وهذا التمنِّي وإن كان مَسوقاً لإبراز الندم والحسرة، لكنَّه متضمِّنٌ لنوعِ تعلُّلٍ واعتذارٍ بتَوْريكِ[4] جنايته إلى الغير.

وقولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ تعليلٌ لتمنِّيه المذكورِ وتوضيحٌ لتعلُّله. وتصديرُه باللَّام القَسَميةِ للمبالغة في بيان خطئه، وإظهارِ نَدَمِه وحسرتِه، أي: والله لقد أضلَّني فلانٌ عن ذِكْرِ الله تعالى، أو عن موعظة الرسولِ عليه الصلاة والسلام، أو عن كلمة الشهادة، أو عن القرآن.

﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي: وصل إليَّ وعَلِمتُه أو تمكَّنْتُ منه، فلا دلالةَ في الآية على إيمانِ مَن أُنزِلَتْ فيه ثم ارتداده.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ مُبالِغاً في الخذلان، وهو تَرْكُ المعاونةِ والنصرةِ وقتَ الحاجة ممن يُظَنُّ فيه ذلك. والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله: إمَّا من جهته تعالى، أو من تمام كلام الظالم على أنه سمَّى خليلَه شيطاناً بعد وَصْفِه بالإضلال الذي هو أخصُّ الأوصاف الشيطانية، أو على أنه أراد

---

(١) البيت لابن هرمة، وهو في ديوانه ص٢٢٣، والأغاني ٤/ ٣٧٦، ومجالس ثعلب ص٢١، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠، وجاء في هذه المصادر: من عطيته. والبيت أحد ثلاثة أبيات أنشدها ابن هرمة يمدح الحسن بن زيد، ويعرض بعبد الله وحسن وإبراهيم بني حسن بن حسن لأنهم وعدوه شيئاً فأخلفوه.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠.

(٣) البيت نسب لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٧٥ ونسب للبحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٠٨.

(٤) أي: تحميل. القاموس (ورك).

بالشيطان إبليس؛ لأنه الذي حمله على مجالسةِ المضلِّين ومخالفةِ الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه، فإنَّ وَصْفَه بالخذلان يُشْعِرُ بأنه كان يَعِدُه في الدنيا ويمنِّيه بأن ينفعَه في الآخرة، وهو أوفقُ لحالِ إبليسَ عليه اللعنة.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) إلخ، وما بينهما اعتراضٌ مسوقٌ لاستعظام ما قالوه، وبيانِ ما يَحيقُ بهم من الأهوال والخطوب. والمرادُ بالرسول نبيُّنا صلى الله تعالى عليه وسلم وشرَّف وعظَّم وكرَّم، وإيرادُهُ عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحقِّ والردِّ على نحورهم، حيث كان ما حُكي عنهم قدحاً في رسالته ﷺ، أي: قالوا كيتَ وكيتَ، وقال الرسولُ إثرَ ما شاهَدَ منهم غايةَ العتوِّ ونهايةَ الطغيان بطريق البثِّ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ والشكوى عليهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ الذين حُكي عنهم ما حُكي من الشنائع ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الجليلَ الشأنِ، المشتَمِلَ على ما فيه صلاحُ معاشِهم ومعادِهم ﴿مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: متروكاً بالكلِّية، ولم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثَّروا بوعيده ووَعْدِه. فـ «مهجوراً» من الهَجْرِ - بفتح الهاء - بمعنى التَّرْكِ، وهو الظاهرُ، وروي ذلك عن مجاهدٍ والنَّخعيِّ وغيرهما.

واستدلَّ ابن الفرس بالآية على كراهةِ هَجْرِ المصحف وعدم تَعاهُدِه بالقراءة فيه، وكأنَّ ذلك لئلَّا يَنْدَرِجَ مَن لم يتعاهَدِ القراءةَ فيه تحت ظاهر النَّظْم الكريم؛ فإنَّ ظاهره ذمُّ الهَجْرِ مطلقاً، وإن كان المرادُ به عَدَمَ القبول لا عَدَمَ الاشتغالِ مع القبول ولا ما يعمُّهما، فإنْ كان مثلُ هذا يكفي في الاستدلال فذاك، وإلا فليُطْلَبْ دليلٌ آخَرُ للكراهة.

وأَوْرَدَ بعضُهم في ذلك خبراً وهو: «مَن تعلَّم القرآن، وعلَّق مصحفَه لم يتعاهَدْه ولم ينظر فيه، جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به يقول: يارِبِّ عبدُكَ هذا اتخذني مهجوراً، اقْضِ بيني وبينه»(١) وقد تعقَّب هذا الخبر العراقيُّ بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذَّاب(٢). والحقُّ أنه متى كان ذلك مُخِلًّا باحترام القرآن والاعتناءِ به كُرِهَ بل حَرُمَ، وإلَّا فلا.

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٧/ ١٣٢ من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة، عن أنس ﷺ به.
(٢) ذكر قول العراقي الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢١، ومثله قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢١.

وقيل: مهجوراً من الهُجْرِ - بالضم على المشهورِ - أي: الهذيان وفُحشِ القول، والكلامُ على الحذف والإيصال، أي: جَعَلوه مهجوراً فيه، إما على زَعْمِهم الباطلِ نحو ما قالوا: إنه أساطيرُ الأولين اكتَتَبها، وإمَّا بأنْ هَجَروا فيه ورفعوا أصواتهم بالهذيان لمَّا قرئ لئلَّا يُسمَعَ، كما قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وجوِّز أن يكون مصدراً من الهُجْرِ بالضم، كالمعقول بمعنى العقل، والمجلود بمعنى الجلادة، أي: اتَّخذوه نفسَ الهُجْرِ والهذيان، ومَجِيءُ مفعول مصدراً مما أثبته الكوفيون لكنْ على قلَّةٍ.

وفي هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لا يَخْفَى، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شَكَوا إلى الله تعالى قومَهم عُجِّل لهم العذابُ ولم يُنْظَروا.

وقيل: إن «قال» إلخ عطفٌ على «يَعَضُّ الظالم» والمرادُ: ويقولُ الرسول، إلا أنه عدل إلى الماضي لتحقُّقِ الوقوع مع عَدَمِ قَصْدِ الاستمرار التجدُّديِّ المراد بمعونة المقام في «يَعَضُّ» وإن كان إخباراً عمَّا في الآخرة. وحالُ عَطْفِه على «وكان الشيطان» إلخ على أنه من كلامه تعالى لا يَخْفَى حالُه. وقولُ الرسول ذلك يومَ القيامة، وهو كالشهادة على أولئك الكفرة وليس بتخويف. وإلى ذلك ذهبت فرقةٌ منهم أبو مسلم.

والأول[1] أنسبُ بقوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وحَمْلٌ له على الاقتداء بمَن قبله من الأنبياء عليهم السلام، والبليةُ إذا عمَّتْ هانَتْ.

والعدوُّ يحتملُ أن يكون واحداً وجمعاً، أي: كما جَعَلْنا لك أعداءً من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل، جعلنا لكلِّ نبيٍّ من الأنبياء الذين هم أصحابُ الشريعة والدعوةِ إليها عدوًّا من مرتكبي الجرائم والآثام.

---

(١) قوله: والأول، يعني به ما سلف عند بداية تفسير الآية من أن «وقال الرسول» معطوف على «وقال الذين لا يرجون لقاءنا»، أي أن قول الرسول ذلك كان في الدنيا. وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٢١.

ويدخل في ذلك آدمُ عليه السلام؛ لدخول الشياطين وقابيل في المجرمين، ويُكتفَى بدخول قابيل إن أريد بالمجرمين مجرمو الإنس، أو مجرمو أمة النبيّ. وقيل: الكلِّيَّةُ بمعنى الكَثْرةِ.

والمرادُ بجَعْلِ الأعداء جَعْلُ عداوتهم وخَلْقُها وما ينشأ منها فيهم، لا جَعْلُ ذواتهم، ففي ذلك ردٌّ على المعتزلة في زَعْمِهم أنَّ خالق الشرِّ غيرُه تعالى شأنُه.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ وعدٌ كريمٌ له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافَّةِ مطالبه، والنصرِ على أعدائه، أي: كفاكَ مالِكُ أَمْرِكَ ومُبلغكَ إلى الكمال هادياً لك إلى ما يُوْصِلُكَ إلى غاية الغايات، التي من جملتها تبليغُ ما أُنزل إليك، وإجراءُ أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتابُ أَجَلَه، وناصراً لك عليهم على أبلغ وجه.

وقدَّر بعضُهم متعلَّق «هادياً»: إلى طريقِ قَهْرِهم. وقيل: المعنى: هادياً لمن آمن منهم ونصيراً لك على غيره.

وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرُّزِ عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحَبْلِه، ونصيراً لهم عليهم. وهو كما ترى. ونصبُ الوصفين على الحال أو التمييز.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حكايةٌ لنوعٍ آخَرَ من أباطيلهم، والمرادُ بهم المشركون كما صحَّ عن ابن عباس، وهم القائلون أوَّلاً، والتعبيرُ عنهم بعنوان الكفر لذمِّهم به والإشعارِ بعلَّةِ الحكم.

وقيل: المراد بهم طائفة من اليهود.

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: أُنزل عليه كخبَّر بمعنى أَخْبَرَ، فلا قَصْدَ فيه إلى التدريج لمكانِ ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فإنَّه لو قُصِدَ ذلك لتَدَافَعَا؛ إذ يكون المعنى: لولا فرِّقَ القرآنُ جملةً واحدة، والتفريقُ ينافي الجملية. وقيل: عبَّر بذلك للدلالة على كثرة المُنزلِ في نفسه.

ونَصْبُ «جملةً» على الحال، و«واحدةً» على أنه صفةٌ مؤكِّدةٌ له، أي: هلَّا أُنزِلَ القرآنُ عليه عليه الصلاة والسلام دفعةً غيرَ مفرَّقٍ كما أُنزلت التوراةُ والإنجيلُ والزبور، على ما تدلُّ عليه الأحاديثُ والآثارُ، حتى كاد يكونُ إجماعاً كما قال

السيوطيُّ[١]، وردَّ على مَن أنكر ذلك من فضلاء عصره، فقولُ ابن الكمال: إنَّ التوراة أُنزلت منجَّمةً في ثماني عَشْرةَ سنةً، ويدلُّ عليه نصوصُ التوراة، ولا قاطِعَ بخلافه من الكتاب والسنَّة. ناشئٌ من نقصان الاطِّلاع.

وهذا الاعتراضُ مما لا طائل تحته؛ لأنَّ الإعجاز مما لا يَخْتلِفُ بنزوله جملةً أو مفرَّقاً مع أنَّ للتفريق فوائدَ، منها ما ذكره الله تعالى بعدُ.

وقيل: إنَّ شاهِدَ صحةِ القرآن إعجازُه، وذلك ببلاغته، وهي بمطابقته لمقتضَى الحال في كلِّ جملةٍ منه، ولا يتيسَّر ذلك في نزوله دفعةً واحدةً، فلا يقاسُ بسائر الكتب فإنَّ شاهِدَ صحَّتها ليس الإعجاز.

وفيه أنَّ قوله: ولا يتيسّر.. إلخ، ممنوعٌ، فإنه يجوز أن ينزل دفعةً واحدةً مع رعايةِ المطابَقةِ المذكورةِ في كلِّ جملةٍ لِمَا يتجدَّد من الحوادث الموافِقةِ لها، الدالَّةِ على أحكامها، وقد صحَّ أنه نزل كذلك إلى السماء الدنيا، فلولم يكن هذا لزم كونُه غيرَ معجزٍ فيها، ولا قائلَ به، بل قد يقال: إنَّ هذا أقوى في إعجازه، والبليغُ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام، فافهم.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استئنافٌ واردٌ من جهته تعالى لردِّ مقالتهم الباطلةِ، وبيانِ بعض الحِكَم في تنزيله تدريجاً، ومحلُّ الكافِ نصبٌ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمضمرٍ معلَّلٍ بما بعده، وجوِّز نَصْبُها على الحالية، و«ذلك» إشارةٌ إلى ما يفهم من كلامهم، أي: تنزيلاً مثلَ ذلك التَّنزيلِ الذي قَدَحوا فيه واقْتَرحوا خلافَه نزَّلناه، لا تنزيلاً مغايراً له، أو: نزَّلناه مماثلاً لذلك التَّنزيل لنقوِّي به فؤادك فإنَّ في تنزيله مفرَّقاً تيسيراً لحِفْظِ النَّظْمِ، وفَهْمِ المعاني، وضَبْطِ الكلام، والوقوفِ على تفاصيل ما رُوعِيَ فيه من الحِكَم والمصالح، وتعدُّدِ نزول جبريلَ عليه السلام، وتجدُّدِ إعجاز الطّاعنين فيه في كلِّ جملةٍ مقدارَ أقصرِ سورةٍ تنزلُ منه.

ولذلك فوائدُ غيرُ ما ذُكِرَ أيضاً، منها معرفةُ الناسخ المتأخِّر نزولُه من المنسوخ المتقدِّم نزولُه المخالفِ لحُكْمِه. ومنها انضمامُ القرائن الحالية إلى الدلالات

(١) في الإتقان ١/ ١٣٤-١٣٥.

اللَّفظية، فإنه يُعِينُ على معرفةِ البلاغة؛ لأنّه بالنظر إلى الحال يتنبَّهُ السامعُ لِمَا يطابقُها ويوافقُها. إلى غير ذلك.

وقيل: قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من تمام كلام الكفرة، والكافُ نصبٌ على الحال من «القرآن»، أو الصفةِ لمصدرِ «نزِّل» المذكورِ، أو لـ «جملة» والإشارةُ إلى تنزيلِ الكتب المتقدِّمةِ، ولامُ «لنثبِّتَ» لامُ التعليل، والمعلَّلُ محذوفٌ نحو ما سمعتَ أولاً، أي: نزَّلناه مفرَّقاً لنثبِّتَ.. إلخ. وقال أبو حاتم: هي لامُ القسم، والتقديرُ: واللهِ لَنُثَبِّتَنَّ، فحُذِفَت(١) النونُ وكُسِرَتِ اللامُ. وقد حَكَى ذلك عنه أبو حيان ـ والظاهرُ أنها عنده كذلك على القولين في «كذلك» ـ وتعقَّبه بأنّه قولٌ في غاية الضَّعْفِ، وكأنه ينحو إلى مذهب الأخفش أنَّ جواب القسم يُتلقَّى بلام «كي»، وجَعَل منه: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ إلخ [الأنعام:١١٣] وهو مذهبٌ مرجوحٌ(٢).

وقرأ عبد الله: «ليثبِّتَ» بالياء، أي: ليثبِّتَ اللهُ تعالى(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ عطفٌ على الفعل المحذوف المعلَّل بما ذُكر، وتنكيرُ «ترتيلاً» للتفخيم، أي: كذلك نزَّلناه ورتَّلناه ترتيلاً بديعاً لا يقادرُ قَدْرُه.

وترتيلُه: تفريقُه آيةً بعد آيةٍ، قاله النخعيُّ والحسنُ وقتادةُ.

وقال ابن عباس: بيَّنَّاه بياناً فيه ترسُّلٌ. وقال السدِّيُّ: فصَّلناه تفصيلاً. وقال مجاهدٌ: جعلنا بعضَه إثرَ بعضٍ. وقيل: هو الأمرُ بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وقيل: قرأناه عليك بلسانِ جبريلَ عليه السلام شيئاً فشيئاً في عشرين أو في ثلاثٍ وعشرين سنةً على تُؤَدَةٍ وتمهُّلٍ، وهو مأخوذٌ من قولهم: ثغرٌ مرتَّلٌ، أي: مُفَلَّجُ الأسنان غيرُ مُتلاصِقِها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها اقتراحاتُهم القبيحةُ الخارجةُ عن دائرةِ العقول، الجاريةُ لذلك مجرى الأمثال، أي: لا يأتونك بكلامٍ عجيبٍ هو

---

(١) في (م): فحذف.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٧.

مَثَلٌ في البطلان يريدون به القَدْحَ في نبوّتك ويُظْهِرونه لك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ في مقابلَتِه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجواب الحقِّ الثابت الذي يُنْحي عليه بالإبطال، ويحسمُ مادَّةَ القيلِ والقال، كما مرَّ من الأجوبة الحقَّةِ القالِعَةِ لعروق أسئلتهم الشنيعةِ، الدامغةِ لها بالكلِّية.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ عطفٌ على «الحق»، أي: جئناك بأَحْسنَ تفسيراً، أي: بما هو أحسن، أو على محلِّ «بالحقِّ» أي: استحضرنا لك وأنزلنا عليك الحقَّ وأحسن تفسيراً، أي: كَشْفاً وبياناً، على معنى أنه في غايةِ ما يكون من الحُسْنِ في حدِّ ذاته، لا أنَّ ما يأتون به له حُسْنٌ في الجملة وهذا أحسنُ منه، وهذا نظيرُ قولهم: اللهُ تعالى أكبرُ، أي: له غايةُ الكبرياء في حدِّ ذاته.

وبعضُهم قدَّر مفضَّلاً عليه فقال: أي: وأَحْسَنَ تفسيراً من مَثَلِهم، وحُسْنُه على زَعْمِهم، أو هو تهكُّمٌ.

وتُعقِّب الأولُ بأنه يَفُوتُ عليه معنى التسلية؛ لأنَّ المراد: لا يهمّك[1] ما اقترحوه من قولهم: (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً) فإنَّ تنزيله مفرَّقاً أحسنُ مما اقترحوه لفوائدَ شتَّى. وفيه منعٌ ظاهر.

وقيل: المراد بالتفسير المعنى، والمرادُ: وأَحْسَنَ معنًى؛ لأنه يقال: تفسيرُ كذا، أي: معناه، فهو مصدرٌ بمعنى المفعول؛ لأنَّ المعنى: مفسَّرٌ، ك : درهمٌ ضَرْبُ الأمير[2]. ورُدَّ بأنَّ المفسَّر اسم مفعولٍ هو الكلامُ لا المعنى، لأنه يقال: فسَّرْتُ الكلام، لا معناه.

وقال الطِّيبيُّ: وُضِعَ التفسيرُ موضعَ المعنى من وَضْعِ السَّببِ موضعَ المسبَّبِ؛ لأنَّ التفسير سببٌ لظهور المعنى وكَشْفِهِ.

وقيل عليه: إنه فَرْقٌ بين المعنى وظهورِه، فلا يتمُّ التقريبُ، وقد يُكْتَفى بسببيَّتِه له في الجملة.

وأيًّا ما كان فهو نصبٌ على التمييز. والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال،

(١) في الأصل و(م): لا يهلك، وهو تصحيف، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٣.
(٢) أي: مضروبه.

فالجملةُ في محلِّ النصب على الحالية، أي: لا يأتونك بمثلٍ في حالٍ من الأحوال[١] إلَّا حالَ إنزالنا عليك واستحضارِنا لك الحقَّ وأحسنَ تفسيراً، وجُعِلَ ذلك مقارِناً لإتيانهم وإن كان بعده للدلالةِ على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به تثبيتاً لفؤاده ﷺ.

وجوِّز أن يكون «المَثَلُ» عبارةً عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونَه عليه الصلاة والسلام عليها، من الاستغناء عن الأكل والشرب، وحِيازةِ الكَنْز والجنةِ، ونزولِ القرآن عليه جملةً واحدةً، على معنى: لا يأتوك بحالةٍ عجيبةٍ يقترحون اتِّصافك بها قائلين: هلَّا كان على هذه الحالةِ، إلَّا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنةِ ما يحقُّ لك في حِكْمَتِنا ومشيئتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ.

وتعقِّب بأنه يأباه الاستثناءُ المذكورُ، فإنَّ المتبادرَ منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحقِّ مترتِّباً على ما أتوا به من الأباطيل دامغاً لها، ولا ريبَ في أنَّ ما آتاه الله تعالى من المَلَكَاتِ السَّنِيَّةِ الطائفةِ بالرسالة قد أتاه من أول الأمر، لا بمقابلةِ ما حُكي عنهم من الاقتراحات لأَجْلِ دَمْغِها وإبْطالِها.

وأجيب بأنَّ معنى «إلا جئناك» إلخ على ذلك: إلَّا أَظْهَرْنا فيك ما يكشِفُ عن بطلان ما أتوا به. وهو كما ترى، فالحقُّ التعويلُ على الأول.

والمشهور أنَّ الإتيانَ والمجيءَ بمعنًى، لكنْ عبِّر أولاً بالإتيان وثانياً بالمجيءِ للتفنُّنِ، وكراهةَ أن يتَّحِدَ ما يُنْسَبُ إليه عزَّ وجلَّ وما يُنسب إليهم لفظاً، مع كون ما أتوا به في غايةِ القبح والبطلان، وما جاء به سبحانه في غاية الحقِّية والحُسْنِ.

وفرق الرَّاغبُ بينهما فقال: المجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ لأنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أَتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ قد يقال باعتبارِ القَصْدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتباراً بالحصول[٢].

ولعلَّ في التعبير بالإتيان أولاً والمجيءِ ثانياً على هذا إشارةً إلى أنَّ ما يأتون به من الأمثال في نفسه من الأمور التي تُتخَيَّلُ بسهولةٍ ولا تحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ

---

(١) بعدها في (م): أي، وهو خطأ. ينظر الدر المصون ٨/ ٤٨٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢١٦.
(٢) مفردات الراغب (أتى) و(جاء).

بخلافِ ما يكون في مقابَلتِه فإنّه في نفسه من الأمور العقلية التي صَقَلها الفِكرُ فلا يجد أحدٌ سبيلاً إلى ردِّها والطَّعنِ فيها، أو إلى أنَّ فِعْلَهم لخروجه عن حيِّز القبول منزَّلٌ منزلةَ العدمِ حتى كأنّهم لم يتحقَّقْ منهم القصدُ دون الحصولِ بخلافِ ما كان من قِبَلِه عزَّ وجلَّ، فتأمَّلْ، والله تعالى أعلمُ بأسرارِ كتابه.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يحشرون ماشينَ على وجوههم، فقد روى الترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصنافٍ: صنفاً مشاةً، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم»، قيل يا رسول الله: وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أَمْشاهُم على أقدامهم قادرٌ على أنْ يمشِّيَهم على وجوههم، أمَا إنهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشوكٍ»[1].

وهذا يَحْتَمِلُ أن يكون بمسِّ وجوهِهم وسائرِ ما في جهتها من صدورهم وبطونهم ونحوِها الأرضَ، وأن يكون بِنَكْسِهم على رؤوسهم، وجَعْلِ وجوههم إلى ما يلي الأرضَ، وارتفاعِ أقدامهم وسائرِ أبدانهم، ولعل الحديث أظْهَرُ في الأول.

وقيل: إنَّ الملائكة عليهم السلام تَسْحَبُهم وتجرُّهم على وجوههم إلى جهنم، والأمرُ عليه ظاهرٌ لا غرابةَ فيه.

وقيل: الحشرُ على الوجه مجازٌ عن الذلَّةِ المُفْرِطةِ والخزيِ والهوان.

وقيل: هو من قول العرب: مرَّ فلانٌ على وجهه، إذا لم يَدْرِ أين ذهب.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ أو استعارةٌ تمثيليةٌ، والمرادُ أنهم يُحشَرون متعلِّقةً قلوبُهم بالسفليات من الدنيا وزخارِفِها، متوجِّهةً وجوهُهم إليها. ولعل كونَ هذه الحال في الحشر باعتبارِ بقاء آثارها، وإلا فَهُم هناك في شغلٍ شاغلٍ عن التوجُّه إلى الدنيا وزخارِفها وتعلُّقِ قلوبهم بها.

---

(١) سنن الترمذي (٣١٤٢)، وهو عند أحمد (٨٦٤٧). وله شاهد من حديث معاوية بن حيدة وآخر من حديث أبي ذر أخرجهما أحمد (٢٠٠١١) و(٢١٤٥٦). ويشهد للقسم الأخير منه حديث أنس عند البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦). وقوله: حَدَب، هو الغليظ المرتفع من الأرض. ينظر النهاية (حدب).

و محلُّ الموصول، قيل: إمَّا النصبُ بتقديرِ أذمُّ أو أعني، أو الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين، أو على أنه مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدلٌ منه أو بيانٌ له، وقولُه تعالى: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ خبرٌ له، أو اسمُ الإشارة مبتدأ ثانٍ، و«شرٌّ» خبرُه، والجملةُ خبرُ الموصول.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يكون الموصول بدلاً من الضمير في «يأتونك»، و«أولئك شرٌّ مكاناً» كلامٌ مستأنفٌ. ولعل الأقربَ كونُ الموصولِ مبتدأً وما بعده خبرُه.

قال الطيبيُّ: وذلك من باب كلام المنصف وإرخاء العنان. وفُصِلَ «الذين يحشرون» عمَّا قبله استئنافاً[1]، لأنَّ التسليةَ السابقةَ حرَّكتْ منه ﷺ بأن يَسأل: فإذاً بماذا أجيبهم؟ وما يكون قولي لهم؟ فقيل: قل لهم: الذين يُحشَرون على وجوههم إلى جهنَّم. . إلخ، يعني: مقصودُكم من هذا التعنُّتِ تحقيرُ مكاني وتضليلُ سبيلي، وما أقول لكم: أنتم كذلك، بل أقول: الذين يُحشَرونَ على وجوههم إلى جهنَّم شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً، فانظروا بعين الإنصاف، وتفكَّروا مَن الذي هو أَوْلَى بهذا الوصف منَّا ومنكم، لتعلموا أنَّ مكانكم شرٌّ من مكاننا، وسبيلَكم أضلُّ من سبيلنا، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فالمكانُ: الشَّرفُ والمنزلةُ، ويجوز أن يُرادَ به الدارُ والمسكن. و«شرٌّ» و«أضلُّ» محمولان على التفضيل على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. وجَعَل صاحب «الفرائد» ذلك لإثبات كلِّ الشرِّ لمكانهم وكلِّ الضلال لسبيلهم. ووَصْفُ السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازيِّ للمبالغة.

والآيةُ على ما سمعتَ متَّصلةٌ بما قَبْلَها من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ إلخ. وقال الكرمانيُّ: هي متَّصلةٌ بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ الآيةَ. قيل: ويجوزُ أن تكون متَّصلةً بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ انتهى. وما ذُكر أوَّلاً أبعدُ مغزًى.

---

(١) في الأصل: استئناف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ جملةٌ مستأنفةٌ سيقَتْ لتأكيد ما مرَّ من التسلية والوَعْدِ بالهدايةِ والنصر في قوله تعالى: (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) ـ على ما قدَّمناه ـ بحكايةِ ما جرى بين مَن ذُكِرَ من الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكايةً إجماليةً كافيةً فيما هو المقصود.

واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، أي: وباللهِ تعالى لقد آتينا موسى التوراة، أي: أنزلناها عليه بالآخرة. وقيل: المراد بالكتاب الحُكْمُ والنبوَّةُ. ولا يَخْفَى بُعْدُه.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ الظرفُ متعلِّقٌ بـ «جعلنا»، وقولُه تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾ مفعولٌ أول له، وقولُه سبحانه ﴿هَٰرُونَ﴾ بدلٌ من «أخاه» أو عطفُ بيانٍ له، وقولُه عزَّ وجلَّ ﴿وَزِيرًا ۝٣٥﴾ مفعولٌ ثانٍ له، وتقدَّم معنى الوزير(١)، ولا ينافي هذا قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] لأنه وإن كان نبيًّا فالشريعةُ لموسى عليه السلام، وهو تابعٌ له فيها كما أنَّ الوزير متَّبعٌ لسلطانه.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم فرعونُ وقومُه، والظاهرُ تعلُّقُ «بآياتنا» بـ «كذَّبوا»، والمرادُ بها دلائلُ التوحيد المودَعةُ في الأنفُسِ والآفاق، أو الآياتُ التي جاءت بها الرسلُ الماضيةُ عليهم السلام، أو التسعُ المعلومةُ. والتعبيرُ عن التكذيب بصيغة الماضي على الاحتمالين الأوَّلين ظاهرٌ، وعلى الأخير قيل: لتنزيل المستقبل ـ لتحقُّقه ـ منزلةَ الماضي. وتعقِّب بأنه لا يناسِبُ المقامَ.

وقال العلَّامةُ أبو السعود: لم يُوصَفِ القومُ لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصفِ ضرورةَ تأخُّرِ تكذيب الآيات التسع عن إظهارها، المتأخِّرِ عن ذهابهما، المتأخِّرِ عن الأمر به، بل إنما وُصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلَّةِ استحقاقهم لِمَا يُحكَى بعده من التدمير(٢). وبحث فيه بما فيه تأمُّلٌ.

وجوَّز أن يكون الظرفُ متعلِّقاً بـ «اذهبا» فمعنى «كذَّبوا»: فعلوا التكذيب.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾ عجيباً هائلاً لا يقادرُ قَدْرُه ولا يُدْرَكُ كنهُه، والمرادُ به أشدُّ الهلاك، وأصلُه: كَسْرُ الشيء على وجهٍ لا يمكن إصلاحُه. والفاءُ فصيحةٌ،

(١) ١٦/ ٢٨٨-٢٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢١٧.

والأصل: فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودَعَواهم إلى الإيمان فكذَّبوهما واستمرُّوا على ذلك فدمَّرناهم، فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاءً بما هو المقصودُ.

وقيل: معنى «فدمرناهم»: فحَكَمْنا بتدميرهم، فالتعقيبُ باعتبارِ الحكمِ، وليس في الإخبار بذلك كثيرُ فائدة.

وقيل: الفاءُ لمجرَّد الترتيب، وهو كما ترى.

وعطف «قُلْنا» على «جَعَلْنا» المعطوفِ على «آتينا» بالواو التي لا تقتضي ترتيباً على الصحيح، فيجوزُ تقدُّمه مع ما يَعقبُه على إيتاء الكتاب، فلا يَرِدُ أنَّ إيتاء الكتاب وهو التوراةُ بعد هلاك فرعونَ وقومِه فلا يصحُّ الترتيبُ. والتعرُّضُ لذلك في مطلع القصة مع أنه لا مدخلَ له في إهلاك القوم لِمَا أنه بعده[1]؛ للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه السلام غايةَ الكمال التي هي إنجاءُ بني إسرائيلَ من ملكة فرعون، وإرشادُهم إلى طريق الحقِّ بما في التوراة من الأحكام، إذ به يحصلُ تأكيدُ الوعد بالهداية على الوجه الذي ذكر سابقاً.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والحسنُ ومسلمةُ بن محارب: «فدَمِّراهم» على الأمر لموسى وهارون عليهما السلام[2]. وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أيضاً كذلك، إلا أنه مؤكَّدٌ بالنون الشديدة[3].

وعنه كرم الله تعالى وجهه: «فدمِّرا» أمراً لهما «بهم» بباء الجرِّ[4]، وكأنَّ ذلك من قبيل:

تجرح في عراقيبها نَصْلي[5]

---

(١) في (م): بعد.
(٢) الكشاف ٣/ ٩٢، والبحر ٦/ ٤٩٨، والكلام منه.
(٣) أي: «فدمِّرانِّهم»، وهي في القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٢، والكشاف ٣/ ٩٢، والبحر ٦/ ٤٩٨.
(٤) المحتسب ٢/ ١٢٢، والبحر ٦/ ٤٩٨.
(٥) قطعة من بيت لذي الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ١٦ وغيرها، وتمامه:
فإن تَعْتذر بالمحل من ذي ضروعها ... على الضيف يَجْرحْ في عراقيبها نَصْلي

وحَكَى في «الكشاف» عنه أيضاً كرم الله تعالى وجهه: «فدمَّرْتُهم» بتاء الضمير[1].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوبٌ بمضمَرٍ يدلُّ عليه قولُه تعالى: (فَدَمَّرْنَاهُمْ)، أي: ودمَّرنا قومَ نوح. وجوَّز الحوفيُّ وأبو حيان كونَه معطوفاً على مفعولِ «فدمَّرناهم»[2].

ورُدَّ بأنَّ تدمير قوم نوح ليس مترتِّباً على تكذيب فرعون وقومِه، فلا يصحُّ عَطْفُه عليه.

وأجيب بأنه ليس من ضرورةِ ترتُّبِ تدميرهم على ما قبله ترتُّبُ تدميرِ هؤلاء عليه، لا سيما وقد بيَّن سببه بقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نوحاً ومَن قبله من الرسل عليهم السلام، أو نوحاً وحده فإنَّ تكذيبه عليه السلام تكذيبٌ للكلِّ لاتِّفاقهم على التوحيد، أو أنكروا جوازَ بعثةِ الرسل مطلقاً. وتعريفُ الرسل على الأول عهديٌّ، ويحتملُ أن يكون للاستغراق؛ إذ لم يوجد وقتَ تكذيبهم غيرُهم، وعلى الثاني استغراقيٌّ لكن على طريق المشابَهةِ والادّعاء، وعلى الثالث للجنس أو للاستغراق الحقيقيِّ، وكأنَّ المجيب أراد أنَّ اعتبار العطف قبل الترتيب، فيكونُ المرتَّبُ مجموعَ المتعاطفين، ويكفي فيه تَرتُّبُ البعض.

وقيل: المقصود من العطف التسويةُ والتنظير، كأنه قيل: دمَّرناهم كقوم نوحٍ، فتكونُ الضمائر لهم، والرسل نوحٌ وموسى وهارون عليهم السلام. ولا يخفى ما فيه.

واختار جمعٌ كونَه منصوباً بـ «اذْكُرْ» محذوفاً.

وقيل: هو منصوبٌ بمضمَرٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، ويرجِّحُه على الرفع تقدُّمُ الجمل الفعلية. ولا يَخْفَى أنه إنَّما يتسنَّى ذلك على مذهب الفارسيِّ[3]، من كون «لـمَّا» ظرفَ زمانٍ، وأمَّا إذا كانت حرفَ وجودٍ لوجود فلا؛ لأنَّ «أغرقناهم» حينئذٍ يكون جواباً لها، فلا يفسِّر ناصباً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٩٢.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٨، والنهر على هامش البحر ٦/ ٤٩٧.

(٣) كما في البحر ٦/ ٤٩٨.

ولعل أَوْلَى الأوجهِ الأولُ. و«أغرقناهم» استئنافٌ مبيِّن لكيفية تدميرهم، كأنه قيل: كيف كان تدميرُهم؟ فقيل: أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جَعَلْنا إغراقَهم، أو قصَّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً يعتبر بها مَن شاهدها أو سمعها، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «جعلنا»، و«للناس» متعلِّق به، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «آيةً»؛ إذ لو تأخَّر عنها لكان صفة لها.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾ أي: جعلناه مُعدًّا لهم في الآخرة، أو في البرزخ، أو فيهما. والمرادُ بـ «الظالمين» القومُ المذكورون، والإظهارُ في موقع الإضمار للإيذان بتجاوُزِهم الحدَّ في الكفر والتكذيب، أو جميعُ الظالمين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب، فيدخلُ في زُمْرَتِهم قريشٌ دخولاً أوَّليًّا. ويَحْتَمِلُ «العذاب» الدنيويَّ وغيرَه.

﴿وَعَادًا﴾ عطفٌ على «قوم نوح»، أي: ودمَّرنا عاداً، أو: واذكر عاداً، على ما قيل. ولا يصحُّ أن يكون عطفاً إذا نُصِبَ على الاشتغال؛ لأنهم لم يُغْرَقوا.

وقال أبو إسحاق[١]: هو معطوفٌ على «هم» من «جعلناهم للناس آيةً»، ويجوزُ أن يكون معطوفاً على محلِّ «الظالمين» فإنَّ الكلام بتأويل: وَعَدْنا الظالمين. اهـ ولا يَخْفَى بُعْدُ الوجهين.

﴿وَثَمُودَا﴾ الكلامُ فيه وفيما بَعْدَه كما فيما قبله.

وقرأ عبد الله وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى: «وثمودَ» غيرَ مصروفٍ[٢] على تأويلِ القبيلة، ورُوي ذلك عن حمزةَ وعاصم[٣] والجمهورُ بالصَّرْفِ - ورواه عبد بن حميد عن عاصم[٤] - على اعتبارِ الحيِّ، أو أنهم سُمُّوا بالأب الأكبر.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ عن ابن عباس: هم قومُ ثمود. ويُبْعِدُه العطفُ لأنه يقتضي التغايُرَ.

---

(١) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٤/ ٦٨.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٨، وهي في المتواتر على ما يأتي.

(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩ عن حفص وحمزة، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٧٠.

وقال قتادةُ: هم أهلُ قريةٍ من اليمامة يقال لها: الرسُّ والفَلَج، قيل: قتلوا نبيَّهم فهلكوا، وهم بقيةُ ثمود وقوم صالح.

وقال كعبٌ ومقاتلٌ والسدِّيُّ: أهلُ بئرٍ يقال له: الرسُّ بأنطاكية الشام، قَتَلوا فيها صاحبَ «يس» وهو حبيبٌ النجَّار.

وقيل: هم قومٌ قتلوا نبيَّهم ورسُّوه في بئرٍ[1]، أي: دسُّوه فيه.

وقال وهبٌ والكلبيُّ: أصحابُ الرسِّ وأصحابُ الأيكة قومان أُرْسِلَ إليهما شعيبٌ، وكان أصحابُ الرسِّ قوماً من عَبَدةِ الأصنام وأصحابَ آبارٍ ومَواشٍ، فدعاهم إلى الإسلام فتمادَوْا في طغيانهم وفي إيذائه عليه السلام، فبينما هم حول الرسِّ - وهي البئر غيرُ المَطْويَّةِ كما روي عن أبي عبيدة[2] - انهارت بهم وبدارهم.

وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه فيما نقله الثعلبيُّ: هم قومٌ[3] عبدوا شجرةً يقال لها: شاه درخت، رسُّوا نبيَّهم في بئرٍ حفروه له، في حديث طويل.

وقيل: هم أصحابُ النبيِّ حنظلةَ بنِ صفوان كانوا مبتلَيْنَ بالعنقاء، وهي أعظمُ ما يكون من الطير، وكان فيها من كلِّ لونٍ، وسمِّيتْ عنقاء لطول عنقها، وكانت تسكنُ جبلَهم الذي يقال له: فتح[4]، وتنقضُّ على صبيانهم فتَخْطَفُهم إن أعوزها الصيد - ولإتيانها بهذا الأمر الغريب سمِّيت مُغْرِباً، وقيل: لأنها اختطفت عروساً. وقيل: لغروبها، أي: غَيبتها. وقيل: لأنَّ وكرها كان عند مغرب الشمس، ويقال فيها: عنقاءُ مغرب بالتوصيف والإضافة مع ضمِّ الميم وفتحها - فدعا عليها حنظلةُ فأصابتها الصاعقةُ فهلكت، ثم إنهم قتلوا حنظلةَ فأُهْلكوا.

وقيل: هم قوم أرسل إليهم نبيٌّ فأكلوه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ عن عكرمة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٣، والبحر ٦/ ٤٩٩، وعنه نقل المصنف جميع ما سلف وما سيأتي من أقوال.

(٣) في (م): قول، وهو تحريف.

(٤) في البحر: فج، وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٥: فتح أو دمخ؛ قال الشهاب: فتح بالفاء والتاء المثناة من فوق والحاء المهملة؛ وقيل: إنها معجمة. وقيل: إنه بمثناة تحتانية وجيم. ودمخ بدال مهملة وميم ساكنة وخاء معجمة.

وقيل: قومٌ نساؤهم سَوَاحِقُ.

وقيل: قومٌ بُعث إليهم أنبياء فقتلوهم ورسُّوا عظامهم في بئر.

وقيل: هم أصحابُ الأخدود، والرسُّ هو الأخدود.

وفي روايةٍ عن ابن عباس: أنه بئرُ أذربيجان.

وقيل: الرسُّ ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت.

وقيل: هو ماءٌ ونخلٌ لبني أسد.

وقيل: نهرٌ من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبيّاً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذَّبوه، فلبث فيهم زماناً، فشكا إلى الله تعالى منهم، فحفروا له بئراً وأرسلوه فيه، وقالوا: نرجو أن تَرْضَى عنَّا آلهتُنا، فكانوا عليه[1] يومَهم يسمعون أنينَ نبيِّهم، فدعا بتعجيل قبْضِ روحِه فمات، وأظلتهم سحابةٌ سوداءُ أذابتهم كما يذوبُ الرصاص.

ورَوَى عكرمةُ ومحمد بنُ كعب القرظيُّ عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ أصحاب الرسِّ أخذوا نبيَّهم فرسُّوه في بئر وأَطْبَقوا عليه صخرةً، فكان عبدٌ أسودُ قد آمَنَ به يَجيءُ بطعامٍ إلى البئر، فيُعِينُه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها، فيعطيه ما يغذِّيه به ثم يردُّ الصخرة على فم البئر، إلى أنْ ضرب الله تعالى على أذن ذلك الأسود فنام أربعَ عَشْرةَ سنةً، وأخرج أهل القرية نبيَّهم فآمنوا به». في حديث طويل ذُكر فيه أنَّ ذلك الأسودَ أولُ مَن يدخل الجنة[2]. وهذا إذا صحَّ كان القولَ الذي لا يمكنُ خلافُه، لكنْ يُشْكِلُ عليه إيرادُهم هنا، وأجاب عنه الطبريُّ[3] بأنه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فأُهْلِكوا، فذكرهم الله تعالى مع مَن ذُكر من المُهْلَكين، وملخَّصُ الأقوال أنهم قومٌ أهلكهم الله تعالى بتكذيبِ مَن أرسل إليهم.

---

(١) في البحر: عامة.

(٢) أخرجه مطوَّلاً عن محمد بن كعب عن النبيِّ ﷺ الطبري ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: فيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً.

(٣) في التفسير ١٧/ ٤٥٥، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٨.

﴿وَقُرُونًا﴾ أي: أهلَ قرونٍ، وتقدَّم الكلامُ في القرن[1] ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورِ من الأمم، وللتعدُّدِ حَسُنَ «بين» من غيرِ عَطْفٍ ﴿كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ يطولُ الكلام جدًّا بذكرها، ولا يَبْعدُ أن يكون قد عَلِمَ رسولُ الله ﷺ مقدارَها، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨] ليس نصًّا في نفي العلم بالمقدار كما لا يخفى.

وفي «إرشاد العقل السليم»[2]: لعلَّ الاكتفاء في شؤون تلك القرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ لِمَا أنَّ كلَّ قرنٍ منها لم يكن في الشهرة وغرابةِ القصة بمثابةِ الأمم المذكورة.

﴿وَكُلًّا﴾ منصوبٌ بمضمَرٍ يدلُّ عليه ما بعده؛ فإنَّ ضَرْبَ المَثَلِ في معنى التذكيرِ والتحذير. والمحذوفُ الذي عوِّض عنه التنوينُ عبارةٌ إمَّا عن الأمم التي لم تُذْكَر أسبابُ إهلاكهم، وإمَّا عن الكلِّ فإنَّ ما حُكي عن فرعون وقومه وعن قوم نوحٍ عليه السلام تكذيبُهم للآيات والرسل، لا عَدَمُ التأثُّرِ من الأمثال المضروبة، أي: ذكَّرنا وأنذرنا كلَّ واحدٍ من المذكورين.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بيَّنَّا لكلٍّ القصصَ العجيبةَ الزاجرةَ عمَّا هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطةِ الرسل عليهم السلام.

وقيل: ضميرُ «له» للرسول عليه الصلاة والسلام، والمعنى: وكلَّ الأمثالِ ضربناه للرسول، فيكون «كلًّا» منصوباً بـ «ضربنا»، و«الأمثال» بدلاً منه على ما في «البحر»، وفيه: أنه أَبْعدَ مَن ذهب إلى ذلك[3]. وعندي أنه مما لا ينبغي أن يفسَّر به كلامُ الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ مقدَّمٌ لقوله سبحانه: ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ وتقديمُه للفاصلة. وقيل: لإفادة القَصْرِ على أنَّ المعنى: كلًّا لا بعضاً. وتعقِّب بأنَّ لفظ «كل» يفيدُ ذلك. ويمكنُ توجيهُ ذلك بالعناية.

---

(١) ١١/ ٥٥.
(٢) ٦/ ٢١٩.
(٣) البحر ٦/ ٤٩٩.

وأصل التتبير: التفتيت؛ قال الزجّاج[١]: كلُّ شيءٍ كَسَّرْتَهُ وفتّتّه فقد تبَّرْتَهُ، ومنه: التِّبرُ، لفُتاتِ الذهب والفضة. والمراد به: التمزيقُ والإهلاك، أي: أهلكنا كلَّ واحدٍ منهم إهلاكاً عجيباً هائلاً؛ لِمَا أنهم لم يتأثَّروا بذلك، ولم يرفعوا له رأساً، وتمادَوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان مشاهدةِ كفَّارِ قريشٍ لآثارِ هلاكِ بعض الأمم المتبَّرةِ وعدمِ اتِّعاظهم بها. وتصديرُها بالقسم لتقرير مضمونها اعتناءً به. و«أتى» مضمَّنٌ معنى مرَّ لتعدِّيه بـ «على».

والمعنى: بالله لقد مرَّ قريشٌ في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي سذوم، وهي أعظمُ قرى قومِ لوطٍ، سمِّيتْ باسم قاضيها سذوم بالذال المُعْجَمة على ما صحَّحه الأزهريُّ[٢]، واعتمده في «الكشف» وفي المثل: أَجْوَرُ من سذوم، أَهْلَكَها الله تعالى بالحجارة، وهو المرادُ بـ «مطر السوء»، وكذا أَهْلَكَ سائرَ قُراهم ـ وكانت خمساً ـ إلا قريةً واحدةً وهي زغر لم يُهلكها لأنَّ أهلها لم يعملوا العملَ الخبيث، كما روي عن ابن عباس ﷺ، وإفرادُ «القرية» بالذكر لِمَا أشرنا إليه.

وانْتَصَبَ «مطر» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «أُمْطِرَتْ»، على معنى أُعْطِيَتْ، أو: أُوْلِيَتْ، أو على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ بحذفِ الزوائد، أي: إمطارَ السوء كما قيل في: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]. وجوَّز أبو البقاء أن يكون صفةً لمحذوفٍ، أي: إمطاراً مثلَ مطرِ السوء[٣]، وليس بشيءٍ.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «مُطِرَتْ» ثلاثيًّا مبنيًّا للمفعول، و«مَطَر» مما يتعدَّى بنفسه. وقرأ أبو السمال: «مَطَر السُّوء» بضم السين[٤].

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخٌ على تَرْكِهم التذكُّرَ عند مشاهدةِ ما يوجبُه،

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٦٨-٦٩.

(٢) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤، وذكره عن الأزهري الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢٥ وقال: وفي الصحاح أنه بمهملة. وينظر الصحاح (سدم).

(٣) الإملاء ٤/ ١٠٠.

(٤) القراءتان في البحر ٦/ ٥٠٠، وعنه نقل المصنف.

والهمزةُ لإنكار نفي استمرارِ رؤيتهم لها، وتقريرِ استمرارِها حَسبَ استمرارِ ما يوجبُها من إتيانهم عليها، لا لإنكار استمرار نفي رؤيتهم وتقريرِ رؤيتهم لها.

والفاء لعَطْفِ مدخولها على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها، أو: أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مِرَارِ مُرورِهم ليتَّعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب.

والمنكَر في الأول النظرُ وعدمُ الرؤية معاً، وفي الثاني عدمُ الرؤيةِ مع تحقُّقِ النظر الموجب لها عادةً، كذا[1] في «إرشاد العقل السليم»[2].

ولم يقل: أفلم يَرَوْنها[3] ـ مع أنه أَخْصَرُ وأَظْهرُ ـ قَصْداً لإفادةِ التكرارِ مع الاستمرارِ، ولم يصرِّح في أوَّل الآية بنحو ذلك بأنْ يقال: ولقد كانوا يأتون، بَدَلَ: ولقد أَتَوا؛ للإشارة إلى أنَّ المرور ولو مرةً كافٍ في العبرة. فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قبلَه من عَدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جرى على أهل القرى من العقوبة، وبيانٌ لكونِ عَدَمِ اتِّعاظِهم بسبب إنكارهم لكونِ ذلك عقوبةً لمعاصيهم لا لعَدَمِ رؤيتهم لآثارها، خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذِكْرِ ما يستلزمُه من إنكار الجزاء الأخرويِّ، وقد كَنَى عن ذلك بعَدَمِ رجاء النشور، والمرادُ بالرجاء: التوقُّعُ مجازاً، كأنه قيل: بل كانوا لا يتوقَّعون النشورَ المستَتْبِعَ للجزاء الأخرويِّ، وينكرونه ولا يَرَوْن لنفسٍ من النفوس نشوراً أصلاً مع تحقُّقِه حتماً وشمولِه للناس عموماً واطِّرادِه وقوعاً، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصةٍ مع عَدَمِ الاطِّراد والمُلازَمةِ بينه وبين المعاصي حتى يتذكَّروا ويتَّعظوا بما شاهَدوه من آثار الهلاك، وإنما يَحْمِلونه على الاتِّفاق.

وإمَّا انتقالٌ من التوبيخ بما ذُكر من تَرْكِ التذكُّر إلى التوبيخ بما هو أعظمُ منه من عدم رجاء النشور. وحَمْلُ الرجاءِ على التوقُّع وعمومِ النشور أوفقُ بالمقام.

---

(١) في الأصل: كما.

(٢) ٦/ ٢١٩.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أفلا يرونها، كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٥.

وقيل: هو على حقيقته، أعني انتظارَ الخير، والمرادُ بالنشورِ: نشورٌ فيه خيرٌ، كنشورِ المسلمين.

وجوِّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامةَ، والمرادُ بالنشور: نشورُهم. والكلُّ كما ترى.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتَّخذونك ﴿إِلَّا هُـزُوًا﴾ على معنى: ما يفعلون بك[1] إلا اتخاذَك هُزُواً، أي: موضعَ هزوٍ، أو: مَهْزوءاً به. فـ «هُزُواً» إما مصدرٌ بمعنى المفعول مبالغةً، أو هو بتقديرِ مضافٍ. وجملةُ «إن يتخذونك» جوابُ «إذا»، وهي كما قال أبو حيان وغيرُه تنفرد بوقوع جوابها المنفيِّ بـ «إن» و«لا» و«ما» بدون فاءٍ، بخلاف غيرِها من أدوات الشرط[2].

وقوله تعالى: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ مقولُ قولٍ مضمَرٍ، أي: يقول أهذا.. إلخ. والجملةُ في موضع الحال من فاعل «يتخذونك»، أو مستأنفةٌ في جواب: ماذا يقولون؟

وجوِّز أن تكون الجوابَ، وجملةُ «إن يتَّخذونك» معترِضةٌ[3].

وقائلُ ذلك أبو جهل ومَن معه، وروي أنَّ الآية نزلت فيه. والإشارةُ للاستحقار كما في: يا عجباً لابن عمرو هذا، وعائدُ الموصولِ محذوفٌ، أي: بعثه، و«رسولاً» حالٌ منه، وهو بمعنى مُرسَل.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون مصدراً حُذِفَ منه المضافُ، أي: ذا رسولٍ، أي: رسالة[4]، وهو تكلُّفٌ مُسْتَغنًى عنه.

وإخراجُ بَعْثِ الله تعالى إياه ﷺ رسولاً بجَعْلِهِ صلةً وهم على غايةِ الإنكار تهكُّمٌ واستهزاءٌ، وإلا لقالوا: أَبَعَثَ الله هذا رسولاً. وقيل: إنَّ ذلك بتقديرِ: أهذا الذي

(١) في الأصل و(م): به، والصواب ما أثبتناه، ينظر ما سلف ١٧/ ٩٨، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٠.
(٢) البحر ٦/ ٥٠٠.
(٣) والتقدير: وإذا رأوك قالوا أهذا الذي...، واعترض بجملة النفي. الدر المصون ٨/ ٤٨٥.
(٤) الإملاء ٤/ ١٠٠.

بَعَثَ اللهُ رسولاً في زَعْمِه. وما تقدَّم أوفقُ بحالِ أولئك الكفرةِ مع سلامته من التقدير.

﴿إِن كَادَ﴾ «إن» مخَفَّفةٌ من «إنَّ»، واسمُها عند بعضٍ ضميرُ الشأن محذوفٌ، أي: إنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ليَصْرِفُنا عن عبادتها صَرْفاً كلِّيًّا بحيث يُبْعِدُنا عنها لا عن عبادتها فقط. والعدولُ إلى الإضلال لغايةِ ضلالهم بادِّعاء أنَّ عبادتها طريقٌ سويٌّ.

﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبتْنا عليها واستَمْسَكْنا(١) بعبادتها، و«لولا» في أمثال هذا الكلام يجري مجرى التقييد للحكم المطلَقِ من حيث المعنى دون اللفظ، وهذا اعترافٌ منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد، وإظهارِ المعجزات، وإقامةِ الحجج والبيِّناتِ، ما شارَفوا به أن يتركوا دينَهم لولا فرطُ لجَاجِهم وغايةُ عنادهم. ولا ينافي هذا استحقارَهم واستهزاءهم السابقَ؛ لأنَّ هذا من وجهٍ وذاك من وجهٍ آخَرَ زعموه سبباً لذلك، قاتَلَهم الله تعالى.

وقيل: إنَّ كلامهم قد تَناقَضَ لاضطرابهم وتحيُّرِهم، فإنَّ الاستفهامَ السابقَ دالٌّ على الاستحقارِ، وهذا دالٌّ على قوةِ حجَّتِه وكمالِ عقله ﷺ، ففيما حكاه سبحانه عنهم تحميقٌ لهم، وتجهيلٌ لاستهزائهم بما استَعْظَموه.

وقيل عليه: إنه ليس بصريحٍ في اعترافهم بما ذكر، بل الظاهرُ أنه أُخرج في مَعْرِضِ التسليم تهكُّماً، كما في قولهم: «بعث الله رسولاً»، وفيه منعٌ ظاهر والتناقضُ مندفعٌ كما لا يخفى(٢).

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبُه كُفْرُهم وعنادُهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: يعلمون جوابَ هذا، على أنَّ «مَن» استفهاميةٌ مبتدأ، و«أضلُّ» خبرُها، والجملةُ في موضع مفعولي «يعلمون» إن كانت تعدَّتْ إلى مفعولين، أو في موضعِ مفعولٍ واحد إن كانت متعدِّيةً إلى واحدٍ.

أو: يعلمون الذي هو أضلُّ، على أنَّ «مَن» موصولةٌ مفعولُ «يعلمون»،

---

(١) في (م): استمكنا، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢، والكلام منه.

(٢) لأن «كاد»، ونسبةُ الإضلال إليه وتسليمُ إلهيَّة ما عبدوه، يدفع التناقض ويأبى الاستهزاء، والمصنف بهذا يرجح ما ذكره أوَّلاً. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٦.

و«أضلُّ» خبر مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ صلةُ الموصول، وحُذِفَ صَدْرُ الصِّلةِ ـ وهو العائد ـ لطولها بالتمييز.

وكأنَّ أولئك الكفرةَ لمَّا جعلوا دعوتَه ﷺ إلى التوحيد إضلالاً ـ حيث قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ إلخ، والمُضِلُّ لغيره لا بدَّ أن يكون ضالًّا في نفسه ـ جيءَ بهذه الجملة ردًّا عليهم، ببيانِ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ هادٍ لا مُضِلٌّ على أبلغ وجهٍ، فإنها تدلُّ على نفي الضلال عنه ﷺ؛ لأنَّ المراد أنهم يعلمون أنهم في غاية الضلال لا هو، ونفيُ اللازم يقتضي نَفْيَ مَلْزومِه، فيَلْزمُه أن يكون عليه الصلاة والسلام هادياً لا مضلًّا.

وفي تقييد العلم بوقتِ رؤيةِ العذاب وعيدٌ لهم، وتنبيهٌ على أنه تعالى لا يُهْمِلُهم وإن أَمْهلَهم.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعةِ حالِهم بعد حكايةِ قبائحهم من الأقوال والأفعال، والتنبيهِ على ما لَهم من المصير والمآل، وتنبيهٌ على أنَّ ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يُرى ويُتَعَجَّبَ منه. والظاهرُ أنَّ «رأى» بصريةٌ، و«مَن» مفعولُها وهي اسمٌ موصولٌ، والجملةُ بعدها صلةٌ.

و «اتَّخذ» متعدِّيةٌ لمفعولين: أَوَّلهما «هواه»، وثانيهما «إلهه»، وقُدِّم على الأول للاعتناء به من حيث إنه الذي يدورُ عليه أمرُ التعجيبِ، لا من حيث إنَّ الإله يستحقُّ التعظيمَ والتقديمَ كما قيل، أي: أرأيتَ الذي جَعَلَ هواه إلهاً لنفسه بأنْ أطاعه وبَنَى عليه أمرَ دينه مُعْرِضاً عن استماع الحُجَّةِ الباهرةِ وملاحظةِ البرهان النيِّر بالكلِّيةِ، على معنى: انظر إليه وتعجَّبْ منه.

وقال ابن المنير: في تقديم المفعول الثاني هنا نكتةٌ حسنةٌ، وهي إفادةُ الحصر، فإنَّ الكلام قبل الدخول «أرأيت» و«اتَّخذ» الأصلُ فيه: هَوَاهُ إلهُهُ، على أنَّ «هواه» مبتدأٌ خبرُه «إلهه»، فإذا قيل: إلهُهُ هواه، كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحَصْرَ، فيكون معنى الآية حينئذ: أرأيتَ مَن لم يتَّخِذ معبودَه إلَّا هواه، وذلك أبلغُ في ذمِّه وتوبيخِهِ[1].

---

(١) الانتصاف ٣/ ٩٤.

وقال صاحب «الفرائد»: تقديمُ المفعول الثاني يمكنُ حيث يمكنُ تقديمُ الخبرِ على المبتدأ، والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأً وخبراً فالمقدَّمُ هو المبتدأ، فَمَن جَعل ما هنا نظيرَ قولك: علمتُ مُنْطلقاً زيداً، فقد غفل عن هذا، ويمكن أن يقال: المتقدِّم هاهنا يُشْعِرُ بالثبات بخلافِ المتأخِّرِ، فتقدُّم «إلهه» يُشْعِرُ بأنه لا بدَّ من إلهٍ، فهو كقولك: اتَّخذ ابنَه غلامَه، فإنه يُشعر بأنَّ له ابناً ولا يُشْعِرُ بأنَّ له غلاماً، فهذا فائدةُ تقديم «إلهه» على «هواه».

وتعقَّب ذلك الطيبيُّ فقال: لا يُشَكُّ في أنَّ مرتبةَ المبتدأ التقديمُ، وأنَّ المعرفتين أيهما قدِّم كان المبتدأَ، لكنَّ صاحب المعاني لا يَقْطَعُ نظره عن أصل المعنى، فإذا قيل: زيدٌ الأسدُ، فالأسدُ هو المشبَّهُ به أصالةً، ومرتبتُه التأخيرُ عن المشبَّهِ بلا نزاعٍ، فإذا جَعَلْتَه مبتدأً في قولك: الأسدُ زيدٌ، فقد أَزَلْتَهُ عن مقرِّه الأصليِّ للمبالغة، وما نعني بالمقدَّم إلَّا المزالَ عن مكانه لا القارَّ فيه، فالمشبَّه به هاهنا الإله، والمشبَّهُ الهوى؛ لأنهم نزَّلوا أهواءهم في المتابعة منزلةَ الإله، فقدِّم المشبَّهُ به الأصليُّ وأُوقِع مشبَّهاً ليؤذنَ بأنَّ الهوى في باب استحقاقِ العبادة عندهم أقوى من الإله الحقِّ[1] عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولمَّح صاحب «المفتاح» إلى هذا المعنى في كتابه[2]. وأمَّا المثالُ الذي أورده صاحب «الفرائد» فمعنَى قولِه: اتَّخذ ابنَه غلامَه: جَعَلَ ابنَه كالغلامِ يخدمُه في مهنة أهله، وقولِه: اتَّخذ غلامَه ابنَه: جَعَلَ غلامَه كابنه مكرماً مدلَّلاً. اهـ.

وأنت تعلمُ ما في قوله: إنَّ المعرفتين أيهما قدِّم كان المبتدأ. فإنَّ الحقَّ أنَّ الأمر دائرٌ مع القرينة، والقرينةُ هنا قائمة على أنَّ «إلهه» الخبر، وهي عقليةٌ لأنَّ المعنى على ذلك، فلا حاجة إلى جَعْلِ ذلك من التقديم المعنوي.

وقال شيخ الإسلام: مَن توهَّم أنهما على الترتيب بناءً على تَساويهما في التعريف فقد زلَّ عنه أنَّ المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة[3].

---

(١) قوله: الحق، ليس في (م).

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢١، وفيه: المتلبس، بدل: الملتبس.

وفي ذلك ردٌّ على أبي حيان حيث أَوْجَبَ كونَهما على الترتيب. ونَقَلَ عن بعض المدنيين أنه قرأ: «آلهةً» منوَّنةً على الجمع، وجَعَلَ ذلك على التقديم والتأخير، والمعنى: جَعَل كلَّ جنسٍ من هواه إلهاً.

وذَكَر أيضاً أنَّ ابن هرمز قرأ: «إلاهةً» على وزن فِعَالة، وهو أيضاً من التقديم والتأخير، أي: جَعَلَ هواه إلاهةً بمعنى مألوهة، أي: معبودة، والهاءُ للمبالغة فلذلك صُرِفَتْ. وقيل: بل الإلاهةُ الشمسُ، ويقال: أُلاهة بضمِّ الهمزة، وهي غير مصروفةٍ للعَلَمية والتأنيث، لكنَّها لمَّا كانت ممَّا يدخلها لامُ التعريف في بعض اللغات صارت بمنزلةِ ما كان فيه اللامُ ثم نُزِعَتْ، فلذلك صُرِفَتْ وصارتْ كالمنكَّر بعد التعريف؛ قاله صاحب «اللوامح»[(١)]. وهو كما ترى.

والآيةُ نزلت ـ على ما قيل ـ في الحارث بن قيس السهميِّ، كان كلَّما هَوَى حجراً عَبَدَه.

وأخرج ابن أبي حاتم وابنُ مردويه عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل يعبدُ الحَجَرَ الأبيضَ زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وَجَدَ أَحْسَنَ منه رَمَى به وعَبَدَ الآخر، فأنزل الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إلخ[(٢)]. وزَعَم بعضُهم لهذا ونحوه أنَّ هواه بمعنى مَهْوِيِّه، وليس بلازمٍ كما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] رضي الله عنهما أنه قال في الآية: كلما هَوَى شيئاً رَكِبَه، وكلَّما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزُه عن ذلك وَرَعٌ ولا تقوى. فالآيةُ شاملةٌ لمن عَبَدَ غيرَ الله تعالى حَسَبَ هواه، ولمن أطاع الهوى في سائر المعاصي، وهو الذي يقتضيه كلامُ الحسن، فقد أخرج عنه عبد بن حميد[(٤)] أنه قيل

---

(١) البحر ٦/ ٥٠١. وقراءة ابن هرمز ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٩، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٧٢، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٢١).

(٣) كذا ذكر المصنف، وهو وهم منه رحمه الله، والصواب: عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة، والذي أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس خبر آخر، ينظر الدر المنثور ٥/ ٧٢. والخبر عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠.

(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٢.

له: أفي أهل القِبلة شِرْكٌ؟ فقال: نعم، المنافقُ مشركٌ، إنَّ المشركَ يسجد للشمس والقمر من دون الله تعالى، وإنَّ المنافق عَبْدُ هواه، ثم تلا هذه الآيةَ. والمنافقُ عند الحسن مرتكبُ المعاصي كما ذكره غيرُ واحدٍ من الأجِلَّة.

وقد أخرج الطبرانيُّ وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي أمامةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظلِّ السماء من إلهٍ يُعْبَدُ من دون الله تعالى أعظم عند الله عزَّ وجلَّ من هوًى يُتَّبعُ»(١).

ولا يكادُ يَسْلَمُ على هذا من عموم الآية إلَّا مَن اتَّبع ما اختاره الله تعالى لعباده وشَرَعَه سبحانه لهم في كلِّ ما يأتي ويَذَرُ، وعليه يدخل الكافر فيما ذُكر دخولاً أوَّلياً.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ استئنافٌ مسوقٌ لاستبعادِ كونِه ﷺ حفيظاً على هذا المتَّخِذِ يَزْجُره عمَّا هو عليه من الضلال، ويرشده إلى الحقِّ طوعاً أو كرهاً، وإنكار له(٢)، والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له، كأنه قيل: أَبَعْدَ ما شاهَدْتَ غُلوَّه في طاعة الهوى تقسره(٣) على الانقياد إلى الهدى شاء أو أبى.

وجوِّز أن تكون «رأى» عِلْميةً وهذه الجملةُ في موضع المفعول الثاني، وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه ﷺ إياهم ممن يسمَعُ أو يعقِلُ، حَسْبَما يُنْبِئُ عنه جِدُّه عليه الصلاة والسلام في الدعوة، واهتمامُه بالإرشاد والتذكير، على معنى أنه لا ينبغي أن يقع، أي: بل أَتَحْسَبُ أنَّ أكثرهم يسمعون حقَّ السماع ما تتلو عليهم من الآيات القرآنية، أو يعقلون ما أُظهر لهم من الآيات الآفاقية والأنْفُسِية، فتعتنيَ في شأنهم وتطمعَ في إيمانهم. ولمَّا كان الدليلُ السَّمْعيُّ أهمَّ - نظراً للمقام - من الدليل العقليِّ قيل: «يسمعون أو يعقلون».

---

(١) المعجم الكبير (٧٥٠٢)، والحلية ٦/ ١١٨.
(٢) قوله: وإنكار له، عطفٌ في المعنى على قوله: لاستبعاد كونه... إلخ، قال أبو السعود في تفسير الآية: «أفأنت تكون عليه وكيلاً» إنكارٌ واستبعادٌ لكونه ﷺ حفيظاً عليه... إلخ.
(٣) في الأصل و(م): تعسره، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢١، والكلام منه.

وقيل: المعنى: بل أتحسبُ أنَّ أكثرهم يسمعون حقَّ السماع ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح، الداعيةِ إلى المحاسن، فتجتهدَ في دعوتهم وتهتمَّ بإرشادهم وتذكيرهم. ولعل ما قلناه أولى فتدبَّر.

وأيًّا ما كان فضميرُ «أكثرهم» لـ «مَن» باعتبارِ معناه، وضميرُ «عليه» له أيضاً باعتبارِ لَفْظِه، واختير الجمعُ هنا لمناسَبةِ إضافة الأكثر لهم، وأُفرد فيما قبله لجَعْلِهم في اتِّفاقهم على الهوى كشيءٍ واحد.

وقيل: ضميرُ «أكثرهم» للكفار لا لـ «مَن»؛ لأنَّ قوله تعالى: «عليه» يأباه، وليس بشيءٍ.

وضميرا الفعلين للأكثر لا لِمَا أضيفَ إليه، وتخصيصُ الأكثر لأن منهم مَن سبقتْ له العنايةُ الأزلية بالإيمان بعد الاتِّخاذ المذكور، ومنهم مَن سمع أو عقل لكنه كابَرَ استكباراً وخوفاً على الرياسة.

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ إلخ جملةٌ مستأنفةٌ لتكرير النَّكيرِ وتأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحسبان بالمرَّة، والضميرُ للأكثر أو لـ «مَن»، واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله، أي: ما هم في عَدَمِ الانتفاعِ بما يَقْرَعُ آذانَهم من قوارِعِ الآيات، وانتفاءِ التدبُّرِ بما يشاهدونه من الدلائل البيِّناتِ، إلا كالبهائم التي هي مَثَلٌ في الغَفْلةِ وعَلَمٌ في الضَّلالة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ لِمَا أنها تنقادُ لصاحبها الذي يتعهَّدُها، وتَعْرِفُ مَن يُحْسِنُ إليها ومن يُسيءُ إليها، وتطلبُ ما ينفعُها، وتَجتَنِبُ ما يضرُّها، وتهتدي لمراعيها ومَشَارِبها، وتأوي إلى معاطنِها ومَرابِضِها، وهؤلاء لا ينقادون لربِّهم سبحانه وخالِقِهم ورازِقِهم، ولا يعرفون إحسانَه تعالى إليهم من إساءةِ الشيطان المزيِّنِ لهم اتِّباعَ الشهواتِ، الذي هو عدوٌّ مُبينٌ، ولا يطلبون الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع، ولا يتَّقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارِّ والمهالِكِ، ولا يهتدون للحقِّ الذي هو المَشْرَعُ[1] الهنيُّ، والمَوْرِدُ العَذْبُ الرَّوِيُّ.

---

(١) المَشْرَعُ كمقعد: المَشْرعة، وهي مورد الشاربة، التي يَشْرَعُها الناس فيشربون منها ويستقون. التاج (شرع).

ولأنَّها إن لم تَعتقد حقًّا مُسْتَتْبِعاً لاكتساب الخير لم تعتقد باطلاً مستوجِباً لاقتراف الشرِّ، بخلافِ هؤلاء حيث مَهَّدوا قواعِدَ الباطل، وفرَّعوا عليها أحكامَ الشرور.

ولأنَّ أحكام جهالتها وضلالتها مقصورةٌ على أنفسها لا تتعدَّى إلى أحدٍ، وجهالةُ هؤلاء مؤدِّيةٌ إلى ثَورانِ الفتنة والفساد، وصدِّ الناس عن سَنَنِ السَّدَادِ، وهَيجَان الهَرْجِ والمَرْجِ فيما بين العباد.

ولأنها غيرُ معطِّلةٍ لقوَّةٍ من القوى المودَعةِ فيها، بل صارفة لها إلى ما خُلِقَتْ له فلا تقصيرَ من قبلها في طلب الكمال، وأمَّا هؤلاء فهم معطِّلون لقواهم العقليةِ، مضيِّعون للفطرة الأصلية التي فُطِرَ الناسُ عليها.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ البهائم لا تعلم ربَّها عزَّ وجلَّ، ومَن ذهب إلى أنها تعلمُه سبحانه وتسبِّحه كما هو مذهبُ الصوفيةِ وجماعةٍ من الناس قال: إنَّ هذا خارجٌ مخرجَ الظاهر.

وقيل: المراد: إنْ هم إلَّا كالأنعام في عدم الانتفاع بالآيات القرآنية والدلائل الأَنْفسِيَّةِ والآفاقية، فإنَّ الأنعام كذلك، والعلمُ بالله تعالى الحاصلُ لها ليس استدلاليًّا بل هو فطريٌّ، وكونُهم أضلَّ سبيلاً من الأنعام من حيث إنها رُزِقَتْ عِلْماً بربِّها تعالى فهي تسبِّحُه عزَّ وجلَّ به، وهؤلاء لم يُرْزَقوا ذلك فهم في غاية الضلال.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلخ بيانٌ لبعض دلائل التوحيد إِثْرَ بيانِ جهالةِ المُعْرِضينَ عنها وضلالهم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، والهمزةُ للتقرير، والرؤيةُ بَصَريةٌ لأنها التي تتعدَّى بـ «إلى»، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ حُذِفَ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه، أي: أَلَمْ تَنْظُرْ إلى صُنْعِ ربِّكَ، لأنَّه ليس المقصودُ رؤيةَ ذاتِ الله عزَّ وجلَّ. وكون «إلى» اسماً واحدَ الآلاء ـ وهي النِّعَم ـ بعيدٌ جدًّا.

وجوِّز أن تكون عِلْميَّةً وليس هناك مضافٌ مقدَّر، وتعديتُها بـ «إلى» لتضمين معنى الانتهاء، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى أنَّ ربَّك كيف مدَّ الظلَّ. والأولُ أَوْلَى.

وذكر بعضُ الأجلَّةِ أنه يحتمل أن يكون حقُّ التعبير: أَلَمْ تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك، فعُدِلَ عنه إلى ما في النَّظْمِ الجليل إشعاراً بأنَّ المعقول المفهومَ مِن هذا

الكلام لوضوح برهانِه ـ وهو دلالةُ حدوثِه وتصرُّفِه على الوجه النافع بأسبابٍ ممكنةٍ على أنَّ ذلك فعلُ الصانع الحكيم ـ كالمشاهَدِ المرئيِّ، فكيف بالمحسوس منه.

وقال الفاضل الطيبيُّ: لو قيل: ألم تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك كان الانتقالُ من الأثر إلى المؤثِّر، والذي عليه التلاوةُ كان عكسَه والمقامُ يقتضيه لأنَّ الكلام في تقريع القومِ وتجهيلهم في اتِّخاذهم الهوى إلهاً مع وضوح هذه الدلائل، ولذلك جَعَلَ ما يدلُّ على ذاته تعالى مقدَّماً على أفعاله في سائر آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ [الفرقان: ٤٧] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾ [الفرقان: ٥١].

ورَوَى السُّلميُّ في «الحقائق» عن بعضهم: مخاطبةُ العامِّ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ومخاطبةُ الخاصِّ: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ)(١). انتهى.

وفي «الإرشاد»: لعل توجيهَ الرؤية إليه سبحانه مع أنَّ المراد تقريرُ رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مدِّ الظلِّ؛ للتنبيه على أنَّ نظره عليه الصلاة والسلام غيرُ مقصورٍ على ما يطالعه من الآثار والصنائع، بل مَطْمَحُ أنظارِه ﷺ معرفةُ شؤون الصانع المجيدِ ﷻ(٢). ولعل هذا هو سرُّ ما رُوي عن السُّلميِّ.

وقيل: إنَّ التعبير المذكورَ للإشعار بأنَّ المقصود العلمُ بالربِّ علماً يُشْبِهُ الرؤيةَ.

ونقل الطبرسيُّ عن الزجَّاج أنه فسَّر الرؤية بالعلم، وذَكَر أنَّ الكلام من باب القَلْبِ، والتقدير: ألمْ تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك(٣). ولا حاجةَ إلى ذلك.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ، وللإيذان بأنَّ ما يعقبُه من آثارِ ربوبيته تعالى ورحمته جلَّ وعلا.

و «كيف» منصوبٌ بـ «مدَّ» على الحالية، وهي معلِّقة لـ «ترَ» إن لم تكن الجملةُ

---

(١) حقائق التأويل ٢/ ٦١-٦٢، وفيه عن الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة الخالق فأثبتوا به المخلوق، ومخاطبة العوام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ ومخاطبة الخاصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١١١، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٠.

مستأنفةً. وفي «البحر»: أنَّ الجملةَ الاستفهاميةَ التي يتعلّق عنها فعلُ القلب ليست[١] باقيةً على حقيقة الاستفهام[٢]. وفيه بحثٌ.

وذكر بعضُ الأفاضل: أنَّ «كيف» للاستفهام، وقد تُجَرَّدُ عن الاستفهام وتكون بمعنى الحال، نحو: انظر إلى كيف تَصْنَع، وقد جوَّزه الدمامينيُّ[٣] في هذه الآية على أنه بدلُ اشتمالٍ من المجرور، وهو بعيد. انتهى، ولا يخفى أنه يُسْتَغْنَى على ذلك عن اعتبار المضافِ، لكنه لا يعادِلُ البُعْدَ.

والمراد بالظلِّ على ما رواه جماعةٌ عن ابن عباس ومجاهدٍ وقتادةَ والحسنِ وأيوبَ بنِ موسى وإبراهيمَ التيميِّ والضحاكِ وأبي مالكٍ الغفاريِّ وأبي العالية وسعيد بنِ جُبيرٍ: ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وذلك أطيبُ الأوقات، فإنَّ الظُّلمة الخالصةَ تَنْفِرُ عنها الطباعُ وتسدّ النظر، وشعاعُ الشمس يسخِّنُ الجوَّ ويبهرُ البَصَرَ، ومن هنا كان ظلُّ الجنة ممدوداً كما قال سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وقيل: المراد به ما يكون من مقابلةِ كثيفٍ كجبلٍ أو بناءٍ أو شجرٍ للشمس عند ابتداء طلوعها، «ومدَّ الظلَّ» من بابِ: ضيِّقَ فَمَ القِرْبَةِ، فالمعنى: أَلَمْ تنظر إلى صُنْع ربِّك كيف أنشأ ظلَّ أيِّ مُظلٍّ[٤] كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتدًّا إلى ما شاء الله عزَّ وجلَّ، واختاره شيخ الإسلام.

وتعقَّب ما تقدَّم[٥] بقوله: غيرُ سديدٍ، إذ لا ريبَ في أنَّ المراد تنبيهُ الناس على عظيم قدرةِ الله عزَّ وجلَّ وبالغِ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه، فلا بُدّ أنَّ يراد بالظلِّ ما يتعارفونه من حالةٍ مخصوصةٍ يشاهدونها في موضعٍ يحولُ بينه وبين الشمس جسمٌ مخالفة لِمَا في جوانبه من مواقع ضِحِّ الشمس، وما ذُكِرَ وإنْ كان في الحقيقة ظلًّا

(١) في (م): ليس.
(٢) البحر ٦/ ٥٠٣.
(٣) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٧، والكلام منه.
(٤) في الأصل: ظل أي مظلا، وفي (م): ظلا أي مظلا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢، والكلام منه.
(٥) يعني قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

للأفق الشرقي لكنهم لا يَعدُّونه ظلًّا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة[١]. اهـ.

وفيه منعٌ ظاهرٌ، وهو أظهرُ على ما ذكره أبو حيان في الاعتراض على ذلك من أنه لا يسمَّى ظلًّا[٢]، فقد قال الرَّاغب وكفى به حجةً في اللغة: الظلُّ ضدُّ الضِّحِّ وهو أعمُّ من الفيء؛ فإنه يقال: ظلُّ الليل، وظلُّ الجنة، ويقال لكلِّ موضعٍ لم تَصل إليه الشمس: ظلٌّ، ولا يقال: الفيء إلَّا لِمَا زال عنه الشمس[٣]. انتهى.

وظاهرُ قوله تعالى: (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) في وَصْفِ الجنة يقتضي أنهم يَعدُّون مثلَ ما ذُكر ظلًّا.

وقيل: هو ماكان من غروب الشمس إلى طلوعها، وحُكي ذلك عن الجبائيِّ والبَلْخيِّ.

وقيل: هو ماكان يومَ خَلَقَ الله تعالى السماءَ وجَعَلَها كالقبة، ودَحَا الأرضَ من تحتها فألْقَتْ ظِلَّها عليها، وليس بشيءٍ وإن فسِّر «ألم تر» بـ: ألم تعلم؛ لِمَا في تطبيق ما يأتي من تتمة الآية عليه من التكلُّف وارتكابِ خلافِ الظاهر، وربما يَفُوتُ عليه المقصودُ الذي سيق له النَّظْمُ الكريم.

وربما يختلجُ في بعض الأذهان جوازُ أن يُرادَ به ما يشملُ جميعَ ما يَصْدُقُ عليه أنه ظلٌّ، فيشملُ ظلَّ الليل، وما بين الفجر وطلوعِ الشمس، وظلَّ الأشياء الكثيفة المقابِلَةِ للشمس كالجبال وغيرِها؛ فإذا شَرَعَ في تطبيق الآية على ذلك عَدَلَ عنه كما لا يخفى.

وللصوفية في ذلك كلامٌ طويلٌ سنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً منه، وجمهورُ المفسِّرين على الأول، والقولُ الثاني أسلمُ من القال والقيل.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ بين المتعاطفَيْنِ للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخلَ للأسباب العادية، مِن قُرْبِ الشمس إلى الأفق الشرقيِّ على الأول، أو قيامِ الشاخِصِ الكثيف على الثاني، وإنما المؤثِّرُ فيه

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢.

(٢) البحر ٦/ ٥٠٣.

(٣) مفردات الرَّاغب (ظلل).

حقيقةُ المشيئةُ والقدرةُ، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ، وهو مضمونُ الجزاء كما هو القاعدةُ المستمرَّة في أمثال هذا التركيب، أي: ولو شاء جَعْلَه ساكناً لجعَلَه ساكناً، أي: ثابتاً على حاله ظلًّا أبداً كما فعل عزَّ وجلَّ في ظلِّ الجنة، أو لجَعَله ثابتاً على حاله من الطول والامتدادِ، وذلك بأنْ لا يجعلَ سبحانه للشمس على نسخه سبيلاً بأن يُطْلِعها ولا يَدَعَها تنسخُه، أو بأن لا يَدَعَها تغيِّره باختلافِ أوضاعها بعد طلوعها.

وقيل: بأنْ يجعلَها بعد الطلوع مقيمةً على وضعٍ واحدٍ، وليس بذاك.

وإنما عبَّر عن ذلك بالسكون؛ قيل: لِمَا أنَّ مُقابِلَه الذي هو زوالُه لَمّا كان تدريجيًّا كان أشبهَ شيءٍ بالحركة. وقيل: لِمَا أنَّ مُقابِله الذي هو تغيُّر حالِه حَسبَ تغيُّرِ الأوضاع بين المُظلِّ(١) وبين الشمس يُرى رأيَ العين حركةً وانتقالاً.

وأفاد الزمخشريُّ أنه قوبِلَ مدُّ الظلِّ الذي هو انبساطُه وامتدادُه بقوله تعالى: ﴿سَاكِنًا﴾(٢). والسكونُ إنما يقابِلُ الحركةَ، فيكونُ قد أُطلق مدُّ الظلِّ على الحركةِ مجازاً من باب تسمية الشيء باسم مُلابِسه أو سببه كما قرَّره الطيبيُّ، وذَكَر أنه عدَلَ عن حرَّكَ إلى «مد» مع أنه أظهرُ من «مدَّ» في تناوله الانبساطَ والامتدادَ؛ ليدمجَ فيه معنى الانتفاعِ المقصود بالذات، وهو معرفةُ أوقات الصَّلوات؛ فإن اعتبارَ الظلِّ فيها بالامتداد دون الانبساط، وتمَّم معنى الإدماج بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: بالتدرُّج والمَهلِ لمعرفة الساعات والأوقاتِ، وفيه لمحةٌ من معنى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]. اهـ.

ولا يَبعدُ أن يقال: إنَّ التعبير بـ «مَدَّ» لِمَا أنَّ الظلَّ المذكور ظلُّ الأفق الشرقيِّ، وقد اعتُبر المَشْرِقُ والمَغْرِبُ طرفي جهتي الأرضِ طولاً، والشمالُ والجنوبُ طرفي جهتيها عَرْضاً، أو لأنَّ ظهوره في الأرض، وطولُ المعمور منها الذي يسكنه مَن يشاهِدُ الظلَّ أكثرُ من عَرْضِ المعمور منها؛ إذ الأولُ كما هو المشهورُ نصفُ دورٍ، أعني مئةً وثمانين درجةً، والثاني دون ذلك على جميع الأقوال فيه، فيكون الظلُّ

(١) في الأصل و(م): الظل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٩٤.

بالنظر إلى الرائين في المعمور من الأرض ممتدًّا ما بين جهتي شرقيِّه وغربيِّه أكثر مما بين جهتي شماليِّه وجنوبيِّه.

وربما يقال: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ مبدأ الظلِّ الفجرُ الأول، وضوءُه يُرى مستطيلاً ممتدًّا كذَنَبِ السِّرْحَان[١]، ويُلتزم القول بأنه لا يذهب بالكلِّيةِ وإن ضَعُفَ، بل يبقى حتى يمدَّه ضوءُ الفجر الثاني فيُرى منبسطاً، والله تعالى أعلم.

وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ عطفٌ على «مدَّ» داخلٌ في حُكْمِه، أي: ثم جَعَلْنا طلوعَ الشمس دليلاً على ظهورِه للحسِّ، فإنَّ الناظر إلى الجسم الملوَّنِ حالَ قيامِ الظلِّ عليه لا يظهرُ له شيءٌ سوى الجسمِ ولونه، ثم إذا طلعت الشمسُ ووقع ضوءُها على الجسم ظَهَرَ له أنَّ الظلَّ كيفيةٌ زائدةٌ على الجسم ولونِه:

والـضـدُّ يُـظْـهِـرُ حـالَـه الـضِّـدُّ[٢]

قاله الرازي والطبريُّ[٣] وغيرُهما.

وقيل: أي: ثم جعلناها دليلاً على وجوده، أي: علَّةً له؛ لأنَّ وجوده بحركةِ الشمس إلى الأفق وقربِها منه عادةً، ولا يخفى ما فيه.

أو: ثم جعلناها علامةً يُستدلُّ بأحوالها المتغيِّرةِ على أحواله من غير أن يكون بينهما سببيةٌ وتأثيرٌ قطعاً حَسْبَما نطقَ به الشرطيةُ المعترِضة.

ومن الغريب الذي لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى المجيد أنَّ «على» بمعنى «مع»، أي: ثم جعلنا الشمسَ مع الظلِّ دليلاً على وحدانيتنا، على معنى: جَعَلْنا الظلَّ دليلاً وجَعَلْنا الشمسَ دليلاً على وحدانيتنا.

---

(١) المراد بالسِّرحان هنا: الذئب، ويقال: الأسد. والفجر فجران، يقال للأول منهما: ذَنَب السِّرحان، وهو الفجر الكاذب، شبِّه بذنب السِّرحان لأنه مستدقٌّ صاعد في غير اعتراض. والفجر الثاني هو الفجر الصادق، الذي يستطير وينتشر، وهو عمود الصبح. أدب الكاتب ص٩٠، والنهاية والتاج (سرح).

(٢) وصدره: ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا، كما في سرِّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص٦٤، وغرر الخصائص الواضحة ص٧، وفيها: حُسْنَه، بدل: حاله.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٨٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٦٣.

والالتفاتُ إلى نونِ العَظَمة للإيذان بعظم قَدْرِ هذا الجَعْلِ؛ لِمَا يستتبعُه من المصالح التي لا تُحصى، أو لِمَا في الجَعْلِ المذكورِ العاري عن التأثير، مع ما يشاهَدُ بين الظلِّ والشمس من الدَّوران المطَّرِدِ المُنْبِئ عن السببية، من مزيدِ الدلالة على عظم القدرة، ودقَّةِ الحكمة.

و «ثم» إما للتراخي الرُّتْبيِّ، ويُعلَمُ وجهُه مما ذكر، وإما للتراخي الزمانيِّ كما هو حقيقةُ معناها بناءً على طول الزمان بين ابتداءِ الفجر وطلوعِ الشمس.

وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ عطفٌ على «مدَّ» داخلٌ في حكمه أيضاً، أي: ثم أَزَلْناه بعد ما أنشأناه ممتدًّا عند إيقاع شعاع الشمس موقعَه، أو بإيقاعه كذلك، ومَحَوْناه على مَهَلٍ قليلاً قليلاً حَسبَ سَيْرِ الشمس، وهذا ظاهرٌ على القول بأنَّ المراد بالظلِّ ظلُّ الشاخص من جبلٍ ونحوِه.

وأمَّا على القول بأنَّ المراد به ما بين الطُّلوعَيْنِ، فلأنه إذا عمَّ لا يزولُ دفعةً واحدةً بطلوع الشمس في أفقٍ؛ لكرويةِ الأرض واختلافِ الآفاق، فقد تَطْلُعُ في أفقٍ ويزولُ ما عند أهله من الظلِّ وهي غيرُ طالعةٍ في أفقٍ آخَر وأهلُه في طرفٍ من ذلك الظلِّ، ومتى ارتفعت عن الأفق الأول حتى بانت من أفقهم زال ما عندهم من الظلِّ، فزوالُ الظلِّ بعد عمومه تدريجيٌّ. كذا قيل.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، فإنَّ زواله تدريجيٌّ نظراً إلى أفقٍ واحدٍ أيضاً، بناءً على أنه يبقى منه بعد طلوعِ الشمس ما لم يقع على موقعه شعاعُها لمانعِ جبلٍ ونحوِه، ويزولُ ذلك تدريجاً حَسبَ حركة الشمس ووقوعِ شعاعها على ما لم يقع عليه ابتداءَ طلوعها.

وكأنَّ التعبير عن تلك الإزالة بالقبض ـ وهو كما قال الطبرسيُّ: جَمْعُ الأجزاء المنبسطة[١] ـ لِمَا أنه قد عبَّر عن الإحداث بالمدِّ.

وقوله سبحانه: (إِلَيْنَا) للتنصيص على كون مَرْجِع الظلِّ إليه عزَّ وجلَّ لا يشاركه حقيقةً أحدٌ في إزالته كما أنَّ حدوثه منه سبحانه لا يشاركُه حقيقةً فيه

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٠٩.

أحدٌ، و«ثم» يحتمل أن تكون للتَّراخي الزمانيِّ، وأن تكون للتَّراخي الرُّتْبي نحو ما مرَّ.

ومَن فسَّر «الظلَّ» بما كان يومَ خَلَقَ اللهُ تعالى السماءَ كالقُبَّةِ ودَحا الأرضَ من تحتها فألقت ظلَّها عليها، جَعَل معنى «ثم جعلنا» إلخ: ثم خلقنا الشمسَ وجعلناها مسلَّطةً على ذلك الظلِّ، وجعلناها دليلاً متبوعاً له كما يُتْبَعُ الدليلُ في الطريق، فهو يَزيدُ [بها][1] ويَنْقصُ ويمتدُّ ويقلصُ، ثم قبضناه قبضاً سهلاً لا عُسْرَ فيه.

ويحتمل أن يكون قَبْضُه عند قيام الساعة بقرينةِ «إلينا» وكذا «يسيراً»، وذلك بقَبْضِ أسبابه وهي الأجرامُ التي تُلقي الظلَّ، فيكونُ قد ذَكَر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذَكَر إنشاءه بإنشاء أسبابه، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّقه ولمناسبةِ ما ذُكِرَ معه، و«ثم» للتراخي الزمانيِّ، وفيه ما فيه كما أشرنا إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيانٌ لبعضِ بدائع آثارِ قدرته عزَّ وجلَّ، وروائعِ أحكامِ رحمتِه ونعمتِه الفائضةِ على الخلق، وتلوينُ الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقَّه، واللامُ متعلِّقةٌ بـ «جَعَل»، وتقديمُها على مفعولَيه للاعتناء ببيانِ كونِ ما بَعْدُ من منافعهم، وفي تعقيب بيانِ أحوال الظلِّ ببيانِ أحكام الليل الذي هو ظلُّ الأرض من لطفِ المسلك ما لا مزيدَ عليه.

أي: وهو الذي جَعَل لنَفْعِكم الليلَ كاللِّباس يستُرُكم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿و﴾ جَعَلَ ﴿ٱلنَّوْمَ﴾ الذي يقع فيه غالباً بسبب استيلاء الأبخرة على القوى عادةً ـ وقيل: بشمِّ نسيمٍ يهبُّ من تحت العرش، ولا يكاد يصحُّ ـ ﴿سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقَطْعِ الأفاعيل التي تكون حالَةَ اليقظة.

وأصلُ السَّبْتِ: القَطْعُ. وقيل: يومُ السبت؛ لِمَا جرت العادةُ من الاستراحة فيه على ما قيل، وقيل: لأنَّ الله تعالى لم يَخْلُق فيه شيئاً، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلَّة: مَسْبوت، وإلى هذا ذهب أبو مسلم[2].

---

(١) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٩٤، وتفسير النيسابوري ١٩/ ١٧، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٣.

(٢) كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٨٩.

وقال أبو حيان: السُّبَاتُ: ضربٌ من الإغماء يعتري اليقظانَ مرضاً، فشبِّه النومُ به، والسبتُ: الإقامةُ في المكان، فكان النومُ سكوناً ما[١].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: ذا نشورٍ، ينتشِرُ فيه الناسُ لطلب المعاش، فهو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] وفي جَعْلِه نفسَ النشورِ مبالغةٌ. وقيل: نشوراً بمعنى ناشراً على الإسناد المجازيِّ.

وجوِّز أن يراد بالسُّبات الموتُ؛ لِمَا فيه من قَطْعِ الإحساس أو الحياة، وعبَّر عن النوم به لِمَا بينهما من المُشابَهةِ التامَّةِ في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقولُه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وبالنشور البعثُ، أي: وجَعَلَ النهار زمانَ بَعْثٍ من ذلك السُّبات[٢]، أو نفسَ البعث على سبيل المبالغة.

وأبَى الزمخشريُّ الراحةَ في تفسير السُّبات، وقال: إنه يأباه النشور في مقابَلتِه إباءَ العَيُوفِ الوِرْدَ وهو مُرَنَّق[٣]. وكأنَّ ذلك لأنَّ النشور في القرآن لا يكاد يوجَدُ بمعنى الانتشار والحركةِ لطلَبِ المعاش، وعلَّل في «الكشف» إباءَ الزمخشريِّ بذلك، وبأنَّ الآيات السابقةَ واللاحقةَ مع ما فيها من التذكير بالنعمة والقدرةِ أدمجَ فيها الدلالة على الإعادة، فكذلك ينبغي أن لا يفرَّق بين هذه وبين أترابها.

وكأنه جَعَلَ جَعْلَ الليلِ لباساً والنومِ فيه سباتاً بمجموعهِ مُقابِلَ جَعْلِ النهارِ نشوراً، ولهذا كرَّر «جَعَلَ» فيه لِمَا في النشور من معنَى الظهورِ والحركةِ الناصبة، أو معنَى الظهورِ والبعثِ، ولم يسلك في آية سورة النبأ هذا المسلكَ لِمَا لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير بالتوحيد[٤] على إرادة الجنس بـ «أل» أو الاستغراق، فهو في معنى الجمع موافقة لقراءة الجمهور.

وقال ابن عطية: قراءةُ الجمع أَوْجَهُ، لأنَّ الريح متى وَرَدتْ في القرآن مفردةً

---

(١) البحر ٦/ ٥٠٤.
(٢) في (م): الثبات، وهو تصحيف.
(٣) الكشاف ٣/ ٩٤. والعَيُوف من الإبل: الذي يَشَمُّ الماءَ فيدعه وهو عطشان. ومرنَّق: مكدَّر، من رنَّق الماء: كدَّره. القاموس (عيف) و(رنق).
(٤) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

فهي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعةً؛ لأنَّ ريح المطر تتشعَّبُ وتتذأَّبُ[١] وتتفرَّقُ وتأتي لينةً من هاهنا وهاهنا، وشيئاً إثرَ شيءٍ، وريحُ العذاب تأتي جسداً واحداً لا تتذأَّب، ألا ترى أنها تَحْطِمُ ما تَجِدُ وتَهْدِمُه[٢].

وقال الرمَّاني: جُمِعت رياحُ الرحمة لأنَّها ثلاثةٌ لواقحُ: الجنوب، والصبا، والشمال[٣]، وأُفرِدتْ ريحُ العذاب لأنها واحدةٌ لا تلقح وهي الدَّبور، وفي قوله ﷺ إذا هبَّت الريحُ: «اللهم اجْعَلْها رياحاً ولا تَجْعَلْها ريحاً»[٤] إشارةٌ إلى ما ذُكر.

وأنت تعلم أنَّ في كلام ابن عطية غفولاً عن التأويل الذي تتوافَقُ به القراءتان، وقد ذكر في «البحر» أنه لا يَسُوغُ أن يقال في تلك القراءة: إنها أَوْجَهُ من القراءة الأخرى، مع أنَّ كلًّا منهما متواترٌ، و«أل» في الريح للجنس فتعمُّ[٥].

وما ذُكر في التفرقة بين المُفْرَدِ والمجموع أكثريٌّ، أو عند عدم القرينة، أو في المنكَّر كما جاء في الحديث، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الروم[٦] ما يتعلَّق بهذا المبحث.

﴿بُشْرًا﴾ تخفيفُ بُشُراً بضمتين جمع بَشُور بمعنى مبشِّر، أي: أَرْسلَ الرياح مبشِّرات.

---

(١) تذأَّبت الريح: جاءت في ضعف من هنا وهنا.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٣.
(٣) في الأصل و(م): والدبور، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٢١٣، والبحر ٦/ ٥٠٥، وعنه نقل المصنف، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الروم.
(٤) أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١٥٣٣)، وابن عدي ٢/ ٧٦٣ من طريق الحسين بن قيس، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، وحسين بن قيس ضعفه أبو زرعة وابن معين، وقال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال الدار قطني: متروك. الميزان ١/ ٥٤٦.
وأخرجه الشافعي في الأم ١/ ٢٢٤ قال: أخبرني مَن لا أتهم قال: حدثنا العلاء بن راشد عن عكرمة، به. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٦) ٢١/ ٥١.

وقرئ: «نُشْراً» بالنون والتخفيف[١] جمع نَشُور، كرسول ورُسْل. و: «نُشُراً» بضم النون والشين[٢]، وهو جمعٌ لذلك أيضاً، أي: أرسلها ناشراتٍ للسحاب، من النشْرِ بمعنى البَعْثِ؛ لأنها تَجْمعُه كأنها تُحْييه، لا من النَّشْرِ بمعنى التفريق لأنه غيرُ مناسبٍ، إلَّا أن يُراد به السَّوقُ مجازاً.

و«نَشْراً» بفتح النون وسكون الشين[٣]، على أنه مصدرٌ وُصِفَ به مبالغة، وجوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «أرْسَلَ»؛ لأنه بمعنى «نَشَرَ». والكلُّ متواترٌ.

وروي عن ابن السميفع أنه قرأ: «بشرى» بألف التأنيث[٤].

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قدَّامَ المطر، وقد استُعيرَتِ الرحمةُ له، ورُشِّحَتِ الاستعارةُ أحسنَ ترشيحٍ، وجوِّز أن يكون في الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ، و«بُشْراً» من تتمة الاستعارة داخلٌ في جملتها.

والالتفاتُ إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإبراز كمالِ العناية بالإنزال[٥]؛ لأنه نتيجةُ ما ذُكِرَ من إرسال الرياح، أي: أنزلناه بعَظَمتنا بما رتَّبنا من إرسالِ الرياح من جهةِ العلوِّ التي ليست مظنةَ الماء، أو من السحاب، أو من الجرم المعلوم، وقد تقدَّم تفصيلُ الكلام في ذلك[٦].

﴿مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ الظاهرُ أنه نعتٌ لـ «ماء»، وعليه قيل: معناه بليغُ الطهارة زائدُها، ووجَّه في «البحر»[٧] المبالغةَ بأنها راجعةٌ إلى الكيفية باعتبارِ أنه لم يَشُبْهُ شيءٌ آخَرُ مما في مقرِّه، أو ممرِّه، أو ما يُطْرَحُ فيه كمياه الأرض.

---

(١) هي قراءة ابن عامر، والأولى وهي «بُشْراً» قراءة عاصم. التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب.

(٣) وهي قراءة الباقين: حمزة والكسائي وخلف.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٣.

(٥) في (م): لإنزال، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤، والكلام منه.

(٦) ينظر ما سلف ١/ ٢٠-٢١.

(٧) ٦/ ٥٠٥.

وفسَّره ثعلب[1] بما كان طاهراً في نفسه مطهِّراً لغيره. وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه إن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً، وإلَّا فليس فَعولٌ من التفعيل في شيء[2].

وقال غيره: إنَّ أَخْذَ التطهير فيه يأباه لزومُ الطهارة، والمبالغةُ في اللازم لا تُوجِبُ التعدِّي.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنه لمَّا لم تكن الطهارةُ في نفسها قابلةً للزيادة رَجَعَتِ المبالغةُ فيها إلى انضمام معنى التطهيرِ إليها، لا أنَّ اللَّازمَ صار متعدِّياً.

وتعقَّبه المولى الدَّوَاني بأنَّ فيه تأمُّلاً من حيث إنَّ انضمامَ معنى التطهير لمَّا كان مستفاداً من المبالغة بمعونة عدم قبول الزيادة كانت المبالغة في الجملة سبباً للتعدِّي. ثم قال: ويمكن التفصِّي بأنَّ المعنى اللازمَ باقٍ بحاله، والمبالغةُ أوجبت انضمامَ المتعدِّي إليه، لا تَعْدِيَةَ ذلك اللازمِ، وبينهما فرقان.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ إفادةَ المبالغةِ تَعَلُّقَ الفعلِ بالغير ممَّا لا يساعدُه لغةٌ ولا عُرْفٌ، وأين هذا التعلُّق في قول جريرٍ:

إلى رُجَّحِ الأكفالِ غيدٍ من الظِّبا عذابِ الثَّنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ[3]

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ومن هذا وأمثالِه اختار بعضُهم كونَ المبالغة راجعةً إلى الكيفية على ما سمعتَ عن «البحر».

---

(١) كما في الكشاف ٣/ ٩٥، والبحر ٦/ ٥٠٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٩٥.

(٣) عزاه لجرير بذكر عجزه فقط النووي في المجموع ١/ ١٣٠، والشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢٩، وابن الهمام في فتح القدير ١/ ٦١، وهو بتمامه دون نسبة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٤، وتفسير القرطبي ١٥/ ٤٢٣، والبحر ٦/ ٥٠٥، واللسان (رجح)، ورواية اللسان والأحكام: إلى رجح الأكفال هيف خصورها...، وذكره بهذه الرواية القالي في أماليه ١/ ١٨٣، ونقل عن ابن الأنباري نسبته لجميل بن معمر العذري، ثم قال: وليست هذه الأبيات في شعر جميل. قوله: رُجَّح، هو جمع رَجَاح وراجح، وهي ثقيلة العجيزة من النسوة، والأكفال جمع كَفَل وهو العجز، والظبي الأغيد: الذي مالت عنقه ولانت أعطافه. اللسان (رجح) و(كفل) و(غيد).

وقال بعض المحققين: إنَّ «طهوراً» هنا اسمٌ لِمَا يُتَطَهَّر به، كما في قوله ﷺ: «الترابُ طَهورُ المؤمن»(١)، وفَعولٌ كما قال الأزهريُّ في كتاب «الزاهر»: يكون اسمَ آلةٍ لِمَا يُفْعَلُ به الشيء، كغَسول ووَضوء وفَطور وسَحور إلى غير ذلك، كما يكون صفةً بمعنى فاعل كأكُول، أو مفعول كصَبوب بمعنى مَصْبوب، واسمَ جنسٍ كذَنوب، ومصدراً ـ وهو نادرٌ ـ كقَبول(٢)، فيفيد التطهير للغير وضعاً. ويمكن حَمْلُ ما رُوِي عن ثعلب على هذا، واعتبارُ كونِه طاهراً في نفسه لأنَّ كونه مطهِّراً للغير فرعُ ذلك، وجُعِلَ على هذا بدلاً من «ماء» أو عطفَ بيانٍ له، لا نعتاً، فيكونُ التركيب نحوَ: أرسلتُ إليك ماءً وَضوءاً.

وأنت تعلم أنَّ المتبادر فيما نحن فيه كونُه نعتاً، فإنْ أمْكَنَ ذلك على هذا الوجه بنوعِ تأويلٍ كان أبْعَدَ عن القيل والقال.

وحَكَى سيبويه أنَّ «طهوراً» جاء مصدراً لتطهَّر في قولهم: تطهَّرْتُ طَهوراً حَسَناً، وذَكَر أنَّ منه قولَه عليه الصلاة والسلام: «لا صلاةَ إلَّا بطَهورٍ»(٣). وحَمْلُ ما في الآية على ذلك ممَّا لا ينبغي. وأيًّا ما كان ففي توصيف الماء به إعظامٌ للمِنَّة كما لا يخفى.

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ أي: بما أنزلنا من الماءِ الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ليس فيها نباتٌ، وذلك بإنبات النبات به، والمرادُ بالبلدة الأرضُ كما في قوله:

أُنيختْ فألْقَتْ بلدةً فوق بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلَّا بُغامها(٤)

وجوَّز أن يراد بها معناها المعروفُ، وتنكيرُها للتنويع، وتذكيرُ صفتها لأنها

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣)، والترمذي (١٠٤) وقال: حسن صحيح. ولفظه: «إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين...» وينظر نصب الراية ١/ ١٤٨.

(٢) الزاهر ص٩٦-٩٨، والذَّنوب كما قال الأزهري: النصيب كقوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩]، أو الدلو الكبيرة.

(٣) أخرجه أحمد (٤٧٠٠)، ومسلم (٢٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) البيت لذي الرمَّة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٠٤، واللسان (بلد)، وفيه: يقول بركت الناقة وألقت صدرها على الأرض، وأراد بالبلدة الأولى: ما يقع على الأرض من صدرها، وبالثانية: الفلاة التي أناخ ناقته بها، والبغام: صوت الناقة. وفي الأساس (بلد): وضعت الناقة بلدتها وهي صدرها: إذا بركت.

بمعنى البلد، أو لأنَّ «ميتاً» من أمثلة المبالغة التي لا تُشْبِهُ المضارعَ في الحركات والسَّكَنات وهو يدلُّ على الثبوت، فأجري مجرى الجوامد. ولامُ «لنحيي» متعلِّقٌ بـ «أنزلنا»، وتعلُّقه بـ «طهوراً» ليس بشيء.

وقرأ عيسى وأبو جعفر: «ميِّتاً» بالتشديد[١]. قال أبو حيان: ورجَّح الجمهورُ التخفيفَ لأنه يماثل فَعْلاً من المصادر، فكما وُصِفَ المذكَّرُ والمؤنَّثُ بالمصدر فكذلك بما أشبهه، بخلاف المشدَّد فإنه يماثل فاعلاً من حيث قبولُه للتاء إلَّا فيما خَصَّ المؤنَّثَ نحو طامث[٢].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: ذلك الماءَ الطَّهورَ عند[٣] جريانه في الأودية، أو اجتماعِه في الحياض والمناقع والآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: أهلَ البوادي الذين يعيشون بالحيا[٤]، ولذلك نكَّر الأنعامَ والأناسيَّ، فالتنكيرُ للتنويع.

وتخصيصُ هذا النوع بالذكر لأنَّ أهل القرى والأمصارِ يقيمون بقُرْبِ الأنهار والمنابع، فبِهم وبما لهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا[٥] السماء، وسائرُ الحيوانات[٦] تبعدُ في طلب الماء فلا يُعْوِزُها الشُّرْبُ غالباً، ومَسَاقُ الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة، كذلك هو لتعداد أنواع النعمة، فالأنعامُ حيث كانت قنيةً[٧] للإنسان وعامَّةُ منافعهم ومعايشهم منوطةٌ بها قدَّم سَقْيَها على سَقْيِهم، كما قدَّم عليها إحياء الأرض فإنه سببٌ لحياتها وتَعيُّشِها، فالتقديمُ من قبيل تقديمِ الأسباب على المسبَّبات.

وجوِّز أن يكون تقديم ما ذُكر على سَقْي الأناسيِّ لأنهم إذا ظفروا بما يكون

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٤ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ٥٠٥.
(٢) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٣) في (م): وعند، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤، والكلام منه.
(٤) الحيا بالقصر: المطر. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٥) في (م): سقي، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠، والسقيا بالضم بمعنى السقي، كما ذكر الشهاب.
(٦) يعني بها ما عدا الأنعام. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٧) بكسر القاف وضمها: ما يقتنيه لنفسه. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.

سُقيا[١] أرضِهم ومواشيهم لم يعدموا سُقْياهم. وحاصلُه أنه من باب تقديم ما هو الأهمُّ والأصلُ في باب الامتنان، وذِكْرُ سقي الأناسيِّ على هذا إردافٌ وتتميمٌ للاستيعاب. و«من» تبعيضيةٌ أو بيانية، و«كثيراً» صفة للمتعاطفَيْنِ لا على البدل.

وقرأ عبد الله، وأبو حيوةَ، وابنُ أبي عبلةَ، والأعمشُ، وعاصمٌ وأبو عمرو في روايةٍ عنهما: «ونَسقيه» بفتح النون، ورُوِيَتْ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢]، وأَسْقَى وسَقَى لغتان. وقيل: أسقاه بمعنى جعل السُّقيا له وهيَّأها.

و «أناسيَّ» جمعُ إنسانٍ عند سيبويه[٣]، وأصلُه: أَنَاسِينَ، فقُلبت نونُه ياءً وأُدغمت فيما قبلها.

وذهب الفرَّاءُ والمبرِّدُ والزجَّاج إلى أنه جمعُ إنسيٍّ[٤]، قال في «البحر»: والقياسُ: أَنَاسِيَة، كما قالوا في مُهَلَّبيٍّ: مَهَالِبَة[٥]. وفي «الدر المصون» أنَّ فعاليَّ إنما يكون جمعاً لِمَا فيه ياء مشدَّدةٌ إذا لم يكن للنَّسَب، ككُرسيّ وكراسيّ، وما فيه ياء النَّسَبِ يُجمع على أفاعلة كأزرقيّ وأَزَارقة، وكونُ ياء إنسي ليست للنسب بعيدٌ، فحقُّه أن يجمع على أَنَاسية[٦]، وقال في «التسهيل»: إنه أكثريٌّ، وعليه لا يَرِدُ ما ذكر[٧].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ الضميرُ للماء المنزل من السماء كالضميرين السابقين، وتصريفُه: تحويلُ أحوالِه وأوقاتِه، وإنزالُه على أنحاءَ مختلفة، أي: وبالله تعالى

(١) في (م): سقي.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥٠٥، وعنه نقل المصنف، والمشهور عن عاصم وأبي عمرو القراءةُ بضم النون كقراءة الجماعة.
(٣) كما في البحر ٦/ ٥٠٥، والدر المصون ٨/ ٤٨٨، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٩، وللزجاج ٤/ ٧١، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٣، وأبو حيان في البحر ٦/ ٥٠٥ وهذا أحد قولين للفراء والزجاج، والقول الثاني لهما موافق لما نقل عن سيبويه.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٦) الدر المصون ٨/ ٤٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٣٠.
(٧) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠، وينظر التسهيل لابن مالك ص٢٧٧.

لقد صرَّفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس في البلدان المختلفة، والأوقاتِ المتغايرة، والصفات المتفاوتة من وابلٍ وطَلٍّ وغيرِهما. ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: ليعتبروا بذلك ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ أي: لم يفعل إلَّا كُفرانَ النعمة وإنكارَها رأساً، بإضافتها لغيره عزَّ وجلَّ بأن يقول: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا[1]، معتقداً أنَّ النجوم فاعلةٌ لذلك، ومؤثِّرة بذَوَاتها فيه، وهذا الاعتقادُ والعياذُ بالله تعالى كفر.

وفي «الكشاف»[2] وغيره: أنَّ مَن اعتَقَدَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقُ الأمطار وقد نصبَ الأنواءَ دلائلَ وأَماراتٍ عليها، وأراد بقوله: مُطِرْنا بنوء كذا: مطرنا في وقت سقوط النجم الفلانيِّ في المغرب مع الفجر، لا يَكْفُر. وظاهرُه أنه لا يأثم أيضاً.

وقال الإمام: مَن جَعَلَ الأفلاكَ والكواكبَ مستقلَّةً باقتضاء هذه الأشياء فلا شكَّ في كفره، وأمَّا مَن قال: إنه سبحانه جَبَلَها على خواصَّ وصفاتٍ تقتضي هذه الحوادثَ فلعله لا يبلغ خطؤُه إلى حدِّ الكفر[3].

وسيأتي إن شاء الله تعالى منَّا في هذه المسألة كلامٌ[4] أرجو من الله تعالى أن تستَحْسِنَه ذَوُو الأفهام، ويتقوَّى به كلامُ الإمام.

ورجوعُ ضمير «أنزلناه» إلى الماء المُنْزَلِ مرويٌّ عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة؛ وأخرج جماعةٌ عن الأول وصحَّحه الحاكم أنه قال: ما من عام بأقلَّ مطراً من عام، ولكنَّ الله تعالى يصرِّفُه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية[5].

---

(١) معنى النوء: سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق، وسمِّي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع، وذلك النهوض هو النَّوء، وكل ناهض بثقل فقد ناء به. وبعضهم يجعل النوء السقوط، كأنه من الأضداد. وكانوا إذا سقط نجم وطلع آخر فكان عنده مطر أو ريح أو بردٌ أو حرٌّ نسبوه إلى الساقط، إلى أن يسقط الذي بعده، فإن سقط ولم يكن مطر قيل: خوى وأخوى. أدب الكاتب ص٨٧، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠. وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٩) من سورة «يسٓ».

(٢) ٣/ ٩٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٩٩.

(٤) عند تفسير الآية (٣٩) من سورة «يسٓ».

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٤٦٨، والمستدرك ٢/ ٤٠٣.

وأخرج الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن الثاني مثلَه[١]. ويُفْهَمُ من ذلك حَمْلُ التصريفِ على التقسيم.

وقال بعضهم: هو راجعٌ إلى القول المفهوم من السياق، وهو ما ذُكر فيه إنشاءُ السحابِ وإنزالُ القَطْرِ، لِمَا ذكر من الغايات الجليلة، وتصريفُه: تكريرُه وذِكْرُه على وجوهٍ ولغاتٍ مختلفة، والمعنى: ولقد كرَّرْنا هذا القولَ وذَكَرْناه على أنحاءَ مختلفةٍ في القرآن وغيرِه من الكتب السماوية بين الناس من المتقدِّمين والمتأخِّرين؛ ليتفكَّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قدرته تعالى، وواسعَ رحمته عزَّ وجلَّ في ذلك، فأبى أكثرُهم ممَّن سَلَفَ وخَلَفَ إلَّا كفرانَ النعمة وقلَّةَ الاكتراثِ بها، أو إنكارَها رأساً بإضافتها لغيره تعالى شأنُه.

واختار هذا القول الزمخشريُّ[٢]، وقال أبو السعود: هو الأظهر[٣].

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاءٍ الخراسانيِّ أنه عائدٌ على القرآن، أَلَا ترى قولَه تعالى بعدُ: (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ)[٤]. وحكاه في «البحر» عن ابن عباس أيضاً[٥]، والمشهورُ عنه ما تقدم، ولعل المراد ما ذُكر فيه من الأدلَّة على كمال قدرته تعالى وواسعِ رحمته عزَّ وجلَّ أو نحوُ ذلك، فتأمَّلْ.

وأمَّا ما قيل: إنه عائد على الريح، فليس بشيءٍ.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ نبيًّا يُنْذِرُ أهلَها فتخفُّ عليك أعباءُ النبوَّةِ لكنْ لم نَشَأْ ذلك وقَصَرْنا الأمرَ عليك إجلالاً لك وتعظيماً.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهييجٌ له ﷺ وللمؤمنين.

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، كما أخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر عن ابن

(١) مكارم الأخلاق ص٨٧، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٤٦٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٩٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٧٣-٧٤.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٦.

عباس رضي الله عنهما(١)، وذلك بتلاوةِ ما فيه من البراهين والقوارِع والزَّواجرِ والمواعظ، وتذكيرِ أحوالِ الأمم المكذِّبة.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ فإنَّ دعوةَ كلِّ العالَمين على الوجه المذكور جهادٌ كبيرٌ لا يقادرُ قَدْرُه كمًّا وكيفاً.

وترتيبُ ما ذُكر على ما قبله حَسْبَما تقتضيه الفاءُ باعتبارِ أنَّ قَصْرَ الرسالة عليه عليه الصلاة والسلام نعمةٌ جليلةٌ ينبغي شكرُها، وما ذُكر نوعٌ من الشكر، فكأنه قيل: بعثناك نذيراً لجميع القرى، وفضَّلناك وعظَّمناك، ولم نبعث في كلِّ قريةٍ نذيراً، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهادِ في الدعوة وإظهارِ الحقِّ.

وفي «الكشف» لبيان النَّظْم الكريم: أنه لمَّا ذَكَرَ ما يدلُّ على حِرْصِهِ ﷺ على طَلَبِ هُدَاهُم، وتمارُضهم في ذلك في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الآية: ٤٣] وذنَّب بدلائل القدرة والنعمة والرحمة دلالةً على أنَّهم لا ينفعُ فيهم الاحتشادُ، وأنهم يَغْمِطون مثلَ هذه النعم، ويَغْفَلون عن عظمةِ مُوْجِدِها سبحانه، وجُعِلوا كالأنعام وأضلَّ، وخَتَم بأنه ليس لهم مرادٌ إلَّا كفورَ نعمته تعالى، قيل: «ولو شئنا» على معنى: إنَّا عظَّمناك بهذا الأمر لتستقلَّ بأعبائه، وتَحُوزَ ما ادُّخِرَ لك من جنس جزائه، فعليك بالمجاهَدةِ والمصابَرةِ، ولا عليك من تلقِّيهم الدعوةَ بالإباء والمُشَاجَرَةِ. وبُولغ فيه فجُعِلَ حرصُه ﷺ على إيمان هؤلاء المطبوعِ على قلوبهم طاعةً لهم وقيل: فلا تُطِعْهم.

ومَدَارُ السورة على ما ذكره الطيبيُّ على كونه ﷺ مبعوثاً على الناس كافةً، ينذرُهم مابين أيديهم وما خَلْفَهم، ولهذا جعل براعةَ استهلالها: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا). والآيةُ على ما سمعتَ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: (أَرَءَيْتَ) إلى آخر الآيات، وفيها من التنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما فيها، وليست مسوقةً للتأذيب كما وُهِم.

وقيل: هي متعلِّقةٌ بما عندها، على معنى: ولو شئنا لقسمنا النذير بينهم، كما قسمنا المطر بينهم، ولكنَّا نفعل ما هو الأنفع لهم في دينهم ودنياهم، فبعثناك

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٥٠.

إليهم كافةً، فلا تُطِع. . إلخ. وفيه من الدلالة على قصور النظر ما فيه.

هذا وجوّز أن يكون ضمير «به» عائداً على تَرْكِ طاعتهم المفهوم من النهي، ولعل الباء حينئذٍ للمُلابَسةِ، والمعنى: وجاهِدْهُم بما ذُكر من أحكام القرآن الكريم مُلابِساً تَرْكَ طاعتهم، كأنه قيل: وجاهدهم بالشدَّة والعنف لا بالملاءمةِ والمُداراة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وإلَّا وَرَد عليه أنَّ مجرَّد تَرْكِ الطاعة يتحقَّق بلا دعوةٍ أصلاً، وليس فيه شائبةُ الجهاد فضلاً عن الجهاد الكبير.

وجوِّز أيضاً أن يكون لِمَا دلَّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الآية: ٥١] من كونه ﷺ نذيرَ كافَّةِ القرى؛ لأنه لو بعث في كلِّ قريةٍ نذيراً لوجب على كلِّ نذيرٍ مجاهدةُ قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهداتُ كلُّها، فكبر من أجل ذلك جهادُه وعظم، فقيل له عليه الصلاة والسلام: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافَّةِ القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكلِّ مجاهَدَةٍ.

وتعقِّب بأنَّ بيانَ سببِ كبر المجاهدة بحَسَبِ الكمية ليس فيه مزيدُ فائدةٍ، فإنه بيِّنٌ بنفسه، وإنَّما اللائقُ بالمقام بيانُ سبب كبرها وعظمها في الكيفية.

وجوّز أبو حيان أن يكون الضميرُ للسيف[1]. وأنت تعلم أنَّ السورة مكيةٌ ولم يُشْرَعْ في مكةَ الجهادُ بالسيف، ومع هذا لا يخفى ما فيه.

ويُستَدَلُّ بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يُورِدون عليهم من الأدلَّة، وأوفرُهم حظًّا المجاهدون بالقرآن منهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج، كما روي عن ابن عباس ﵄، ويقال في هذا: أَمْرَجَ أيضاً على ما قيل، إلَّا أنَّ «مَرَجَ» لغةُ الحجاز، وأَمْرَجَ لغةُ نجدٍ.

وأصلُ المَرْجِ كما قال الرَّاغب: الخَلْطُ، ويقال: مَرِجَ أمرُهم، أي: اخْتَلَطَ[2]. وسمِّي المرعى مَرْجاً لاختلاط النبات فيه. والمراد بـ «البحرين» الماءُ الكثيرُ العَذْبُ

(١) البحر ٦/ ٥٠٦.
(٢) مفردات الرَّاغب (مرج).

والماءُ الكثير الملح من غير تخصيص ببحرين معيَّنين. وهذا رجوعٌ إلى ما تقدَّم من ذكر الأدلَّة.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ إلخ، أي: شديدُ العذوبة، ووزنه فُعال من فَرَتَه وهو مقلوبٌ من رَفَتَهُ: إذا كَسَره؛ لأنه يَكسر سَوْرَةَ العطش ويَقْمَعُها. وقيل: هو البارد كما في «مجمع البيان»[١] = إما استئنافٌ، أو حالٌ بتقديرِ القول، أي: يقال فيهما: هذا عذب فرات ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وقيل: هي حالٌ من غير تقديرِ قولٍ، على معنى: مَرَجَ البحرين مختلفين: عذوبة شديدة، وملوحة كذلك، واسمُ الإشارةِ يُغْنِي غناءَ الضمير.

والأجاج: شديدُ الملوحة، كما أشرنا إليه، أُطلق عليه لأنَّ شُرْبَه يزيد أَجِيجَ العطش. وقال الرَّاغب: هو شديدُ الملوحة والحرارة من أجيج النار[٢]. انتهى.

وقيل: هو المرُّ، وحكاه الطبرسيُّ عن قتادة[٣]. وقيل: الحارُّ، فهو يقابل الفراتَ عند مَن فسَّره بالبارد.

وقرأ طلحةُ بن مصرِّفٍ وقتيبةُ عن الكسائيِّ: «مَلِحٌ» بفَتْح الميم وكَسْرِ اللام هنا[٤] وكذا في «فاطر»، قال أبو حاتم[٥]: وهذا منكَرٌ في القراءة. وقال أبو الفتح[٦]: أراد مالحاً فخفَّفَ بحذف الألف، كما قيل: بَرِدَ في بارد في قوله:

أصبحَ قلبي صَرِدَا
لا يَشْتَهي أن يَرِدَا
إلَّا عَراداً عَرِدَا
وصِلِّياناً بَرِدا

(١) ١٩/ ١١٦.
(٢) مفردات الرَّاغب (أجج).
(٣) مجمع البيان ١٩/ ١١٦، وحكى الطبرسي أيضاً القول الذي سيرد بعده.
(٤) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥٠٧، وعنه نقل المصنف.
(٥) كما في المحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥٠٧.
(٦) هو ابن جني، وكلامه في المحتسب ٢/ ١٢٥.

وعـــنــكـــثـــاً مُـــلْـــتَـــبِـــدا[١]

وقيل: مخفَّفُ مَليح؛ لأنه وَرَدَ بمعنى مالح.

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح»: هي لغةٌ شاذَّةٌ قليلة[٢]. فليس مخفَّفاً من شيءٍ، نعم هو كـ «مِلْح» في قراءة الجمهور بمعنى مالح، والأفصحُ أن يقال في وصف الماء: ماءٌ مِلْحٌ، دون: ماء مالح، وإن كان صحيحاً كما نقل الأزهريُّ ذلك عن الكسائيِّ[٣]، وقد اعترف أيضاً بصحَّته ثعلب[٤]. وقال الخفاجيُّ: الصحيحُ أنه مسموعٌ من العرب كما أَثْبتَه أهلُ اللغة، وأنشدوا لإثباته شواهدَ كثيرةً[٥]. وعليه فمن خطَّأ الإمامَ أبا حنيفة ﵁ بقوله: ماء مالح، فقد أخطأ جاهلاً بقَدْرِ هذا الإمام.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً، وهو لفظٌ عربيٌّ، وقيل: أصلُه: بَرْزَه، فعرِّب. والمرادُ بهذا الحاجز كما أخرج عبد بن حميد وابن جريرٍ وابن أبي حاتم عن الحسن: ما يحولُ بينهما من الأرض[٦]. كالأرض الحائلة بين دجلة ـ ويقال لها بحرٌ لعِظَمها، ولشُيوعِ إطلاق البحر على النهر العظيم صار حقيقةً فيه أيضاً، فلا إشكال في التثنية، وإنْ أبَيْتَ صيرورتَه حقيقةً فاعتبارُ التغليب يَرْفعُ الإشكال ـ وبين البحر الكبير.

---

(١) إصلاح المنطق ص٤٣٦، والمستقصى ١/ ١٤٠، ومجمع الأمثال ١/ ٣١٦، ووقع في الأصل و(م): وعكناً، بدل: وعنكثاً، والمثبت من المصادر. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٥٩٣: هذا من منهوك الرجز، والصَّرِد الذي يجد البرد. والعراد: ضرب من النبت. والعَرِد: الكثير الذي قد طال. والعنكث: ضرب من النبت أيضاً. والملتبد: الذي قد وقع بعضه على بعض. اهـ. والصِّلِّيان بكسرتين مشددة اللام: نبت واحدته بهاء. القاموس (صلل).

(٢) البحر ٦/ ٥٠٧.

(٣) كذا ذكر، وهو في تهذيب اللغة ٥/ ٩٩ منقول عن أبي الدقيش وليس عن الكسائي، وقال الأزهري إثره: هذا وإن وجد في كلام العرب قليلاً، فهي لغة لا تنكر.

(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٢٦.

(٥) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣١.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٤٧٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٧٤.

والمرادُ حيلولتُها في مجاريها، وإلَّا فهي تنتهي إلى البحر، وكذا سائرُ الأنهار العظام، ودلالةُ هذا الجَعْلِ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ كونُه على خلاف مقتضَى الطبيعة، فإنَّ مقتضَى طبيعةِ الماء أن يكون مُتَضامَّ الأجزاء مجتمعاً غامِراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحَاطَةَ الهواء به، ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامَّةَ الأجزاء أيضاً لا غورَ فيها ولا نجد، مغمورةً بالماء واقعةً في جوفه كمركز الدائرة كما قرَّر ذلك الفلاسفةُ، وذكروا في سبب انكشاف ما انكشف من الأرض ووقوعِ الأغوار والأنجاد فيها ما لا يخلو عن قيل وقال.

و«بينهما» ظرفٌ لـ «جعل»، ويجوز أن يكون حالاً من «برزخاً». والظاهرُ أنَّ تنوين «برزخاً» للتعظيم، أي: وجَعَلَ بينهما برزخاً عظيماً، حيث إنه على كثرة مرور الدهور لا يتخلَّلُه ماءُ أحدِ البحرين حتى يَصِلَ إلى الآخر فيغيِّر طعمه.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: وتنافُراً مُفْرِطاً، كأنَّ كلًّا منهما يتعوَّذُ من الآخر بتلك المقالة، والمرادُ لزومُ كلٍّ منهما لصفته من العذوبة والملوحة، فلا ينقلبُ البحر العذبُ ملحاً في مكانه، ولا البحرُ المِلْحُ عذباً في مكانه، وذلك من كمال قدرته تعالى وبالغِ حكمته عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ العذوبةَ والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض، ولا بسببِ طبيعة الماء، وإلَّا لكان الكلُّ عذباً أو الكلُّ ملحاً.

وذُكر في حكمة جَعْلِ البحر الكبير ملحاً أنْ لا ينتنَ بطول المكث وتقادُمِ الدهور، قيل: وهو السرُّ في جَعْلِ دمع العين ملحاً، وفيه حِكَمٌ أخرى اللهُ تعالى أعلمُ بها.

والظاهرُ إنَّ «حجراً» عطفٌ على «برزخاً»، أي: وجعل بينهما هذه الكلمة، والمراد بذلك ما سمعتَ آنفاً، وهو من أبلغ الكلام وأعْذَبِه.

وقيل: هو منصوبٌ بقولٍ مقدَّرٍ، أي: ويقولان حجراً محجوراً.

وعن الحسن: أنَّ المراد من الحِجْرِ ماحَجَر بينهما من الأرض، وتقدَّم تفسيرُه البرزَخَ بنحو ذلك. وكأنَّ الجمع بينهما حينئذٍ لزيادة المبالغة في أمر الحاجز، وما قدَّمنا أولى وأبعدُ مغزًى.

وقيل: المراد بالبرزخ حاجزٌ من قدرته عزَّ وجلَّ غيرُ مرئيٍّ، وبقوله سبحانه:

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ التميُّز التامُّ وعَدَمُ الاختلاط، وأصلُه كلامٌ يقولُه المستعيذُ لِمَا يخافُه كما تقدَّم تفصيلُه، وحاصل معنى الآية: أنه تعالى هو الذي جَعَل البحرين مختلطين في مرأى العين ومنفصلين في التحقيق بقدرته عزَّ وجلَّ أكملَ انفصالٍ، بحيث لا يختلط العذبُ بالمِلْحِ ولا الملحُ بالعذبِ، ولا يتغيَّر طَعْمُ كلٍّ منهما بالآخر أصلاً.

وحُكي هذا عن الأكثرين، وفيه أنه خلافُ المحسوسِ؛ فإنَّ الأنهار العظيمةَ كدِجْلةَ وما ينضمُّ إليها والنيل وغيرهما ممَّا يشاهده الناس إذا اتَّصلت في البحر تغيَّر طعمُ غيرِ قليلٍ منها في جهة المتَّصل، وكذا يتغيَّر طعمُ غيرِ قليلٍ من البحر في جهة المتَّصل أيضاً، ويختلف التغيُّر قلَّةً وكَثْرةً باختلاف الورود؛ لاختلافِ أسبابه من الهواء وغيره قوةً وضعفاً كما أخبر به مبلغ التواتر[1]، ولم يُخْبِرْ أحدٌ أنه شاهَد في الأرض بحرين أحدُهما عذبٌ والآخَرُ مِلْحٌ وقد اتصل أحدهما بالآخر من غير تغيُّرٍ لطعم شيءٍ منهما أصلاً. ولا مساغَ عند مَن له أدنى ذوقٍ لجَعْلِ الآية في بحرين في الأرض كذلك لكنهما لم يشاهدهما أحد كما لا يخفى. ولا أرى وجهاً لتفسير الآية بما ذُكر، والتزامِ هذا ونحوِه من التكلُّفات الباردة مع ظهورِ الوجه الذي لا كدورةَ فيه عند المُنْصِفِ، إلا تسبُّبَ طَعْنِ الكَفَرةِ في القرآن العظيم، وسوء الظنِّ بالمسلمين.

وقيل: المراد بالبرزخ الواسطةُ، أي: وجَعَلَ بين البحر العَذْبِ الشديدِ العُذوبةِ والبحر المِلْحِ الشديدِ المُلوحةِ ماءً متوسطاً ليس بالشديد العذوبة ولا بالشديد الملوحة، وهو قطعةٌ من العَذْبِ الفرات عند موضع التلاقي. مازَجَها شيءٌ من الملح الأُجاج فكَسَر سَوْرَةَ عُذوبَتِها، وقطعةٌ من الملح الأُجاج عند موضع التلاقي أيضاً مازَجَها شيءٌ من العَذْبِ الفرات فكسر سَوْرَةَ ملوحتها، ويكون التنافُر البليغُ بينهما المفهومُ من قوله سبحانه: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فيما عدا ذلك، وهو ما لم يتأثَّر بصاحبه منهما، بل يبقى على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة. وهو كما ترى.

(١) في الأصل: المتواتر.

وحَكَى في «البحر» أنَّ المراد بالبحرين بحران معيَّنان هما بحرُ الروم وبحر فارس[١]، وذكره في «الدر المنثور» عن الحسن بروايةِ ابن أبي حاتم[٢]. وهو من العَجَبِ العُجابِ؛ لأنَّ كِلَا هذين البحرين مِلْحٌ أجاجٌ، فكيف يصحُّ إرادتُهما هنا مع قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ . . وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]؟ نعم قد يصحُّ فيما سيأتي إن شاء الله تعالى من آية سورة الرحمن، أعني قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠] لعدم ذِكْرِ ما يمنعه هناك، وما روي عن الحسن إنْ صحَّ فلعله في تلك الآية، ووهم السيوطيُّ في روايته في الكلام على هذه الآية[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: أنَّ البحرين هما بحرُ السماء وبحرُ الأرض[٤]. وذكر مثله في «البحر» عن ابن عباس، وأنهما يلتقيان كلَّ عام[٥]. وهذا شيءٌ أنا لا أقولُ به في الآية، ولا أعتقدُ صحةَ روايته عمَّن سمعتَ، وإن كان مناسبةُ الآيةِ عليه ـ لِمَا تقدم من قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) على القول بأنَّ المطر من بحرٍ في السماء ـ أتمَّ، ودلالتُها على كمال قدرته تعالى أظهرَ، وأمَّا أنت فبالخيار، والله تعالى ولي التوفيق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ هو الماءُ الذي خمَّر به طينةَ آدم عليه السلام، وجَعَلَه جزءاً من مادة البشر، لتجتمع وتَسْلَسَ[٦] وتستعدّ لقبول الأشكال والهيئات، فالمرادُ بالماء: الماءُ المعروفُ، وتعريفُه للجنس، والمرادُ بالبشر: آدمُ عليه

---

(١) البحر ٦/٥٠٦.
(٢) الخبر عن الحسن في تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٧٠٨، ولم يذكره السيوطي في الدر عند تفسير هذه الآية، وذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. والذي ذكره السيوطي في الدر ٥/٧٤ عند تفسير هذه الآية من سورة الفرقان عن الحسن برواية ابن أبي حاتم هو قوله: «مرج البحرين» قال: بحر في السماء وبحر في الأرض. وينظر ما سيأتي.
(٣) بل ذكره السيوطي عند تفسير آية سورة الرحمن، وأخرجه ابن أبي حاتم عند تفسير هذه الآية كما ذكرنا.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/٢٧٠٨.
(٥) البحر ٦/٥٠٦.
(٦) أي: تلين. حاشية الشهاب ٦/٤٣٢.

السلام، وتنوينُه للتعظيم، أو جنسُ البشر الصادقُ عليه ـ عليه السلامُ ـ وعلى ذريته. و«من» ابتدائية.

ويجوز أن يراد بالماء النطفةُ، وحينئذٍ يتعيَّن حَمْلُ البشر على أولاد آدمَ عليه السلام.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: قَسَمه قسمين: ذَوِي نَسَبٍ، أي: ذكوراً يُنْسَبُ إليهم، وذواتِ صِهْرٍ، أي: إناثاً يصاهَرُ بهنَّ، فهو كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٩] فالواوُ للتقسيم، والكلامُ على تقديرِ مضافٍ حُذِفَ ليدلَّ على المبالغة ظاهراً. وعدل عن ذكر وأنثى ليؤذِنَ بالانشعاب نصًّا.

وهذا الجعلُ والتقسيم مما لا خفاءَ فيه على تقديرِ أن يراد بالبشر الجنسُ، وأمَّا على تقدير أن يراد به آدمُ عليه السلام، فقيل: هو باعتبارِ الجنس، وفي الكلام ما هو من قبيل الاستخدام(١)، نظير ما في قولك: عندي درهمٌ ونصفُه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار ذلك، والكلامُ من باب الحذف والإيصال، أي: جَعَل منه، وقد جيء به على الأصل في نظير هذه الآية، وهو ما سمعتَه آنفاً.

وقيل: معنى جَعْلِ آدم نسباً وصهراً: خَلْقُ حوَّاءَ منه، وإبقاؤه على ما كان عليه من الذُّكورة.

وتعقيبُ جَعْلِ الجنسِ قسمين خَلْقَ آدمَ أو الجنس باعتبارِ خَلْقِه، أو جَعْلِ قسمين من آدم خَلْقَه عليه السلام كما تؤذِنُ به الفاء، ظاهر. وربما يتوهَّم أنَّ الضمير المنصوبَ في «جَعَله» عائدٌ على «الماء»، والفاءُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود:٤٥] إلخ، وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] وليس بشيء.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ النَّسبَ ما لا يَحِلُّ نكاحُه، والصِّهْرَ ما يَحِلُّ نكاحُه. وفي روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه: النسبُ ما لا يحلُّ نكاحُه، والصِّهْرُ قرابة

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

الرضاع. وتفسيرُ الصِّهْرِ بذلك مرويٌّ عن الضحَّاك أيضاً[1].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ مُبالِغاً في القدرة، حيث قدرَ على أن يخلقَ من مادةٍ واحدةٍ بشراً ذا أعضاءَ مختلفةٍ وطباعٍ مُتَباعِدَةٍ، وجَعَله قسمين متقابلين، و«كان» في مثل هذا الموضع للاستمرار. وإذا قلنا بأنَّ الجملة الاسميةَ نفسَها تفيدُ ذلك أيضاً أفاد الكلامُ استمراراً على استمرارٍ، وربَّما أَشْعَرَ ذلك بأنَّ القدرة البالغةَ من مقتضيات ذاته جلَّ وعلا.

ومن العَجَبِ ما زعمه بعضُ مَنْ يدَّعي التفرُّدَ بالتحقيق ممن صَحِبْناه من علماء العصر رحمةُ الله تعالى عليه[2] أن «كان» في مثله للاستمرار فيما لم يَزَلْ، والجملةُ الاسمية للاستمرار فيما لا يزال، فيفيدُ جَمْعُهما استمرارَ ثبوتِ الخبر للمبتدأ أزلاً وأبداً، ويُعْلَم منه مبلغُ الرجل في العلم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي شأنُه تعالى شأنُه ما ذُكر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إنْ عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه، والمرادُ بذلك الأصنامُ، أو كلُّ ما عُبِدَ من دون الله عزَّ وجلَّ، وما من مخلوقٍ يستقلُّ بالنفع والضّرِّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذُكرتْ آثار ربوبيته جلَّ وعلا ﴿ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ أي: مظاهراً، كما قال الحسن ومجاهدٌ وابن زيد. وفَعيلٌ بمعنى مُفاعل كثيرٌ، ومنه: نديمٌ وجليسٌ. والمظاهرةُ: المعاونة، أي: يعاونُ الشيطانَ على ربِّه سبحانه بالعداوةِ والشرك.

والمراد بالكافر الجنسُ، فهو إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لنَعْي كفرهم عليهم.

وقيل: هو أبو جهل، والآيةُ نزلت فيه.

وقال عكرمةُ: هو إبليسُ عليه اللعنةُ، والمراد: يُعاوِنُ المشركين على ربِّه عزَّ وجلَّ بأنْ يُغْرِيهم على معصيته والشِّرْكِ به عزَّ وجلَّ. وقيل: المرادُ: يعاوِنُ على أولياء الله تعالى. وجوّز أن يكون هذا مراداً على سائر الاحتمالات في الكافر.

---

(١) ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥، وقال: وذلك عندي وهم. . .، وينظر تتمة كلامه ثمة.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): هو المرحوم محمد الأمين السويدي. اهـ منه.

وقيل: المرادُ بـ «ظهيراً»: مَهيناً، من قولهم: ظَهرْتُ به، إذا نبذتَه خَلْفَ ظهرك، أي: كان مَن يعبد مِن دون الله تعالى ما لا ينفعُه ولا يضرُّه مهيناً على ربِّه عزَّ وجلَّ لا خَلاقَ له عنده سبحانه؛ قاله الطبريُّ[1]، ففعيل بمعنى مفعول، والمعروفُ أنَّ «ظهيراً» بمعنى مُعينٍ لا بمعنى مَظْهورٍ به.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ في حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونك ﴿مُبَشِّرٗا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ أي: ومُنْذِراً مبالغاً في الإنذار للكافرين. ولتخصيص الإنذار بهم، وكونِ الكلام فيهم، والإشعارِ بغاية إصرارهم على ما هم فيه من الضلال، اقتصر على صيغة المبالغة فيه.

وقيل: المبالغةُ باعتبار كثرة المنذَرين؛ فإن الكفرة في كلِّ وقتٍ أكثرُ من المؤمنين.

وبعضهم اعتبر كثرتهم بإدخال العصاة من المؤمنين فيهم،أي: ونذيراً للعاصين؛ مؤمنين كانوا أو كافرين.

والمقامُ يقتضي التخصيصَ بالكافرين كما لا يخفى، والمراد: ما أرسلناك إلا مبشِّراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، فلا تحزن على عدم إيمانهم.

﴿قُلۡ﴾ لهم دافعاً عن نفسك تهمةَ الانتفاع بإيمانهم: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة، الذي يُنْبِئُ عنه الإرسالُ، أو على المذكور من التبشير والإنذار. وقيل: على القرآن. ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: أجراً[2] ما من جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: إلى رحمته ورضوانه ﴿سَبِيلٗا ٥٧﴾ أي: طريقاً، والاستثناءُ عند الجمهور منقطعٌ، أي: لكنْ مَن[3] شاء أن يتَّخذ إلى ربِّه سبحانه سبيلاً - أي: بالإنفاق القائم مقامَ الأجر، كالصدقة والنفقة في سبيل الله تعالى، ليناسب الاستدراك - فليفعل.

---

(١) في تفسيره، ولكنه اختار ما سلف من القول بأن المعنى: وكان الكافر معيناً للشيطان على ربه.

(٢) في (م): أجر.

(٣) في الأصل و(م): ما، والمثبت من البحر ٦/ ٥٠٨، والدر المصون ٨/ ٤٩٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٣.

وذهب البعضُ إلى أنه متَّصلٌ، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: إلا فِعْلَ مَن شاء أن يتخذ إلى ربِّه سبيلاً بالإيمان والطاعة حَسْبَما أدعو إليهما، وهو مبنيٌّ على الادِّعاء وتصوير ذلك بصورةِ الأجر من حيث إنه مقصودُ الإتيان به، وهذا كالاستثناء في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ نزيلهم يُعابُ بنسيان الأحبَّة والوطن(١)

وفي ذلك قلعٌ كلِّيٌّ لشائبة الطمع، وإظهارٌ لغايةِ الشفقة عليهم، حيث جَعَلَ ذلك مع كون نَفْعِه عائداً إليهم عائداً إليه ﷺ(٢).

وقيل: المعنى: ما أسالكم عليه أجراً إلا أَجْرَ مَن آمن، أي: إلا الأَجْرَ الحاصلَ لي من إيمانه، فإنَّ الدالَّ على الخير كفاعله، وحينئذٍ لا يحتاج إلى الادِّعاء والتصويرِ السابق. والأَوْلَى ما فيه قَلْعُ شائبةِ الطمع بالكلِّية.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في الإغناء عن أجورهم، والاستكفاء عن شرورهم، وكأنَّ العدول عن: وتوكَّل على الله، إلى ما في النظم الجليل ليُفيدَ بفحواه، أو بترتُّبِ الحُكْمِ فيه على وَصْفٍ مناسبٍ، عَدَمَ صحة التوكُّلِ على غير المتَّصفِ بما ذُكر من الحياة والبقاء؛ أمَّا عَدَمُ صحةِ التوكُّل على مَن لم يتَّصف بالحياة كالأصنام فظاهرٌ، وأما عدمُ صحته على مَن لم يتَّصف بالبقاء بأن كان ممَّن يموتُ، فلأنَّه عاجزٌ ضعيفٌ، فالمتوكِّلُ عليه أَشْبَهُ شيءٍ بضعيفٍ عاد بقَرْملةٍ(٣). وقيل: لأنه إذا مات ضاع مَن توكَّل عليه.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة البقرة.

(٢) وقد شبَّه الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ٩٧ ذلك بقولِ ذي شفقةٍ عليك، قد سعى لك في تحصيلِ مالٍ: ما أَطلبُ منك ثواباً على ما سعيتُ إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيِّعَه. فليس حفظُك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكنْ صوَّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين؛ إحداهما: قطعُ شبهة الطمع في الثواب من أصله، والثانية: إظهار الشفقة البالغة، وأنك إن حفظت مالك اعتدَّ بحفظك، ورضي به كما يرضى المثاب بالثواب.

(٣) جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٤٦٦، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٨٦، ومجمع الأمثال ١/ ٢٧٩. قال الزمخشريّ: يضرب لذليل لجأ إلى مثله. وقال العسكري: القرملة: شجرة قصيرة لا ذرا لها ولا ظل. وفي المجمع عن الأصمعي: القرملة: شجرة ضعيفة لا ورق لها.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «التوكُّل»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عقبة بن أبي ثبيت[1] قال: مكتوبٌ في التوراة: لا تَوكَّلْ على ابنِ آدم؛ فإنَّ ابن آدم ليس له قوام، ولكنْ تَوَكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت.

وقرأ بعضُ السَّلَفِ هذه الآية فقال: لا يصحُّ لذي عقلٍ أنْ يثقَ بعدها بمخلوقٍ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: ونزِّهْهُ سبحانه مُلْتَبِساً بالثناء عليه تعالى بصفاتِ الكمال، طالباً لمزيدِ الإنعام بالشكر على سوابقه عزَّ وجلَّ، فالباءُ للمُلابَسةِ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال. وقدَّم التنزيه لأنه تخليةٌ وهي أهمُّ من التحلية، وفي الحديث: «مَن قال: سبحان الله وبحمده، غُفرتْ ذنُوبه ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[2].

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظَهَر منها وما بَطَنَ، كما يؤذِنُ به الجمعُ المضاف، فإنه من صيغ العموم، أو قوله تعالى: ﴿خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ لأنَّ الخبرة معرفةُ بَوَاطِنِ الأمور كما ذكره الرَّاغب[3]، ومَن عَلِمَ البواطن عَلِمَ الظَّواهِرَ بالطريق الأَوْلَى، فيدلُّ على ذلك مطابَقةً والْتِزاماً.

والظاهرُ أنَّ «بذنوب» متعلِّقٌ بـ «خبيراً»، وهو حالٌ أو تمييز. وباء «به» زائدةٌ في فاعلِ «كفى». وجوِّز أن يكون «بذنوب» صلةَ «كفى».

والجملة مَسُوقةٌ لتسليته ﷺ ووعيدِ الكفَّار، أي: أنه عزَّ وجلَّ مطَّلعٌ على ذنوب عباده بحيث لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها، فيجازيهم عليها، ولا عليك إن آمنوا أو كفروا.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٥/ ٧٥، وعنه نقل المصنف، وتحرف فيه عقبة إلى: عتبة، والصواب: عقبة بن أبي زينب، والخبر في التوكل (٥٨)، والشعب (١٣٠٦). قال الحافظ في التقريب: عقبة بن أبي زينب مقبول، لم يخرجوا له، يذكر للتمييز بينه وبين عقبة بن أبي ثبيت. وينظر تهذيب الكمال ٢٠/ ١٩٨.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٠٩)، والبخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت....».

(٣) في مفرداته (خبر).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد سَلَفَ تفسيرُه. ومحلُّ الموصول الجرُّ على أنه صفةٌ أخرى لـ «الحيِّ» ووُصِفَ سبحانه بالصفة الفعلية بعد وَصْفِه جلَّ وعلا بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية، والإشارةِ إلى اتِّصافه تعالى بالعلم الشامل؛ لتقرير وجوب التوكُّل عليه جَلَّ جَلَالُهُ وتأكيدِه؛ فإنَّ مَن أنشأ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النمطِ الفائق والنَّسَقِ الرائق بتدبيرٍ متينٍ وترتيبٍ رَصينٍ في أوقاتٍ معينةٍ، مع كمال قدرته سبحانه على إبداعها دفعةً، بحِكَمٍ جليلةٍ وغاياتٍ جميلةٍ لا تقفُ على تفاصيلها العقول، أحقُّ مَن يُتَوَكَّلُ عليه، وأَوْلَى مَن يُفوَّضُ الأمرُ إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوعٌ على المدح، أي: هو الرحمنُ، وهو في الحقيقة وصفٌ آخَرُ لـ «الحيِّ» كما في قراءة زيد بن عليٍّ: «الرحمنِ» بالجرِّ[1]، مفيدٌ لزيادة تأكيدِ ما ذُكر من وجوب التوكُّلِ عليه جلَّ شأنُه وإن لم يَتْبَعْه في الإعراب، لِمَا تقرَّر من أنَّ المنصوب والمرفوع مدحاً وإنْ خرجا عن التبعية لِمَا قبلهما صورةً حيث لم يَتْبعاه في الإعراب وبذلك سمِّيا قطعاً، لكنهما تابعان له حقيقةً، ألا ترى كيف التَزَموا حَذْفَ الفعل والمبتدأ روماً لتصوير كلٍّ منهما بصورةِ متعلّقٍ من متعلّقات ما قبله، وتنبيهاً على شدة الاتصال بينهما، وإنما قطعوا للافتنان الموجبِ لإيقاظ السامع وتحريكِه إلى الجِدِّ في الإصغاء.

وجوِّز أن يكون الموصولُ في محلِّ نصبٍ على الاختصاص، وأن يكون في محلِّ رفعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ [و«الرحمن»][2] صفةٌ له، أو مبتدأ و«الرحمن» خبره.

وجوِّز أن يكون «الرحمن» بدلاً من المستكنِّ في «استوى». ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون «الرحمن» مبتدأً، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ خبره، على حدِّ تخريجه قولَ الشاعر:

---

(١) في الأصل و(م): زيد بن عبد الرحمن بالجرِّ. والمثبت من البحر ٦/ ٥٠٨، والكلام منه، والقراءة ذكرها أيضاً الزمخشريّ في الكشاف ٣/ ٩٨ دون نسبة.

(٢) ما بين حاصرتين من البحر ٦/ ٥٠٨.

وقـائـلـةٍ خـولانُ فـانْـكَـحْ فـتـاتَـهـم[1]

وهو بعيد.

والظاهرُ أنَّ هذه جملةٌ منقطعةٌ عمَّا قبلها إعراباً، والفاءُ فصيحةٌ، والجارُّ والمجرورُ صلةُ «اسأل»، والسؤالُ كما يعدَّى بـ «عن» لتضمُّنِه معنى التفتيش يعدَّى بالباء لتضمُّنه معنى الاعتناء، وعليه قولُ عَلْقمةَ بن عَبَدةَ[2]:

فـإن تـسـألـونـي بـالـنـسـاء فـإنَّـنـي خـبـيـرٌ بـأدواءِ الـنـسـاءِ طـبـيـبُ

فلا حاجةَ إلى جَعْلِها بمعنى «عن» كما فعل الأخفش والزجَّاج[3].

والضميرُ راجعٌ إلى ما ذُكر إجمالاً من الخَلْق والاستواء، والمعنى: إن شئتَ تحقيقَ ما ذُكر، أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسأل معتنياً به، خبيراً عظيمَ الشأنِ محيطاً بظواهِر الأمور وبَوَاطِنها، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، يُطْلِعكَ على جَليَّةِ الأمرِ.

والمسؤول في الحقيقة تفاصيلُ ما ذُكر لا نفسُه؛ إذ بعد بيانه لا يبقى إلى السؤال حاجةٌ، ولا في تعديته بالباء ـ المبنيَّةِ على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسؤول أمراً خطيراً مهتمًّا بشأنه غيرَ حاصلٍ للسائل ـ فائدةٌ؛ فإنَّ نفس الخَلْقِ والاستواء بعد الذِّكر ليس[4] كذلك كما لا يخفى.

وكونُ التقدير: إنْ شَكَكْتَ فيه فاسأل به خبيراً، على أنَّ الخطاب له ﷺ والمرادُ غيرُه عليه الصلاة والسلام، بمعزل عن السَّدادِ.

وقيل: «به» صلةُ «خبيراً» قدِّمَ لرؤوس الآي[5].

(١) وعجزه: وأكرومة الحيين خِلْوٌ كما هيا، وهو في الكتاب ١/ ١٣٩ و١٤٣، والخزانة ١/ ٤٥٧، والبحر ٦/ ٥٠٨، والكلام منه، والبيت من الخمسين التي لا يعرف قائلها، وسلف ٧/ ١٨٩.

(٢) في الأصل و(م): عبيدة، والصواب ما أثبتناه، وهو الذي يقال له علقمة الفحل. الشعر والشعراء ١/ ٢١٨، وطبقات الفحول ١/ ١٣٩، والأغاني ٢١/ ٢٠٠. والبيت في ديوانه بشرح الأعلم ص٣٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٣، وذكره عنه وعن الأخفش أبو حيان في البحر ٦/ ٥٠٨.

(٤) في الأصل: ليسا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٧، والكلام منه.

(٥) ويكون المعنى على هذا: فاسأل عن الله الخبراءَ به. البحر ٦/ ٥٠٨.

وجوِّز أن يكون الكلامُ من باب التجريد، نحو: رأيتُ به أسداً، أي: رأيتُ برؤيته أسداً، فكأنه قيل هنا: فاسأل بسؤاله خبيراً، والمعنى: إن سألته وَجَدْتَه خبيراً، والباءُ عليه ليست صلةً فإنها باءُ التجريد، وهي على ما ذهب إليه الزمخشريُّ سببيةٌ، والخبيرُ عليه هو الله تعالى أيضاً.

وقد ذكر هذا الوجهَ السجاونديُّ واختاره صاحب «الكشف»، قال: وهو أوجهُ؛ ليكون كالتتميم لقوله تعالى: «الذي خلق» إلخ؛ فإنه لإثبات القدرة مدمجاً فيه العلم.

وكونُ ضمير «به» راجعاً إلى ما ذُكر من الخلق والاستواء، والخبير في الآية هو الله تعالى، مَرْويٌّ عن الكلبيِّ. ورُوي تفسيرُ الخبير به تعالى عن ابن جُريج أيضاً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخبيرُ هو جبريل عليه السلام.

وقيل: هو مَن وجد ذلك في الكتب القديمة المنزلة من عنده تعالى، أي: فاسأل بما ذُكر من الخَلْقِ والاستواء مَن عَلِمَ به من أهل الكتب ليصدِّقك.

وقيل: إذا أُريدَ بالخبير مَن ذكر فضمير «به» لـ «الرحمن»، والمعنى: إنْ أنكروا إطلاقَ الرحمن عليه تعالى فاسأل به مَن يخبرُك من أهل الكتاب؛ ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم. وفيه أنه لا يناسبُ ما قبله، ولأنَّ فيه عودَ الضمير للفظ «الرحمن» دون معناه، وهو خلافُ الظاهرِ، ولأنه كان الظاهرُ حينئذ أن يؤخَّر عن قوله تعالى: «ما الرحمن».

وقيل: الخبير محمدٌ ﷺ، وضميرُ «به» لـ «الرحمن»، والمراد: فاسأل بصفاته، والخطابُ لغيره ﷺ ممن لم يعلم ذلك. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقيل: ضمير «به» لـ «الرحمن» والمراد: فاسأل برحمته وتفاصيلها عارفاً يخبرك بها، أو المراد: فاسأل برحمته حالَ كونه عالماً بكلِّ شيءٍ، على أنَّ «خبيراً» حالٌ من الهاء لا مفعولُ «اسأل» كما في الأوجُهِ السابقة.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون «خبيراً» حالاً من «الرحمن» إذا رُفع بـ «استوى».

وقال: يَضْعفُ أن يكون حالاً من فاعلِ «اسأل»؛ لأنَّ الخبير لا يُسأل إلا على جهة التوكيد، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[1] [البقرة: ٩١].

والوجهُ الأقربُ الأولى في الآية من بين الأوجُهِ المذكورة لا يَخْفَى. وقرئ: فَسَلْ[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ القائلُ رسولُ الله ﷺ، أو اللهُ عزَّ وجلَّ على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام. ولا يخفى موقعُ هذا الاسم الشريفِ هنا. وفيه ـ كما قال الخفاجيُّ ـ معنَى: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد»[3].

﴿قَالُواْ﴾ على سبيل التَّجاهُلِ والوقاحة: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كما قال فرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] حين قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] وهو عالمٌ به عزَّ وجلَّ كما يُؤْذِنُ بذلك قولُ موسى عليه السلام له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

والسؤالُ يحتمل أن يكون عن المسمَّى، ووقع بـ «ما» دون «مَن» لأنه مجهولٌ بزَعْمِهم، فهو كما يقال للشبح المرئيِّ: ما هو؟ فإذا عُرِفَ أنه مِن ذوي العلم قيل: مَن هو. ويحتمل أن يكون عن معنى الاسم، ووقوعُه بـ «ما» حينئذٍ ظاهرٌ.

وقيل: سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى، أو لأنهم ظنُّوا أنَّ المراد به غيرُه عزَّ وجلَّ، فقد شاع فيما بينهم تسميةُ مسيلمةَ برحمان اليمامة، فظنُّوا أنه المراد بحَمْلِ التعريف على العهد.

وقيل: لأنه كان عبرانياً، وأصلُه رخمان بالخاء المعجَمة، فعرِّب ولم يسمعوه.

والأظهرُ عندي أنَّ ذلك عن تجاهُلٍ، وأنَّ السؤال عن المسمَّى، ولذا قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرُنا بالسجود له من غير أن نعرفه، فـ «ما» موصولةٌ

(١) الإملاء ٤/ ١٠٣.

(٢) هي قراءة ابن كثير والكسائي وخلف. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٢٢٨.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٤، والحديث أخرجه أحمد (٩٤٦١)، ومسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

والعائدُ محذوف، وأصلُ الجملة المشتملةِ عليه ما أشرنا إليه، ثم صار: تأمرنا بسجوده، ثم: تأمرنا سجودَه ك: أمرتُكَ الخيرَ، ثم: تأمرناه بحذف المضاف، ثم: تأمرُنا. واعتبارُ الحذف تدريجاً مذهبُ أبي الحسن. ومذهبُ سيبويهِ أنه حُذِفَ كلُّ ذلك من غير تدريجٍ(١).

ويحتمل أن تكون «ما» نكرةً موصوفةً، وأمرُ العائدِ على ما سمعتَ. ويجوز أن تكون مصدريةً، واللامُ تعليليةٌ، والمسجودُ له محذوفٌ أو متروكٌ، أي: أنسجُدُ له لأَجْلِ أمرك إيَّانا، أو: أنسجدُ لأَجْلِ أمرِكَ إيانا.

وقرأ ابن مسعود والأسود بن يزيد(٢) وحمزةُ والكسائيُّ: «يأمرنا» بالياء من تحت(٣) على أنَّ الضمير للنبيِّ ﷺ، وهذا القولُ قولُ بعضهم لبعضٍ.

﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي: الأمرُ بالسجود للرحمن، والإسناد مجازيٌّ. والجملةُ معطوفةٌ على «قالوا»، أي: قالوا ذلك وزادهم ﴿نُفُورًا ۝٦٠﴾ عن الإيمان.

وفي «اللُّباب»: أنَّ فاعل «زادهم» ضميرُ السجود؛ لِمَا رُوي أنه ﷺ وأصحابَه ﵃ سجدوا، فتباعَدوا عنهم مستهزئين(٤). وعليه فليست معطوفةً على جواب «إذا»، بل على مجموع الشرط والجواب، كما قيل في «لا يستقدمون» من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. والأول أَوْلَى وأظهر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ الظاهرُ أنها البروجُ الاثنا عشر المعروفةُ، وأخرج ذلك الخطيبُ في كتاب «النجوم»(٥) عن ابن عباس ﵄، وهي في الأصل:

---

(١) نقله عن سيبويه العكبري في الإملاء ٤/ ١٠٣-١٠٤، والكلام منه، وابن هشام في المغني ص٨٠٣. ونفى السمين في الدر ٨/ ٤٩٤ أن يكون هذا مذهبَ سيبويه. وأبو الحسن هو الأخفش.

(٢) في الأصل و(م): زيد، والمثبت من البحر ٦/ ٥٠٩، والكلام منه، وهو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي.

(٣) البحر ٦/ ٥٠٩، والقراءة عن حمزة والكسائي في التيسير ص ١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٤/ ٥٥٩.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٥، والخطيب هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي صاحب التصانيف.

القصورُ العاليةُ، وأطلقت عليها على طريق التشبيه؛ لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها، ثم شاع فصار حقيقةً فيها. وعن الزجّاج: أنَّ البُرْجَ كلُّ مرتفع[1]. فلا حاجةَ إلى التشبيه أو النقل.

واشتقاقُه من التبرُّج بمعنى الظهور، والذي يقتضيه مشربُ أهل الحديث أنها في السماء الدنيا، ولا مانعَ منه عقلاً، لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يَسَعُ الكواكبَ وما تقتضيه، على ما ذكره أهلُ الهيئة، وهي عندهم أقسامُ الفلكِ الأعظم المسمَّى ـ على ما قيل ـ بالعرش، ولم يَرِدْ فيما أعلمُ إطلاقُ السماء عليه وإن كان صحيحاً لغةً، سمِّيت بأسماء صورٍ من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقتَ اعتبار القسمة، وتلك الصُّورُ متحرِّكةٌ بالحركة البطيئة كسائر الثوابت، وقد قارَبَ في هذه الأزمان أن تخرج كلُّ صورةٍ عما حاذَتْه أولاً، وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعيِّ، وهي نقطةٌ معينةٌ من معدَّل النهار لا تتحرَّكُ بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطةٍ أخرى من منطقة البروج تتحرَّك بحركته، وإذا لم يتحرَّك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرَّك ما عَدَاها.

وقد جَعَل الله تعالى ثلاثةً منها ربيعيةً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء وتسمَّى التوأمين أيضاً. وثلاثةً صيفيةً، وهي: السَّرطان، والأسد، والسنبلة وتسمَّى العذراء أيضاً. وهذه الستةُ شماليةٌ. وثلاثةً خريفيةً، وهي: الميزان، والعقرب، والقوسُ ويسمَّى الرامي أيضاً. وثلاثةً شتويةً، وهي: الجديُ، والدلوُ ويسمَّى الدالي وساكبَ الماء أيضاً، والحوتُ وتسمَّى السمكتين. وهذه الستةُ جنوبيةٌ.

ولحلول الشمس في كلٍّ من الاثني عشر يختلفُ الزمانُ حرارةً وبرودةً، والليلُ والنهارُ طولاً وقِصَراً، وبذلك يظهر بحكم جَرْي العادة في عالم الكون والفساد آثارٌ جليلةٌ، من نضج الثمار وإدراك الزروع، ونحوِ ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجهُ البركة في جَعْلِها.

وأمَّا ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيءٌ منها طالعاً وقتَ الولادة أو شروع في عمل من الأعمال، أو وقتَ حلول الشمس نقطةَ الحمل الذي هو مبدأ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٣.

السنة الشمسية في المشهور، فهو محضُ ظنٍّ ورجمٍ بالغيب، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك مفصَّلاً.

ولهم في تقسيمها إلى مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ[1]، وليليٍّ ونهاريٍّ، وحارٌّ وباردٌ، وسعدٍ ونحسٍ، إلى غير ذلك، كلامٌ طويلٌ، ولعلنا نذكر شيئاً منه بعدُ إن شاء الله تعالى[2]، ومَن أراده مستوفًى فليرجع إلى كتبهم.

ثم الظاهرُ أنَّ البروج المجعولةَ مما لا دَخْلَ للاعتبار فيها، والمذكورُ في كلام أهل الهيئة أنها حاصلةٌ من اعتبار فَرْضِ ستِّ دوائرَ معلومةٍ قاطعةٍ للعالم، فيكون للاعتبار دخلٌ فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها، فإن كان الأمرُ على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيمُ ما هي فيه إلى اثنتي عشرةَ قطعةً وتسمَّى كلُّ قطعةٍ برجاً فالظاهرُ أنَّ المراد بجعله تعالى إياها جَعْلُ ما يتمُّ به ذلك الاعتبارُ ويتحقَّق به أمرُ التفاوُتِ والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه.

وقيل: إنَّ في الآية إيماءً إلى أنَّ اعتبار التقسيم كان عن وحي، والمشهورُ أنَّ مَن اعتبر ذلك أولاً هرمس، وهو على ما قيل إدريس عليه السلام، فتأمَّل.

وأخرج عبد بن حميد[3] عن قتادة: أنَّ البروج قصورٌ على أبواب السماء فيها الحرس.

وقيل: هي القصورُ في الجنة، قال الأعمش: وكان أصحابُ عبد الله يقرؤون: «في السماء قصوراً»[4].

وتعقِّبَ بأنه يأباه السياقُ؛ لأنَّ الآية قد سيقتْ للتنبيه على ما يقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جلَّ شأنه، وبيانِ أنه المستحِقُّ للسجود ببيان آثارِ قدرته سبحانه وكماله جَلَّ جَلَالُهُ، والظاهرُ أنْ يكون ذلك بذِكْرِ أمورٍ مُدْرَكةٍ معلومةٍ لهم، وتلك القصورُ ليست كذلك.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن أول الجدي وأول العقرب خنثى.
(٢) ينظر ما سيأتي عند تفسير الآيتين (٨٨-٨٩) من سورة الصافات.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، والبحر ٦/ ٥١١.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهدٍ: أنها النجوم. وروي ذلك عن قتادةَ أيضاً[(١)]. وعن أبي صالح تقييدُها بالكبار[(٢)]. وأُطلق عليها ذلك لعظمها وظهورِها، لاسيما التي من أول المراتب الثلاثة للقَدْر الأول من الأقدار الستة.

وأنت تعلم أنه لم يُعهد إطلاقُ البروج على النجوم، فالأَوْلَى أن يراد بها المعنى الأولُ المرويُّ عن ابن عباس، الذي هو أظهرُ من الشمس.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في السماء. وقيل: في البروج ﴿سِرَاجًا﴾ هي الشمسُ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦].

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والأعمش والأخوان: «سُرُجاً» بالجمع مضموم الراء[(٣)]. وقرأ الأعمش أيضاً والنخعي وابن وثابٍ كذلك إلا أنهم سكَّنوا الراء[(٤)]، وهو على ما قيل من قبيل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠] لأنَّ الشمس لعظمها وكمالِ إضاءتها كأنها[(٥)] سُرُجٌ كثيرةٌ، أو الجمعُ باعتبار الأيام والمطالع، وقد جُمعت لهذين الأمرين في قول الشاعر:

لَمعانُ بَرْقٍ أو شُعاعُ شُموسِ[(٦)]

وعلى هذا القول تتَّحِدُ القراءتان.

وقال بعضُ الأجلَّة[(٧)]: الجمعُ على ظاهره، والمرادُ به الشمسُ والكواكبُ الكبارُ.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٣-٤٨٤ عن مجاهد وقتادة، وعزاه لابن المنذر عن مجاهد السيوطي في الدر ٥/ ٧٥.
(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٣.
(٣) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤ عن حمزة والكسائي وخلف. والكلام من البحر ٦/ ٥١١.
(٤) البحر ٦/ ٥١١.
(٥) في (م): لأنها، وهو تحريف.
(٦) وصدره: حمي الحديد عليهم فكأنه، والبيت للأشتر النخعي كما في أمالي القالي ١/ ٨٥، وأساس البلاغة (ومض)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٥١، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٢٦٣، واللسان (شمس) وجاء في بعض المصادر: وَمَضَانُ برق...
(٧) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٤، وما بعده من حاشية الشهاب.

ومنهم مَن فسَّره بالكواكب الكبار، واعتَرضَ على الأول بأنه يلزم تخصيصُ القمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ بعد دخوله في السُّرُج، والمناسبُ تخصيصُ الشمس لكمال مزيَّتها على ما سواها.

ورُدَّ بأنه بعد تسليم دخوله في السُّرج خصَّ بالذِّكر لأن سنيَّهم قمريةٌ ولذا يقدَّم الليل على النهار، وتعتبر الليلةُ لليوم الذي بعدها، فهم أكثر عناية به، مع أنه على ما ذكره يلزمُه تركُ ذِكْرِ الشمس وهي أحقُّ بالذِّكر من غيرها، والاعتذارُ عنه بأنها لشهرتها كأنها مذكورةٌ ولذا لم تُنْظَمْ مع غيرها في قرنٍ لا يجدي.

والقمرُ معروف، ويُطْلَقُ عليه بعد الليلةِ الثالثةِ إلى آخِرِ الشهر، قيل: وسمِّي بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب، وفي «الصحاح»: لبياضه[١].

وفي وَصْفِه ما يُشْعِرُ بالاعتناء به. وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور[٢] يكون وصفه بـ «منيراً» دون: مضيئاً إشارةٌ إلى أنَّ ما يشاهَدُ فيه مستفادٌ من غيره وهو الشمسُ، بل قال غيرُ واحدٍ: إنَّ نورَ جميع الكواكب مستفادٌ منها وإنْ لم يَظْهرِ اختلافُ تشكُّلاته بالقُرْبِ والبُعْدِ منها كما في نورِ القمر.

وقرأ الحسن والأعمش والنخعيُّ، وعصمةُ عن عاصم: «وقُمْراً» بضم القاف وسكون الميم[٣]، واستظهر أبو حيان[٤] أنها لغةٌ في القمر كالرُّشْد والرُّشُد والعُرْب والعُرُب.

وقيل: هو جمع قَمْراء، وهي الليلةُ المنيرةُ بالقمر، والكلام على حذفِ مضافٍ، أي: وذا قُمْرٍ، أي: صاحب ليالٍ قُمْرٍ، والمراد بهذا الصاحب القَمَرُ نفسُه، ويكون قولُه سبحانه: «منيراً» صفةً لذلك المضاف المحذوف؛ لأن المحذوفَ

---

(١) الصحاح (قمر).

(٢) ينظر ما سلف في الفرق بين الضياء والنور ١/ ٤٦٦-٤٦٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١١، وعنه نقل المصنف. وعصمة هو ابن عروة، أبو نجيح الفقيمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النجود، وروى أيضاً حروفاً عن أبي بكر بن عياش والأعمش ومعرور بن موسى، سئل عنه أبو حاتم فقال: مجهول. طبقات القراء ١/ ٥١٢.

(٤) في البحر ٦/ ٥١١.

قد يُعتبر بعد حَذْفِه كما في قول حسان رضي الله عنه:

بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ(١)

فإنه يريد: ماءَ بردى، ولذا قال: يُصفَّق بالياء من تحت، ولو لمْ يُراعِ المضافَ لقال: تُصفَّق بالتاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ أي: ذَوَيْ خِلْفةٍ يَخْلُفُ كلٌّ منهما الآخَرُ، بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يُعْمَلَ فيه. وروي هذا عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير.

وقيل: بأن يعقبه ويجيء بعده.

وهو اسمٌ للحالةِ مِن خَلَفَ، كالرِّكْبةِ والجِلْسَة من رَكِبَ وجَلَسَ. ونَصْبُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، أو حالٌ إن كان بمعنى خَلَقَ.

وجَعَلَه بعضُهم بمعنى اختلافاً، والمراد: الاختلافُ في الزيادة والنقصان كما قيل، أو في السواد والبياض كما روي عن مجاهد، أو فيما يعمُّ ذلك وغيرَه كما هو محتملٌ.

وفي «البحر»(٢): يقال: بفلانٍ خِلْفةٌ واختلافٌ، إذا اختلف كثيراً إلى متبرَّزه، ومن هذا المعنى قولُ زهير:

بها العِينُ والآرامُ يَمْشينَ خِلْفةً ... وأطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِن كلِّ مَجْثَمِ(٣)

وقولُ الآخَرِ يصفُ امرأةً تنتقلُ من منزلٍ في الشتاء إلى منزلٍ في الصيف دأباً:

ولها بالماطِرونِ إذا ... أَكَلَ النملُ الذي جَمَعا

خِلْفةٌ حتى إذا ارْتَبَعَتْ(٤) ... سَكَنَتْ مِن جِلَّقٍ بِيَعا

(١) ديوان حسان ص١٨٠، والبحر ٦/ ٥١١، وصدره: يَسْقُون مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ. والبريص موضع بدمشق كما في القاموس (برص). وفي التاج: يقال: البريص اسم للغوطة بأجمعها.

(٢) ٦/ ٥١١.

(٣) ديوان زهير بن أبي سُلمى ص٥، والبحر ٦/ ٥١١، وقال ثعلب شارح الديوان: العِيْن: البقر. والطَّلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغير.

(٤) في الأصل و(م) والبحر: ارتفعت، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

فــي بــيــوتٍ وَسْــطَ دَسْــكــرةٍ حــولــهــا الــزيــتــونُ قــد يَــنَــعــا[1]

انتهى. وجوّز عليه أن يكون المراد: يذهبُ كلٌّ منهما ويجيءُ كثيراً، واعتبارُ المضافِ المقدَّرِ على حاله، وكذا فيما قبله.

وفي «القاموس»: الخِلْفُ والخِلْفةُ بالكسر: المُختَلِف[2]. وعليه لا حاجة إلى تقدير المضاف، والمعنى: جَعَلَهما مختلفين، والإفرادُ لكونه مصدراً في الأصل.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: ليكونا وقتين للمتذكِّر، مَن فاتَهُ وِرْدُه من العبادة في أحدهما تداركَه في الآخر. وروي هذا عن جماعةٍ من السلف، ورَوَى الطيالسيُّ وابنُ أبي حاتم أنَّ عمر ﷺ أطال صلاة الضُّحى، فقيل له: صنعتَ شيئاً لم تكن تَصْنَعُه؟ قال: إنه بقي عليَّ مِن وِرْدي شيءٌ فأحبَبْت أن أُتمَّه ـ أو قال: أقضيه ـ وتلا هذه الآية[3]. وكأنَّ التذكُّر مجازٌ عن أداءِ ما فات، وهو مما يتوقَّفُ الأداءُ عليه. وفي الكلام تقديرٌ كما أُشير[4] إليه. ويجوزُ أن يكون تقديرَ معنًى لا إعرابٍ.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ أنْ يشكر الله تعالى بأداءِ نوعٍ من العبادة لم يكن وِرْداً له. وفي «مجمع البيان»: المعنى: لمن أراد النافلةَ بعد أداء الفريضة[5].

---

(١) في الأصل و(م): نبعا، والمثبت من البحر والمصادر وهي: الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٨، والحيوان للجاحظ٤/ ١٠، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، ومعجم البلدان ٥/ ٤٢، والخزانة الشاهد السادس والثلاثون بعد الخمس مئة. وجاء في بعض المصادر: خُرفة، بدل: خلفة. قال البغدادي: الخُرفة بضم الخاء المُخْتَرَف والمُجْتَنَى، وقيل: ما يُجتَنَى. اهـ. والماطرون موضع بالشام قرب دمشق كما ذكر ياقوت. وقال أبو الحسن القفطي كما في الخزانة: هذه الأبيات ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان تغزل بها في نصرانية قد ترهّبت في ديرٍ خرابٍ عند الماطرون، وهو بستان بظاهر دمشق يسمى اليوم الميطور. اهـ. ونسبها الجاحظ لأبي دهبل. ونسبت أيضاً للأحوص كما نقل المبرد عن أبي عبيدة.

(٢) القاموس (خلف).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧١٨، وعزاه للطيالسي ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر ٥/ ٧٥. وهو من طريق الحسن عن عمر، والحسن لم يسمع من عمر ﷺ.

(٤) في الأصل: أشرنا.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٢٥.

ويجوزُ أن يكون المعنى: لمن أراد أن يتذكَّر ويتفكَّر في بدائع صُنْعِ الله تعالى، فيعلم أنه لا بدَّ لِمَا ذُكِرَ من صانعٍ حكيمٍ واجبِ الذات، ذي رحمةٍ على العباد، أو أراد أن يشكر الله سبحانه على ما فيهما من النعم. وهو وجهٌ حَسَنٌ يكاد لا يُلتفتُ لغيره لو لم يكن مأثوراً.

والظاهرُ أنَّ اللام على هذا صلةُ «جَعَل»، ولمَّا كان ظهورُ فائدةِ ذلك لمن أراد التذكُّر أو أراد الشكر اقتصر عليه، وجوَّز أن تكون للتعليل.

و «أو» للتنويع على معنى الاشتمال على هذين المعنيين، أو للتخيير على معنى الاستقلال بكلٍّ، ولا مَنْعَ من الاجتماع. وفائدةُ هذا الأسلوب إفادةُ الاستقلال، ولو ذكر الواو بَدَلَها لتُوهِّم المعيَّة.

ولعل في التعبير أوَّلاً بـ «أنْ» والفعلِ دون المصدر الصريحِ كما في الشقِّ الثاني ـ مع أنه أَخْصَر ـ إيماءً إلى الاعتناءِ بأَمْرِ التذكُّرِ، فتَذَكَّرْ.

وقرأ أبيّ بنُ كعب: «أن يتذكَّر»(١) وهو أصلٌ لـ «يذَّكَّر»، فأُبدِلَ التاءُ ذالاً وأُدْغِم. وقرأ النخعيُّ وابنُ وثَّابٍ وزيد بنُ عليٍّ وطلحةُ وحمزةُ: «أن يَذْكُرَ» مضارع ذَكَرَ الثلاثيِّ(٢) بمعنى تَذَكَّر.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيان أوصافِ خُلَّصِ عباد الله تعالى وأحوالِهم الدنيويةِ والأخروية، بعد بيانِ حالِ النافِرينَ عن عبادته سبحانه والسجودِ له عزَّ وجلَّ، وإضافتُهم إلى الرحمن دون غيرِه من أسمائه تعالى وضمائرِه عزَّ وجلَّ؛ لتخصيصهم برحمته، أو لتفضيلهم على مَن عَدَاهم لكونهم مرحومين مُنْعَماً عليهم، كما يُفْهَمُ من فَحْوَى الإضافةِ إلى مشتقٍّ. وفي ذلك أيضاً تعريضٌ بمن قالوا: وما الرحمن؟.

والأكثرون أنَّ عِباداً هنا جمعُ عَبْدٍ، وقال ابن بحر(٣): جمعُ عابدٍ، كصاحبٍ وصِحابٍ، وراجلٍ ورجال، ويوافقُه قراءة اليماني: «وعُبَّاد» بضم العين وتشديدِ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧١، والكشاف ٣/ ٩٩، والبحر ٦/ ٥١٢.

(٢) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤ عن حمزة وخلف، والكلام من البحر ٦/ ٥١٢.

(٣) كما في البحر ٦/ ٥١٢.

الباء[١]، فإنه جمعُ عابدٍ بالإجماع، وهو على هذا من العبادة، وهي أن يفعل ما يرضاه الربُّ، وعلى الأول من العبودية، وهي أن يَرْضَى ما يفعله الربُّ.

وقال الرَّاغب[٢]: العبودية إظهارُ التذلُّلِ، والعبادةُ أبلغُ منها لأنَّها غايةُ التذلُّل.

وفرَّق بعضُهم بينهما بأنَّ العبادة: فِعْلُ المأمورات وتَرْكُ المَنْهِيَّات؛ رجاءَ الثوابِ والنجاةِ من العقاب بذلك. والعبودية: فِعْلُ المأمورات وتَرْكُ المنهيَّات، لا لِمَا ذُكر بل لمجرَّد إحسان الله تعالى عليه.

قيل: وفوق ذلك العبودةُ، وهو فعلُ وتركُ ما ذكر لمجرَّد أمره سبحانه ونَهْيِه عزَّ وجلَّ، واستحقاقِه ـ سبحانه ـ الذاتيِّ لأنْ يُعظَّم ويطاع، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ).

وقرأ الحسن: «وعُبُدُ» بضمِّ العين والباء[٣]، وهو كما قال الأخفشُ: جمعُ عَبْدٍ، كسَقْفٍ وسُقُف، وأنشد:

انسُبِ العبدَ إلى آبائه أسودَ الجلدةِ من قومٍ عُبُدْ[٤]

وهو على كلِّ حالٍ مبتدأ، وفي خبره قولان:

الأولُ: أنه ما في آخِرِ السورة الكريمة من الجملة المصدَّرة باسم الإشارة.

والثاني وهو الأقرب: أنه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

والهونُ مصدرٌ بمعنى اللِّين والرفق. ونصبُه إمَّا على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: مشياً هَوْناً، أو على أنه حالٌ من ضمير «يمشون»، والمراد: يمشون هينين في تُؤدةٍ وسكينةٍ ووقارٍ وحُسْنِ سَمْتٍ، لا يضربون بأقدامهم ولا يَخْفقون بنعالهم أَشَراً وبَطَراً. ورُوي نحوُ هذا عن ابن عباس ومجاهدٍ وعكرمةَ والفضيل بنِ عياضٍ وغيرِهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥.
(٢) في مفرداته (عبد).
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨، والبحر ٦/ ٥١٢.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٢١٣، والصحاح (عبد)، والكلام منه.

وعن الإمام أبي عبد الله رضي الله عنه أنَّ الهَوْنَ: مَشْيُ الرجل بسجيَّته التي جُبِلَ عليها، لا يتكلَّفُ ولا يتبخْتَرُ[١].

وأخرج الآمديُّ في «شرح ديوان الأعشى» بسَنَدِه عن عمر رضي الله عنه[٢]، أنه رأى غلاماً يتبخترُ في مشيته، فقال له: إنَّ البخترةَ مشيةٌ تُكْرَهُ إلَّا في سبيل الله تعالى، وقد مَدَحَ الله تعالى أقواماً بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فاقْصِدْ في مشيتك.

وقيل: المشيُ الهونُ مقابل السريع، وهو مذمومٌ. فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة، وابنُ النجار عن ابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ «سرعةُ المشي تُذْهِبُ بَهاءَ المؤمن»[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أنَّ «هوناً» بمعنى حُلَماءَ بالسريانية[٤]. فيكونُ حالاً لا غير. والظاهرُ أنه عربيٌّ بمعنى اللِّينِ والرِّفق.

وفسَّره الرَّاغب بتذلُّلِ الإنسان في نفسه لِمَا لا يُلْحِقُ به غضاضةً، وهو الممدوحُ، ومنه الحديثُ: «المؤمنُ هيِّنٌ ليِّنٌ»[٥].

والظاهرُ بقاءُ المشي على حقيقته، وأنَّ المراد مَدْحُهم بالسكينة والوَقارِ فيه من

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٢٥.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٦، وعنه نقل المصنف.
(٣) الحلية ١٠/ ٢٩٠، وعزاه لابن النجار عن ابن عباس السيوطي في الدر ٥/ ٧٦، وعنه نقل المصنف، وأخرجه ابن الجوزي في العلل (١١٧٧) من حديث ابن عمر، و(١١٧٨) و(١١٧٩) من حديث أبي هريرة، ثم قال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٢٠.
(٥) مفردات الرَّاغب (هان)، والحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٨١٢٨) عن مكحول عن النبي ﷺ. ولفظه: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف...»، ثم أخرجه البيهقي (٨٢٢٩) بهذا اللفظ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: الأول مع إرساله أصح.
وله شاهد من حديث ابن مسعود عند الترمذي (٢٤٨٨) بلفظ: «ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النار؟ على كل قريب هيِّنٍ سهل». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

غير تعميم. نعم يلزمُ من كونهم يمشون كذلك أنهم هيِّنون ليِّنون في سائر أمورهم بحكم العادة على ماقيل.

واختار ابنُ عطيةَ أنَّ المراد مَدْحُهم بعَدَم الخشونة والفظاظة في سائر أمورهم وتصرُّفاتهم، والمراد أنهم يعيشون بين الناس هيِّنين في كلِّ أمورهم، وذُكِرَ المشيُ لِمَا أنه انتقالٌ في الأرض، وهو يستدعي معاشرةَ الناس ومخالطتَهم، واللينُ مطلوبٌ فيها غاية الطلب.

ثم قال: وأمَّا أن يكون المرادُ مدحَهم بالمشي وحده هوناً فباطلٌ، فكم ماشٍ هوناً رويداً وهو ذئبٌ أطلسُ، وقد كان ﷺ يتكفَّأ في مشيه كأنما يمشي في صَبَبٍ، وهو عليه الصلاة والسلام الصدرُ في هذه الآية[1]. وفيه بحثٌ من وجهين فلا تغفل.

وقرأ اليمانيُّ والسُّلَميُّ: «يُمَشَّوْنَ» مبنيًّا للمفعول مشدداً[2].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء وقليلو الأدب، كما في قوله:

أَلَا لا يَـجْـهَـلَـنْ أحـدٌ عـلـيـنـا فـنَـجْـهَـلَ فوق جَهْـلِ الـجـاهِـلـيـنـا[3]

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ بيانٌ لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثْرَ بيانِ حالِهم في أنفسهم، أو بيانٌ لحُسْنِ معاملتهم وتحقيقٌ للينهم عند تحقُّقِ ما يقتضي خلافَ ذلك إذا خُلِّي الإنسانُ وطَبْعَه، أي: إذا خاطبوهم بالسوء قالوا: تسلُّماً منكم ومُتارَكةً، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرَّ، ف «سلاماً» مصدرٌ أقيم مقامَ التسليم، وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَرِ، والتقديرُ: نتسلَّم تسلُّماً منكم، والجملةُ مقولُ القول.

وإلى هذا ذهب سيبويه في «الكتاب»، ومَنَعَ أن يراد السلامُ المعروفُ بأنَّ الآية

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. والأطلس: الذئب الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبثها. معجم متن اللغة (طلس).
وينظر في صفة مشي النبي ﷺ حديث هند بن أبي هالة في الشمائل للترمذي (٧)، والمعجم الكبير ٢٢/ ١٥٥-١٥٩، والشفا للقاضي عياض ١/ ٣٣٤. وقوله: صبب، أي: منحدر. شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٥٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٢، والكلام منه.

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ص١١٧ بشرح ابن كيسان، وفي شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٢٤٦، وشرح القصائد التسع للنحاس ٢/ ٨٣٤.

مكيةٌ، والسلامُ في «النساء» وهي مدنيةٌ، ولم يؤمرِ المسلمون بمكة أن يسلِّموا على المشركين[1].

وقال الأصمُّ: هو سلامُ توديعٍ لا تحيةٌ، كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]. ولا يَخْفَى أنه راجع إلى المُتارَكةِ، وهو كثيرٌ في كلام العرب.

وقال مجاهد: المراد: قالوا قولاً سديداً.

وتعقِّب بأنَّ هذا تفسيرٌ غيرُ سديدٍ؛ لأنَّ المراد هاهنا: يقولون هذه اللفظةَ، لا أنهم يقولون قولاً ذا سدادٍ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وردَّه صاحبُ «الكشف» بأن تلك الآية لا تخالِفُ هذا التفسيرَ؛ فإنَّ قولهم: سلامٌ عليكم، من سَدادِ القول أيضاً، كيف والظاهرُ أنَّ خصوصَ اللفظ غيرُ مقصودٍ، بل هو أو ما يؤدِّي مؤدَّاه أيضاً من كلِّ قولٍ يدلُّ على المتارَكةِ مع الخلوِّ عن الإثم واللغوِ، وهو حَسَنٌ لا غبارَ عليه.

وفي بعض التواريخ كما في «البحر»[2] أنَّ إبراهيم بنَ المهديِّ كان منحرفاً عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فرآه في النوم قد تقدَّم إلى عبورِ قنطرةٍ، فقال له: إنَّما تدَّعي هذا الأمرَ بامرأةٍ، ونحن أحقُّ به منك. فحَكَى ذلك على المأمون[3] ثم قال: ما رأيتُ له بلاغةً في الجواب كما يُذْكَرُ عنه. فقال له المأمون: فما أجابك به؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً. فقال المأمون: يا عمّ، قد أجابك بأبلغ جوابٍ، ونبَّهه على هذه الآية، فخَزِيَ إبراهيمُ واستَحْيَى. عليه من الله تعالى ما يستحق.

والظاهرُ أنَّ المراد مَدْحُهم بالإغضاء عن السفهاء وتَرْكِ مقابلتهم في الكلام، ولا تعرُّضَ في الآية لمعاملتهم مع الكفرة، فلا تُنافي آيةَ القتال ليُدَّعَى نَسْخُها بها؛

---

(١) الكتاب ١/ ٣٢٥.

(٢) ٦/ ٥١٣، وذكره أيضاً أبو الفرج في الأغاني ١٠/ ١٢٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٩.

(٣) في البحر: للمأمون.

لأنها مكيةٌ وتلك مدنيةٌ. ونُقل عن أبي العاليةِ واختاره ابنُ عطية أنها نُسِخَتْ بالنظر إلى الكفرة بآية القتال[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ بيانٌ لحالهم في معاملتهم مع ربِّهم. وكان الحسن إذا قرأ ما تقدَّم يقول: هذا وصفُ نهارهم، وإذا قرأ هذه قال: هذا وَصْفُ ليلهم.

والبيتوتةُ: أنْ يُدْرِكَكَ الليلُ نِمْتَ أوْ لَمْ تَنَمْ. و«لربِّهم» متعلِّقٌ بما بعده، وقدِّم للفاصلة والتخصيص.

والقِيامُ جمعُ قائم، أو مصدرٌ أُجْريَ مجراه، أي: يبيتون ساجدين وقائمين لربِّهم سبحانه، أي: يُحْيُونَ الليلَ كلًّا أو بعضاً بالصلاة.

وقيل: مَن قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاةٍ فقد بات ساجداً وقائماً.

وقيل: أريدَ بذلك فِعْلُ الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء.

وقيل: مَن شَفَعَ وأَوْتَرَ بعد أن صلَّى العشاء فقد دخل في عموم الآية.

وبالجملة: في الآية حضٌّ على قيام الليل في الصلاة. وقدَّم السجودَ على القيام ولم يَعْكِسْ وإن كان متأخِّراً في الفِعْلِ لأَجْلِ الفواصل، ولأنه أقربُ ما يكون العبدُ فيه من ربِّه سبحانه، وإباءِ[٢] المستكبرين عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ الآيةَ [الفرقان: ٦٠].

وقرأ أبو البرهسم: «سجوداً» على وزن قعوداً، وهو أوفقُ بـ «قياماً».

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلواتهم، أو في عامةِ أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: لازماً، كما أخرجه الطستيُّ عن ابن عباس، وأنشد رضي الله عنه في ذلك قولَ بشر بن أبي خازم[٣]:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨، وفيه: وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يختص الكفرة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة.
(٢) أي: ولإباء. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٦.
(٣) في الأصل و(م): حاتم، والصواب ما أثبتناه.

ويومُ النِّسار ويومُ الجِفا ... رِ كانا عذاباً وكانا غراماً[(١)]

ومثلُه قول الأعشى:

إنْ يُعاقِبْ يَكُنْ غراماً وإن يُعْـ ... ـطِ جزيلاً فإنَّه لا يبالي[(٢)]

وهذا اللزومُ إمَّا للكفار، أو المرادُ به الامتدادُ كما في لزوم الغريم.

وفي روايةٍ أخرى عنه تفسيرُه بالفظيع الشديد. وفسَّره بعضُهم بالمُهْلِك.

وفي حكايةِ قولِهم هذا مزيدُ مَدْحٍ لهم ببيان أنهم مع حُسْنِ معاملتهم مع الخلق واجتهادِهم في عبادة الحقِّ يخافون العذابَ، ويبتهلون إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ في صَرْفِه عنهم غيرَ محتفلينَ بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وفي ذلك تحقيقُ إيمانهم بالبعث والجزاء.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: (إِنَّ عَذَابَهَا) إلخ من كلام الدَّاعينَ، وهو تعليلٌ لاستدعائهم المذكورِ بسوء حال عذابها. وكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ وهو تعليلٌ لذلك بسوء حالها في نفسها. وتركُ العطفِ للإشارة إلى أنَّ كلاًّ منهما مستقلٌّ بالعِلِّية.

وقيل: تعليلٌ لِمَا علِّل به أوَّلاً، وضعَّفه ابن هشام في «التذكرة»[(٣)] بأنه لا مناسبةَ بين كونِ الشيء غراماً وكونِه ساء مستقرًّا.

وأجيب: بأنه بملاحظة اللزوم والمقام، فإنَّ المقامَ من شأنه اللزومُ.

وقيل: كلتا الجملتين من كلامه تعالى ابتداء علِّل بهما القولُ على نحو ما تقدَّم، أو علِّل ذلك بأولاهما وعلِّلتِ الأولى بالثانية. وجوِّز كونُ إحداهما مقولةً والأخرى ابتدائيةً. والكلُّ كما ترى.

و(سَآءَتْ) في حُكْمِ بئست، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه هي، وهو الرابطُ لهذه الجملة بما هي خبرٌ عنه إن لم يكن ضميرَ القصة، و(مُسْتَقَرًّا) تمييزٌ،

(١) الدر المنثور ٥/ ٧٧، والبيت في ديوان بشر ص١٩٨، ونسبه صاحب اللسان (غرم) للطرماح، وهو في ذيل ديوانه ص٥٨٤.

(٢) ديوان الأعشى ص١٦٧.

(٣) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٦، وعنه نقل المصنف.

وفيها ضميرٌ مبهمٌ عائدٌ على «مستقرًّا» مفسَّر به، وأنِّث لتأويل المستقرِّ بجهنم أو مطابَقةً للمخصوص. ألا ترى إلى ذي الرُّمَّةِ كيف أنَّثَ الزورق على تأويلِ السفينة حيث كان المخصوصُ مؤنَّثاً في قوله:

أو حـرَّةٌ عـيـطـلٌ ثَـبْـجـاءُ مُـجْـفَـرةٌ دعـائـمُ الزَّوْرِ نِعْمَتْ زورقُ البـلـدِ[١]

قيل: ويجوزُ أن تكون «ساءت» بمعنى أَحْزَنَت، فهي فعلٌ متصرِّفٌ متعدٍّ، وفاعلُه ضميرُ جهنَّم، ومفعولُه محذوفٌ أي: أَحْزَنَتْ أهلَها وأصحابَها، و«مستقرًّا» تمييزٌ أو حالٌ، وهو مصدرٌ بمعنى الفاعل، أو اسمُ مكانٍ وليس بذاك.

والظاهرُ أنَّ «مستقراً ومقاماً» كقوله:

وأَلْـفَـى قـولَـهـا كـذبـاً ومَـيْـنـا[٢]

وحسَّنه كونُ المقام يستدعي التطويلَ، أو كونُه فاصلة. وقيل: المستقرُّ للعصاة والمقامُ للكفرة. و«إنَّ» في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر.

وقرأت فرقةٌ: «ومَقاماً» بفتح الميم، أي: مكانَ قيامٍ[٣].

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ أي: لم يتجاوَزوا حدَّ الكَرَمِ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ أي: ولم يضيِّقوا تضييقَ الشحيح.

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلي[٤]: الإسرافُ: هو الإنفاقُ في المعاصي، والقترُ: الإمساكُ عن طاعةٍ. وروي نحوُ ذلك عن ابن عباس ومجاهدٍ وابن زيدٍ.

وقال عون بنُ عبد الله بن عتبة[٥]: الإسرافُ أن تُنْفِقَ مالَ غيرك.

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ١٧٤. قوله: حرة، أي: كريمة. وعيطل: طويلة العنق. ثبجاء: ضخمة الثَّبَج، والثبج: الوَسَط. مجفرة: ضخمة الوسط. الزَّور: عظم الصدر، ودعائم الزور: الضلوع. قاله شارح الديوان.

(٢) وصدره: وقدَّمَتِ الأديمَ لراهشَيْه. والبيت لعدي بن زيد، وهو في ديوانه ص١٨٣، والراهشان: عرقان في باطن الذراعين. الصحاح (رهش). والشاهد فيه عطف المين على الكذب ـ وهما بمعنى ـ لاختلاف اللفظ تأكيداً، ينظر تفسير القرطبي ٢/ ١٠٧.

(٣) البحر ٦/ ٥١٣.

(٤) هو عبد الله بن يزيد المَعَافري، توفي سنة مئة بإفريقية، من رجال التهذيب.

(٥) ابن مسعود الهُذَلي، أبو عبد الله الكوفي، ثقة عابد، توفي قبل سنة (١٢٠هـ)، من رجالِ

وقرأ الحسن وطلحةُ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ: «يَقْتُروا» بفتح الياء وضمِّ التاء. ومجاهدٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بفَتْحِ الياء وكَسْرِ التاء. ونافعٌ وابنُ عامر بضمِّ الياء وكَسْرِ التاء[١].

وقرأ العلاء ابن سيَابَة[٢] واليزيديُّ بضم الياء وفتح القَاف وكَسْرِ التاء مشدَّدةً[٣]. وكلُّها لغاتٌ في التضييق.

وأنكر أبو حاتم لغةَ أَقْتَرَ رباعيًّا هنا وقال: إنما يقال أقتر إذا افتقر، ومنه: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وغاب عنه ما حكاه الأصمعيُّ وغيرُه من أَقْتَرَ بمعنى ضيَّق[٤].

﴿وَكَانَ﴾ إنفاقُهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ من الإسراف والقتر ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ وَسَطاً وعَدْلاً، سمِّي به لاستقامة الطرفين وتعادُلهما كأنَّ كلًّا منهما يقاوِمُ الآخَرَ كما سمِّي سواء لاستوائهما.

وقرأ حسان: «قِواماً» بكسر القاف[٥]. فقيل: هما لغتان بمعنى واحدٍ، وقيل: هو بالكسر ما يقام به الشيءُ، والمراد به هنا ما يقام به الحاجةُ لا يَفْضُلُ عنها ولا ينقص.

وهو خبرٌ ثانٍ لـ «كان» مؤكِّدٌ للأول وهو «بين ذلك»، أو هو الخبرُ و«بين ذلك» إما معمولٌ لـ «كان» على مذهبِ مَن يرى أنَّ «كان» الناقصةَ تعمل في الظرف، وإما حالٌ من «قواماً»؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، وجوِّز أن يكون ظرفاً لغواً متعلِّقاً به. أو «بين ذلك» هو الخبر، و«قواماً» حالٌ مؤكِّدة.

= التهذيب. وأخرج قوله الطبري ١٧/ ٥٠٠-٥٠١.

(١) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤، وقرأ خلف مثل قراءة حمزة والكسائي وعاصم. وقرأ يعقوب مثل قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ أبو جعفر مثل قراءة نافع وابن عامر.

(٢) في الأصل و(م): سبابة، والصواب ما أثبتناه، وهو بسين مهملة، بعدها ياء مفتوحة، وبعد الألف باء، والعلاء بن سيابة كوفي يروي عن طلحة بن مصرف وغيره، روى عنه ابنه الوليد بن العلاء. الإكمال ٥/ ١٤-١٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والدر المصون ٨/ ٥٠١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٧، والبحر ٦/ ٥١٤، وعنه نقل المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥١٤. وحسان هو ابن عبد الرحمن الضُّبعي، نسبة إلى ضبعة قبيلة من قيس، تابعي روى عنه قتادة. الثقات ٤/ ١٦٤، والإصابة ٣/ ٣٨، وفيض القدير ٥/ ٣١٣.

وأجاز الفرَّاء[1] أنْ يكون «بين ذلك» اسمَ «كان» وبُنِيَ لإضافته إلى مَبنيٍّ، كقوله تعالى: «ومِن خزيِ يومَئِذٍ» في قراءةِ مَن فَتَحَ الميم[2]، ومنه قولُ الشاعر:

لم يمنع الشربَ منها غيرَ أنْ نَطَقَتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ[3]

وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه من جهة الإعراب لا بأسَ به، ولكنَّ المعنى ليس بقويٍّ؛ لأنَّ ما بين الإسراف والتقتير قوامٌ لا محالةَ، فليس في الخبر الذي هو معتمَدُ الفائدةِ فائدةٌ[4]. وحاصلُه أنَّ الكلام عليه من باب: كان الذاهبُ جاريتُه صاحبَها، وهو غيرُ مفيدٍ. ولا يخفى أنه غيرُ واردٍ على قراءةِ «قِواماً» بالكسر على القول الثاني فيه، وعلى غير ذلك متَّجهٌ.

وما قيل من أنه من بابِ: شِعْري شِعْري[5]، والمعنى: كان قَواماً معتبراً مقبولاً، غيرُ مقبولٍ لأنه مع بُعْدِه إنما ورد فيما اتَّحد لَفْظُه، وما نحن فيه ليس كذلك.

وكذا ما قيل: إنَّ «بين ذلك» أعمُّ من القَوَام بمعنى العَدْلِ الذي يكون نسبةُ كلٍّ واحدٍ من طرفيه إليه على السواء، فإنَّ ما بين الإقتار والإسراف لا يلزم أن يكون قَواماً بهذا المعنى؛ إذ يجوز أن يكون دون الإسراف بقليلٍ وفوق الإقتار بقليلٍ = فإنه تكلُّفٌ أيضاً؛ إذ ما بينهما شاملٌ لحاقِّ الوسط وما عَدَاه كالوسط من غير فرقٍ، ومِثْلُه لا يُستعمل في المخاطبات لإلْغازِه.

وقيل: لأنه بعد تسليم جواز الإخبار عن الأعمِّ بالأخصِّ يبعدُ أن يكون مَدْحُهم بمراعاةِ حاقِّ الوسط مع ما فيه من الحرج الذي نُفي عن الإسلام.

وفيه أنه لا شكَّ في جواز الإخبار عن الأعمِّ بالأخصِّ، نحو: الذي جاءني زيدٌ، والقائل لم يُرِدْ الحاقَّ الحقيقيَّ بل التقريبيَّ كما يدلُّ عليه قولُه: بقليل، ولا حَرَجَ في مثله فتأمَّل.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٣.

(٢) هي قراءة نافع والكسائي كما سلف ١١/ ٥٣٢-٥٣٣.

(٣) سلف ١٢/ ٦٩.

(٤) الكشاف ٣/ ١٠٠.

(٥) سلف ٢/ ٤١٧. وهو قطعة من رجز لأبي النجم في ديوانه ص٩٩، وتمامه: أنا أبو النجم وشِعري شِعري، وبعده: لله درِّي مما يُجِنُّ صَدْري.

ولعل الإخبار عن إنفاقهم بما ذُكر بعد قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ المستلزمِ لكونِ إنفاقهم كذلك للتنصيص على أنَّ فِعْلَهم من خير الأمور، فقد شاع: خيرُ الأمورِ أوساطُها[1]. والظاهرُ أنَّ المراد بالإنفاق ما يعمُّ إنفاقَهم على أنفسهم وإنفاقَهم على غيرها، والقَوامُ في كلِّ ذلك خير، وقد أخرج أحمد والطبرانيُّ عن أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ: «مِنْ فِقْهِ الرَّجلِ رِفْقُه في معيشتِه»[2].

وأخرج ابن ماجه في «سننه» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرَفِ أن تأكلَ كلَّ ما اشْتَهيْتَ»[3].

وحُكي عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز عليه الرحمةُ حين زوَّجه ابنته فاطمةَ: ما نفقتُك؟ فقال له عمر: الحسنةُ بين السيئتين، ثم تلا الآية[4].

وقد مَدَح الشعراء التوسُّطَ في الأمور والاقتصادَ في المعيشة قديماً وحديثاً، ومن ذلك قولُه:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمرِ واقْتَصِدْ كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ[5]

وقول حاتم:

إذا أنت قد أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه وفَرْجَكَ نالا مُنْتَهى الذمِّ أجمعا[6]

---

(١) أخرجه ابن سعد ٧/ ١٤٢، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٧٩ عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قوله، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ من قول يزيد بن مرة الجعفي، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٨١ من قول أبي قلابة. وينظر المقاصد الحسنة ص٣٣٢، وجمهرة الأمثال ١/ ٤١٩.

(٢) مسند أحمد (٢١٦٩٥)، ومسند الشاميين (١٤٨٢)، وفي إسناده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٣) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٧ وهو من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس به، ونوح بن ذكوان، قال عنه ابن حبان: منكر الحديث جدًّا. وقال أبو حاتم: نوح ليس بشيء. الميزان ٤/ ٢٧٧. وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٧١، وأحمد في الزهد ص١٥٣ نحوه من طريق الحسن عن عمر ﷺ قوله، والحسن لم يسمع من عمر. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٢.

(٤) الكشاف ٣/ ١٠٠، والبحر ٦/ ٥١٤ وعنه نقل المصنف.

(٥) البيت لحَمْد بن محمد الخطابي، وهو في قِرى الضيف ٤/ ٣٨٥، ومعجم الأدباء ٤/ ٢٥٩. وينظر الخزانة ٢/ ١٢٢-١٢٣.

(٦) ديوان حاتم ص٦٨ برواية: وإنك مهما تُعطِ بطنك. . . .

وقول الآخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ... ولَمْ يَنْهَها تاقَتْ إلى كلِّ باطلِ

وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي ... دَعَتْه إليه من حلاوةِ عاجلِ[1]

إلى غير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا يشركون به غيرَه سبحانه.

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرَّمها الله تعالى؛ بمعنى: حرَّم قَتْلَها؛ لأنَّ التحريم إنَّما يتعلَّقُ بالأفعال دون الذَّوَاتِ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه مبالغةً في التحريم. ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بـ «لا يقتلون»، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأسباب، أي: لا يقتلونها بسببٍ من الأسباب إلَّا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرْمَتِها وعِصْمَتِها، كالزنى بعد الإحصان، والكفرِ بعد الإيمان.

وجوِّز أن يكون صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: لا يقتلونها نوعاً من القتل إلا قتلاً ملتبساً بالحقِّ. وأن يكون حالاً، أي: لا يقتلونها في حالٍ من الأحوال إلَّا حالَ كونهم ملتبسين بالحقِّ.

وقيل: يجوزُ أن يكون متعلِّقاً بالقتل المحذوفِ، والاستثناءُ أيضاً من أعمِّ الأسباب، أي: لا يقتلون النفس التي حرَّم الله تعالى قَتْلَها بسببٍ من الأسباب إلا بسببِ الحقِّ. ويكون الاستثناءُ مفرَّغاً في الإثبات لاستقامة المعنى بإرادة العموم، أو لكون «حرَّم» نفياً معنًى. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ ولا يطؤون فَرْجاً محرَّماً عليهم.

والمرادُ من نفي هذه القبائح العظيمة التعريضُ بما كان عليه أعداؤهم من قريشٍ وغيرهم، وإلَّا فلا حاجةَ إليه بعد وَصْفِهم بالصفات السابقة، من حُسْنِ المعاملة

---

(١) نسبهما ياقوت في معجم الأدباء ١٠/ ١٥٣ للحسين بن محمد بن عبد الوهاب، المعروف بالبارع البغدادي، ثم نسبهما ١٩/ ٤٤ لمحمد بن محمد بن القاسم المعروف بابن أبي المناقب. وجاء في الأصل: كلما اشتهت.

وإحياءِ الليل بالصلاة ومَزيدِ خوفهم من الله تعالى؛ لظهورِ استدعائها نفيَ ما ذُكر عنهم. ومنه يُعْلَم حَلُّ ما قيل: الظاهرُ عكسُ هذا الترتيبِ وتقديمُ التخليةِ على التحليةِ، فكأنه قيل: والذين طهَّرهم الله تعالى وبرَّأهم سبحانه مما أنتم عليه من الإشراك وقَتْلِ النفس المحرَّمةِ كالموؤودة والزنى.

وقيل: إنَّ التصريح بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا، أو لإظهار كمالِ الاعتناء والإخلاص، وتهويلِ أمر القتل والزنى بنَظْمِهما في سِلْكِه، وقد صحَّ من رواية البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ عن ابن مسعود قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذنبِ أكبر؟ قال: «أن تجعل لله تعالى ندًّا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أنْ تَقْتلَ وَلَدَكَ خشيةَ أن يَطْعَمَ معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أنْ تُزانيَ حليلةَ جارِك» فأنزل الله تعالى تصديقَ ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية[1].

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ ناساً من أهل الشِّرْكِ قد قَتَلوا فأَكْثَروا، وزَنَوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسنٌ لو تخبرُنا أنَّ لِمَا عَمِلْنا كفارةٌ؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيـة، ونـزلـت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآيـة[2] [الزمر: ٥٣].

وقد ذكر الإمام الرازي أنَّ ذِكْرَ هذا بعد ما تقدَّم؛ لأنَّ الموصوف بتلك الصفاتِ قد يرتكبُ هذه الأمورَ تديُّناً، فبيَّن سبحانه أنَّ المكلَّف لا يصير بتلك الخلال وحدَها من عباد الرحمن حتى ينضافَ إلى ذلك كونُه مُجانِباً لهذه الكبائر[3]. وهو كما ترى.

وجوِّز أن يقال في وَجْهِ تقديمِ التَّحْليةِ على التَّخْليةِ: كونَ الأوصافِ المذكورة في التَّحليةِ أوفقَ بالعبودية التي جُعلت عنوانَ الموضوع؛ لظهور دلالتها على تَرْكِ

(١) صحيح البخاري (٦٠٠١)، وصحيح مسلم (٨٦)، وسنن الترمذي (٣١٨٢)، وهو عند أحمد (٤١٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٠)، وصحيح مسلم (١٢٢): (١٩٣)، وسنن أبي داود (٤٢٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (٣٤٥٢).

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٠-١١١.

الأنانية ومزيدِ الانقيادِ والخوفِ، والاقتصادِ في التصرُّفِ بما أَذِنَ المولى بالتصرُّفِ فيه. ولا يأبى هذا قَصْدَ التعريضِ بما ذُكر في التخلية.

ويؤيِّد هذا القَصْدَ التعقيبُ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: ومَن يفعلُ ما ذكر يَلْقَ في الآخرة عقاباً لا يقادرُ قَدْرُه. وتفسيرُ الأثام بالعقاب مرويٌّ عن قتادة وابنِ زيد، ونَقَله أبو حيان عن أهلِ اللغة وأنشد قولَه:

جَزَى الله ابنَ عُروةَ حيث أمسى ... عقوقاً والعقوقُ له أثامُ[1]

وأخرج ابن الأنباريِّ عن ابن عباس أنه فسَّره لنافع بن الأزرق بالجزاء، وأنشد قولَ عامر بن الطفيل:

وروَّينا الأسنَّةَ من صداءٍ ... ولاقتْ حميرٌ منَّا أَثاما[2]

والفرقُ يسيرٌ.

وقال أبو مسلم: الأثام: الإثمُ، والكلامُ عليه على تقدير مضافٍ، أي: جزاءَ أثامٍ، أو هو مجازٌ مِن ذِكْرِ السبب وإرادةِ المسبَّبِ.

وقال الحسن: هو اسمٌ من أسماء جهنَّم، وقيل: اسمُ بئرٍ فيها، وقيل: اسمُ جبلٍ.

وروى جماعة عن عبد الله بن عمر ومجاهدٍ: أنه وادٍ في جهنم. وقال مجاهد: فيه قيحٌ ودمٌ.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» عن شفيٍّ الأصبحي أنَّ فيه حياتٍ وعَقارِبَ في فِقَارِ إحداهُنَّ مقدارُ سبعين قُلَّةً من سمٍّ، والعقربُ منهنَّ مثلُ البغلة الموكفة[3].

---

(١) البحر ٦/ ٥١٥، والبيت لبَلْعاء بن قيس الكناني، كما في مجاز القرآن ٢/ ٨١، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥، ونسب في اللسان (أثم) لشافع الليثي. ووقع في الأصل و(م): جزاء، بدل: أثام، والمثبت من المصادر.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٩٤، ولم نقف عليه في ديوان عامر بن الطفيل. ووقع في (م): صداه.

(٣) الزهد (٣٣٦- زوائد نعيم).

وعن عكرمة: اسمٌ لأوديةٍ في جهنم فيها الزناةُ.

وقرئ: «يُلَقَّ» بضمِّ الياء وفتح اللام والقافُ مشدَّدةٌ[١]. وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء: «يَلْقَى» بألفٍ[٢]، كأنه نوى حَذْفَ الضمة المقدَّرةِ على الألف فأقرَّتِ الألف.

وقرأ ابن مسعود أيضاً: «أياماً» جمع يوم[٣]، يعني شدائد، واستعمالُ الأيام بهذا المعنى شائعٌ، ومنه: يوم ذو أيام، و: أيامُ العرب، لوقائعهم ومقاتَلَتِهم.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بدلٌ من «يَلْقَ» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بَدَل اشتمالٍ. وجاء الإبدالُ من المجزوم بالشرط في قوله:

متى تأتنا تَلْمُمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حطباً جَزْلاً وناراً تأجَّجا[٤]

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ أي: في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا ۝٦٩﴾ ذليلاً مستحقَراً، فيجتمع له العذابُ الجسمانيُّ والروحانيُّ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن كثير: «يُضَعَّف» بالياء والبناءِ للمفعول وطَرْحِ الألف والتضعيف[٥].

وقرأ شيبةُ وطلحةُ بنُ سليمان وأبو جعفر أيضاً: «نُضَعِّفْ» بالنون مضمومةً وكَسْرِ العين مضعَّفةً و«العذابَ» بالنصب[٦].

وطلحة بن مصرِّفٍ: «يُضاعِفْ» مبنيًّا للفاعل، و«العذابَ» بالنصب[٧].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥ عن ابن مسعود وأبي رجاء. وهي في البحر ٦/ ٥١٥ دون نسبة.
(٢) البحر ٦/ ٥١٥، وهي في الكشاف ٣/ ١٠١ دون نسبة.
(٣) الكشاف ٣/ ١٠١، والبحر ٦/ ٥١٥.
(٤) الكتاب ١/ ٨٦، والخزانة ٩/ ٩٠، ونسبه البغدادي لعبيد الله بن الحر. والحطب الجزل: الغليظ منه.
(٥) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٢٢٨ و٣٣٤ عن ابن كثير وأبي جعفر ويعقوب جزماً، وعن ابن عامر رفعاً. والكلام من البحر ٦/ ٥١٥.
(٦) المحتسب ٢/ ١٢٥ عن طلحة بن سليمان، والكلام من البحر ٦/ ٥١٥، والمشهور عن أبي جعفر «يُضعَّفْ» كما سلف.
(٧) البحر ٦/ ٥١٥.

وقرأ طلحة بن سليمان: «وتَخْلُدُ» بتاء الخطاب على الالتفات المنبئ عن شدَّة الغضب مرفوعاً[١].

وقرأ أبو حيوة: «ويُخلَّدْ» مبنيًّا للمفعول مشدَّد اللام مجزوماً[٢]. ورويتْ عن أبي عمرو، وعنه كذلك مخفَّفاً[٣].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يُضاعَفُ» «ويَخْلُدُ» بالرفع فيهما[٤]، وكذا ابنُ عامرٍ والمفضَّلُ عن عاصم: «يضاعَفُ» «ويُخْلَدُ» مبنيًّا للمفعول مرفوعاً مخفَّفاً[٥]. والأعمش بضم الياء مبنيًّا للمفعول مشدَّداً مرفوعاً[٦].

وقد عرفتَ وَجْهَ الجزم. وأمَّا الرفعُ فوجهُه الاستئنافُ، ويجوزُ جَعْلُ الجملة حالاً من فاعلِ «يَلْقَ»، والمعنى: يلقَ أثاماً مضاعفاً له العذاب.

ومضاعفتُه مع قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] قيل: لانضمام المعصية إلى الكفر، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ فإنَّ استثناء المؤمن يدلُّ على اعتبار الكفر في المستثنى منه.

وأُوْرِدَ عليه أنَّ تكرُّرَ «لا» النافيةِ يفيدُ نفيَ كلٍّ من تلك الأفعال، بمعنى: لا يُوْقِعون شيئاً منها، فيكون «ومَن يَفْعَلْ ذلك» بمعنى: ومَن يفعل شيئاً من ذلك، ليتَّحِدَ مَوْرِدُ الإثبات والنفي، فلا دلالةَ على الانضمام، والمستثنى مَن جَمَعَ بين ما ذُكر من الإيمان والتوبة والعمل الصالح، فيكون المستثنى منه غيرَ جامعٍ لها، فلعل الجواب أنَّ المضاعفة بالنسبة إلى عذابِ ما دونَ المذكورات.

---

(١) البحر ٦/ ٥١٥. وهي في المحتسب ٢/ ١٢٥ عن طلحة ولكن بالجزم.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٥.

(٣) البحر ٦/ ٥١٥، والمشهور عن أبي عمرو: «ويَخْلُدْ» كما في التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٤) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٥) البحر ٦/ ٥١٥، وهي غير المشهور عنهما، فقراءة عاصم من رواية أبي بكر قد ذكرت قبلها، وقراءته من رواية حفص: «يُضاعَفْ» «ويَخلُدْ» بالجزم فيهما، وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو ونافع وخلف. والمشهور عن ابن عامر: «يُضعَّفُ» «ويَخْلُدُ». التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٢٢٨ و٣٣٤.

(٦) البحر ٦/ ٥١٥.

وتعقِّب بأنَّ الجواب المذكور لا بُعْدَ فيه وإن لم يُذْكَرْ ما دونها، إلَّا أنَّ الإيراد ليس بشيءٍ؛ لأنَّ الكلام تعريضٌ للكفرة، ومن يَفْعَلْ شيئاً من ذلك منهم فقد ضمَّ معصيته إلى كفره. ولو لم يلاحَظْ ذلك ـ على ما اختاره ـ لَزِمَ أنَّ مَن ارتكب كبيرةً يكون مخلَّداً، ولا يَخْفَى فسادُه عندنا. وما ذكر من اتِّحادِ مورد الإثبات والنفي ليس بلازم.

ثم إنَّ في الكلام قرينةً على أنَّ المستثنى منه مَن جَمَعَ بين أضدادها كما علمتَ، ولذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح مع أن العمل مشروطٌ بالإيمان، فذكره للإشارة إلى انتفائه عن المستثنى منه، ولذا قدَّم التوبة عليه، ويحتمل أنَّ تقديمها لأنها تخليةٌ.

وقال بعضُهم: ليس المرادُ بالمضاعَفَةِ المذكورة ضمَّ قَدْرَينِ متساويين من العذاب كلٌّ منهما بقَدْرِ ما تقتضيه المعصية، بل المرادُ لازمُ ذلك، وهو الشدَّة، فكأنه قيل: ومَن يفعل ذلك يعذَّب عذاباً شديداً، ويكون ذلك العذابُ الشديد جزاءَ كلٍّ مِن تلك الأفعال ومماثِلاً له، والقرينةُ على المجاز قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ونحوُه، ويراد من الخلود المكثُ الطويلُ الصادق بالخلود الأبديِّ وغيره، ويكونُ لمن أَشْرَكَ باعتبارِ فَرْدِه الأوَّلِ، ولمن ارتكب إحدى الكبيرتين الأخيرتين باعتبارِ فردِه الآخَرِ. وهو كما ترى.

ومثلُه ما قيل من أنَّ المضاعَفَةَ لحفظ ما تقتضيه المعصيةُ، فإنَّ الأمر الشديد إذا دام هان.

هذا، والظاهرُ أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ على ما هو الأصلُ فيه، وقال أبو حيَّان[١]: الأَوْلَى عندي أن يكون منقطعاً، أي: لكنْ مَن تابَ.. إلخ؛ لأنَّ المستثنى منه على تقديرِ الاتِّصال محكومٌ عليه بأنه يضاعَفُ له العذابُ، فيصيرُ التقدير: إلَّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلا يضاعَفُ له العذاب، ولا يلزمُ من انتفاءِ التضعيف انتفاءُ[٢] العذاب غيرِ المضعَّف.

---

(١) في البحر ٦/ ٥١٥.

(٢) في الأصل و(م): لقاء، والمثبت من البحر، ومثله في الدر المصون ٨/ ٥٠٤ نقلاً عن البحر.

وفيه أنَّ قوله تعالى الآتي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ احتراسٌ لدَفْع توهُّم ثبوتِ أصل العذاب بإفادةِ أنهم لا يلقونه أصلاً على أكمل وَجْهٍ.

وقيل أيضاً في ترجيح الانقطاع: إنَّ الاتصالَ مع قَطْعِ النظر عن إيهامه ثبوتَ أصل العذاب، بل وعن إيهامه الخلودَ غيرَ مهانٍ، يُوهِمُ أنَّ مضاعفةَ العمل الصالح شرطٌ لنفي الخلود، مع أنه ليس كذلك.

ثم أيَّةُ ضرورةٍ تدعو إلى أنْ يُرْتَكبَ ما فيه إيهامٌ ثم يُتَشَبَّثَ بأذيالِ الاحتراس، على أنَّ الظاهر أنْ يُجعل «مَن» مبتدأً، والجملةُ المقرونةُ بالفاء خبره، وقُرِنَتْ بذلك لوقوعها خبراً عن الموصول، كما في قولك: الذي يأتيني فله درهمٌ. وأنا أميلُ لِمَا مال إليه أبو حيان؛ لمجموع ما ذُكر.

وذكر الموصوف في قوله سبحانه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسمِ؛ للاعتناء به، والتنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمال السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول، والجمعُ باعتبارِ معناه، كما أنَّ الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ بأنْ يمحوَ سَوابِقَ معاصيهم بالتوبة، ويُثْبِتَ مكانها لَواحِقَ طاعاتهم، كما يشير إلى ذلك كلامُ كثيرٍ من السلف.

وقيل: المرادُ بالسيئات والحسنات مَلَكَتُهما لأنفسهما، أي: يبدِّلُ عزَّ وجلَّ بملَكةِ السيئات ودواعيها في النفس مَلَكةَ الحسنات بأنْ يزيلَ الأولى ويأتي بالثانية.

وقيل: هذا التبديلُ في الآخرة، والمرادُ بالسيئاتِ والحسناتِ العقابُ والثوابُ مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادةِ المسبَّب، والمعنى: يعفو جلَّ وعلا عن عقابهم ويتفضَّلُ سبحانه عليهم بَدَلَه بالثواب. وإلى هذا ذهب القفَّالُ والقاضي.

وعن سعيد بن المسيّب وعمرو بنِ ميمون ومكحولٍ: أنَّ ذلك بأنْ تُمحَى السيئاتُ نفسُها يومَ القيامةِ من صحيفة أعمالهم، ويكتَبَ بدلَها الحسناتُ، واحتجُّوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى بالرجل يومَ القيامة فيقال: اعْرِضوا عليه صغارَ ذنوبه، ويُنَحَّى عنه كبارُها، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وهو يُقِرُّ لا يُنْكِرُ، وهو مُشْفِقٌ من الكبائر، فيقال:

أَعْطُوه مكانَ كلِّ سيئةٍ عَمِلَها حسنةً. فيقول: إنَّ لي ذنوباً لم أرَها هنا»؟! قال: ولقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نَواجِذُه[1].

ونحوُ هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ ناسٌ يومَ القيامة ودُّوا أنهم استكْثَروا من السيئات» قيل: مَن هم؟ قال ﷺ: «الذين يبدِّلُ الله تعالى سيئاتهم حسناتٍ»[2].

ويسمَّى هذا التبديلُ: كرم العفو، وكأنه لذلك قال أبو نواس:

تركتَ مخافةَ الذَّنْبِ السرورا تعضُّ ندامةً كفَّيْكَ ممَّا[3]

ولعل المراد: أنه تُغْفَرُ سيِّئاتُه ويُعْطَى بَدَلَ كلِّ سيئةٍ ما يَصْلُحُ أن يكون ثوابَ حسنةٍ تفضُّلاً منه عزَّ وجلَّ وتكرُّماً، لا أنه يُكتب له أفعالُ حسناتٍ لم يفعلها ويثابُ عليها.

وفي كلام أبي العالية ما هو ظاهرٌ في إنكار تمنِّي الاستكثارِ من السيئات، فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قيل له: إنَّ أناساً يزعمون أنهم يتمنَّوْنَ أن يَسْتَكْثِروا من الذنوب؟ فقال: ولِمَ ذلك؟ فقيل: يتأوَّلون هذه الآية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ وكان أبو العالية إذا أُخبر بما لا يعلم قال: آمنتُ بما أنزل الله تعالى من كتابه، فقال ذلك ثم تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠] وكأنه ظنَّ أن ما تلاه مُنافٍ لِمَا زعموه من التمنِّي.

ويمكنُ أنْ يقال: إنَّ ما دلَّتْ عليه تلك الآيةُ يكون قبل الوقوف على التبديل، واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: عن المعاصي التي فَعَلَها بتَرْكِها بالكلِّية والنَّدمِ عليها ﴿وَعَمِلَ

---

(١) صحيح مسلم (١٩٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٩٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣، وهو فيه موقوف على أبي هريرة، وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم مرفوعاً السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٩-٨٠، وعنه نقل المصنف.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٠٧، ومنه. . . .مخافة النار السرورا.

صَٰلِحًا﴾ يتلافَى به ما فرطَ منه. أو: ومَن خرج عن جنس المعاصي ـ وإن لم يفعله ـ ودخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يرجعُ إليه سبحانه بذلك ﴿مَتَابًا ۝٧١﴾ أي: رجوعاً عظيم الشأن، مَرْضيًّا عنده تعالى، ماحياً للعقاب، محصِّلاً للثواب.

أو: فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطفِ الواسع، الذي يحبُّ التائبين ويصطنع إليهم، أو: فإنه يرجع إلى الله تعالى ـ أو إلى ثوابه سبحانه ـ مرجعاً حسناً.

وأيًّا ما كان فالشرطُ أو الجزاءُ متغايران. وهذا لبيان حالِ مَن تاب من جميع المعاصي، وما تقدَّم لبيانِ مَن تاب من أمَّهاتها، فهو تعميمٌ بعد تخصيص.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يُقيمون الشهادةَ الكاذبة، كما رُوي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والباقرِ ﷺ، فهو من الشهادة، و«الزور» منصوبٌ على المصدر أو بنزع الخافض، أي: شهادةَ الزُّورِ، أو: بالزُّورِ.

ويُفْهَمُ من كلام قتادةَ أنَّ الشهادة هنا بمعنًى يعمُّ ما هو المعروف منها، أخرج عبد بنُ حميد وابنُ أبي حاتم عنه أنه قال: أي: لا يساعدون أهلَ الباطل على باطلهم ولا يؤمِّلونهم فيه[1].

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد بالزُّور الغناءُ، ورُوِيَ نحوُه عن محمد بن الحنفية ﷺ[2]. وضمَّ الحسنُ إليه النِّياحةَ.

وعن قتادة: أنَّه الكذبُ. وعن عكرمةَ: أنه لعبٌ كان في الجاهلية.

وعن ابن عباس: أنه صنم كانوا يلعبون حوله سبعةَ أيام[3]. وفي روايةٍ أخرى

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٨٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٧/ ٥٢٢.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قال الراغب: وسمي الصنم زوراً في قوله: جاؤوا بزُوْرِيهم وجئنا بالأصم، لكون ذلك كذباً وميلاً عن الحق. وظاهره أنه مطلق الصنم. اهـ منه. والكلام في مفردات الراغب (زور) إلى قوله: وميلاً عن الحق. وقوله: جاؤوا بزوريهم. . .، هذا الرجز للأغلب العجلي، وقيل: ليحيى بن منصور، وذكروا بعده: شيخٍ لنا كالليث من باقي إِرَمْ. ينظر التاج (زور).

عنه: أنه عيدُ المشركين. ورُوي ذلك عن الضحَّاك. وعن هذا[1] أنه الشرك.

ف «يَشْهَدون» ـ على هذه الأقوال ـ من الشهود بمعنى الحضور، و«الزور» مفعولٌ به بتقدير مضافٍ، أي: محالَّ الزور.

وجوِّز أن يراد بالزور ما يعمُّ كلَّ شيءٍ باطلٍ مائلٍ عن جهة الحقِّ، من الشِّرك والكذب والغناء والنياحةِ ونحوِها، فكأنه قيل: لا يشهدون مجالسَ الباطل لِمَا في ذلك من الإشعار بالرضا به، وأيضاً مَن حَامَ حول الحمى يوشكُ أن يقع فيه.

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ على طريق الاتِّفاق ﴿بِاللَّغْوِ﴾ بما ينبغي أن يُلْغَى ويُطْرَحَ ممَّا لا خيرَ فيه ﴿مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: مُكْرِمينَ أنفُسَهم عن الوقوف عليه والخوضِ فيه، مُعْرِضينَ عنه.

وفسَّر الحسن اللغوَ ـ كما أخرج عنه ابن أبي حاتم ـ بالمعاصي[2]. وأخرج هو وابن عساكر عن إبراهيم بنِ ميسرةَ قال: بلغني أنَّ ابن مسعود ﷺ مرَّ بلَهْوٍ مُعْرِضاً ولم يقف، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أصبح ابنُ مسعودٍ وأمسى كريماً» ثم تلا إبراهيم: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)[3].

وقيل: المراد باللغو: الكلامُ الباطل المؤذي لهم، أو ما يعمُّه والفعل المؤذي، وبالكرم العفوُ والصَّفْحُ عمَّن آذاهم، وإليه يشير ما أخرجه جماعةٌ عن مجاهدٍ أنه قال في الآية: إذا أُوذوا صَفَحُوا، وجُعِلَ الكلام على هذا بتقديرِ مضافٍ، أي: إذا مرُّوا بأهل اللَّغو أعرضوا عنهم، كما قيل:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني فمضيتُ ثُمتَ قلتُ لا يعنيني[4]

ولا يَخْفَى أنه ليس بلازمٍ.

---

(١) يعني الضحاك، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٢٢، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧.

(٢) لم نقف عليه في تفسير ابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٨١ للطبري، وهو في تفسيره ١٧/ ٥٢٤.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٨-٢٧٣٩، وتاريخ ابن عساكر ٣٣/ ١٢٨.

(٤) البيت في الكتاب ٣/ ٢٤ عن رجل من بني سلول، وعزاه الأصمعي في الأصمعيات ص٢٦ إلى شمر بن عمرو الحنفي، وسلف ٧/ ٤٦٧.

وقيل: اللغوُ: القولُ المستهجَنُ، والمراد بمرورهم عليه: إتيانُهم على ذِكْرِه، وبكَرَمِهم: الكفُّ عنه والعدولُ إلى الكناية، وإليه يومئُ ما أخرجه جماعةٌ عن مجاهدٍ أيضاً أنه قال فيها: كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كَنَوا عنه.

وعمَّم بعضُهم وجَعَلَ ما ذُكر من باب التمثيل، وجوَّز أن يراد باللغو الزورُ بالمعنى العامِّ، أعني: الأمرَ الباطل، عبَّر عنه تارةً بالزور لميله عن جهة الحقِّ، وتارةً باللغو لأنه من شأنه أن يُلْغَى ويُطْرحَ، ففي الكلام وضعُ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ، والمعنى: والذين لا يحضرون الباطلَ وإذا مرُّوا به على طريق الاتِّفاق أعرضوا عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنيةِ المنطويةِ على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: أكبُّوا عليها سامعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبْصِرين بعيونٍ راعيةٍ، فالنفيُ متوجِّهٌ إلى القيد على ما هو الأكثرُ في لسان العرب، وفي التعبير بما ذُكر دون: أكبُّوا عليها سامعينَ مُبْصِرينَ ونحوِه، تعريضٌ لِمَا عليه الكفرةُ والمنافقون إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم، والخرورُ: السقوطُ على غير نظامٍ وترتيب، وفي التعبير به مبالغةٌ في تأثير التذكير بهم.

وقيل: ضمير «عليها» للمعاصي المدلولِ عليها باللغو، والمعنى: إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم المتضمِّنةِ للنهي عن المعاصي والتخويفِ لمرتكبها، لم يفعلوها ولم يكونوا كمن لا يسمعُ ولا يبصرُ، وهو كما ترى.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة، كما روي عن ابن عباس والحسن وعكرمةَ ومجاهدٍ؛ فإنَّ المؤمنَ الصادق إذا رأى أهلَه قد شاركوه في الطاعة قرَّتْ بهم عينُه، وسرَّ قلبُه، وتوقَّعَ نفعَهم له في الدنيا حيًّا وميتاً، ولحُوقَهم به في الأخرى.

وذُكر أنه كان في أول الإسلام يهتدي الأبُ، والابنُ كافرٌ. والزوجُ، والزوجةُ كافرةٌ، فلا يطيبُ عيشُ ذلك المهتدي، فكان يدعو بما ذُكر.

وعن ابن عباس: قُرَّةُ عينِ الوالدِ بولده أن يراه يكتب الفقه.

و«من» ابتدائيةٌ متعلِّقةٌ بـ «هَبْ» أي: هَبْ لنا من جهتهم. وجوِّز أن تكون بيانيةً،

كأنه قيل: هَبْ لنا قرةَ أعيُنٍ، ثم بُيِّنَتِ القرَّةُ وفسِّرتْ بقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ وهذا مبنيٌّ على مجيء «من» للبيان، وجوازِ تقدُّمِ المبيِّن على المبيَّن.

وقرةُ العين كنايةٌ عن السرور والفرح، وهو مأخوذٌ من القرِّ، وهو البردُ؛ لأنَّ دمعة السرور باردةٌ، ولذا يقال في ضدِّه: أَسْخَنَ الله تعالى عينَه، وعليه قولُ أبي تمام:

فأمَّا عيونُ العاشقينَ فأُسْخِنَتْ وأمَّا عيونُ الشامتينَ فقرَّتِ[1]

وقيل: هو مأخوذٌ من القرار؛ لأنَّ ما يَسُرُّ يَقِرُّ النظرُ به، ولا ينظرُ إلى غيره.

وقيل في الضدِّ: أَسْخَنَ الله تعالى عينَه، على معنى: جعله خائفاً مترقِّباً ما يُحزِنُه ينظرُ يميناً وشمالاً، وأماماً ووراءً، لا يدري من أين يأتيه ذلك، بحيث تسخُنُ عينه لمزيد الحركة التي تُورِثُ السخونةَ. وفيه تكلُّفٌ.

وقيل: «أَعْيُنٍ» بالتنكير مع أنَّ المراد بها أعينُ القائلين ـ وهي معيَّنةٌ ـ لقَصْدِ تنكير المضافِ للتعظيم، وهو لا يكونُ بدون تنكيرِ المضاف إليه.

وجمعُ القلَّةِ على ما قال الزمخشريُّ: لأنَّ أعين المتقين قليلةٌ بالإضافة إلى عيونِ غيرهم[2].

وتعقَّبه أبو حيان وابن المنير: بأنَّ المتقين وإن كانوا قليلاً بالإضافة إلى غيرهم إلَّا أنهم في أنفسهم على كثرةٍ من العدد، والمعتبرُ في إطلاق جَمْعِ القلَّةِ أن يكون المجموعُ قليلاً في نفسه لا بالإضافة إلى غيره[3].

وأجيب بأنَّ المراد أنه استعمل الجمع المذكور في معنى القلَّة مجرَّداً عن العدد بقرينةِ كثرةِ القائلين وعيونِهم.

واستَظْهَر ابنُ المنير أنَّ ذلك لأنَّ المحكيَّ كلامُ كلِّ واحدٍ من المتَّقين، فكأنه قيل: يقولُ كلُّ واحدٍ منهم: هَبْ لنا من أزواجنا وذرِّياتنا قرَّةَ أعيُنٍ[4].

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ٣٠٠.
(٢) الكشاف ٣/ ١٠٢.
(٣) الانتصاف ٣/ ١٠٢، والبحر ٦/ ٥١٧.
(٤) الانتصاف ٣/ ١٠٢.

فتدبَّر وتأمَّل في وجهِ اختيارِ هذا الجمع في غيرِ هذا الموضع مما لا يتأتَّى فيه ما ذكروه ها هنا.

وأنا أظنُّ أنه اختيرَ الأعيُنُ جمعاً للعين الباصرةِ، والعيونُ جمعاً للعين الجاريةِ، في جميع القرآن الكريم، ويخطر لي في وَجْهِ ذلك شيءٌ لا أظنُّه وجيهاً، ولعلك تفوزُ بما يُغْنيكَ عن ذِكْرِه، والله تعالى وليُّ التوفيق.

وقرأ طلحة وأبو عمرو وأهلُ الكوفة غيرَ حفصٍ: «وذرِّيتنا» على الإفراد[1].

وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة: «قُرَّات» على الجمع[2].

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدِّين، بإفاضةِ العلم، والتوفيقِ للعمل. و«إمام» يستعملُ مفرداً وجَمْعاً، كهِجان[3]، والمراد به هنا الجمعُ ليطابق المفعولَ الأولَ لجَعَلَ، واختير على: أئمة؛ لأنَّه أَوْفقُ بالفواصل السابقة واللاحقة.

وقيل: هو مفردٌ، وأُفْرِدَ مع لزوم المطابقة لأنه اسمُ جنسٍ، فيجوزُ إطلاقُه على معنى الجمع مجازاً بتجريده من قيد الوحدة. أو لأنه في الأصل مصدرٌ، وهو لكونه موضوعاً للماهية شاملٌ للقليل والكثير وَضْعاً، فإذا نُقل لغيره قد يُراعى أصلُه. أو لأنَّ المراد: واجْعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا. أو لأنهم كنفسٍ واحدةٍ لاتِّحادِ طريقتهم واتِّفاق كلمتهم.

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نَقْلِ ما ذُكر: أنَّ مدار التوجيه على أنَّ هذا الدعاءَ صَدَرَ عن الكلِّ على طريق المعيَّة وهو غيرُ واقعٍ، أو عن كلِّ واحدٍ [بطريقِ تشريكِ غيره] وهو غيرُ ثابتٍ، فالظاهرُ أنه صَدَرَ عن كلِّ واحدٍ قولُ: واجعلني للمتقين إماماً، فعبَّر عنهم للإيجاز بصيغة الجمع، وأبقى «إماماً» على حاله[4].

---

(١) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٧.

(٣) الهجان من الإبل: البيض والبيضاء. القاموس (هجن).

(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٣٨، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وتعقّب بأنَّ فيه تكلُّفاً وتعسُّفاً مع مخالفته للعربية، وأنه ليس مدارُه على ذلك، بل أنهم شُرِّكوا في الحكاية في لفظٍ واحدٍ لاتِّحادِ ما صَدَرَ عنهم مع أنه يجوز اختيارُ الثاني لأنَّ التشريك في الدعاء أَدْعَى للإجابة، فاعْرِفْ ولا تَغْفَلْ.

ورُوي عن مجاهدٍ أنَّ «إماماً» جمعُ آمٍّ بمعنى قاصدٍ، كصيامٍ جمع صائم، والمعنى: اجعلنا قاصدين للمتقين مقتدين بهم. وما ذُكر أوّلاً أقربُ كما لا يخفى.

وليس في ذلك ـ كما قال النخعيُّ ـ طلبٌ للرِّياسة، بل مجرَّد كونهم قدوةً في الدِّين وعلماءَ عاملين. وقيل: في الآية ما يدلُّ على أنَّ الرِّياسة في الدِّين مما ينبغي أن يُطْلَبَ.

وإعادةُ الموصولِ في المواقع السبعة مع كفايةِ ذِكْرِ الصِّلاتِ بطريقِ العطف على صلةِ الموصول الأول؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ مما ذُكر في حيِّز صلة الموصولات المذكورةِ وَصْفٌ جليلٌ على حياله له شأنٌ خطيرٌ حقيقٌ بأنْ يُفْرَدَ له موصوفٌ مستقلٌّ، ولا يُجْعَلَ شيءٌ من ذلك تتمةً لغيره. وتوسيطُ العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلافِ الذاتيِّ كما عرفْتَه فيما سبق غيرَ مرَّةٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فصِّل في حيِّز الصِّلاتِ من حيث اتِّصافُهم به، وفيه دلالةٌ على أنهم متميِّزون منتظِمون بسببه في سِلْكِ الأمور المشاهَدةِ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعْدِ منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأٌ خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

والجملةُ على الأقرب استئنافٌ لا محلَّ لها من الإعراب مبيِّنةٌ لِمَا لهم في الآخرة من السعادة الأبدية، إِثْرَ بيانِ ما لهم في الدنيا من الأعمال السنيَّة.

و«الغرفة»: الدرجة العالية من المنازل، وكلُّ بناءٍ مرتفع عالٍ. وقد فسِّرت هنا ـ على ما روي عن ابن عباس ـ ببيوتٍ من زبرجدٍ ودرٍّ وياقوت.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عن سهل بن سعدٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «فيها بيوتٌ من ياقوتةٍ حمراءَ أو زبرجدةٍ خضراءَ أو درَّةٍ بيضاءَ، ليس فيها فَصْمٌ ولا وَصْمٌ»(١).

(١) الدر المنثور ٥/ ٨١، وهو في نوادر الأصول ص٢٧٣ دون إسناد ودون ذكر الراوي. وورد

وقيل: أعلى منازلِ الجنة، ولا يأباه الخبرُ؛ لجوازِ أن تكون الغرفُ الموصوفةُ فيه هناك.

ورويَ عن الضَّحَّاك أنها الجنة. وقيل: السماءُ السابعة. وعلى تفسيرها بجمعٍ ـ ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وقرئ فيه: «في الغرفة»[1] ـ يكون المراد بها الجنسَ، وهو يطلقُ على الجمع كما سمعتَ آنفاً.

وإيثارُ الجمع هنالك ـ على ما قال الطيبيُّ ـ لأنها رتِّبتْ على الإيمان والعمل الصالح، ولا خفاءَ في تفاوُتِ الناس فيهما، وعلى ذلك تتفاوتُ الأجزية، وها هنا رتِّب على مجموع الأوصاف الكاملة، فلذا جيء بالواحد دلالةً على أنَّ الغرف لا تتفاوَتُ.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صَبْرِهم، على أنَّ الباء للسببية، و«ما» مصدريةٌ.

وقيل: هي للبدل كما في قوله:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شَنُّوا الإغارة فرساناً ورُكْباناً[2]

أي: بَدَلَ صبرِهم.

ولم يذكر متعلَّق الصبر ليعمَّ ما سلف من عبادتهم فِعْلاً وتَرْكاً وغيره من أنواع العبادة، والكلُّ مُدْمَجٌ فيه؛ فإنه إمَّا عن المعاصي، وإمَّا على الطاعات، وإمَّا على الله تبارك وتعالى وهو أعلى منهما، ويُعلَم من ذلك وجهُ إيثارِ «صبروا» على فعلوا.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: تُحيِّيهم الملائكةُ عليهم السلام، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامةِ عن الآفات. أو: يُحيِّي بعضُهم بعضاً ويدعو له بذلك. والمرادُ من الدعاء به التكريمُ وإلقاءُ السرورِ والمؤانَسة، وإلا فهو متحقِّقٌ لهم.

= نحوه ضمن حديث أنس ﷺ في مسند الحارث (١٩٦-زوائد)، ومسند البزار (٣٥١٩)، ومسند أبي يعلى (٤٢٢٨)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٥٩). والفصم: كسر الشيء من غير أن تفصله. والوصم: الصدع والعيب. الترغيب والترهيب ٤/ ٤٦٦.

(١) هي قراءة حمزة، كما في التيسير ص٢٨١، والنشر ٢/ ٣٥١.

(٢) البيت لقريط بن أنيف رجل من بَلْعَنْبر، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ١٠، والتذكرة السعدية ص٣٨، والخزانة ٦/ ٢٥٣.

أو يُعطَوْنَ[1] التبقيةَ والتخليدَ مع السَّلامة من كلِّ آفةٍ، فليس هناك دعاءٌ أصلاً.

وقرأ طلحةُ ومحمدٌ اليمانيُّ وأهلُ الكوفة غيرَ حفصٍ: «يَلْقَوْنَ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف[2].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يُخرجون، وهو حالٌ من ضمير «يُجزون»، أو من ضمير «يلقون».

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ مقابِلُ: «ساءتْ مستقرًّا» معنًى، ومِثْلُه إعراباً، فتذكَّرْ ولا تغفل.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأنْ يبيِّن للناس أنَّ الفائزين بتلك النَّعماءِ الجليلةِ التي يتنافس فيها المتنافسون إنَّما نالوها بما عدِّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتَّد بهم أصلاً، أي: قل للناس مُشافِهاً لهم بما صدر عن جنسهم من خيرٍ وشر ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: أيَّ عبءٍ يعبأُ بكم وأيَّ اعتدادٍ يعتدُّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: عبادتُكم له عزَّ وجلَّ حَسْبَما مرَّ تفصيلُه، فإنَّ ما خُلِقَ له الإنسانُ معرفةُ الله تعالى وطاعتُه جلَّ وعلا، وإلا فهو والبهائمُ سواءٌ، ف «ما» متضمِّنةٌ لمعنَى الاستفهامِ، وهي في محلِّ النصب، وهي عبارةٌ عن المصدر.

وأصلُ العبءِ: الثِّقْلُ، وحقيقةُ قولِهم: ما عبأْتُ به: ما اعْتَدَدْتُ له من فوادح همِّي وممَّا يكون عبأً عليَّ، كما تقول: ما اكترثْتُ له، أي: ما أَعْدَدْتُ له من كوارثي ومما يهمُّني.

وقال الزجَّاج: معناه: أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده تعالى لولا عبادتُكم[3].

ويجوز أن تكون «ما» نافيةً، أي: ليس يعبأ.

وأيًّا ما كان فجوابُ «لولا» محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه، أي: لولا دعاؤكم لمَا اعتدَّ بكم.

---

(١) في (م): ويعطون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٢، والكلام منه.

(٢) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥ عن حمزة والكسائي وأبي بكر وخلف، وذكرها عن طلحة واليماني أبو حيان في البحر ٦/ ٥١٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٨، وفيه: توحيدكم، بدل: عبادتكم.

وهذا بيانٌ لحالِ المؤمنين من المخاطَبين، وقولُه سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيانٌ لحالِ الكفرة منهم، والمعنى: إذا أعلمتُكم أنَّ حُكْمي أنِّي لا أعتدُّ بعبادي إلَّا لعبادتهم، فقد خالفتُم حكمي ولم تعملوا عَمَلَ أولئك المذكورين، فالفاءُ مثلُها في قوله:

فقد جئنا خراسانا[1]

والتكذيبُ مستعارٌ للمخالفة.

وقيل: المرادُ: فقد قصَّرْتُم في العبادة، على أنه من قولهم: كذب القتالَ، إذا لم يبالغ فيه، والأوَّلُ أَوْلَى وإن قيل: إنَّ المراد من التقصير في العبادة تَرْكُها.

وقرأ عبد الله وابن عباس وابن الزبير: «فقد كذَّبَ الكافرون»[2] وهو على معنى: كذَّب الكافرون منكم؛ لعموم الخطاب للفريقين على ما أشرنا إليه، وهو الذي اختاره الزمخشريُّ[3]، واستحسنه صاحبُ «الكشف».

واختار غيرُ واحد أنه خطاب لكفرة قريش، والمعنى عليه عند بعضٍ: ما يعبأ بكم لولا عبادتُكم له سبحانه، أي: لولا إرادتُه تعالى التشريعيةُ لعبادتكم له تعالى لَمَا عَبأ بكم ولا خَلَقكم، وفيه معنًى من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: المعنى: ما يعبأ بكم لولا دعاؤه سبحانه إيَّاكم إلى التوحيدِ على لسان رسوله ﷺ، أي: لولا إرادةُ ذلك.

وقيل: المعنى: ما يبالي سبحانه بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهةً. أو: ما يفعل بعذابكم لولا شِرْكُكم، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٨٠) من سورة البقرة، وتمامه:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٦، والبحر ٦/ ٥١٨، وهي في الكشاف ٣/ ١٠٣ دون نسبة.

(٣) في الكشاف ٣/ ١٠٣.

وقيل: المعنى: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه تعالى، وتضرُّعُكم إليه في الشدائد، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقيل: المعنى: ما خَلَقكم سبحانه وله إليكم حاجةٌ إلَّا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم، ورُوي هذا عن الوليد بن [أبي] الوليد رضي الله عنه[(١)].

وأنت تعلم أن ما آثره الزمخشريُّ لا ينافي كونَ الخطابِ لقريشٍ من حيث المعنى، فقد خصِّصَ بهم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيقُ بكم حتى يَكُبّكم في النار، كما يُعْرِبُ عنه الفاءُ الدالَّةُ على لزوم ما بعدها لِمَا قبلها، فضميرُ «يكون» لمصدرِ الفعل المتقدِّم بتقديرِ مضافٍ أو على التجوُّز، وإنما لم يصرِّح بذلك للإيذان بغاية ظهورِه وتهويل أمره، وللتنبيه على أنه مما لا يَكْتَنِهُه البيان.

وقيل: الضمير للعذاب، وقد صرَّح به مَن قرأ: «يكونُ العذابُ لزاماً»[(٢)]، وصحَّ عن ابن مسعود أنَّ اللِّزامَ قَتْلُ يوم بدر، ورُوي عن أبيٍّ ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي مالك. ولعل إطلاقَه على ذلك لأنه لوزِمَ فيه بين القتلى لزاماً.

وقرأ ابن جُرَيْجٍ: «تكون» بتاء التأنيث، على معنى: تكون العاقبةُ[(٣)].

وقرأ المنهال وأبان بن تغلب وأبو السمَّال: «لَزاماً» بفتح اللام مصدر لزم[(٤)]، يقال: لَزِمَ لُزوماً ولَزَاماً، كثَبَتَ ثُبوتاً وثَباتاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٥، وأبو الشيخ في العظمة(١٨٥)، وذكره عنهما السيوطي في الدر ٥/ ٨٢، وذكره أيضاً القرطبي في تفسيره ١٥/ ٤٩٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. والوليد بن أبي الوليد هو أبو عثمان المدني مولى ابن عمر، وقيل: مولى عثمان، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف على قلة روايته. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٢٧.

(٢) البحر ٦/ ٥١٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٨، وعنه نقل المصنف.

(٤) البحر ٦/ ٥١٨، والدر المصون ٨/ ٥٠٧ ووقع في الأصل و(م) ومطبوع البحر: أبان بن ثعلب، وهو خطأ.

ونَقَلَ ابنُ خالويه(١) عن أبي السمَّال أنه قرأ: «لَزَامِ» على وزن حَذَامِ، جَعَله مصدراً معدولاً عن اللَّزْمةِ، كفَجَارِ المعدولِ عن الفَجْرةِ، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: قيل: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ إشارةُ قصورِ حالِ المنكرين على أولياء الله تعالى، حيث شارَكوهم في لوازم البشرية من الأكل والشرب ونحوهما.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ إنَّ وجه فتنته النظرُ إليه نفسه، والغفلةُ فيه عن ربِّه سبحانه، ويُشْعِرُ هذا بأنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالى فتنةٌ من هذه الحيثية.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أطْلَعْناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا، فسقطوا من أعيننا بذلك، وجَعَلْنا أعمالهم هباءً منثوراً.

وهذه الآيةُ وإن كانت في وصف الكفار لكنْ في الحديث أنَّ في المؤمنين مَن يُجعل عملُه هباءً كما تَضمَّنَتْه، فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» والخطيب في «المتَّفق والمفترق» عن سالم مولى أبي حذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُجاءَنَّ يومَ القيامةِ بقومٍ معهم حسناتٌ مثل جبالِ تهامةَ، حتى إذا جيءَ بهم جَعَلَ الله تعالى أعمالَهم هباءً، ثم قَذَفَهم في النار» قال سالم: بأبي وأمي يا رسول الله، حَلِّ لنا هؤلاء القوم. قال: «كانوا يصومون ويصلُّون ويأخذون هَنَةً من الليل، ولكن كانوا إذا عُرِضَ عليهم شيءٌ من الحرام وثبوا عليه، فأدْحَضَ الله تعالى أعمالهم»(٢).

وذُكر في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ الآيةَ أنَّ حُكْمَه عامٌّ في كلٍّ متحابَّينِ

(١) في القراءات الشاذة ص١٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/٥١٨.
(٢) الحلية ١/١٧٨، والمتفق والمفترق ١/٥٢٧، وهو من طريق شيخ من الأنصار عن سالم به. وسالم رضي الله عنه قال ابن أبي حاتم: لا أعلم روي عنه شيءٌ. وذكر له ابن حجر في الإصابة ٤/١٠٤ حديثين هذا أحدهما، ثم قال: وفي السندين جميعاً ضعفٌ وانقطاع، فيحمل كلام ابن أبي حاتم على أنه لم يصح عنه شيء.

على معصية الله تعالى. وعن مالك بن دينار: نَقْلُ الأحجار مع الأبرار خيرٌ من أكل الخَبِيصِ(١) مع الفُجّار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنه يلزمُ من هذا مع قولهم: كلُّ وليٍّ على قدم نبيٍّ، أن يكون لكلِّ وليٍّ عدوٌّ يتظاهر بعداوته. وفيه إشارة إلى سوء حال مَن يفعل ذلك مع أولياء الله تعالى، ولذا قيل: إنَّ عداوتهم علامةُ سوءِ الخاتمة، والعياذُ بالله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ إشارةٌ إلى أنهم كانوا متوجِّهين إلى جهة الطبيعة، ولذا حُشروا منكوسين.

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنه عامٌّ في كلِّ مَن مال إلى هَوَى نفسِه، واتَّبعه فيما توجَّه إليه، ومن هنا دقَّق العارفون النظر في مقاصد أنفسهم، حتى إنهم إذا أَمرَتْهم بمعروفٍ لم يُسارِعوا إليه، وتأمَّلوا ماذا أرادتْ بذلك؟.

فقد حُكي عن بعضِهم أنَّ نفسه لم تَزَلْ تحثُّه(٢) على الجهاد في سبيل الله تعالى، فاستَغْربَ ذلك منها لعِلْمِه أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوء، فأَمْعنَ النظر فإذا هي قد ضَجِرَتْ من العبادة، فأرادَتِ الجهاد رجاءَ أن تُقْتَلَ فتستريحَ مما هي فيه من النَّصَبِ، ولم تَقْصِدْ بذلك الطاعةَ، بل قَصَدَتِ الفرارَ منها.

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآيةَ، أي: ألم تَرَ كيف مَدَّ ظلَّ عالَم الأجسام ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ في كتم العَدَم «ثم جعلنا» شمسَ عالَم الأرواح على وجودِ ذلك الظلِّ «دليلاً» بأنْ كانت محرِّكةً لها إلى غايتها المخلوقةِ هي لأجْلِها، فعُرِفَ من ذلك أنه لولا الأرواحُ لم تُخْلَقِ الأجساد.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مركَّبٍ فإنه سينحلُّ إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير. وبوجهٍ آخَرَ: الظلُّ ما سوى نورِ

---

(١) الخبيص: هو المعمول من التمر والسمن. القاموس (خبص).

(٢) في (م): تحسه.

الأنوار يُستدلُّ به على صانعه الذي هو شمسُ عالَمِ الوجود، وهذا شأنُ الذاهبينَ من غيره سبحانه إليه عزَّ وجلَّ.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ إشارةٌ إلى مرتبةٍ أعلى من ذلك، وهي الاستدلالُ به تعالى على غيره سبحانه، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذه مرتبةُ الصِّدِّيقين.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] و﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

وبوجهٍ آخَر: الظلُّ حجابُ الذهول والغفلةِ، والشمسُ شمسُ تجلِّي المعرفة من أُفق العناية عند صباح الهداية، ولو شاء سبحانه لجعله دائماً لا يزول، وإنما يستدل على الذهول بالعرفان.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الكشف التامَّ يحصل بالتدريج عند انقضاء مدة التكليف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تستترون به عن رؤيةِ الأجانب لكم واطِّلاعهم على حالكم من التواجُدِ وسَكْبِ العبرات. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً لأبدانكم من نَصَبِ المجاهدات ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ تنتشرون فيه لطلب ضرورياتكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي: رياحَ الاشتياق على قلوب الأحباب ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ من التجلِّيات والكشوف ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من سماء الكَرَم ماءَ حياةِ العرفان ﴿لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: قلوباً ميتةً ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ وهم الذين غَلَبتْ عليهم الصفاتُ الحيوانيةُ، يسقيهم سبحانه ليردَّهم إلى القيام بالعبادات ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ وهم الذين سَكَنوا إلى رياض الأنس، يسقيهم سبحانه من ذلك ليَفْطمهم عن مراضع الإنسانية إلى المشارب الروحانية.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الذي هو ماءُ حياةِ القلوب ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ به موطنهم الأصليَّ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بنعمة القرآن وما عَرَفوا قَدْرَها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحرَ الروح وبحرَ النفس ﴿هَٰذَا﴾ وهو بحر الروح ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ من الصفات الحميدة الربانية، ﴿وَهَٰذَا﴾ وهو بحرُ النفس ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾

من الصفات الذميمة الحيوانية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فحرامٌ على الروح أن يكون منشأَ الصفات الذميمة، وعلى النفس أن تكونَ معدنَ الصفاتِ الحميدة.

وذكر أنَّ البرزخ هو القلبُ. وقال[1] ابن عطاء: تلاطَمتْ صفتان فتلاقيتا في قلوب الخَلْق، فقلوبُ أهلِ المعرفة منوَّرةٌ بأنوار الهداية مضيئةٌ بضياء الإقبال، وقلوبُ أهل النكرة مظلمةٌ بظلمات المخالفةِ مُعْرِضةٌ عن سَنَنِ التوفيق، وبينهما قلوبُ العامَّة ليس لها علمٌ بما يَرِدُ عليها وما يَصْدُر منها، ليس معها خطابٌ ولا لها جواب.

وقيل: البحرُ العَذْبُ إشارةٌ إلى بحر الشريعة، وعذوبتُه لِمَا أنَّ الشريعة سهلةٌ لا حَرَجَ فيها، ولا دقَّةَ في معانيها، ولذلك صارت موردَ الخواصِّ والعَوامِّ، والبحرُ المِلْحُ إشارةٌ إلى بحر الحقيقة، وملوحتُه لِمَا أنَّ الحقيقة صعبةُ المسالك لا يكاد يدرِكُ ما فيها عقلُ السالك، والبرزخُ إشارةٌ إلى الطريقة فإنها ليست بسهلةٍ كالشريعة ولا صعبة كالحقيقة، بل بيْنَ بين.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قيل: هو إشارةٌ إلى أنه سبحانه جَعَل في سماء القلوب بروجَ المنازل والمقامات، وهي اثنا عشر: التوبةُ، والزهدُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكُّلُ، والصبرُ، والشكرُ، واليقينُ، والإخلاصُ، والتسليمُ، والتفويضُ، والرضا. وهي منازلُ الأحوال السَّيَّارة: شمس التجلِّي، وقمر المشاهَدةِ، وزهرة الشوق، ومشتري المحبة، وعطارد الكشوف، ومرِّيخ الفناء، وزُحَل البقاء.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بغير فخرٍ ولا خُيَلاءَ؛ لِمَا شاهدوا من كبرياء الله تعالى وجلاله جلَّ شأنُه.

وذكر بعضهم أنَّ هؤلاء العباد يعامِلون الأرض معاملةَ الحيوان لا الجماد، ولذا يمشون عليها هوناً.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وهم أبناءُ الدنيا ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: سلامةً من الله تعالى من شرِّكم.

(١) في الأصل: قال.

أو: إذا خاطبهم كلٌّ ما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم، وتعرَّضَ لهم ليشغلهم عمَّا هم فيه «قالوا سلاماً» سلامَ متاركةٍ وتوديع.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ لِمَا علموا أنَّ الصلاة معراجُ المؤمن، والليل وقتُ اجتماعِ المحبِّ بالحبيب:

نهاري نهارُ الناس حتى إذا بدا ... لي الليل هزَّتْني إليكِ المضاجعُ
أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهمَّ بالليل جامعُ[1]

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى مزيدِ خوفهم من القطيعة والبُعْدِ عن محبوبهم، وذلك ما عَنَوْه بعذاب جهنم لا العذابُ المعروف، فإنَّ المحبَّ الصادقَ يستَعْذِبُه مع الوصال، ألا تسمعُ ما قيل:

فليت سُلَيْمَى في المنام ضجيعتي ... في جنة الفردوس أو في جهنَّمِ[2]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ فيوضاتهم حَسبَ قابلية المُفاضِ عليه، لا يُسرفون فيها بأنْ يُفيضوا فوق الحاجة، ولا يَقْتُرون بأنْ يُفيضوا دون الحاجة. أو إلى أنهم إذا أنفقوا وجودَهم في ذات الله تعالى وصفاته جلَّ شأنُه، لم يبالغوا في الرياضة إلى حدِّ تَلَفِ البدن، ولم يَقْتُروا في بَذْلِ الوجود بالرُّكون إلى الشهوات.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ برَفْعِ حوائجهم إلى الأغيار ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَتْلَها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بسَطْوةِ تجلِّياته تعالى ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بالتصرُّف في عجوز الدنيا، ولا ينالون منها شيئاً إلا بإذنه تعالى.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يحضرون مجالسَ الباطل من الأقوال والأفعال ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو ما لا يقرِّبهم إلى محبوبهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ مُعْرِضين عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل أقبلوا عليها بالسمع والطاعة، مشاهِدينَ بعيون قلوبهم أنوارَ ما ذُكِّروا به من كلام ربِّهم.

---

(١) البيتان لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٨٥.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٠٣، وعجزه برواية:

لدى الجنة الخضراء أو في جهنم

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ مَن ازْدَوجَ معنا وصَحِبَنا ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ الذين أخذوا عنَّا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بأن يوفَّقوا للعمل الصالح ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهم الفائزون بالفناء والبقاء الأتمَّيْن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهو مقامُ العِنْدية ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ في البداية على تكاليف الشريعة، وفي الوسط على التأدُّب بآداب الطريقة، وفي النهاية على ما تقتضيه الحقيقة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ هي أُنسُ الأسرار بالحيِّ القيوم ﴿وَسَلَٰمًا﴾ وهو سلامةُ القلوب من خطور[1] القطيعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ لأنها مشهدُ الحقِّ ومحلُّ رضا المحبوب المطلق.

نسألُ الله تعالى أن يمنَّ علينا برضائه ويمنحَنا بسوابغ نعمائه وآلائه بحرمةِ سيدِ أنبيائه وأحبِّ أحِبَّائه صلى الله تعالى عليه وسلم وشرَّف قَدْرَه وعظَّم.

---

(١) في الأصل: حظور، وهو تحريف.